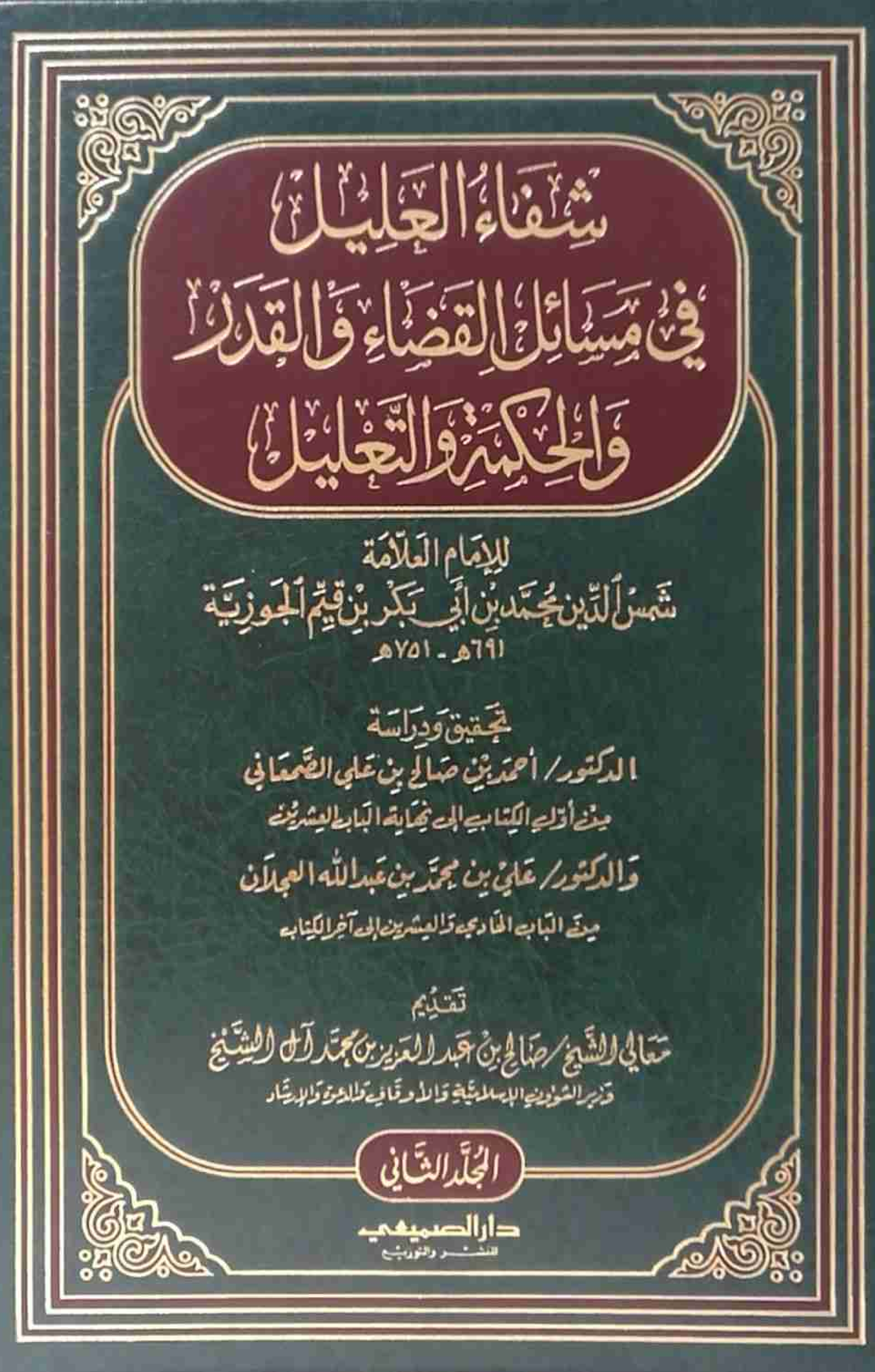


شفاء العليل
في مسائل القضاء والقدر
والحكمة والتعليل
للإمام العلامة
شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية
٦٩١هـ - ٧٥١هـ
تحقيق ودراسة
الدكتور/ أحمد بن صالح بن علي الصمعاني
من أول الكتاب إلى نهاية الباب العشرين
والدكتور/ علي بن محمد بن عبد الله العجلان
من الباب الحادي والعشرين إلى آخر الكتاب
تقديم
معالي الشيخ/ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ
وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
المجلد الثاني
دار الصميعي
للنشر والتوزيع

شِفَاءُ العَلِيلِ فِي مَسَائِلِ القَضَاءِ وَالقَدَرِ وَالحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ

للإمام العلّامة

شَمس الدِّين مُحَمَّد بن أبي بَكر بن قَيِّم الجوزِيَّة

٦٩١هـ - ٧٥١هـ

مِن أوّلِ الكِتَابِ إلى نِهَايةِ البَابِ العِشرِين - تحقيقاً ودراسة

تحقيق ودراسة

الدكتور/ أحمد بن صالح بن علي الصَّمعاني

المُجَلَّد الثَّاني

دار الصميعي

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ ـ ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١

المركز الرئيس : الرياض ـ شارع السويدي العام

ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢

المملكة العربية السعودية

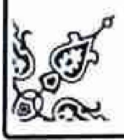
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (بن عثيمين) يرحمه الله

هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

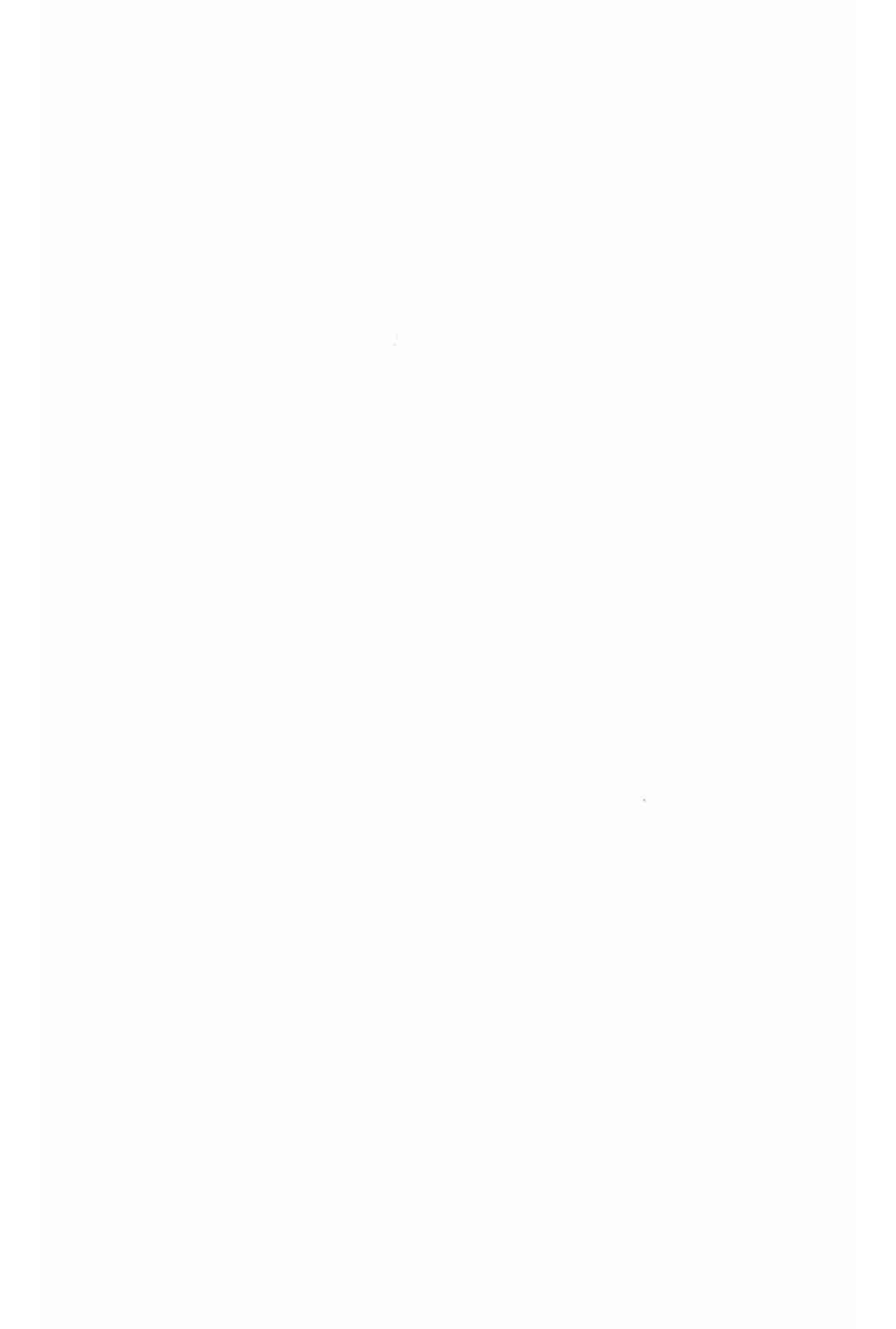


الباب الثالث عشر

في ذكر المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر وهي مرتبة خلق الله سبحانه للأعمال وتكوينه وإيجاده لها







الباب الثالث عشر
في ذكر المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر
وهي: مرتبة خلق الله سبحانه (للأعمال)[١]
وتكوينه وإيجاده لها

وهذا أمر متفق عليه بين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وعليه اتفقت الكتب الإلهية ودلت (عليه أدلة)[٢] العقول والفطر والاعتبار، وخالف في ذلك مجوس الأمة، فأخرجت طاعات ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين - وهي أشرف ما في العالم - عن ربوبيته وتكوينه ومشيئته، بل جعلوهم هم (الخالقون)[٣] لها ولا تعلق لها بمشيئته، ولا تدخل تحت قدرته، وكذلك قالوا في جميع أفعال الحيوانات الاختيارية. فعندهم أنه سبحانه لا يقدر أن يهدي ضالاً، ولا يضل مهتدياً، ولا يقدر أن يجعل المسلم مسلماً، والكافر كافراً، والمصلي مصلياً، وإنما ذلك بجعلهم أنفسهم كذلك، لا بجعله تعالى[٤].

وقد نادى القرآن بل الكتب السماوية كلها والسنة وأدلة التوحيد والعقول على بطلان قولهم، وصاح بهم أهل العلم والإيمان من أقطار الأرض، وصنف (برك)[٥] الإسلام وعصابة الرسول وعسكره التصانيف في الرد

---

(١) في م، ع، د، س: الأعمال.

(٢) ما بين القوسين ساقط من م، ع، د، س.

(٣) هكذا في جميع النسخ الخطية، ويكون إعرابها على أنها خبر والمبتدأ (هم)، والأولى (الخالقين) كما في المطبوعة (د) حيث إنه مفعول ثان لجعل، (وهم) ضمير فصل.

(٤) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص(٣٢٣) ومقالات الإسلاميين ص(٢٢٧-٢٢٨) والملل والنحل (١/ ٤٥، ٤٧، ٦٦، ٧٢).

(٥) في د، س: حزب. والبرك: وهي إبل أهل الحواء كلها التي تروح عليهم بالغة ما بلغت، =

عليهم، وهي أكثر من أن يحصيها إلا الله، ولم تزل أيدي السلف وأئمة السنة في أقفيتهم، ونواصيهم تحت أرجلهم، إذ كانوا يردون باطلهم بالحق المحض، وبدعتهم بالسنة، والسنة لا يقوم لها شيء، فكانوا معهم كالذمة مع المسلمين، إلى أن (نبغت)[1] نابغة ردوا بدعتهم ببدعة تقابلها، وقابلوا باطلهم بباطل من جنسه، وقالوا : العبد مجبور على (أفعاله)[2] مقهور عليها، لا تأثير له في وجودها البتة، (ولا)[3] هي واقعة بإرادته واختياره، وغلا غلاتهم، فقالوا: ٥٢أ بل هي عين أفعال / الله، ولا تنسب إلى العبد إلا على (وجه)[4] المجاز، والله سبحانه وتعالى يلوم العبد ويعاقبه ويخلده في النار على ما لم يكن للعبد فيه صنع، ولا هو فعله، بل هو محض فعل الله[5].

وهذا قول الجبرية، وهو إن لم يكن شراً من (قول)[6] القدرية، فليس هو بدونه في البطلان، وإجماع الرسل واتفاق الكتب الإلهية وأدلة العقول والفطر والعيان تكذب هذا القول وترده.

= وإن كانت ألوفاً ، أو جماعة الإبل الباركة، أو الكثيرة. انظر القاموس المحيط (ص١٢٠٤) مادة (برك) .

(١) في ع : بلغت .

(٢) في م : أفعال له . وفي ع : أفعال .

(٣) ساقطة من د، س .

(٤) ساقطة من ع، د، س .

(٥) انظر مقالات الإسلاميين ص (٢٧٩)، والملل والنحل (١/ ٨٥، ٨٧)، واعتقادات فرق المسلمين ص (٦٨)، والأربعين في أصول الدين للغزالي ص (٨) ط الأولى ١٤٠٩هـ ، نشر دار الكتب العلمية، بيروت .

(٦) ساقطة من ع، د، س .

والطائفتان في عمى عن الحق (القويم)[١] (والصراط)[٢] المستقيم. ولما رأى[٣] القاضي[٤] وغيره بطلان هذا القول (ومناقضته)[٥] للشرائع والعدل (والحكمة)[٦] قالوا: قدرة العبد وإن لم تؤثر (في)[٧] وجود الفعل، فهي مؤثرة في صفة من صفاته، وتلك الصفة تسمى كسباً، وهي متعلق الأمر والنهي والثواب والعقاب، فإن الحركة التي هي (من)[٨] طاعته، والحركة التي هي (من)[٩] معصيته قد (اشتركتا)[١٠] في نفس الحركة، وامتازت (إحداهما)[١١] عن الأخرى بالطاعة والمعصية، فذات الحركة ووجودها واقع بقدرة الله

---

(١) ساقطة من م، ت.

(٢) ساقطة من م.

(٣) في هامش ع تعليق نصه (أبو بكر الباقلاني).

(٤) هو: أبو بكر، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، ابن الباقلاني، قاض من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة، وسكن بغداد وتوفي بها سنة ٤٠٣هـ. له مؤلفات كثيرة منها: إعجاز القرآن، والإنصاف، والاستبصار، والتمهيد، وغيرها. سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٩٠) تاريخ بغداد (٣/ ٢٩٤)، وفيات الأعيان ١/ ٤٨١).

(٥) في ع، د، س: وتناقضه.

(٦) في ع، د، س: والجبلة.

(٧) ساقطة من م، ع.

(٨) ساقطة من م، ع.

(٩) ساقطة من م، ت.

(١٠) في ع، د، س: اشتركا.

(١١) في ع، م: أحدهما.

وإيجاده، وكونها طاعة ومعصية واقع بقدرة العبد وتأثيره [١] .

وهذا وإن كان أقرب إلى الصواب، فالقائل به لم يوفه حقه، فإن كونها طاعة ومعصية هو موافقة الأمر ومخالفته، فهذه الموافقة والمخالفة إما أن تكون فعلاً للعبد يتعلق بقدرته واختياره (أو لا تكون كذلك، فإن كان الأول ثبت أن فعل العبد واقع بقدرته واختياره)[٢]، وإن كان (الثاني)[٣] لم يكن للعبد (اختيار)[٤]، ولا فعل ولا كسب البتة، فلم يثبت هؤلاء من الكسب أمراً معقولاً، ولهذا يقال: (محالات)[٥] الكلام ثلاثة: كسب الأشعري[٦]، وأحوال[٧]

(١) انظر : الإنصاف للباقلاني ص (٤٠-٤١) تعليق محمد زاهد الكوثري، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة. والمطالب العالية (٩/ ٩، ١٠) والمواقف ص (٣١١-٣١٢) والمحصل للرازي ص (٤٥٥) تحقيق د. حسين أتاي ط الأولى ١٤١١هـ نشر مكتبة دار التراث بالقاهرة. والملل والنحل (١/ ٩٧-٩٨) .

(٢) ما بين القوسين ساقط من ع، د، س .

(٣) ساقطة من ع، د، س .

(٤) في ع : اختياراً .

(٥) في م : من محالات .

(٦) الكسب عند الأشاعرة : ما وقع بقدرة محدثة، وهذه القدرة لا أثر لها في إيجاد الفعل، وإنما هو اقتران عادي، بحيث إن الله سبحانه أجرى سنته بأن يحقق هذا الفعل عقيب القدرة الحادثة. انظر مقالات الإسلاميين ص (٥٣٩) والمطالب العالية (٩/ ١٠) والملل والنحل (١/ ٩٧) . وإثبات قدرة لا أثر لها، إنما هو نفي للقدرة أصلاً، ولهذا قيل عن كسب الأشعري هذا إنه من الأمور التي لا تعقل . وانظر ص (٦١١) من هذا الكتاب، فقد ذكر المؤلف تعريف الأشاعرة للكسب .

(٧) الأحوال : جمع حال، وهو الواسطة بين الموجود والمعدوم، وبه يقول أبو هاشم ابن الجبائي من المعتزلة. وبه قالت الأشعرية، حيث قالوا: إن هاهنا أحوالاً ليست حقاً ولا =

أبي هاشم[(١)] وطفرة النظام[(٢)].

ولما رأى طائفة فساد هذا قالوا: المؤثر في وجود الفعل هو قدرة الرب على سبيل الاستقلال (وقدرة العبد على سبيل الاستقلال)[(٣)][(٤)].

= باطلاً، ولا هي مخلوقة ولا غير مخلوقة، ولا هي موجودة ولا معدومة، ولا هي معلومة ولا هي مجهولة، ولا هي أشياء ولا هي لا أشياء، وقالوا: من ذلك علم العالم بأن له علماء ووجوده لوجوده. وفناء الفاني، وظهور الظاهر، وذلك لأنه يلزم منه وجود أشياء لا نهاية لها. انظر تفصيل ذلك في الفصل في الملل والأهواء والنحل (٥/ ٤٩) نشر دار الفكر، بيروت سنة ١٤٠٠هـ.

(١) أبو هاشم هو: عبد السلام بن أبي علي محمد الجبائي بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حمران بن أبان، مولى عثمان بن عفان. من كبار المعتزلة. ولد سنة ٢٤٧هـ. أخذ عن والده، وإليه تنسب فرقة البهشمية من المعتزلة، له مصنفات منها: الجامع الكبير، والمسائل العسكرية، وغيرها. توفي سنة (٣٢١هـ) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٦٣-٦٤) والملل والنحل (١/ ٧٨-٨٤).

(٢) نسبة إلى إبراهيم النظام، حيث نسب إليه قوم من المتكلمين أنه قال: إن المار على سطح الجسم يسير من مكان إلى مكان، بينهما أماكن لم يقطعها هذا المار، ولا مر عليها، ولا حاذاها، ولا حل فيها. انظر الفصل (٥/ ١٨٩). والفرق بين الفرق ص ١٢٤.

والنظام هو: إبراهيم بن سيار بن هاني البصري، أبو إسحاق النظام، من أئمة المعتزلة، وإليه تنسب طائفة النظامية، إحدى طوائف المعتزلة، تتلمذ على أبي الهذيل العلاف، وكان شاعراً وفقيهاً وفيلسوفاً. توفي سنة ٢٣١هـ. سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٤١-٥٤٢). الأعلام (١/ ٤٣).

(٣) ما بين القوسين ساقط من ع، د، س.

(٤) انظر المواقف للإيجي ص (٣١٢) والمحصل للرازي ص (٤٥٥) والمطالب العالية للرازي (٩/ ١٠).

قالوا : لا يمتنع اجتماع (المؤثرين)[١] على أثر واحد. ولم يستوحش هؤلاء من القول بقول مفعول بين فاعلين، ولا مقدور بين قادرين / قالوا : كما ٥٢ب (لم)[٢] يمتنع وقع معلوم بين عالمين، ومراد بين مريدين، ومحبوب بين محبين ومكروه بين كارهين .

قالوا : ونحن نشاهد قادرين مستقلين، كل منهما يمكنه أن يستقل بالفعل يقع بينهما مفعول واحد يشتركان في فعله والتأثير فيه .

قالوا : وليس معكم ما يبطل هذا إلا قولكم: إن إضافته إلى أحدهما على سبيل الاستقلال تمنع إضافته إلى الآخر، (فإضافته)[٣] إليهما (تمنع إضافته إليهما)[٤] .

وهذه الحجة (فيها)[٥] إجمال لابد (من)[٦] (تفصيله)[٧] فيجوز وقوع مفعول بين فاعلين لا يستقل أحدهما به، كالمتعاونين على الأمر لا يقدر عليه أحدهما وحده، ويجوز وقوع مفعول بين فاعلين[٨] كل منهما يستقل به على سبيل البدل، وهذا ظاهر أيضاً .

ويجوز وقوع مفعول بين فاعلين يشتركان فيه، وكل منهما يقدر عليه حال

---

(١) في ت : المؤثر .

(٢) في ت، م ، ع : مكروهين .

(٣) في ع، د، س : وإضافته .

(٤) ما بين القوسين ساقط من ع، د، س .

(٥) ساقطة من ع، د، س .

(٦) في د، س : له من .

(٧) في ع، د، س : تفصيل .

(٨) في ع، د، س : زيادة : يشتركان فيه .

الانفراد، كمحمول يحمله اثنان كل منهما يمكنه أن يستقل بحمله وحده .

فكل هذه الأقسام ممكنة بل واقعة، بقي قسم واحد وهو مفعول بين فاعلين، كل منهما على سبيل الاستقلال، فهذا محال، فإن استقلال كل منهما بفعله، ينفي فعل الآخر له، فاستقلالهما ينافي استقلالهما. وأكثر الطوائف تقر بوقوع مقدور بين قادرين وإن اختلفوا في كيفية وقوعه .

فقالت طائفة : الفعل يضاف إلى قدرة الله سبحانه على وجه الاستقلال بالتأثير، ويضاف إلى قدرة العبد، لكنها غير مستقلة، فإذا انضمت قدرة الله على قدرة العبد صارت قدرة العبد مؤثرة على سبيل الاستقلال بتوسط إعانة قدرة الله وجعل قدرة العبد مؤثرة [١] .

والقائل بهذا لم يتخلص من الخطأ؛ حيث زعم أن قدرة العبد مستقلة بإعانة قدرة الله له، فعاد الأمر إلى اجتماع مؤثرين على أثر واحد، لكن قدرة أحدهما وتأثيره مستند إلى قدرة الآخر/ وتأثيره، وكأنه – والله أعلم – أراد ١٥٢أ أن قدرة الرب تعالى مستقلة بالتأثير في إيجاد (قدرة العبد، ثم قدرة العبد مستقلة بالتأثير في إيجاد)[٢] الفعل. وهذا قد قاله طائفة من (العقلاء)[٣] .

وقائل هذا لم يتخلص من الخطأ، حيث جعل قدرة العبد مستقلة بالتأثير في إيجاد المقدور، وهذا باطل، إذ غاية قدرة العبد أن تكون سبباً، بل جزءاً من السبب، والسبب لا يستقل بحصول المسبب ولا يوجبه، وليس في الوجود ما يوجب حصول المقدور إلا مشيئة الله وحده .

---

(١) وبهذا قال أبو إسحاق الإسفراييني . انظر المطالب العالية من العلم الإلهي للرازي (٩/ ١١) .

(٢) ما بين القوسين ساقط من ع، د، س .

(٣) في ع، د، س : العلماء .

وأصحاب هذا القول زعموا أن الله سبحانه أعطى العبد قدرة وإرادة، وفوض إليه بهما الفعل والترك، وخلاه وما يريد، فهو يفعل ويترك بقدرته وإرادته اللتين فوض إليه الفعل والترك بهما .

وقالت طائفة أخرى: مقدور العبد هو عين مقدور الرب، بشرط أن يفعله العبد إذا تركه الرب ولم يفعله، لا على أنه يفعله والرب له فاعل، لاستحالة خلق بين خالقين، وهذا (هو)[١] بعينه مذهب من يقول بوقوع مفعول بين فاعلين على سبيل (البدل)[٢] . (وهذا)[٣] مذهب كثير من القدرية، منهم الشحام[٤] وغيره[٥] .

وقالت طائفة : يجوز وقوع فعل بين فاعلين بنسبتين مختلفتين، (أحدهما)[٦] يكون محدثاً، (والآخر)[٧] يكون كاسباً. وهذا مذهب النجار[٨]

---

(١) ساقطة من ع، د، س .

(٢) ساقطة من ع، د .

(٣) في ت : وهو .

(٤) هو : يوسف بن عبد الله ، أبو يعقوب الشحام، من أهل البصرة، كان رئيس المعتزلة في أيامه، أخذ عن أبي الهذيل العلاف، ومن تلاميذه أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي، ولي الخراج في أيام الواثق، وكان من أحذق الناس بالجدل، وله كتاب في تفسير القرآن، توفي نحو سنة ٢٨٠هـ وعمره ثمانون سنة. سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٥٢) والفرق بين الفرق ص (١٦٣) ولسان الميزان (٦/ ٣٢٥) .

(٥) انظر مقلات الإسلاميين ص (١٩٩) .

(٦) في د، س : بإحداهما .

(٧) في د، س : وبالأخرى .

(٨) هو : أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله النجار، رأس الفرقة النجارية من المعتزلة، وإليه تنسب، كان حائكاً، وقيل : كان يعمل الموازين، وهو من متكلمي المجبرة، وله مع =

وضرار بن عمرو[١]، ومحمد بن[٢] (عيسى وحفص[٣])[٤][٥] .

والفرق بين هذه المذاهب، ومذهب (الأشعري)[٦] من وجهتين:

أحدهما: أن (أصحاب)[٧] هذا المذهب (يقولون)[٨]: العبد فاعل حقيقة، وإن لم يكن محدثاً مختاراً للفعل، والأشعري يقول: العبد ليس بفاعل وإن

= النظام عدة مناظرات، له كتب ؛ منها: إثبات الرسل، وكتاب القضاء والقدر، وغيرهما. توفي سنة ٢٢٠هـ . سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٥٤) والأعلام (٢/ ٥٥٣) .

(١) هو : ضرار بن عمرو الغطفاني، من رؤوس المعتزلة، شيخ الضرارية، طمع برئاسة المعتزلة في بلده فلم يدركها، فخالفهم، فكفروه، وصنف نحو ثلاثين كتاباً بعضها في الرد عليهم وعلى الخوارج، وفيها ما هو مقالات خبيثة. سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٤٤-٥٤٦) وميزان الاعتدال (٢/ ٣٢٨-٣٢٩). والفرق بين الفرق ص(٢٠١) والأعلام (٣/ ٢١٥) .

(٢) هو : أبو عبد الله محمد بن عيسى، الملقب برغوث رأس البدعة، أحد من كان يناظر الإمام أحمد في وقت المحنة. وإليه تنسب فرقة البرغوثية إحدى فرق المعتزلة. صنف كتاب (الاستطاعة)، وكتاب (المقالات) وغيرهما، قيل: توفي سنة أربعين ومائتين، وقيل : سنة إحدى وأربعين ومائتين، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٥٤). والفرق بين الفرق ص(١٩٧).

(٣) في ع، د، س ك عيسى بن حفص .

(٤) هو : أبويحيى: حفص الفرد البصري، المصري، من أصحاب أبي يوسف، ومن أتباع ضرار بن عمرو، سمع من أبي الهذيل العلاف، من كتبه: كتاب الاستطاعة، وكتاب التوحيد وغيرهما. لسان الميزان (٢/ ٣٣٠-٣٣١) .

(٥) انظر مقالات الإسلاميين ص (٤٠٨، ٥٤٠، ٥٦٦) . والملل والنحل (١/ ٨٨-٨٩، ٩٠-٩١) .

(٦) في ع، د، س : الأشعريين .

(٧) في ع، د، س : صاحب .

(٨) في ع، د، س : يقول .

نسب إليه الفعل، وإنما الفاعل في الحقيقة هو الله، فلا فاعل سواه.

الثاني : أنهم يقولون: الرب هو المحدث، والعبد هو الفاعل .

وقالت فرقة : بل أفعال العباد فعل (الله)[١] على الحقيقة، وفعل العبد على المجاز. وهذا أحد قولي الأشعري .

وقالت فرقة أخرى، منهم القلانسي[٢] ، وأبو إسحاق[٣] في بعض كتبه: إنها فعل (الله)[٤] على الحقيقة وفعل (الإنسان)[٥] على الحقيقة، لا معنى أنه أحدثها، بل على معنى أنها كسب له[٦] .

---

(١) في ع، د، س : لله .

(٢) ذكر ابن عساكر في (تبيين كذب المفتري ص ٣٩٨) نشر مطبعة التوفيق بدمشق سنة ١٣٤٧هـ. القلانسي، فقال: أبو العباس أحمد بن عبدالرحمن بن خالد القلانسي الرازي، من معاصري أبي الحسن الأشعري رحمه الله، لا من تلامذته، كما قال الأهوازي. وهو من جلة العلماء الكبار الأثبات. واعتقاده موافق لاعتقاد (الأشعري) في الإثبات أ.هـ . وهو من أصحاب عبد الله بن سعيد بن كلاب . انظر التدمرية لابن تيمية ص (١٩١) ، والفرق بين الفرق ص ١١٥، ١٤٥، ٣٤٤ .

(٣) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني، الفقيه، المتكلم، الأصولي الشافعي، الملقب: ركن الدين، شيخ أهل خراسان، سمع من دعلج السجزي، وعبد الخالق بن أبي روبا، وعدة . حدث عنه : البيهقي وطائفة، وكان ثقة ثبتاً في الحديث، مات بنيسابور يوم عاشوراء من سنة ٤١٨هـ ، وقد نيف على الثمانين. له مؤلفات منها: الحلى في أصول الدين، والرد على الملحدين. سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٥٣) والعبر (٣/ ١٢٨) وطبقات الشافعية للسبكي (٣/ ١١١) .

(٤) في م ، د، س : لله .

(٥) في م ، للإنسان .

(٦) انظر المواقف للإيجي ص (٣١١) والمحصل للرازي ص (٤٥٥) والإنصاف للباقلاني ص (١٢٧) .

وقالت طائفة أخرى: وهم/ جهم[1] وأتباعه: إن القادر على الحقيقة هو ٥٣ب الله وحده، وهو الفاعل حقاً، ومن سواه ليس بفاعل على الحقيقة ولا كاسب أصلاً، بل هو مضطر إلى جميع ما فيه من حركة وسكون، وقول القائل: قام وقعد، وأكل وشرب، مجاز بمنزلة (قوله)[2] مات وكبر ووقع، وطلعت الشمس وغربت، وهذا قول الجبرية الغلاة[3].

وقابله طائفة أخرى، فقالوا: العباد موجدون لأفعالهم، مخترعون لها (بقدرتهم)[4] وإرادتهم، والرب تعالى لا يوصف بالقدرة على مقدور العبد، ولا تدخل أفعالهم تحت قدرته، كما لا يوصف العباد بمقدور الرب، ولا تدخل أفعاله تحت قدرهم. وهذا قول جمهور القدرية، وكلهم متفقون على

---

(١) هو: جهم بن صفوان السمرقندي، أبو محرز الراسبي، مولاهم، رأس الجهمية، وإليه تنسب، قال الذهبي: الضال المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان أصغر التابعين، وما علمته روى شيئاً، ولكنه زرع شراً عظيماً. قيل: إن سلم بن أحوز قتله لإنكاره أن الله تعالى كلَّم موسى. وذلك في سنة ١٢٨هـ، وكان يقول: إنه لا يجوز وصف الباري تعالى بصفة يوصف به خلقه، لأن ذلك يقضي تشبيهاً. فنفى كونه حياً عالماً. وأثبت كونه قادراً خالقاً، لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والخلق. وإن الإنسان مجبور في أفعاله، وأن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلها فيهما، وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط، وأنه لا ينقسم إلى: عقد، وقول، وعمل، وأنه لا يتفاضل أهله فيه. انظر سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٦-٢٧). وميزان الاعتدال (١/ ٤٢٦) والملل والنحل (١/ ٨٦-٨٨). والفرق بين الفرق ص (١٩٩).

(٢) ساقطة من ع، د، س.

(٣) انظر الملل والنحل (١/ ٨٧) والفرق بين الفرق ص (١٩٩).

(٤) في م، ع، د، س: بقدرهم.

أن الله سبحانه غير فاعل لأفعال العباد[١]، واختلفوا: هل يوصف بأنه مخترعها ومحدثها، وأنه قادر عليها، وخالق لها؟ فجمهورهم نفوا ذلك[٢]، ومن يقرب منهم إلى السنة أثبت كونها مقدورة لله، وأن الله سبحانه قادر على أعيانها، وأن العباد أحدثوها بإقدار الله لهم على إحداثها. وليس معنى قدرة الله عليها عندهم أنه قادر على فعلها، هذا عندهم عين المحال، بل قدرته عليها إقدارهم على إحداثها، فإنما أحدثوها بقدرته واقتداره وتمكينه، وهؤلاء أقرب القدرية إلى السنة[٣].

وأرباب هذه المذهب مع كل طائفة منهم خطأ وصواب (وبعضهم أقرب إلى الصواب)[٤] وبعضهم أقرب إلى الخطأ، وأدلة كل منهم وحججه إنما تنهض على بطلان خطأ الطائفة الأخرى، لا على إبطال ما أصابوا فيه، فكل دليل صحيح للجبرية إنما يدل على إثبات قدرة الرب تعالى ومشيئته، وأنه لا خالق غيره، وأنه على كل شيء قدير، ولا يستثنى من هذا العموم فرد واحد من أفراد (الممكنات)[٥]، وهذا حق ولكن ليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون العبد قادراً مريداً فاعلاً بمشيئته وقدرته، وأنه هو الفاعل حقيقة وأفعاله قائمة به، وأنها / فعل له لا لله، وأنها قائمة به لا بالله. وكل دليل صحيح يقيمه القدرية فإنما يدل على أن أفعال العباد فعل لهم قائم بهم بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم، وأنهم مختارون لها غير مضطرين ولا مجبورين.

١٥٤أ

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين ص (٢٧٧) والفرق بين الفرق ص (٩٤).

(٢) انظر مقالات الإسلاميين ص (٥٣٩).

(٣) انظر مقالات الإسلاميين ص (١٩٩-٢٠٠).

(٤) ما بين القوسين ساقط من ع، د.

(٥) في م، ت: الكتاب.

وليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون الله سبحانه قادراً على أفعالهم، وهو الذي جعلهم فاعلين.

فأدلة الجبرية متضافرة صحيحة على من نفى قدرة الرب تعالى على كل شيء من الأعيان والأفعال، ونفى عموم مشيئته وخلقه لكل موجود، وأثبت في الوجود شيئاً بدون مشيئته وخلقه. وأدلة القدرية متضافرة صحيحة على من نفى فعل العبد وقدرته ومشيئته واختياره، وقال: إنه ليس بفاعل شيئاً، والله يعاقبه على ما لم يفعله ولا له قدرة عليه، بل هو مضطر إليه مجبور عليه.

وأهل السنة وحزب الرسول وعسكر الإيمان لا مع هؤلاء، ولا مع هؤلاء، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، وكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه، وهم برآء من باطلهم، فمذهبهم جمع حق الطوائف بعضه إلى بعض، والقول به ونصره وموالاة أهله من ذلك الوجه (ونفي باطل كل طائفة من الطوائف وكسره، ومعاداة أهله من هذا الوجه)[1]، فهم حكام بين الطوائف، لا يتحيزون إلى فئة منهم على الإطلاق، ولا يردون حق طائفة من الطوائف، ولا يقابلون بدعة ببدعة، ولا يردون باطلاً بباطل، ولا يحملهم شنآن قوم يعادونهم ويكفرونهم على أن لا يعدلوا فيهم، بل يقولون فيهم الحق، ويحكمون في مقالاتهم بالعدل، والله سبحانه تعالى أمر رسوله أن يعدل بين الطوائف فقال: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾[2]. فأمره سبحانه أن يدعو إلى دينه وكتابه،

---

(١) ما بين القوسين ساقط من م، ت.

(٢) سورة الشورى آية: ١٥.

وأن يستقيم في نفسه كما أمره، وأن لا يتبع هوى أحد من الفرق، وأن يؤمن بالحق جميعه، لا يؤمن ببعضه دون بعض، وأن يعدل بين أرباب المقالات والديانات.

٥٤ب وأنت إذا تأملت هذه الآية/ وجدت أهل الكلام الباطل وأهل الأهواء والبدع من جميع الطوائف أبخس الناس منها حظاً وأقلهم نصيباً، ووجدت حزب الله ورسوله وأنصار سنته (هم)[1] أحق بها وأهلها، وهم في هذه المسألة وغيرها من السائل أسعد بالحق من جميع الطوائف، فإنهم يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال، ومشيئته العامة، وينزهونه أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه، ولا وهو واقع تحت مشيئته، ويثبتون القدر السابق، وأن العباد يعملون على ما قدره الله وقضاه وفرغ منه، وأنه لا يشاؤون إلا أن يشاء الله (لهم)[2] ، ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته، وأنه ما شاء (الله)[3] كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا تخصيص عندهم في هاتين القضيتين بوجه من الوجوه. والقدر عندهم قدرة الله وعلمه ومشيئته وخلقه، فلا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بمشيئته وعلمه وقدرته، فهم المؤمنون بلا حول ولا قوة إلا بالله على الحقيقة إذا قالها غيرهم على المجاز، إذ العالم علويه وسفليه وكل حي يفعل فعلاً (فإنه يفعله)[4] بقوة (فيه)[5] على الفعل، وهو في حول من ترك إلى فعل ، ومن فعل إلى ترك، ومن فعل إلى فعل، وذلك كله

---

(١) ساقطة من م .

(٢) إضافة من م ، ت .

(٣) لفظ الجلالة إضافة من م ، ت .

(٤) في ع، د، س : فإن فعله .

(٥) ساقطة من م .

بالله تعالى لا بالعبد، ويؤمنون بأن من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأنه هو الذي يجعل المسلم مسلماً (والكافر كافراً)[١]، والمصلي مصلياً، والمتحرك متحركاً، وهو الذي يسير عبده في البر والبحر، وهو المسير، والعبد السائر، وهو المحرك، والعبد المتحرك، وهو المقيم، والعبد القائم، وهو الهادي، والعبد المهتدي، وأنه المطعم، والعبد الطاعم، وهو المحيي المميت، والعبد الذي يحيى ويموت. ويثبتون مع ذلك قدرة العبد، وإرادته، واختياره، وفعله، حقيقة لا مجازاً، وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول، كما حكاه عنهم البغوي وغيره[٢]، فحركاتهم واعتقاداتهم أفعالهم حقيقة، وهي مفعولة لله سبحانه، مخلوقة / له حقيقة، فالذي قام بالرب عز وجل علمه وقدرته ٥٥أ ومشيئته وتكوينه، والذي قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم، فهم المسلمون المصلون القائمون القاعدون حقيقة، وهو سبحانه هو المقدر لهم على ذلك، القادر عليه، الذي شاءه منهم وخلقه لهم (ومشيئتهم)[٣] (وفعلهم)[٤] بعد مشيئته، فما يشاؤون إلا أن يشاء الله، وما يفعلون إلا أن يشاء لله .

وإذا وازنت بين هذا المذهب وبين ما عداه من المذاهب، وجدته هو المذهب الوسط والصراط المستقيم، ووجدت سائر المذاهب خطوطاً عن يمينه وعن شماله، فقريب منه، وبعيد، وبين ذلك .

وإذا أعطيت الفاتحة حقها وجدتها من أولها إلى آخرها منادية على ذلك،

---

(١) ما بين القوسين ساقط من م، ت .

(٢) بحثت عن حكاية البغوي لذلك الإجماع في مظانه من كتابه (شرح السنة) ومن تفسيره (معالم التنزيل) ولم أجده .

(٣) في ت، م : بمشيئتهم . وفي س : ومشيئته .

(٤) في ع : وفعلها. وفي س : وفعله .

دالة عليه، صريحة فيه (فإن كمال)[١] حمده لا يقتضي غير ذلك، وكذلك كمال ربوبيته للعالمين لا يقتضي غير ذلك، فكيف يكون الحمد كله لمن لا يقدر على مقدور أهل سماواته وأرضه من الملائكة والجن والإنس والطير والوحش؟! بل يفعلون ما لا يقدر عليه ولا يشاؤه، ويشاء ما لا يفعله كثير منهم، فيشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، وهل يقتضي كمال حمده ذلك؟! وهل يقتضيه كمال ربوبيته؟! ثم قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢] مبطل لقول الطائفتين المنحرفتين عن قصد السبيل، فإنه يتضمن إثبات فعل العبد وقيام العبادة به حقيقة، فهو العابد على الحقيقة، وإن ذلك لا يحصل له إلا بإعانة رب العالمين عز وجل له، فإن لم يعنه ولم يقدره ولم يشأ له العبادة لم يتمكن منها ولم توجد منه البتة، فالفعل منه، والاقتدار والإعانة من الرب عز وجل، ثم قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[٣] يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها، وهي بيده: إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها، والهداية معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله تعالى عالماً بالحق عاملاً به، لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه المتفرد / بالهداية الموجبة للاهتداء التي لا يتخلف عنها، وهي جعل العبد مريداً للهدى، محباً له مؤثراً له، عاملاً به، فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهي التي قال سبحانه فيها : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٤] مع قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٥] فهذه هداية الدعوة والتعليم والإرشاد، وهي التي هدى

٥٥ب

---

(١) في ع، د، س : وإن كان .

(٢) سورة الفاتحة آية : ٥ .

(٣) سورة الفاتحة آية : ٦ .

(٤) سورة القصص آية : ٥٦ .

(٥) سورة الشورى آية : ٥٢ .

بها ثمود فاستحبوا العمى[1] عليها، وهي التي قال تعالى فيها: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾[2].
فهداهم هدى البيان الذي تقوم به حجته عليهم، ومنعهم الهداية الموجبة للاهتداء، التي لا يضل من هداه بها، فذاك عدله فيهم وهذه حكمته، فأعطاهم ما تقوم به الحجة عليهم، ومنعهم ما ليسوا له بأهل ولا يليق بهم.

وسنذكر في الباب الذي بعد هذا ـ إن شاء الله تعالى ـ ذكر الهدى والضلال ومراتبهما وأقسامهما، فإن عليه مدار مسائل القدر.

والمقصود ذكر بعض ما يدل على إثبات هذه المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر، وهي خلق الله تعالى لأفعال المكلفين، ودخولها تحت قدرته ومشيئته كما دخلت تحت علمه (وكتابته)[3] قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾[4]. وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم، وأعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته، وليس مخصوصاً بذاته وصفاته، فإنه الخالق بذاته وصفاته، وما سواه مخلوق له، واللفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق، وصفاته سبحانه داخلة في مسمى اسمه، فإن الله سبحانه اسم للإله الموصوف بكل صفة كمال، المنزه عن كل صفة نقص ومثال، والعالم قسمان: أعيان، وأفعال، وهو الخالق لأعيانه وما يصدر عنها من الأفعال، كما أنه العالم بتفاصيل ذلك، فلا يخرج شيء منه عن قدرته ولا عن خلقه ومشيئته.

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ سورة فصلت آية (١٧).

(٢) سورة التوبة آية: ١١٥.

(٣) في م، ع، د، س: وكتابه.

(٤) سورة الزمر آية: ٦٢.

قالت القدرية : نحن نقول: إن الله خالق أفعال العباد لا على (معنى)[١] أنه محدثها ومخترعها، ولكن على / معنى أنه مقدرها، فإن الخلق: التقدير، كما قال تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[٢] وقال الشاعر :

١٥٦أ

ولأنت تفـري ما خلقـت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري[٣]

أي : لأنت تمضي ما قدرته وتنفذه بعزمك وقدرتك، وبعض القوم يقدر ثم لا قوة له، ولا عزيمة على إنفاذ ما قدره وإمضائه. فالله تعالى مقدر أفعال العباد ، وهم الذين أوجدوها وأحدثوها[٤] .

قال أهل السنة : قدماؤكم ينكرون تقدير الله سبحانه وتعالى لأعمال العباد البتة، فلا يمكنهم أن يجيبوا بذلك، ومن اعترف منكم بالتقدير فهو تقدير لا يرجع إلى تأثير، وإنما هو مجرد العلم بها والخبر عنها، وليس التقدير عندكم جعلها على قدر كذا وكذا (وصفة كذا وكذا)[٥] ، فإن هذا عندكم غير مقدور للرب ولا مصنوع له، وإنما هو صنع لعبد وإحداثه، فرجع التقدير إلى مجرد العلم والخبر، وهذا لا يسمى خلقاً في لغة أمة من الأمم، ولو كان هذا خلقاً لكان من علم شيئاً وعلم أسماءه وصفاته وأخبر عنه بذلك خالقاً له،

---

(١) ساقطة من ع، د، س .

(٢) سورة المؤمنون آية : ١٤ .

(٣) هذ البيت لزهير بن أبي سلمى من قصيدة قالها في مدح هرم بن سنان، انظر شرح ديوان زهير (٨٢) صنعه أحمد بن يحيى الشيباني (ثعلب) تحقيق د.فخر الدين قباوة، ط الأولى، ١٤٠٢هـ ، نشر دار الآفاق الجديدة بيروت .

(٤) انظر شرح الأصول الخمسة ص (٣٢٣، ٣٨٠، ٥٤٨، ٧٧١) والتمهيد للباقلاني ص (٣٤٩-٣٥٠) .

(٥) ساقطة من ع، د، س .

فالتقدير الذي أثبتموه إن كان متضمناً للتأثير في إيجاد الفعل فهو خلاف مذهبكم، وإن لم يتضمن تأثيراً في إيجاده، فهو راجع إلى محض العلم والخبر .

قالت القدرية : قوله : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾[١] من العام المراد به الخاص، ولا سيما فإنكم قلتم : إن القرآن لم يدخل في هذا العموم، وهو من أعظم الأشياء وأجلها، فخصصنا منه أفعال العباد بالأدلة الدالة على كونها فعلهم (وصنعهم[٢])[٣] .

قالت أهل السنة : القرآن كلام الله سبحانه، وكلامه صفة من صفاته، وصفات الخالق وذاته لم تدخل في المخلوق، فإن الخالق غير مخلوق، فليس هاهنا تخصيص البتة، بل الله سبحانه بذاته وصفاته الخالق، وكل ما عداه مخلوق، وذلك عموم لا تخصيص فيه بوجه، إذ ليس إلا الخالق والمخلوق والله وحده الخالق وما سواه كله/ مخلوق . ٥٦ب

وأما الأدلة الدالة على أن أفعال العباد صنع لهم (وأنها)[٤] أفعالهم القائمة بهم، وأنهم هم الذين فعلوها، فكلها حق نقول بموجبها، ولكن لا ننفي أن تكون أفعالاً لهم ومخلوقة مفعولة لله تعالى، فإن الفعل غير المفعول، ولا نقول: إنها فعل لله، ولعبد مضطر مجبور عليها، ولا نقول: (إنها فعل للعبد والله غير قادر عليها، ولا جاعل العبد فاعلاً لها، ولا نقول)[٥] إنها مخلوقة بين خالقين مستقلين بالإيجاد والتأثير، (وكل هذه أقوال)[٦] باطلة .

---

(١) سورة الزمر آية : ٦٢ .

(٢) في د، س : ومنعهم .

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة (ص٣٨٣) .

(٤) في ع، د، س : وإنما .

(٥) ساقطة من م .

(٦) في ع، د، س : وهذه الأقوال كلها .

قالت القدرية : (يعني)[١] قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[٢] لا يقدر عليه غيره، وأما (الأفعال)[٣] التي يقدر عليها العباد. فإضافتها إليهم تنفي إضافتها إليه، وإلا لزم وقوع (مفعول)[٤] بين فاعلين وهو محال [٥] .

قال أهل السنة : إضافتها إليهم فعلاً وكسباً لا ينفي إضافتها إليه سبحانه خلقاً ومشيئة ، فهو سبحانه الذي شاءها وخلقها، وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة، فلو لم تكن مضافة إلى مشيئته وقدرته، وخلقه لاستحال وقوعها منهم، إذ العباد أعجز (وأقل)[٦] (أن يفعلوا)[٧] ما لم يشأه ولم يقدر عليه ولا خلقه .

فصل

ومما يدل على قدرته سبحانه على أفعالهم قولـه : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾[٨]. واعتراض القدرية على الاستدلال بذلك والجواب عنه نظير

---

(١) ساقطة من ع، د.

(٢) سورة الزمر آية : ٦٢ .

(٣) في ع، د، س : أفعال العباد .

(٤) في د، س : مفعولين .

(٥) انظر مقالات الإسلاميين ص ٢٢٧ .

(٦) ساقطة من ع، د، س: وأضعف. وفي هامش (ع) تعليق نصه : (هكذا في الأصل، ولعل الظاهر أنه أعجز وأوهن أن يفعلوا) .

(٧) في د، س : من أن يفعلوا . بزيادة (من) .

(٨) جزء من الآيات التالية : آية : ٢٨٤ من سورة البقرة ، وآية ٢٩ من سورة آل عمران ، وآية ٨٩ من سورة آل عمران ، وآية ١٧ من سورة المائدة ، وآية ١٩ من سورة المائدة ، وآية ٤٠ من سورة المائدة ، وآية ٤١ من سورة الأنفال ، وآية ٣٩ من سورة التوبة ، وآية ٦ من سورة الحشر .

الاعتراض على قولـه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[١].

وجوابه ـ ونزيده تقريراً ـ: أن أفعالهم أشياء ممكنة، والله تعالى قادر على كل ممكن، فهو الذي جعلهم فاعلين بقدرته ومشيئته، ولو شاء لحال بينهم وبين الفعل مع سلامة آلة الفعل منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[٣] وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[٤].

فهو سبحانه يحول بين المرء وقلبه، وبين (اللسان)[٥] ونطقه، وبين اليد وبطشها، وبين الرجل ومشيها، فكيف يظن به ظن السوء ويجعل له مثل السوء أنه لا يقدر على ما يقدر عليه عباده، ولا تدخل أفعالهم تحت قدرته، تعالى الله عما يقول (الجاهلون)[٦] والجاحدون لقدرته علواً كبيراً. نعم ولا نظن به ظن السوء ونجعل له المثل السوء، أنه يعاقب عباده على ما لم يفعلوه ولا قدرة لهم على فعله، بل على ما فعله هو دونهم، واضطرهم إليه وجبرهم (عليه، وذلك بمنزلة عقوبة الزَّمِنِ إذ لم يطر إلى السماء، وعقوبة أشل اليد على ترك الكتابة)[٧]، وعقوبة الأخرس على ترك الكلام، فتعالى الله عن

---

(١) سورة الزمر آية ٦٢.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٥٣.

(٣) سورة الأنعام آية: ١١٢.

(٤) سورة يونس آية: ٩٩.

(٥) في ع، دن س: الإنسان.

(٦) في ع، د، س: الظالمون.

(٧) ما بين القوسين ساقط من ت.

هذين المذهبين الباطلين المنحرفين عن سوء السبيل .

فصل

ومن الدليل على خلق أعمال العباد: قولـه سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾[١] فأخبر أنه هو الذي جعل السرابيل، وهي الدروع والثياب المصنوعة، ومادتها لا تسمى سرابيل. (ولا تسمى بذلك)[٢] إلا بعد أن تحيلها صنعة الآدميين وعلمهم، فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها ؛ صورتـها ومادتها وهيئاتها. ونظيره هذا قولـه : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾[٣] .

فأخبر سبحانه أن البيوت المصنوعة المستقرة والمتنقلة مجعولة له، وهي إنما صارت بيوتاً بالصنعة الآدمية. ونظيره قوله تعالى : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[٤]. فأخبر سبحانه أنه خالق الفلك المصنوع للعباد.

وأبعد من قال : إن المراد بمثله هو الإبل[٥]، فإنه إخراج

(١) سورة النحل آية : ٨١ .

(٢) إضافة من م، ت . وفي ع: ولا تسمى بعد لكن .

(٣) سورة النحل آية : ٨٠ .

(٤) سورة يس آية : ٤١-٤٢ .

(٥) وهذا أحد قولي ابن عباس، وقول عبد الله بن شداد والحسن البصري وعكرمة ومجاهد. انظر تفسير ابن جرير الطبري (٢٣/ ١١) وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٣) والدر المنثور (٧/ ٦٠).

(للمماثل)[1] حقيقة واعتبار لما هو بعيد عن المماثلة. ونظير ذلك قوله تعالى حكاية عن خليله أنه قال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾[2] فإن كانت (ما) مصدرية كما قدره بعضهم، فالاستدلال ظاهر وليس بقوي/ إذ لا تناسب بين إنكاره عليهم عبادة ما ينحتونه بأيديهم ٥٧ب وبين إخباره بأن الله خالق أعمالهم من عبادة تلك الآلهة ونحتها وغير ذلك، فالأولى أن تكون (ما) موصولة، أي: والله خلقكم وخلق آلهتكم التي عملتموها بأيديكم[3]، فهي مخلوقة له لا آلهة شركاء معه، فأخبر أنه خلق معمولهم وقد حله عملهم وصنعهم، ولا يقال: المراد مادته، فإن مادته غير

---

(١) في ع، د، س: المماثل.

(٢) سورة الصافات آية: ٩٥-٩٦.

(٣) قال ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣/ ٧٥): وفي قوله: ﴿وما تعملون﴾ وجهان:

أحدهما: أن تكون (ما) بمعنى المصدر، فيكون معنى الكلام حينئذ ـ والله ـ: خلقكم وعملكم.

والآخر: أن تكون بمعنى الذي، فيكون معنى الكلام عند ذلك: والله خلقكم والذي تعملونه، أي: والذي تعملون منه الأصنام. وهذا المعنى الثاني قصد إن شاء الله قتادة بقوله ﴿وما تعملون﴾: بأيديكم ا.هـ.

وذكر هذين الوجهين أبو جعفر النحاس في كتابه معاني القرآن الكريم (٦/ ٤٥) تحقيق محمد الصابوني، ط الأولى ١٤١٠هـ نشر جامعة أم القرى.

وزاد وجهين آخرين:

أحدهما: أن تكون (ما) نافية، أي: إن العمل في الحقيقة ليس لكم، فأنتم لا تعملون شيئاً.

والآخر: أن تكون استفهاماً فيه معنى التوبيخ، أي: وأي شيء تعملون. والقولان الأخيران ضعيفان، سيما قول من قال: إنها نافية، فإنه يقتضي نفي أفعال العباد.

وذكر هذه الأوجه الأربعة الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٤٠٢). ثم قال: وجعلها موصولة أولى بالمقام وأوفق بسياق الكلام.

معمولة لهم، وإنما يصير معمولاً بعد علمهم .

فصل

وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي جعل أئمة الخير يدعون إلى الهدى، وأئمة الشر يدعون إلى النار، فتلك الإمامة والدعوة بجعله، فهي مجعولة له وفعل لهم. قال تعالى عن آل فرعون : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[١] وقال عن أئمة الهدى : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[٢] فأخبر أن هذا وهذا بجعله مع كونه كسباً وفعلاً للأئمة.

ونظير ذلك قول الخليل عليه السلام : ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[٣] فأخبر الخليل أن الله سبحانه هو الذي يجعل المسلم مسلماً، وعند القدرية هو الذي جعل نفسه مسلماً، لا أن الله جعله مسلماً، ولا جعله إماماً يهدي بأمره، ولا جعل الآخر إماماً يدعو إلى النار على الحقيقة، بل هم الجاعلون لأنفسهم كذلك حقيقة، ونسبة هذا الجعل إلى الله تعالى مجاز بمعنى التسمية، أي (سمنا)[٤] مسلمين لك، وكذلك ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي سميناهم كذلك، وهم جعلوا أنفسهم أئمة رشد وضلال، فمنهم الحقيقة ومنه تعالى المجاز والتعبير .

فصل

ومن ذلك: إخباره سبحانه بأنه هو الذي يلهم العبد فجوره وتقواه .

والإلهام : الإلقاء في القلب ، لا مجرد (البيان)[٥] والتعليم ،

---

(١) سورة القصص آية : ٤١ .

(٢) سورة الأنبياء آية : ٧٣ .

(٣) سورة البقرة آية : ١٢٨ .

(٤) في ت : سمانا .

(٥) في م ، ت : النيابة .

كما قاله طائفة من المفسرين[١]، إذ لا يقال لمن بين لغيره شيئاً وعلمه إياه إنه قد ألهمه ذلك، وهذا لا يعرف في اللغة (البتة)[٢]، بل الصواب ما قاله ابن زيد[٣]، قال: جعل فيها فجورها وتقواها[٤].

وعليه (يدل)[٥] حديث / عمران بن حصين أن رجلاً من مزينة[٦] أو (من)[٧] جهينة[٨] أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه (ويكدحون)[٩] أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر (سبق)[١٠] أو فيما يستقبلون مما أتاهم (به)[١١] نبيهم؟ قال: «بل شيء قضي عليهم ومضى»، قال: ففيم العمل؟ قال: «من خلقه (الله)[١٢] لإحدى المنزلتين استعمله بعمل أهلها، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

١٥٨أ

---

(١) منهم ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والثوري، انظر تفسير ابن جرير الطبري (٣٠/ ٢١٠) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥١٦).

(٢) ساقطة من م.

(٣) سبقت ترجمته في ص (٣٨٩).

(٤) انظر تفسير ابن جرير الطبري (٣٠/ ٢١٠) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥١٦).

(٥) ساقطة من ع، د، س.

(٦) سبق التعريف بها في ص (١٦٢).

(٧) ساقطة من ع، د، س.

(٨) هم: بنو جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة، حي من قضاعة من القحطانية. معجم قبائل العرب (١/ ٢١٦).

(٩) في ت، م: ويتكادحون. وفي ع: ويكادحون.

(١٠) في ع، د، س: سابق.

(١١) ساقطة من م.

(١٢) لفظ الجلالة لم يرد في م.

وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾[(١)]»[(٢)] .

فقراءته هذه الآية عقيب إخباره (بتقدم)[(٣)] القضاء والقدر السابق يدل على أن المراد بالإلهام استعمالها فيما سبق لها لا مجرد تعريفها، فإن التعريف والبيان لا يستلزم وقوع ما سبق (من)[(٤)] القضاء والقدر .

ومن فسر الآية من السلف بالتعليم والتعريف، فمراده تعريف مستلزم لحصول ذلك، لا تعريف مجرد عن الحصول، فإنه لا يسمى إلهاماً. (والله أعلم)[(٥)] .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[(٦)]، وذات الصدور كلمة (جامعة)[(٧)] لما تشمل عليه (الصدور)[(٨)] من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض، أي صاحبة الصدور، فإنها لما كانت فيها قائمة (بها)[(٩)] نسبت إليها نسبة الصحبة والملازمة .

---

(١) سورة الشمس آية : ٧، ٨ .

(٢) سبق تخريجه في ص (١٦٢) .

(٣) في ع، د، س : بتقديم .

(٤) في ت، ع، د، س : به .

(٥) في ع، د، س : وبالله التوفيق .

(٦) سورة الملك آية : ١٣-١٤ .

(٧) ساقطة من ع، د، س .

(٨) في ع، د، س : الصدر .

(٩) ساقطة من م .

وقد اختلف في إعراب ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ (هل)[١] هو (النصب أو الرفع)[٢] ، فإن كان مرفوعاً، فهو استدلال على علمه بذلك (بخلقه)[٣] له، والتقدير أنه يعلم ما تضمنته الصدور، وكيف لا يعلم الخلاق ما خلقه.

وهذا الاستدلال في غاية الظهور والصحة، فإن الخلق يستلزم حياة الخالق وقدرته وعلمه ومشيئته .

وإن كان منصوباً، فالمعنى: ألا يعلم مخلوقه، وذكر لفظة (من) تغليباً ليتناول العلم العاقل وصفاته .

(وعلى)[٤] التقديرين، فالآية دالة على (خلق)[٥] ما في الصدور (كما هي دالة على علمه سبحانه به، وأيضاً فإنه سبحانه خلقه لما في الصدور)[٦] دليلاً على علمه بها، فقال :﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي كيف يخفى عليه ما في الصدور ٥٨ب وهو الذي خلقه، فلو كان ذلك غير مخلوق له (بطل)[٧] الاستدلال به على العلم، فخلقه سبحانه للشيء من أعظم الأدلة على علمه به، فإذا انتفى الخلق انتفى دليل العلم، فلم يبق (معكم)[٨] ما يدل على علمه بما تنطوي

---

(١) ساقطة من ع، د، س .

(٢) في ت: الرفع أو النصب .

(٣) في ع، د، س : لخلقه .

(٤) في د، س : على . (دون الواو).

(٥) ساقطة من د .

(٦) ما بين القوسين ساقط من ت .

(٧) في ع، د، س : لبطل .

(٨) ساقطة من د، س .

عليه (الصدور)[١] إذا كان غير خالق لذلك، وهذا من أعظم الكفر برب العالمين، وجحد لما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وعلم بالضرورة أنهم ألقوه إلى الأمم كما ألقوا إليهم أنه إله واحد لا شريك له .

فصل

ومن ذلك قوله تعال حكاية عن خليله إبراهيم أنه قال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾[٢]، وقوله : ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[٣]، وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[٤]، وقوله تعالى حكاية عن زكريا أنه قال عن ولده : ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[٥] (أي مرضياً)[٦] وقال في الطرف الآخر : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾[٧]، (وقال)[٨] : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[٩] ، وهذه الأكنة والوقر هي شدة البغض والنفرة والإعراض التي لا يستطيعون معها سمعاً ولا عقلاً .

---

(١) في ع ، س : الصدر .

(٢) سورة إبراهيم آية : ٤٠ .

(٣) سورة إبراهيم آية : ٣٧ .

(٤) سورة الحديد آية : ٢٧ .

(٥) سورة مريم آية : ٦ .

(٦) ساقطة من ع، د، س .

(٧) سورة المائدة آية: ١٣ .

(٨) ساقطة من م .

(٩) سورة الأنعام آية : ٢٥ .

والتحقيق أن هذا (ناشئ)[1] عن الأكنة والوقر، فهو موجب ذلك ومقتضاه.

فمن فسر الأكنة والوقر به، فقد فسرهما بموجبهما ومقتضاهما، وبكل حال فتلك النفرة والإعراض والبغض من أفعالهم، وهي مجعولة لله سبحانه، كما أن الرأفة والرحمة وميل الأفئدة إلى بيته هو من أفعالهم والله جاعله، فهو الجاعل للذوات وصفاتها وأفعالها وإرادتها واعتقاداتها، فذلك كله مخلوق له، وإن كان العبد فاعلاً له باختياره وإرادته .

فإن قيل : هذا كله معارض بقوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[2] . والبحيرة والسائبة إنما صارت كذلك بجعل العباد (لها)[3] ، فأخبر/ سبحانه أن ذلك لم يكن بجعله . ٥٩أ

قيل : لا تعارض ـ بحمد الله ـ بين نصوص الكتاب بوجه ما، والجعل هاهنا جعل شرعي أمري، لا كوني قدري، فإن الجعل في كتاب الله ينقسم إلى (هذين)[4] النوعين كما ينقسم إليهما الأمر والإذن والقضاء والكتابة والتحريم، كما سيأتي بيانه إن شاء الله[5] .

فنفى سبحانه عن البحيرة والسائبة جعله الديني والشرعي، أي لم يشرع ذلك ولا أمر به، ولكن الذين كفروا افتروا عليه الكذب، وجعلوا ذلك ديناً له بلا علم.

---

(١) في م ، ت : باين .

(٢) سورة المائدة آية : ١٠٣ .

(٣) في ت: له .

(٤) في ع : هذه .

(٥) في الباب التاسع والعشرين .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾(١) فأخبر سبحانه أن هذه الفتنة الحاصلة بما ألقى الشيطان هي بجعله سبحانه، وهذا جعل كوني قدري. ومن هذا قوله ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان (٢) في صحيحه : « **اللهم اجعلني لك شكّاراً، لك ذكّاراً، لك رهّاباً، لك مطواعاً، لك مخبتاً، إليك أوّاهاً منيباً**»(٣)

---

(١) سورة الحج آية : ٥٣ .

(٢) هو : محمد بن حبان بن أحمد، التميمي، البستي، أبو حاتم، سمع من أبي عبد الرحمن النسائي، ومحمد بن خزيمة، وغيرهما، وحدث عنه أبو عبد الله بن مندة، وأبو عبد الله الحاكم وغيرهما، ولي قضاء سمرقند مدة، وكان عارفاً بالطب والكلام والفقه، رأساً في معرفة الحديث. له مؤلفات كثيرة، منها: الجرح والتعديل، وتاريخ الثقات، وكتاب الأنواع والتقاسيم، والذي رتبه الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، وسماه: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان. مات في مدينة بست سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وهو في عشر الثمانين. سير أعلام النبلاء (١٦/ ٩٢-١٠٤) والبداية والنهاية (١١/ ٢٥٩) .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد (١/ ٢٢٧) ، وقال فيه أحمد شاكر: إسناده صحيح . المسند بتحقيقه(٣/ ٣٠٩). وانظر الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣/ ٢٢٧-٢٢٩) ورواه أيضاً أبو داود: (٤/ ٣٧٥-٣٧٦) ك. الصلاة – باب ما يقول الرجل إذا سلم. والترمذي (٥/ ٥١٧-٥١٨) ك الدعاء – باب في دعاء النبي ﷺ وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في عمل اليوم والليلة ص(٣٩٥) باب الاستنصار عند اللقاء. وابن ماجه (٢/ ١٢٥٩) ك الدعاء ـ في دعاء النبي ﷺ. والبخاري في الأدب المفرد ص(٢٣١-٢٣٢) باب دعوات النبي ﷺ . والحاكم في المستدرك (١/ ٥١٩-٥٢٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٨٦) وقال الألباني: إسناده صحيح. وعبد بن حميد كما في المنتخب (١/ ٦٠١) وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٢٨٠).

فسأل ربه أن يجعله كذلك، وهذه أفعال اختيارية واقعة بإرادة العبد واختياره. وفي هذا الحديث: «وسدد لساني» (فتسديد)[1] اللسان جعله ناطقاً بالسداد من القول .

ومثله (قوله)[2] في الحديث الآخر : « اللهم اجعلني لك مخلصاً »[3] .

ومثله قوله : « اللهم اجعلني أعظم شكرك، وأكثر ذكرك، وأتبع نصيحتك، وأحفظ وصيتك »[4] .

---

(١) في ع، د، س : وتسديد .

(٢) ساقطة من م .

(٣) هذا طرف من حديث رواه داود الطفاوي، قال: حدثني أبو مسلم البجلي عن زيد بن أرقم، قال: سمعت نبي الله ﷺ يقول في دبر صلاته: « اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك، اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك، اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة، اللهم ربنا ورب كل شيء، اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة في الدنيا والآخرة، يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب، الله أكبر، اللهم نور السماوات والأرض » . أخرجه أبو داود (٤/ ٣٧٣-٣٧٤) ك الوتر – باب ما يقول الرجل إذا سلم. والنسائي في علم اليوم الليلة ص(١٨٣-١٨٤) . والإمام أحمد (٤/ ٣٦٩) . وابن السني في عمل اليوم والليلة ص (١٠٢) . والطبراني في المعجم الكبير (٥/ ٢٣٨) . والبيهقي في الأسماء والصفات ص(١٧٠-١٧١) . والمزي في تهذيب الكمال(٨/ ٣٨٧) في ترجمة داود الطفاوي. وداود بن راشد الطفاوي، قال فيه ابن معين: ليس بشيء، وذكره ابن حبان في الثقات. ولينه الحافظ ابن حجر. انظر ميزان الاعتدال (٢/ ٧) وتقريب التهذيب (١/ ٢٣١) .

(٤) هذا الحديث من رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعاء حفظته من رسول الله ﷺ لا أدعه: «اللهم اجعلني أعظم شكرك، وأكثر ذكرك ...» إلخ. وأخرجه الترمذي (٥/ ٧٨٠) وقال: هذا حديث غريب. والإمام أحمد(٢/ ٣١١، ٤٧٧) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده =

ومثله قول المؤمنين : ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾[١] .

فالصبر وثبات الأقدام فعلان اختياريان، ولكن التصبير والتثبيت فعل الرب تعالى، وهو المسؤول، والصبر والثبات فعلهم القائم بهم حقيقة .

ومثله قوله : ﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ ﴾[٢] .

(قال)[٣] ابن عباس، والمفسرون بعده: ألهمني[٤] .

قال أبو إسحاق : تأويله في اللغة: كفني عن الأشياء إلا (نفس)[٥] شكر نعمتك[٦] ولهذا / يقال في تفسير (الـمُوزع)[٧] أنه المولع، ومنه الحديث : كان ٥٩ب

ضعيف جداً؛ لأن فيه الفرج بن فضالة، انظر المسند بتحقيقه (١٥/ ٢٣٦-٢٣٧) . وأبوداود الطيالسي في مسنده ص(٣٣٢-٣٣٣) . والبيهقي في الدعوات ص(١٧٠-١٧١) . وذكره السيوطي في الجامع الصغير (١/ ١٩٧) . وقال الشيخ الألباني: إسناده ضعيف. انظر ضعيف الجامع الصغير (١/ ٣٥٤) . والحديث في سنده فرج بن فضالة بن النعمان التنوخي، الشامي، قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: ضعيف. انظر: كتاب الضعفاء الصغير للبخاري ص (١٩٣) والضعفاء والمتروكين للنسائي ص(١٩٨) وميزان الاعتدال (٣/ ٣٤٣-٣٤٥) وتقريب التهذيب (٢/ ١٠٨) .

(١) كما حكاه الله عز وجل عنهم في سورة البقرة آية (٢٥٠) .

(٢) سورة النمل آية ١٩، وسورة الأحقاف آية : ١٥ .

(٣) في د ، س : وقال .

(٤) انظر تفسير ابن جرير الطبري (١٩/ ١٤٣) .

(٥) في معاني القرآن وإعرابه للزجاج : عن .

(٦) انظر معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج (٤/ ١١٢-١١٣) .

(٧) في ت، م : الوزع .

رسول الله ﷺ مُوزعاً (بالسواك[1])[2] أي: مولعاً به، كأنه كف ومنع إلا منه.

وقال في الصحاح: (وَزعْتُهُ أزَعُه وَزْعاً : كففته، فاتَّزَعَ عنه[3] أي كَفَّ، وأوزَعْتُهُ بالشيء: أغريته به، فأُوزِعَ به، فهو مُوزَعٌ به (أي مُغْرىً به)[4] واستوزعت الله شكره فأوزعني، أي استلهمته فألهمني[5]، فقد دار معنى اللفظة على معنى ألهمني ذلك واجعلني مغرى به، وكفني عما سواه. وعند القدرية أن هذا غير مقدور للرب، بل هو (عين)[6] مقدور (العبد)[7].

فصل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾[8].

فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم، وهذا

---

(١) في ع، د، س: بالسؤال.

(٢) لم أعثر لهذا الحديث على تخريج، وقد راجعت بالإضافة إلى كتب الحديث وفهارسها كتب غريب الحديث في مادة (وزع) فلم أجد من ذكره إلا ابن الأثير في النهاية (٥/ ١٨١). والأحاديث الواردة عن الرسول ﷺ بهذا المعنى كثيرة ومشهورة.

(٣) في الصحاح: هو.

(٤) ساقطة من ع، د، س.

(٥) انظر الصحاح للجوهري (٣/ ١٢٩٧).

(٦) في م، د، س: غير. وفي ع كذلك، إلا أنها شطبت وكتب في الهامش تعليق نصه: في الأصل لفظ غير، والظاهر أنها زائدة.

(٧) في ع، د، س: للعبد.

(٨) سورة الحجرات آية: ٧.

لا يقدر عليه سواه، وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره، فإنما هو بتزيينه وذكر أوصافه وما يدعو إلى محبته. فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين: حبه، وحسنه الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وأن ذلك محض فضله ومنته عليهم، حيث لم يكلهم إلى أنفسهم بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده، فجاد به فضلاً منه ونعمة، والله عليم بمواقع فضله، ومن صلح له ومن لا يصلح، حكيم بجعله في مواضعه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[1]. (وقال)[2]: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[3].

١٦٠أ وتأليف القلوب جعل بعضها يألف (بعضاً)[4] / ويميل إليه ويحبه، وهو من أفعالها الاختيارية، وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي فعل ذلك لا غيره، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾[5].

(أخبر)[6] سبحانه بفعلهم، وهو الهمُّ، وبفعله وهو كفهم عما همُّوا به،

---

(١) سورة الأنفال آية: ٦٢-٦٣.

(٢) ساقطة من ع، د، س.

(٣) سورة آل عمران آية: ١٠٣.

(٤) في ت، م: بعضها.

(٥) سورة المائدة آية: ١١.

(٦) في د، س: فأخبر.

ولا يصح أن يقال: إنه سبحانه (أشل)[١] أيديهم (أو أماتهم أو أنزل)[٢] عليهم عذاباً حال بينهم وبين ما هموا به، بل كف قدرتهم وإرادتهم، مع سلامة حواسهم وبنيتهم وصحة آلات الفعل منهم.

وعند القدرية هذا محال، بل هم الذين يكفون أنفسهم، والقرآن صريح في إبطال قولهم .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾[٣] .

فهذا كف أيدي الفريقين مع (سلامتها وصحتها)[٤]، وهو بأن حال بينهم وبين الفعل، فكف بعضهم عن بعض .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[٥] والإيمان والطاعة من أجل النعم، بل هما أجل النعم على الإطلاق، فهما منه سبحانه تعليماً وإرشاداً وإلهاماً وتوفيقاً ومشيئة وخلقاً، ولا يصح أن يقال: (إنهما)[٦] أمراً وبياناً فقط، فإن ذلك حاصل بالنسبة إلى الكفار والعصاة، فتكون نعمته على أكفر الخلق كنعمته على أهل الإيمان والطاعة والبر منهم، إذ نعمة البيان والإرشاد مشتركة، وهذا قول القدرية ، وقد صرح به كثير منهم، ولم يجعلوا

---

(١) في ت : اسكن .

(٢) في د، س : وأماتهم وأنزل .

(٣) سورة الفتح آية : ٢٤ .

(٤) في ع، د، س : سلامتهما وصحتهما .

(٥) سورة النحل آية : ٥٣ .

(٦) في ع، د، س : إنها .

لله على العبد نعمة في مشيئته (له)[١] وخلقه فعله وتوفيقه إياه (حتى)[٢] فعله، وهذا من قولهم (الذي باينوا)[٣] به جميع الرسل والكتب، وطردوا ذلك (حتى)[٤] لم يجعلوا لله على العبد منة في إعطائه الجزاء ، بل قالوا: ذلك محض حقه الذي لا منة لله عليه فيه، واحتجوا بقوله : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[٥]

٦٠ب قالوا : أي غير منون به عليهم إذ هو جزاء أعمالهم وأجورها / .

قالوا : المنة تكدر النعمة والعطية، ولم يدعوا هؤلاء للجهل بالله موضعاً، وقاسوا منته على منة المخلوق، فإنهم مشبهة في الأفعال، معطلة في الصفات، وليست المنة في الحقيقة إلا لله[*] فهو المان بفضله وأهل سماواته وأهل أرضه في محض منته عليهم، قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٦] ، وقال تعالى لكليمه موسى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾[٧]، وقال : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾[٨] ، وقال : ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٩] .

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س .

(٢) في ع، ، س : حين .

(٣) في ت : الذين باينون .

(٤) في ع ، د ، س : حين

(٥) سورة الانشقاق آية : ٢٥ .

* بداية سقط نسخة ع. الذي ينتهي في ص (٥٩٩) .

(٦) سورة الحجرات آية : ١٧ .

(٧) سورة طه آية : ٣٧ .

(٨) سورة الصافات آية : ١١٤ .

(٩) سورة القصص آية : ٥ .

ولما قال النبي ﷺ للأنصار : « **ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي** »، قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ[(١)].

(وقالت)[(٢)] الرسل لقومهم : ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[(٣)] فمنته سبحانه محض إحسانه وتفضيله ورحمته، وما طاب عيش أهل الجنة فيها إلا بمنته عليهم، ولهذا قال أهلها وقد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾[(٤)]. فأخبروا لمعرفتهم بربهم وحقه عليهم أن نجاهم من عذاب السموم بمحض منّته عليهم .

وقد قال أعلم الخلق بالله، وأحبهم إليه، وأقربهم منه وأطوعهم له : « **لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله** » ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال : « **ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة[(٥)] منه وفضل** »[(٦)] .

---

(١) هذا الحديث من رواية عبد الله بن زيد بن عاصم، قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال : « **يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي ...** » الحديث. وأخرجه البخاري في (٥/ ١٠٤) ك المغازي – باب غزوة الطائف . ومسلم في (٢/ ٧٣٨-٧٣٩) ك الزكاة – باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه. والإمام أحمد (٤/ ٤٢) .

(٢) في د، س : وقال .

(٣) كما حكاه الله عز وجل عنهم في سورة إبراهيم آية : ١١ .

(٤) كما حكاه الله عز وجل عنهم في سورة الطور آية : ٢٦-٢٧.

(٥) يتغمدني الله برحمة منه وفضل: أي يلبسنيها ويسترني بها، مأخوذ من غمد السيف، وهو غلافه. والنهاية لابن الأثير(٣/ ٣٨٣) .

(٦) رواه البخاري (٧/ ١٠) ك المرض – باب تمني المريض الموت. وفي (٧/ ١٨١-١٨٢) ك الرقاق – باب القصد والمداومة على العمل. ومسلم (٤/ ٢١٧٠) ك صفات المنافقين =

وقال : « إن الله لو عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم »[1] .

= وأحكامهم – باب لن يدخل الجنة أحد بعمله، بل رحمة الله تعالى. وابن ماجه (٢/ ١٤٠٥) ك الزهد – باب التوقي على العمل. والإمام أحمد (٢/ ٢٣٥، ٢٥٦، ٢٦٤، ٣١٩، ٣٢٦، ٣٤٤، ٣٨٦، ٣٩٠، ٤٥١ – ٤٥٢، ٤٦٦، ٤٦٩، ٤٨٢، ٤٨٨، ٤٩٥، ٥٠٣، ٥٠٩، ٥١٤، ٥١٩، ٥٢٤) . كلهم من رواية أبي هريرة . ورواه أيضاً البخاري (٧/ ١٨٢) ك الرقاق – باب القصد والمداومة على العمل. ومسلم (٤/ ٢١٧١) ك صفات المنافقين وأحكامهم – باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى. والإمام أحمد (٦/ ١٢٥) كلهم عن عائشة رضي الله عنها. ورواه مسلم (٤/ ٢١٧١) ك صفات المنافقين وأحكامهم – باب لن يدخل الجنة أحد بعمله بل برحمة الله تعالى. والإمام أحمد (٣/ ٣٣٧) والإمام الدارمي في سننه (٢/ ٢١٥) ك الرقاق – باب لن ينجي أحدكم عمله، عن جابر. ورواه أيضاً الإمام أحمد (٣/ ٥٢) عن أبي سعيد الخدري .

(١) رواه أبو داود (١٢/ ٤٦٦–٤٦٧) ك السنة – باب في القدر. وابن ماجة (١/ ٢٩–٣٠) المقدمة – باب في القدر . والإمام أحمد (٥/ ١٨٥،١٨٢، ١٨٩) وابن حبان في صحيحه. كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٢/ ٥٠٥–٥٠٦) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٠٩) وقال الألباني: إسناده صحيح. والآجري في الشريعة (ص١٨٧) وعبدالله بن الإمام أحمد في كتاب السنة (ص١٢١) مراجعة محمد السعيد زغلول، ط الأولى ١٤٠٥هـ نشر دار الكتب العلمية، بيروت، واللالكائي في السنة (٤/ ٦١٢–٦١٣) والطبراني في المعجم الكبير (٥/ ١٧٨–١٧٩)، و البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٠٤)، وفي كتاب الاعتقاد ص (١٤٩) . وذكره الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح (١/ ٤١) وقال الألباني: وسنده صحيح. وقد صححه المؤلف كما حكاه في هذا الكتاب، ولم أعثر عليه في المستدرك للحاكم. وذلك بعد البحث عنه في مظانه من المستدرك، ومن فهرس المستدرك، وموسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف .

والأول في الصحيح، والثاني في المسند والسنن. وصححه الحاكم وغيره. فأخبر سيد (العالمين)[١] والعاملين أنه لا يدخل الجنة بعمله .

وقالت القدرية : إنهم يدخلونها بأعمالهم لئلا يتكدر (نعيمهم)[٢] عليهم (بمنة)[٣] / الله، بل يكون ذلك النعيم عوضاً . ١٦١أ

وما رمى السلفُ من الصحابة والتابعين من بعدهم القدرية عن قوس واحدة إلا لعظم (بدعتهم)[٤] ومنافاتها لما بعث الله به أنبياءه ورسله، فلو أتى العباد بكل طاعة، وكانت أنفاسهم كلها طاعات لله ؛ لكانوا في محض منته وفضله وكانت له المنة عليهم. وكلما عظمت طاعة العبد، كانت منة الله عليه أعظم، فهو المانُّ بفضله، فمن أنكر منَّته فقد أنكر إحسانه. وأما قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[٥] فلم يختلف أهل العلم بالله ورسوله وكتابه أن معناه : غير مقطوع . ومنه: ريب المنون وهو الموت؛ لأنه يقطع العمر .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[٦] ، وقوله : ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٧] .

وهذا الإغراء والإلقاء محض فعله سبحانه، والتعادي والتباغض أثره،

---

(١) ساقطة من د .

(٢) في ت : نعمتهم .

(٣) في د، س: بمشيئته .

(٤) في د، س : بدعهم .

(٥) سورة فصلت آية : ٨، وسورة الانشقاق آية : ٢٥ .

(٦) سورة المائدة آية : ١٤ .

(٧) سورة المائدة آية : ٦٤ .

وهو محض فعلهم، وأصل ضلال القدرية والجبرية من عدم اهتدائهم إلى الفرق بين فعله سبحانه وفعل العبد .

فالجبرية جعلوا التعادي والتباغض فعل الرب دون المتعادين والمتباغضين.

والقدرية جعلوا ذلك محض فعلهم، الذي لا صنع لله فيه ولا قدرة ولا مشيئة. وأهل الصراط السوي جعلوا ذلك فعلهم وأثر فعل الله وقدرته ومشيئته، كما قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1] فالتسيير فعله، والسير فعل العباد، وهو أثر التسيير. وكذلك الهدى والإضلال فعله، والاهتداء والضلال أثر فعله، وهما أفعالنا القائمة بنا، فهو الهادي والعبد المهتدي، وهو الذي يضل من يشاء والعبد الضال، وهذا حقيقة، والطائفتان عن الصراط المستقيم ناكبتان .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾[2] / ٦١ب .

فهاهنا أمران : تجنيب عبادتها، واجتنابه، فسأل الخليل ربه تعالى أن يجنبه وبنيه عبادتها، ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم والتجنيب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله .

ونظير ذلك قول يوسف الصديق : ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾[3] وصرف كيدهن (هو

---

(١) سورة يونس آية : ٢٢ .

(٢) سورة إبراهيم آية : ٣٥ .

(٣) كما حكاه الله عز وجل عنه في سورة يوسف آية : ٣٣-٣٤.

صرف)[١] دواعي قلوبهن ومكرهن بألسنتهن وأعمالهن، وتلك أفعال اختيارية، وهو سبحانه الصارف لها فالصرف فعله والانصراف أثر فعله وهو فعل النبوة ومن ذلك قوله سبحانه لنبيه محمد ﷺ ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[٢] فالتثبيت فعله سبحانه، والثبات فعل رسوله، فهو سبحانه المثبت وعبده الثابت. ومثله قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[٣].

(فأخبر سبحانه أن تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين فعله، فإنه يفعل ما يشاء)[٤].

وأما الثبات والضلال، فمحض أفعالهم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ﴾[٥] فأخبر أنه هو الذي قسى قلوبهم حتى صارت قاسية، فالقساوة وصفها وفعلها، وهي أثر فعله، وهو جعلها قاسية، وذلك أثر معاصيهم ونقضهم ميثاقهم وتركهم بعض ما ذكروا به، فالآية مبطلة لقول القدرية والجبرية.

---

(١) في ت: موصوف.

(٢) سورة الإسراء آية: ٧٤.

(٣) سورة إبراهيم آية: ٢٧.

(٤) ما بين القوسين ساقط من ت.

(٥) سورة المائدة آية: ١٣.

فصل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾[1] وهم إنما خرجوا باختيارهم، وقد أخبر أنه هو الذي أخرجهم، فالإخراج فعله حقيقة، والخروج فعلهم حقيقة، ولولا إخراجه لما خرجوا. وهذا بخلاف قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[2]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾[3]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾[4]، فإن هذا إخراج لا صنع لهم فيه، فإنه بغير اختيارهم وإرادتهم. وأما قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾[5]، فيحتمل أن يكون إخراجاً بقدره ومشيئته، فيكون من الأول، ويحتمل أن يكون إخراجاً يوجبه بأمره فلا يكون من هذا.

فيكون الإخراج في كتاب الله ثلاثة أنواع:

أحدها: إخراج الخارج باختياره ومشيئته.

الثاني: إخراجه قهراً وكرهاً.

والثالث: إخراجه أمراً وشرعاً.

فصل

وقد ظن طائفة من الناس أن من هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ

(١) سورة الشعراء آية: ٥٧، ٥٨.

(٢) سورة نوح آية: ١٧-١٨.

(٣) سورة الحشر آية: ٢.

(٤) سورة النحل آية: ٧٨.

(٥) سورة الأنفال آية: ٥.

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[١] .

وجعلوا ذلك من أدلتهم على القدرية، ولم يفهموا مراد الآية، وليست من هذا الباب؛ فإن هذا خطاب لهم في وقعة بدر؛ حيث أنزل الله سبحانه ملائكته، فقتلوا أعداءه، فلم (ينفرد)[٢] المسلمون بقتلهم، بل قتلتهم الملائكة، (وأما رمية النبي ﷺ)[٣] فمقدوره كان هو الحذف والإلقاء، وأما إيصال ما رمى به إلى وجوه العدو مع البعد وإيصال وذلك إلى وجوه جميعهم، فلم يكن من فعله، ولكنه فعل الله وحده، فالرمي يراد به الحذف والإيصال، فأثبت له الحذف بقوله : ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ونفى عنه الإيصال بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ .

فصل

ومن ذلك قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾[٤] والضحك والبكاء فعلان اختياريان (للعبد)[٥] فهو سبحانه المضحك المبكي حقيقة، والعبد هو الضاحك الباكي حقيقة. وتأويله الآية بخلاف ذلك إخراج للكلام عن ظاهره بغير موجب، ولا منافاة بين ما يذكر من تلك التأويلات وبين ظاهره، فإن إضحاك الأرض بالنبات، وإبكاء السماء بالمطر / وإضحاك العبد وإبكاءه ٦٢ب بخلق آلات الضحك والبكاء له، لا ينافي حقيقة اللفظ وموضوعه ومعناه، من أنه جاعل الضحك والبكاء فيه، بل الجميع حق .

---

(١) سورة الأنفال آية : ١٧ .

(٢) في د، س : يفرد .

(٣) في د ، س : وأما رميه ﷺ .

(٤) سورة النجم آية : ٤٣ .

(٥) ساقطة من د، س .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[(١)] ورؤية البرق أمر واقع (باختيارهم، فالإرادة)[(٢)] فعله والرؤية فعلنا، ولا يقال: إراءة البرق: خلقه، فإن خلقه لا يسمى إراءة، ولا يستلزم رؤيتنا له، بل إراءتنا له جعلنا نراه، وذلك فعله سبحانه، ومن ذلك قول الخضر لموسى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾[(٣)].

فبلوغ الأشد ليس من فعلهما، واستخراج الكنز من أفعالهما الاختيارية، وقد أخبر أن كليهما بإرادته سبحانه.

ومن ذلك: قوله تعالى عن السحرة: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[(٤)] وليس إذنه هاهنا أمره وشرعه، بل قضاؤه وقدره ومشيئته، فهو (إذن)[(٥)] كوني قدري، لا ديني أمري.

فصل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾[(٦)].

وكلمة التقوى هي الكلمة التي يتقى الله بها، وأعلى أنواع هذه الكلمة هي

---

(١) سورة الرعد آية: ١٢.

(٢) في د: بإحساسهم، فالإرادة وفي س: بإحساسهن.

(٣) سورة الكهف آية: ٨٢.

(٤) سورة البقرة آية: ١٠٢.

(٥) في د، س: إذاً.

(٦) سورة الفتح آية: ٢٦.

قول: لا إله إلا الله، ثم كل كلمة يتقى الله بها بعدها فهي من كلمة التقوى .

وقد أخبر سبحانه أنه ألزمها عباده المؤمنين، فجعلها لازمة لهم، لا ينفكون عنها، فبإلزامه التزموها، ولولا إلزامه لهم إياها لما التزموها، والتزامها فعل اختياري تابع لإراداتهم واختيارهم، فهو الملزم وهم الملتزمون .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾[1] .

وهذا تفسير الهلوع، (والهلع)[2] شدة (الحرص)[3] الذي يترتب عليه الجزع والمنع، فأخبر سبحانه / أنه خلق الإنسان كذلك، وذلك صريح في أن ١٦٣أ هلعه مخلوق لله كما أن ذاته مخلوقة، فالإنسان بجملته ذاته وصفاته وأفعاله وأخلاقه مخلوق لله، ليس فيه شيء خلق لله وشيء خلق لغيره، بل الله خالق الإنسان بجملته وأحواله كلها، فالهلع فعله حقيقة، والله خالق ذلك فيه حقيقة، فليس الله سبحانه بهلوع، ولا العبد هو الخالق لذلك .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[4] .

وإذنه هاهنا قضاؤه وقدره لا مجرد أمره وشرعه.

(١) سورة المعارج الآيات ١٩-٢١ .

(٢) ساقطة من د، س .

(٣) ساقطة من م .

(٤) سورة يونس الآية ١٠٠.

كذلك قال السلف في تفسير هذه الآية، قال ابن المبارك[١] عن الثوري: بقضاء الله[٢].

وقال محمد[٣] بن جرير: يقول جل ذكره لنبيه: وما لنفس (خلقتها)[٤] من سبيل إلى أن تصدقك إلا (بأن آذن)[٥] لها في ذلك، فلا تجهدن نفسك في طلب هداها وبلغها وعيد الله، ثم خلّها، فإن هداها بيد خالقها[٦].

---

(١) هو: عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن الحنظلي، مولاهم، التركي، ثم المروزي، ثقة ثبت فقيه، عالم جواد مجتهد، شاعر، ولد سنة ثمان عشرة ومائة، وطلب العلم وهو ابن عشرين سنة، فسمع من الربيع بن أنس، وعاصم الأحول، وحميد الطويل، وغيرهم، وحدث عنه معمر وابن وهب وأبو داود وغيرهم، من الطبقة الثامنة، مات سنة إحدى وثمانين ومائة، وله ثلاث وستون سنة، روى له الستة. سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٧٨-٤٢١) وتقريب التهذيب (١/ ٤٤٥).

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ١٧٤).

(٣) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر الطبري، من أهل آمل، أكبر مدينة بطبرستان. ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، وطلب العلم بعد الأربعين ومائتين، وأكثر الترحال، سمع من محمد بن أبي معشر، ومحمد بن حميد الرازي، وغيرهما. وحدث عنه أبو القاسم الطبراني، وأبو أحمد بن عدي وغيرهما. قال الذهبي: كان ثقة، صادقاً، حافظاً، رأساً في التفسير، إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف، وعلامة في التاريخ وأيام الناس، عارفاً بالقراءات وباللغة وغير ذلك، له مؤلفات كثيرة، منها: تفسيره المسمى جامع البيان، وكتاب تاريخ الأمم والملوك، توفي عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة. سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧-٢٨٢). ومعجم البلدان(١/ ٥٧). وطبقات الحفاظ ص (٣١٠-٣١١).

(٤) في د، س: خلقها، وما أثبت من م، ت، وتفسير الطبري.

(٥) في د، س: أن يأذن، وما أثبت من م، ت، تفسير الطبري.

(٦) انظر تفسير الطبري (١١/ ١٧٤).

وما قبل الآية وما بعدها لا يدل إلا على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[١]. أي لا تكفي دعوتك في حصول الإيمان حتى يأذن الله لمن دعوته أن يؤمن. ثم قال: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[٢].

وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: يا محمد، قل لهؤلاء (المشركين)[٣] السائلين الآيات على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا أيها القوم ماذا في السماوات من الآيات الدالة على (حقيقة)[٤] ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها، وفي الأرض من جبالها وتصدعها / بنباتها وأقوات أهلها وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك ٦٣ب لكم - إن عقلتم وتدبرتم - عظة ومعتبراً، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على حفظه وتدبيره ظهير، يغنيكم عما سواها من الآيات، وما يغني (ذلك)[٥] عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى عليهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار، فهم لا يؤمنون

---

(١) سورة يونس آية: ٩٩-١٠٠.

(٢) سورة يونس آية: ١٠١.

(٣) ساقطة من د، س.

(٤) في د، س: حقية.

(٥) ساقطة من د، س.

بشيء من ذلك ولا يصدقون به ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ[(١)] ﴾[(٢)].

فصل

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾[(٣)].

قال ابن جرير : كل إنسان ألزمناه ما قضي له أنه عامله، وما هو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه لا يفارقه[(٤)].

وهذا (يجمع)[(٥)] ما قاله الناس في الآية، وهو ما طار له من الشقاء والسعادة، وما طار عنه من العمل، ثم ذكر عن ابن عباس، قال: (طائره) عمله وما قدر عليه، فهو ملازمه أينما كان، وزائل معه أينما زال. وكذلك قال ابن (جريج)[(٦)]. وقال قتادة ومجاهد: هو عمله، وزاد مجاهد : وما كتب (الله)[(٧)] له. وقال قتادة أيضاً : سعادته وشقاوته بعمله[(٨)].

قال ابن جرير : فإن قال قائل : فكيف قال : ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ﴾

---

(١) سورة يونس : آية ٩٧ .

(٢) انظر تفسير ابن جرير (١١/ ١٧٥) .

(٣) سورة الإسراء آية : ١٣ .

(٤) انظر تفسير ابن جرير الطبري (١٥/ ٥٠) .

(٥) ساقطة من د، س .

(٦) في ت : جرير والصواب ما أثبت .

(٧) لفظ الجلالة إضافة من ت .

(٨) روى هذه الأقوال ابن جرير الطبري في تفسيره (١٥/ ٥١) .

إن كان الأمر على ما وصفت، ولم يقل: في يديه أو رجليه أو غير ذلك من أعضاء الجسد؟ قيل: إن العنق هي موضع السمات، وموضع القلائد والأطوقة وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة (لبني آدم وغيرهم إلى أعناقهم، وكثر استعمالهم ذلك حتى أضافوا الأشياء اللازمة)[1] سائر الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنايات الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه ، وإن كان الذي جره عليه لسانه أو فرجه ، فكذلك قوله تعالى : ﴿ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾[2] .

وقال الفراء : الطائر معناه/ عندهم: العمل[3] . ٦٤أ

(و)[4] قال الأزهري[5] : والأصل في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى بسعادة من علمه مطيعاً وشقاوة من علمه عاصياً، فطار لكل ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه[6] .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من د، س .

(٢) انظر تفسير ابن جرير (١٥/ ٥١) .

(٣) انظر كتاب معاني القرآن للفراء (٢/ ١١٨) .

(٤) ساقطة من م ، د، س .

(٥) هو : محمد بن أحمد الأزهر الهروي، أبو منصور، أحد الأئمة في اللغة والأدب، مولده ووفاته في هراة بخراسان. نسبته إلى جده (الأزهر). عني بالفقه فاشتهر به أولاً، ثم غلب عليه التبحر في العربية فرحل في طلبها وقصد القبائل، وتوسع في أخبارهم. له مؤلفات منها: تهذيب اللغة، وغريب الألفاظ التي استعملها الفقهاء. وغيرهما. توفي سنة ٣٧٠هـ . سير أعلام النبلاء (١٦/ ٣١٥) والأعلام (٥/ ٣١١) .

(٦) انظر تهذيب اللغة (١٤/ ١١-١٢) مادة (طير) تحقيق عبد السلام هارون، مراجعة علي سامي النجار، نشر الدار المصرية العامة للتأليف بالقاهرة سنة ١٣٨٧هـ.

وأما قوله: (في عنقه) فقال أبو إسحاق: إنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي لزومه له كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق[١] .

قال أبوعلي[٢] : هذا مثل قولهم: طوقتك كذا (وقلدتك كذا)[٣]، أي صرفته نحوك وألزمتك إياه، ومنه قلده السلطان كذا، أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق[٤] .

وقيل : إنما خص العنق؛ لأن عمله لا يخلو إما أن يكون خيراً أو شراً، وذلك مما يزين أو يشين كالحلي والغل، فأضيف إلى الأعناق .

قالت القدرية : إلزامه ذلك: وَسْمُهُ به، وتعليمه بعلامة يعرف الملائكة أنه سعيد أو شقي والخبر عنه (بذلك)[٥] لا أنه ألزمه العمل، فجعله لازماً له .

قال أهل السنة : هذه طريقة لكم معروفة في تحريف الكلم عن مواضعه سلكتموها في الجسم والطبع والعقل، وهذا لا يعرفه أهل اللغة، وهو خلاف حقيقة اللفظ، وما فسره به أعلم الأمة بالقرآن، ولا يعرف ما قلتموه عن أحد من سلف الأمة البتة، ولا فسر الآية غيركم به، ولا يصح حمل الآية عليه،

---

(١) انظر معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج (٣/ ٢٣٠) .

(٢) هو : أبو علي ، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، الفارسي، الفسوي، أحد أئمة النحو، ولد في (فسا) إحدى مدن فارس سنة (٢٨٨هـ) وقدم بغداد شاباً، فأخذ عن الزجاج وغيره، وأخذ عنه أبو الفتح بن جني وغيره، له مؤلفات، منها: الإيضاح، والحجة في علل القراءات وغيرهما. مات في شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثلاثمائة . سير أعلام النبلاء (١٦/ ٣٧٩-٣٨٠) والبداية والنهاية (١١/ ٣٠٦) .

(٣) ساقطة من م .

(٤) لم أعثر على هذا القول فيما رجعت إليه من مراجع .

(٥) إضافة من ت .

فإن الخبر عنه بذلك والعلامة (التي)[١] أعلم بها إنما حصل بعد طائره اللازم له من عمله، فلما لزمه ذلك الطائر ولم ينفك عنه، أخبر عنه بذلك، وصارت عليه علامة وسمة، ونحن قد أريناكم أقوال أئمة الهدى وسلف الأمة في الطائر، فأرونا قولكم عن واحد منهم قاله قبلكم، وكل طائفة من أهل البدع تجر القرآن إلى بدعها وضلالها، وتفسيره بمذاهبها وآرائها والقرآن بريء من ذلك، وبالله التوفيق .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا / كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾[٢]. ٦٤ب

وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين، هذا أحدهما، والثاني في سورة الشعراء في قوله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾[٣] .

قال ابن عباس: المعنى . سلك الشرك في قلوب المكذبين كما سلك الخرزة في الخيط[٤] .

وقال أبو إسحاق : أي كما فعل بالمجرمين الذين استهزؤوا بمن تقدم من

---

(١) ساقطة من م ، د، س .

(٢) سورة الحجر آية : ١١-١٣ .

(٣) سورة الشعراء آية : ١٩٨-٢٠١ .

(٤) ذكره الواحدي في تفسيره البسيط ق (١٠٦) مخطوط، مرجع سابق . انظر ص(٣٨٧).

الرسل، كذلك سلك الضلال في قلوب المجرمين[١] .

واختلفوا في مفسر الضمير في قوله : ﴿نَسْلُكُهُ﴾ فقال ابن عباس: سلكنا الشرك[٢] . وهو قول الحسن[٣] ، وقال الزجاج[٤] وغيره : هو الضلال، وقال الربيع: يعني الاستهزاء[٥] وقال الفراء : التكذيب[٦] .

وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، والتكذيب والاستهزاء والشرك كل ذلك فعلهم حقيقة. وقد أخبر أنه سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم .

وعندي في هذه الأقوال شيء ، فإن الظاهر أن الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ هو الضمير في قوله: ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ فلا يصح أن يكون المعنى : لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء، فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين، والظاهر اتحاده، فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم، وهو القرآن.

فإن قيل: فما معنى سلكه إياه في قلوبهم وهم ينكرونه؟ قيل: سلكه في قلوبهم بهذه الحال، أي: سلكناه غير مؤمنين به، فدخل في قلوبهم مكذباً به

---

(١) انظر معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج (٣/ ١٧٤) .

(٢) كما سبق ذكره في الصفحة السابقة .

(٣) رواه أبو داود في سننه (١٢/ ٣٧٧) ك السنة - باب من دعا إلى السنة. وابن جرير الطبري في تفسيره (١٤/ ٩) و(١٩/ ١١٥) . وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٤٥-٣٤٦). واللالكائي في السنة (٣/ ٥٥٥). والبيهقي في كتاب القدر ص(١٩٥، ٢٩١، ٢٩٢) . وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣٢٣) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد .

(٤) هو : أبو إسحاق . وسبق توثيق قوله في رقم (١) .

(٥) ذكره الواحدي في تفسيره ق (١٠٦) مخطوط، مرجع سابق انظر ص (٣٨٧) .

(٦) انظر معاني القرآن للفراء (٢/ ٨٥) .

كما دخل في قلوب المؤمنين مصدقاً به، وهذا مراد من قال: إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلال، ولكن فسر الآية بالمعنى، فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم.

فإن قيل: فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به؟ قيل/: لتقوم عليهم بذلك حجة الله، فدخل في قلوبهم، وعلموا أنه حق، وكذبوا به، فلم يدخل في قلوبهم مصدق به، مؤمن به، مرضي به، وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفراً من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم، فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه[1]. ١٦٥أ

فتأمله فإنه من فقه التفسير، والله الموفق للصواب.

فصل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[2] فالإرسال هاهنا إرسال كوني قدري، كإرسال الرياح، وليس بإرسال ديني شرعي، فهو إرسال تسليط بخلاف قوله في المؤمنين: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[3].

---

(١) ذكر الأقوال السابقة في تفسير هذه الآية أبو جعفر النحاس، ثم قال: وهذا القول - يعني قول من قال: نسلك الشرك، والتكذيب - هو الذي عليه أهل التفسير، وأهل اللغة، إلا من شذ منهم، فإن بعضهم قال: المعنى: كذلك نسلك القرآن، وقال القرطبي - بعد أن ذكر قول الجمهور -: وقيل: كذلك نسلك القرآن في قلوبهم فيكذبون به. انظر معاني القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس (٤/ ١٢) والجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (١٠/ ٧).

(٢) سورة مريم آية: ٨٣.

(٣) سورة الحجر آية: ٤٢.

فهذا المنفي عنه على المؤمنين هو الذي أرسل به جنده على الكافرين.

قال أبو إسحاق : ومعنى الإرسال هاهنا: التسليط، تقول : قد أرسلت فلاناً على فلان، إذا سلطته عليه، كما قال : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[1] فاعلم أن من اتبعه هو مسلط عليه[2].

قلت : ويشهد له قول تعالى : ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[3] .

وقوله : ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ فالأز في اللغة : التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر: الأزيز، لتحريك الماء عند الغليان[4] .

وفي الحديث : كان لصدر رسول الله ﷺ أزيز[5] كأزيز المرجل[6] من البكاء[7] . وعبارات السلف تدور على هذا المعنى، قال ابن عباس: تغريهم

---

(١) سورة الحجر آية : ٤٢ .

(٢) انظر معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج (٣/ ٣٤٥-٣٤٦) .

(٣) سورة النحل آية : ١٠٠ .

(٤) انظر الصحاح للجوهري (٣/ ٨٦٤) مادة (أزز) .

(٥) أزيز : أي خنين من الخوف - بالخاء المعجمة - وهو صوت البكاء . وقيل: هو أن يجيش جوفه ويغلي بالبكاء. النهاية لابن الأثير (١/ ٤٥) .

(٦) المرجل : بالكسر: قدر من نحاس، وقيل: يطلق على كل قدر يطبخ فيها . المصباح المنير (١/ ٢٢١) مادة (رجل) .

(٧) هذا الحديث من رواية مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه. رواه أبو داود في (٣/ ١٧٢) ك الصلاة - باب البكاء في الصلاة . والنسائي في (٣/ ١٣) ك السهو - باب البكاء في الصلاة . وفي الكبرى في ك الصلاة، وكتاب الرقائق كما ذكره المزي في تحفة الأشراف (٤/ ٣٥٩). والإمام أحمد (٤/ ٢٥-٢٦) . وابن جرير الطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٦) =

إغراء[1].

وفي رواية أخرى عنه، (تشليهم إشلاء[2])[3]. وفي رواية أخرى: تحرضهم تحريضاً[4]. وفي أخرى: تزعجهم للمعاصي إزعاجاً[5]. وفي أخرى: توقدهم

= وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٥٣). والحاكم في المستدرك (١/ ٢٦٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. والبيهقي في سننه (٢/ ٢٥١). والبغوي في شرح السنة (٣/ ٢٤٤-٢٤٥). وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان(٢/ ٤٣٩-٤٤٠)، و(٣/ ٣٠-٣١).

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٥). والواحدي في تفسيره الوسيط المجلد الأول ص (٢١٧) تفسير سورة مريم، رسالة ماجستير مقدمة الكلية أصول الدين بالرياض قسم القرآن وعلومه، أعدها أحمد الطريقي.

(٢) في د، س: تسلهم سلا. وما أثبت من م، ت، ولعله الصواب، حيث إن معنى (أشليته): أغريته، وهو المناسب لسياق الكلام، كما أنه الموافق لقول مجاهد الآتي تخريجه. انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٢٠٩) والمصباح المنير (١/ ٣٢٢) مادة (شلو).

(٣) ورد هذا القول منسوباً لمجاهد، عند ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣٦) والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٣٨) ونسب تخريجه إلى ابن أبي حاتم. وذكره القرطبي في تفسيره (١١/ ١٠٠) ولم أجده منسوباً إلى ابن عباس.

(٤) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣٦) والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٣٨) ونسبه إلى ابن أبي حاتم.

(٥) رواه الواحدي في تفسيره الوسيط المجلد الأول تفسير سورة مريم ص ٢١٧ مرجع سابق انظر رقم (١). وذكره القرطبي في تفسيره (١١/ ١٠٠). وورد هذا القول منسوباً لقتادة عند عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٢) وابن جرير الطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٥) وابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣٦) والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٣٨) ونسب تخريجه إلى ابن المنذر، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

إيقاداً[١] . أي كما يتحرك الماء بالوقد تحته .

قال أبو عبيد[٢] : الأزيز : الالتهاب والحركة كالتهاب النار في الحطب، يقال: إز قدرك، أي ألهب تحتها النار: وائتزت القدر : إذا اشتد غليانها[٣] / ٦٥ب وهذا اختيار الأخفش[٤][٥] .

والتحقيق أن اللفظة تجمع المعنيين جميعاً .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٣٨) ونسبه إلى ابن الأنباري في الوقف.

(٢) هو : القاسم بن سلام – بالتشديد – بن عبد الله، الهروي، البغدادي، أبو عبيد، ولد سنة سبع وخمسين ومائة، سمع من سفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، وغيرهما، وقرأ القرآن على أبي الحسن الكسائي، وغيره، وأخذ اللغة عن أبي عبيدة وأبي زيد وجماعة، وحدث عنه علي بن عبد العزيز البغوي، وعباس الدوري وغيرهما. له مؤلفات كثيرة؛ منها: كتاب الأموال، وكتاب غريب الحديث، وغيرهما. وكان ثقة فاضلاً من كبار العلماء بالحديث واللغة والفقه. توفي بمكة سنة أربع وعشرين ومائتين. سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٩٠-٥٠٩) وتقريب التهذيب (٢/ ١١٧) .

(٣) انظر غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام (١/ ٢٢٢) .

(٤) هو : سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط، نحوي، عالم باللغة والأدب، من أهل بلخ، سكن البصرة، وأخذ العربية عن سيبويه، وصنف كتباً، منها: معاني القرآن، وكتاب شرح أبيات المعاني، وزاد في العروض بحر (الخبب) وكان الخليل قد جعل البحور خمسة عشرة، فاصبحت ستة عشر. توفي سنة ٢١٥هـ . سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٠٦) . والأعلام (٣/ ١٠١-١٠٢) .

(٥) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ، ق (١٥١) مخطوط، محفوظ أصله بدار الكتب المصرية ، تحت رقم (٥٣ تفسير) ، وتوجد صورة منه في مركز الملك فيصل بالرياض تحت رقم (١٤٤٤/ ف) .

قالت القدرية: معنى: ﴿أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ خلينا بينهم وبينها، ليس معناه التسليط.

قال أبو علي: الإرسال يستعمل بمعنى التخلية بين المرسل وما يريد، فمعنى الآية: خلينا بين الشياطين وبين الكافرين، ولم يمنعهم منهم، ولم يعذهم، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ[1]﴾[2].

قال الواحدي[3]: وإلى هذا الوجه يذهب القدرية في معنى الآية، قال: وليس المعنى على ما ذهبوا إليه[4].

وقال أبو إسحاق: والمختار أنهم أرسلوا عليهم، وقيضوا لهم بكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ[5]﴾[6]، وقال: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[7].

---

(١) سورة الحجر آية: ٤٢.

(٢) ذكره الواحدي في تفسيره «البسيط» ق(١٥٠) مخطوط. المرجع السابق.

(٣) هو: علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متويه، أبو الحسن الواحدي، مفسر، عالم بالأدب، نعته الذهبي بإمام علماء التأويل. وأصله من ساوه - بين الري وهمذان - ومولده ووفاته بنيسابور. له كتب، منها: الوسيط، والوجيز في التفسير، وأسباب النزول. مات سنة ٤٦٨هـ. سير أعلام النبلاء (١٨/ ٣٣٩) والأعلام (٤/ ٢٥٥).

(٤) انظر تفسير الواحدي (البسيط) ق (١٥٠) المرجع السابق.

(٥) سورة الزخرف آية: ٣٦.

(٦) انظر معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج (٣/ ٣٤٥).

(٧) سورة فصلت آية: ٢٥.

وإنما معنى (الإرسال)[١] التسليط .

قلت : وهذا هو المفهوم من معنى الإرسال كما في الحديث : « **إذا أرسلت كلبك المعلم** »[٢] - أي سلطته - ولو خلى بينه وبين الصيد من غير إرسال منه لم يبح صيد. وكذلك قولـه : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾[٣] . أي: سلطناها وسخرناها عليهم. وكذلك قولـه: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾[٤] . وكذلك قوله : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾[٥] والتخلية بين المرسل وبين

---

(١) في ت: الآية .

(٢) هذا الحديث رواه عدي بن حاتم رضي الله عنه، وأخرجه البخاري في (١/ ٥١) ك الوضوء - باب إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً. ورواه أيضاً في (٦/ ٢١٨) . ك. الصيد والذبائح - باب صيد المعراض . وفي باب إذا أكل الكلب (٦/ ٢٢٠). وفي باب الصيد إذا غاب عنه يومين أو ثلاثة (٦/ ٢٢٠) وفي باب إذا وجد مع الصيد كلباً آخر (٦/ ٢٢٠-٢٢١). وفي باب ما جاء في التصيد (٦/ ٢٢١). وفي (٨/ ١٧٠) ك التوحيد - باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها. ورواه مسلم (١٥٢٩-١٥٣١) ك الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان - باب الصيد بالكلاب المعلمة. وأبو داود (٨/ ٤٩-٥٣) ك الصيد - باب في الصيد . والترمذي (٤/ ٥٤-٥٦) ك الصيد - باب ما جاء فيما يؤكل من صيد الكلب وما لا يؤكل. وقال : حديث حسن صحيح، وفي باب ما جاء في الكلب يأكل من الصيد. والنسائي (٧/ ١٧٩-١٨٤) ك الصيد . وابن ماجه (٢/ ١٠٧٠) ك الصيد - باب صيد الكلب. والإمام أحمد (٤/ ٢٥٦-٢٥٨، ٣٧٧-٣٨٠) . وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٣/ ١٩٥) .

(٣) سورة الذاريات آية : ٤١ .

(٤) سورة الفيل آية : ٣ .

(٥) سورة القمر آية : ٣١ .

ما أرسل عليه من لوازم هذا المعنى، ولا يتم التسليط إلا به، فإذا أرسل الشيء (الذي)[١] من طبعه وشأنه أن يفعل فعلاً ولم يمنعه من فعله فهذا هو التسليط، ثم إن القدرية تناقضوا في هذا القول، فإنهم إن جوزوا منعهم منهم وعصمتهم وإعاذتهم فقد نقضوا أصلهم، فإن منع المختار من فعله الاختياري مع سلامة (آلته)[٢] وصحة بنيته يدل على أن فعله وتركه مقدور للرب، وهذا عين قول أهل السنة، وإن قالوا: لا يقدر على منعهم وعصمتهم وإعاذتهم، فقد جعلوا (قدرتهم ومشيئتهم)[٣] بفعل ما لا يقدر الرب على المنع منه / وهذا أبطل الباطل . ٦٦أ

ثم قال القدريــة : (معنى)[٤] : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ تأمرهم بالمعاصي أمراً ، وحكوا ذلك عن الضحاك[٥] ، وهذا لا يلتفت إليه، إذ لا يقال لمن أمر غيره بشيء: قد أزه، ولا تساعد اللغة على ذلك[٦] ، ولو كان ذلك صحيحاً لكان يؤز المؤمنين أيضاً، فإنه يأمرهم بالمعاصي أكثر من أمر الكافرين، فإن الكافر سريع الطاعة والقبول من الشيطان ، فلا يحتاج من أمره (إلى)[٧] ما يحتاج إليه من أمر المؤمنين، بل يأمر الكافر مرة وتأمر المؤمن مرات، فلو كان الأز الأمر

---

(١) ساقطة من : ت .

(٢) في د، س : النية .

(٣) في د، س : قدرتها ومشيئتها .

(٤) ساقطة من د، س .

(٥) لم اعثر على تخريج له.

(٦) حيث إن الأمر ليس من معاني الأز. انظر الصحاح (٣/ ٨٦٤) مادة (أزز) .

(٧) ساقطة من د، س .

لم يكن له اختصاص بالكافرين .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾[(١)] . وقوله : ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨ ﴾[(٢)] . وقوله : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[(٣)] .

ومن المعلوم أن الإعاذة من الشيطان الرجيم ليست بإماتته ولا تعطيل آلات كيده، وإنما هي بأن يعصم المستعيذ من أذاه له، ويحول بينه وبين فعله الاختياري (به)[(٤)]، فدل على أن فعله مقدور له سبحانه، إن شاء سلطه على العبد، وإن شاء حال بينه وبينه . وهذا على أصول القدرية باطل، فلا يثبتون حقيقة الإعاذة وإن أثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد، وجعلوا الآية رداً على الجبرية، والجبرية أثبتوا حقيقة الإعاذة، ولم يثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد، بل الاستعاذة فعل الرب حقيقة، كما أن الإعاذة فعله.

وقد ضل الطائفتان عن الصراط المستقيم، وأصابت كل طائفة منهما فيما أثبتته من الحق .

---

(١) سورة الناس آية : ١-٦ .

(٢) سورة المؤمنون آية : ٩٧-٩٨ .

(٣) سورة النحل آية : ٩٨ .

(٤) في د، س : له .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[1] وقول هود عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[2] ومعلوم أن الصبر/ والتوفيق فعل اختياري للعبد، وقد أخبر أنه به سبحانه لا بالعبد، وهذا (لا ينفي)[3] أن يكون فعلاً للعبد حقيقة، ولهذا أمر به، وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه سبحانه، وإنما يؤمر العبد بفعله هو، ومع هذا فليس فعله واقعاً به، وإنما هو بالخالق لكل شيء، والذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالتصبير منه سبحانه، وهو فعله، والصبر هو القائم بالعبد، وهو فعل العبد، ولهذا أثنى سبحانه على من (سأله)[4] أن يصبره، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[5]، ففي الآية أربعة أدلة:

٦٦ب

أحدها: قولهم: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ والصبر فعلهم الاختياري، فسألوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنه، وإن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه.

الثاني: قولهم: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التثبيت فعله، والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قولهم: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فسألوه النصر، وذلك بأن يقوي عزائمهم، ويشجعهم، ويصبرهم، ويثبتهم، ويلقي في قلوب

---

(١) سورة النحل آية: ١٢٧.

(٢) كما حكاه الله عز وجل عنه في سورة هود، آية: ٨٨.

(٣) في د، س: لا ينبغي.

(٤) في د، س: يسأله.

(٥) سورة البقرة آية: ٢٥٠-٢٥١.

أعدائهم الخور، والخوف والرعب، فيحصل النصر، وأيضاً فإن كون الإنسان منصوراً على غيره إما أن يكون بأفعال الجوارح، وهو واقع بقدرة العبد واختياره، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم وذلك أيضاً فعل العبد. وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده، وأثنى على من طلبه منه. وعند القدرية لا يدخل تحت مقدور الرب .

الرابع : قوله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ . وإذنه هاهنا هو : الإذن الكوني القدري، أي بمشيئته وقضائه (وقدره)[١] ، ليس هو الإذن الشرعي الذي (هو)[٢] بمعنى الأمر، فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة، بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني، فإن المأمور (الكوني) [٣] لا يتخلف عنه / البتة . ١٦٧أ

فصل

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[٤] .

وفي الآية رد ظاهر على الطائفتين وإبطال لقولهما، فإنه سبحانه أغفل قلب العبد عن ذكره فغفل هو، فالإغفال فعل الله، والغفلة فعل العبد، ثم أخبر عن اتباعه هواه، وذلك فعل العبد حقيقة . والقدرية تحرف هذا النص وأمثاله بالتسمية والعلم، فيقولون: معنى ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ : سميناه غافلاً، أو وجدناه غافلاً، أي : علمناه كذلك .

وهذا من تحريفهم، بل أغفلته مثل أقمته وأقعدته وأغنيته وأفقرته، أي:

---

(١) في ت : وقدرته .

(٢) إضافة من ت .

(٣) في م ، د ، س : المكون .

(٤) سورة الكهف آية : ٢٨ .

جعلته كذلك، وأما أفعلته (إذا)[١] وجدته كذلك؛ كأحمدته وأجبنته وأبخلته وأعجزته فلا يقع في أفعال الله البتة، إنما يقع في أفعال العاجز أن يجعل (غيره)[٢] جباناً وبخيلاً وعاجزاً، فيكون معناه صادفته كذلك. وهل يخطر بقلب الداعي: اللهم أقدرني (و)[٣] أوزعني وألهمني، أي سمني (وأعلمني)[٤] كذلك؟ وهل هذا إلا كذب عليه وعلى المدعو سبحانه؟ والعقلاء يعلمون علماً ضرورياً أن الداعي إنما سأل الله أن يخلق له ذلك، ويشاءه له ، ويقدره عليه، حتى القدري إذا غابت عنه بدعته وما تقلده من أشياخه وأسلافه، وبقي وفطرته، لم يخطر بقلبه سوى ذلك. وأيضاً فلا يمكن أن يكون العبد هو المغفل لنفسه عن الشيء، فإن إغفاله نفسه (عنه)[٥] مشروط بشعوره به، وذلك مضاد لغفلته عنه، بخلاف إغفال الرب تعالى له؛ فإنه لا يضاد علم (الرب)[٦] بما يغفل عنه العبد، وبخلاف غفلة العبد فإنها لا تكون إلا مع عدم شعوره بالمغفول عنه، وهذا ظاهر جداً، فثبت أن الإغفال فعل الله بعبده، والغفلة فعل العبد .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى إخباراً عن نبيه شعيب أنه قال لقومه : ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا

---

(١) في م، د، س : أو .

(٢) ساقطة من د، س .

(٣) في ت : أو .

(٤) ساقطة من ت .

(٥) ساقط من ت .

(٦) في د، س : علمه .

عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾[1] / ، وهذا يبطل تأويل القدرية المشيئة في مثل ذلك بمعنى (الأمر)[2] ، فقد علمت (الرسل)[3] أنه من الممتنع على الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به، ولكن استثنوا بمشيئته التي يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء. ٦٧ب

ثم قال شعيب: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾[4] فرد الأمر إلى مشيئته وعلمه، فإن له سبحانه في خلقه (علماً محيطاً)[5] ومشيئته نافذة وراء ما يعلمه الخلائق، فامتناعنا من العود فيما هو مبلغ علومنا ومشيئتنا، ولله علم آخر ومشيئة أخرى وراء علومنا ومشيئتنا، فلذلك رد الأمر إليه.

ومثله قول إبراهيم عليه السلام : ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[6].

فأعادت الرسل بكمال معرفتها بالله أمورها إلى مشيئة الرب وعلمه، ولهذا أمر الله رسوله أن لا يقول لشيء إنه فاعله حتى يستثني بمشيئة الله [7] فإنه إن

---

(١) سورة الأعراف آية : ٨٩ .

(٢) في ت : الآخر .

(٣) ساقطة من د، س .

(٤) سورة الأعراف آية : ٨٩ .

(٥) في م ، ت : علم محيط . والصواب ما أثبت حيث إنه اسم إن .

(٦) كما حكاه الله عز وجل عنه في سورة الأنعام آية ٨٠ .

(٧) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ سورة الكهف آية ٢٣-٢٤ .

شاء فعله وإن شاء لم يفعله، وقد تقدم تقرير هذا المعنى [١] .

وبالجملة كل دليل في القرآن على التوحيد، فهو دليل على القدر وخلق (أعمال)[٢] العباد، ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد .

قال ابن عباس : الإيمان بالقدر نظام التوحيد (فمن)[٣] كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده [٤] .



---

(١) في الباب الثاني عشر - في ذكر المرتبة الثالثة من مراتب القضاء والقدر، وهي مرتبة المشيئة .

(٢) في د، س : أفعال .

(٣) في د : من .

(٤) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب السنة (٢/ ٤٢٢) . والآجري في الشريعة ص(٢١٥) واللالكائي في السنة (٣/ ٦٢٣) و(٤/ ٦٧٠) . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٩٧) وقال : رواه الطبراني في الأوسط، وفيه هانئ بن المتوكل ، وهو ضعيف .



الباب الرابع عشر

في الهدى والضلال ومراتبهما والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم






الباب الرابع عشر
في الهدى والضلال ومراتبهما والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم

(هذا المذهب)[١] هو قلب أبواب القدر ومسائله، فإن أفضل ما يقدِّر الله لعبده وأجل ما يقسمه له: الهدى، وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه: الضلال، وكل نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال، وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده / لا بيد العبد، وأن العبد هو الضال أو ١٦٨أ المهتدي، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه، ولا بد قبل الخوض في تقرير ذلك من ذكر مراتب الهدى والضلال في القرآن.

فأما مراتب الهدى فأربعة :

إحداها : الهدى العام، وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها، وهذا أعم مراتبه .

المرتبة الثانية : الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم، والدعوة إلى مصالح العبد في معاده، وهذا خاص بالمكلفين، وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى، وأعم من الثالثة .

المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء ، وهي هداية التوفيق ومشيئة الله لعبده الهداية، وخلقه دواعي الهدى وإرادته، والقدرة (عليه للعبد، وهذه

---

(١) قوله : (هذا المذهب) هكذا في جميع النسخ الخطية والمطبوعة والمناسب للسياق أن يقال: (هذا الباب) .

الهداية التي لا يقدر عليها إلا الله عز وجل .

والمرتبة الرابعة: الهداية)[١] يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار .

فصل

فأما المرتبة الأولى : فقد قال سبحانه : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾[٢] فذكر سبحانه أربعة أمور عامة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية، وجعل التسوية من تمام الخلق، والهداية من تمام التقدير.

قال عطاء : ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾، أحسن ما خلقه . وشاهده قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ[٣] ﴾[٤] فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه، بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال. فالخلق: الإيجاد، والتسوية: إتقانه وإحسان خلقه .

قال الكلبي : خلق كل ذي روح، فجمع خلقه وسواه باليدين والعينين والرجلين[٥] .

وقال مقاتل : خلق لكل دابة ما يصلح لها من الخلق[٦] .

وقال أبو إسحاق : خلق الإنسان مستوياً[٧] .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من د.

(٢) سورة الأعلى آية : ١-٣ .

(٣) سورة السجدة آية : ٧ .

(٤) ذكره الواحدي في تفسير (البسيط) ق(١٨٠ مخطوط) مرجع سابق.

(٥) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(١٨٠) المرجع السابق والبغوي في تفسيره معالم التنزيل (٤/ ٤٧٥) .

(٦) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق (١٨٠) المرجع السابق .

(٧) انظر معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج (٥/ ٣١٥) .

وهذا تمثيل، وإلا فالخلق والتسوية شامل للإنسان وغيره، قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾[(١)] . وقال : ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[(٢)] فالتسوية شاملة لجميع مخلوقاته ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[(٣)] وما يوجد من التفاوت وعدم التسوية، فهو راجع إلى عدم إعطاء التسوية للمخلوق، فإن التسوية أمر وجودي، تتعلق بالتأثير والإبداع، فما عدم منها (فلعدم إرادة)[(٤)] الخالق للتسوية، وذلك أمر عدمي يكفي فيه عدم الإبداع والتأثير، فتأمل ذلك، فإنه يزيل عنك الإشكال في قوله : ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[(٥)] فالتفاوت حاصل بسبب عدم مشيئة التسوية، كما أن الجهل والصمم والعمى والخرس والبكم يكفي فيها عدم مشيئة خلقها وإيجادها. وتمام هذا يأتي إن شاء الله في باب دخول الشر في القضاء (الإلهي)[(٦)] عند قول النبي ﷺ «والشر ليس إليك[(٧)]»[(٨)] . والمقصود أن كل مخلوق فقد سوَّاه خالقه سبحانه في مرتبة خلقه، وإن فاتته التسوية من وجه آخر لم يخلق له.

---

(١) سورة الشمس آية ٧ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٩ .

(٣) سورة الملك آية : ٣ .

(٤) في د : فالعدم بإرادة .

(٥) سورة الملك آية ٣ .

(٦) ساقطة من م، د، س .

(٧) طرف من حديث سبق تخريجه.

(٨) وهو الباب الحادي والعشرون ، وقد سماه المؤلف في موضعه، وفي المقدمة: (في تنزيه القضاء الإلهي عن الشر ودخوله في المقضي).

فصل

وأما التقدير والهداية ، فقال مقاتل: قدر خلق الذكر والأنثى (من الدواب)[١] فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها[٢] (قاله)[٣] ابن عباس والكلبي[٤].
وكذلك قال عطاء : قدر من النسل ما أراد ثم هدى الذكر للأنثى[٥] .
واختار هذا القول صاحب النظم[٦] فقال : معنى (هدى) هداية الذكر لإتيان الأنثى كيف يأتيها، لأن إتيان ذكران الحيوان لإناثه مختلف لاختلاف الصور والخلق والهيئات، فلولا أنه سبحانه جبل كل ذكر على معرفة كيف يأتي أنثى جنسه، لما اهتدى إلى ذلك[٧] .

وقال مقاتل أيضاً : هداه لمعيشته ومرعاه[٨] .

وقال السدي : قدر مدة الجنين في الرحم ثم (هداه)[٩] للخروج[١٠] .

---

(١) ساقطة من م ، د، س .
(٢) ذكره الواحدي في تفسير (البسيط) ق (١٨٠) مخطوط مرجع سابق انظر ص(٣٨٧).
وابن الجوزي في تفسيره (زاد المسير) (٩/ ٨٨) تفسير سورة الأعلى.
(٣) في د، س : وقال .
(٤) روى قول ابن عباس الطبري في تفسيره (١٦/ ١٧١-١٧٢) تفسير سورة طه .
وروى قول الكلبي عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٧) .
(٥) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(١٨٠) المرجع السابق .
(٦) هو : أبو علي، الحسين بن يحيى بن نصر، الجرجاني، روى عن العباس بن يحيى العقيلي، روى عنه أبو النضر محمد بن محمد بن يوسف الطوسي، له تصانيف عدة، منها : نظم القرآن في مجلدتين . انظر تاريخ جرجان للسهمي ص(١٨٧-١٨٨) ط الثالثة، نشر عالم الكتب ، بيروت سنة ١٤٠١هـ .
(٧) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق (١٨٠) المرجع السابق.
(٨)ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق (١٨٠) المرجع السابق .
(٩) في م ، ت : هدى .
(١٠) ذكره ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير (٩/ ٨٨) تفسير سورة الأعلى . والبغوي في تفسيره معالم التنزيل (٤/ ٤٧٥) .

وقال مجاهد : هدى الإنسان لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة[١] .

وقال الفراء: التقدير: فهدى وأضل، فاكتفى من ذكر أحدهما بالآخر[٢] .

قلت : الآية أعم من هذا كله، وأضعف الأقوال فيها قول الفراء، إذ المراد هاهنا الهداية العامة لمصالح الحيوان / في معاشه، ليس المراد هداية الإيمان ١٦٩أ والضلالة (بمشيئته)[٣] وهو نظير قوله : ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[٤]. فإعطاء الخلق : إيجاده في الخارج، والهداية: التعليم والدلالة على سبيل بقائه وما يحفظه ويقيمه .

(وما ذكره)[٥] مجاهد فهو تمثيل[٦] منه، لا تفسير مطابق للآية، فإن الآية شاملة لهداية الحيوان كله ناطقِه وبهيمِه، وطيره ودوابه، فصيحه وأعجمه، وكذلك قول من قال: إنه هداية الذكر لإتيان الأنثى تمثيل أيضاً، وهو فرد واحد من أفراد الهداية التي لا يحصيها إلا الله. وكذلك قول من قال: هداه للمرعى، فإن ذلك من الهداية (فأين الهداية)[٧] إلى التقام الثدي عند خروجه من بطن أمه، والهداية إلى معرفته أمه دون غيرها حتى يتبعها أين ذهبت،

---

(١) ذكره ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير (٩/ ٨٨) تفسير سورة الأعلى . والبغوي في تفسيره معالم التنزيل (٤/ ٤٧٥) .

(٢)انظر معاني القرآن للفراء (٣/ ٢٥٦) .

(٣) في ت : عنه .

(٤) سورة طه آية : ٥٠ .

(٥) في د، س : وما ذكر .

(٦) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (١٦/ ١٤٧) : وهكذا كثير من تفسير السلف يذكرون من النوع مثالاً لينبهوا به على غيره، أو لحاجة المستمع إلى معرفته، أو لكونه هو الذي يعرفه .

(٧) ما بين القوسين ساقط من د، وفي س : فإن الهداية .

والهداية إلى قصد ما ينفعه من المرعى دون ما يضره منه، وهداية الطير والوحش والدواب إلى الأفعال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان، كهداية النحل إلى سلوك السبل التي فيها مراعيها على تباينها، ثم عوده إلى بيوتها من الشجر والجبل وما يغرس بنو آدم .

وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب ، وذكر أن لها أميراً ومدبراً وهو اليعسوب[١] وهو أكبر جسماً من جميع النحل، وأحسن لوناً وشكلاً.

وإناث النحل تلد [٢] في إقبال الربيع، وأكثر أولادها يكنَّ إناثاً ، وإذا وقع فيها ذكر لم تدعه بينها، بل إما أن تطرده وإما أن تقتله، إلا طائفة يسيرة منها تكون حول الملك، وذلك أن (الذكر)[٣] منها لا يعمل شيئاً ولا يكسب . ثم تجتمع الأمهات وفراخها عند الملك، فيخرج بها إلى المراعي من المروج والرياض والبساتين والمراتع في أقصد الطرق وأقربها، فتجتني منها كفايتها فيرجع بها الملك، فإذا انتهوا إلى الخلايا وقف على بابها، ولم يدع ذكراً ولا نحلة غريبة تدخلها، فإذا تكامل دخولها بعدها (وقد أخذت)[٤] النحل مقاعدها وأماكنها، فيبتدئ الملك بالعمل كأنه يعلمها إياه / فيأخذ النحل في ٦٩ب العمل ويتسارع إليه، ويترك الملك العمل، ويجلس ناحية بحيث يشاهد النحل، فيأخذ النحل في إيجاد الشمع من لزوجات الأوراق والأنوار[٥] ، ثم تقتسم النحل فرقاً، فمنها فرقة تلزم الملك ولا تفارقه ولا تعمل ولا تكسب، وهم

---

(١) اليعسوب هو : فحل النحل، انظر أدب الكاتب لابن قتيبة ص (١٩٤) .

(٢) لعل المؤلف رحمه الله يقصد أنها تبيض في إقبال الربيع .

(٣) في د : الذكور .

(٤) في م، د، س : وتواجدت .

(٥) الأنوار : جمع النور، وهو زهر النبات. المصباح المنير (٢/ ٦٣٠) مادة (نور) .

النحل فرقاً، فمنها فرقة تلزم الملك ولا تفارقه ولا تعمل ولا تكسب، وهم حاشية الملك من الذكورة، ومنها فرقة تهيئ الشمع (وتصفيه)[1]، والشمع هو ثفل[2] العسل، وفيه حلاوة كحلاوة التين، وللنحل به عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل، فينظفه النحل، ويصفيه ويخلصه (مما يخالطه)[3] من أبوالها وغيرها، وفرقة تبني البيوت، وفرقة تسقي الماء وتحمله على متنها، وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل، وإذا رأت بينها نحلة مهينة باطلة قطعتها وقتلتها؛ حتى لا تفسد عليهن بقية العمال وتعديهن ببطالتها ومهانتها. وأول ما يبنى في الخلية مقعد الملك وبيته، فيبني له بيتاً مربعاً يشبه السرير والتخت، فيجلس عليه ويستدير حوله طائفة من النحل يشبه الأمراء والخدم والخواص لا يفارقنه، ويجعل النحل بين يديه شيئاً يشبه الحوض يصب فيه من العسل أصفى ما يقدر عليه، ويملأ منه الحوض يكون ذلك طعاماً للملك وخواصه، ثم يأخذن في (بناء)[4] البيوت على خطوط مستوية كأنها سكك ومحال، وتبني بيوتها مسدسة (الأشكال)[5] متساوية الأضلاع، كأنها قرأت كتاب إقليدس[6] حتى عرفت أوفق الأشكال

---

(١) في د ، س : وتصنعه .

(٢) الثفل هو : حثالة الشيء ، وهو الثخين الذي يبقى أسفل الصافي. المصباح المنير (١/ ٨٢) مادة (ثفل) .

(٣) ساقطة من : د .

(٤) في م ، د، س : ابتناء .

(٥) ساقطة من م، د، س .

(٦) هو : إقليدس بن نوقطرس بن برنيقس ، المظهر للهندسة، المبرز فيها، أقدم من أرشميدس وغيره، وهو من الفلاسفة الرياضيين. الفهرست للنديم ص(٣٢٥). =

(لثبوتها)[١]، لأن المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسعة، والشكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض (صارت)[٢] شكلاً مستديراً كاستدارة الرحى، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل ويشد بعضه بعضاً، حتى يصير طبقاً محكماً لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر، فتبارك الله الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم الذي يعجز البشر عن صنع مثله، فعلمت أنها محتاجة إلى/ أن تبني بيوتها (هذا البناء المحكم)[٣] من أشكال موصوفة بصفتين : ‎٧٠أ

إحداهما : أن تكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً.

الثانية : أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض امتلأت العرصة[٤] منها (فلا)[٥] يبقى شيء منها ضائعاً .

ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط، فإن المثلثات والمربعات، وإن أمكن امتلاء العرصة منها إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة، إلا أنها لا تمتلئ العرصة منها، بل يبقى فيما بينها فروج خالية ضائعة . وأما المسدس فهو موصوف

= وقد عرب كتابه هذا حنين بن إسحاق العبادي المتوفى سنة (٢٦٠هـ) وحرره بعده ثابت بن قرة المتوفى سنة (٢٨٨هـ). انظر البداية والنهاية (١١/ ٣٢، ٨٥) .

(١) في م، د، س : لبيوتها .

(٢) في م ، د، س : صار .

(٣) ما بين القوسين ساقط من م ، د، س .

(٤) العرصة هي: البقعة الواسعة التي ليس فيها بناء. المصباح المنير (٢/ ٤٠٢) مادة (عرص).

(٥) ساقطة من م .

بهاتين الصفتين، فهداها سبحانه (على)[١] بناء بيوتها على هذا الشكل من غير (تسطير)[٢] ولا آلة ولا مثال يحتذى عليه. وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكبيرة، فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها (على)[٣] (قوتها)[٤] وتأتيها ذللاً لا تستعصي عليها ولا تضل عنها، وأن تجتني أطيب ما في المرعى وألطفه، وأن تعود إلى بيوتها الخالية فتصب فيها شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون[٥] .

فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصاً تسيح سهلاً وجبلاً، فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار، فترجع بطاناً، وجعل سبحانه في أفواهها حرارة منضجة، تنضج ما جنته، فتعيده حلاوة ونضجاً ، ثم تمجه في البيوت، حتى إذا امتلأت ختمتها وسدت رؤوسها بالشمع المصفى، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته فاتخذت فيه بيوتاً، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى، فإذا برد الهواء (وأخلف)[٦] المرعى وحيل بينها وبين الكسب، لزمت بيوتها واغتذت بما ادخرته من العسل .

---

(١) في د،س : إلى .

(٢) في د، س : مسطرة .

(٣) في د : إلى .

(٤) في ت: قربها .

(٥) اقتباس من آية ٦٩ سورة النحل .

(٦) في ت: واختلف، ومعنى (أخلف المرعى): فسد، انظر القاموس المحيط ص (١٠٤٤) مادة (خلف) .

وهي في أيام الكسب والسعي تخرج بكرة، وتسيح في المراتع (وتشتغل)[١] ٧٠ب كل/ فرقة منها بما يخصها من العمل فإذا أمست رجعت إلى بيوتها ، فإذا كان وقت رجوعها وقف على باب الخلية بواب منها ومعه أعوان (له)[٢] فكل نحلة تريد الدخول يشمها البواب ويتفقدها، فإن وجد منها رائحة منكرة، أو رأى لطخة من قذر، منعها من الدخول، وعزلها ناحية إلى أن يدخل الجميع، فيرجع إلى المعزولات الممنوعات من الدخول، فيتفقدهن ويكشف أحوالهن مرة ثانية، فمن وجده قد وقع على شيء منتن أو نجس قدَّه نصفين، ومن كانت جنايته خفيفة تركه خارج الخلية، هذا دأب البواب كل عشيَّة، وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادراً، إذا اشتهى التنزه، فيخرج ومعه أمراء النحل والخدم، فيطوف في المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار ثم يعود إلى مكانه .

ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذى من النحل، أو من صاحب الخلية، أو من خدمه، فيغضب ويخرج من الخلية، ويتباعد عنها، ويتبعه جميع النحل، وتبقى الخلية خاوية، فإذا رأى صاحبها ذلك، وخاف أن يأخذ النحل، ويذهب بها إلى مكان آخر، احتال لاسترجاعه وطلب رضاه، فيتعرف موضعه الذي صار إليه (بالنحل)[٣] فيعرفه باجتماع النحل إليه، فإنها لا تفارقه، وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقوداً، وهو إذا خرج (غضبان)[٤] جلس على مكان مرتفع من الشجرة، وطافت به النحل، وانضمت إليه حتى يصير كالكرة، فيأخذ صاحب النحل رمحاً أو قصبة طويلة، ويشد على رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف، ويدنيه إلى محل الملك،

---

(١) في د، س : وتستعمل .

(٢) ساقطة من د، س .

(٣) في د : النحل .

(٤) في د، س : غضبا .

ويكون معه إما مزهر[١] أو يراع أو شيء من آلات الطرب، فيحركه وقد أدنى إليه ذلك الحشيش، فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الملك، فإذ رضي وزال غضبه طفر ووقع على (ذلك)[٢] الضغث[٣] وتبعه خدمه وسائر النحل، فيحمله صاحبه إلى الخلية، فينزل ويدخلها هو وجنوده/ ولا يقع النحل على جيفة، ولا حيوان، ولا طعام . ٧١أ

ومن عجيب أمرها: أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة، ولا تدين (بطاعتها)[٤] والنحل الصغار المجتمعة الخلق هي العسالة، وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع، وإخراجها ونفيها عن الخلايا، وإذا فعلت ذلك جاد العسل، وتجتهد أن تقتل ما تريد قتله خارج الخلية صيانة للخلية عن جيفته .

ومنها صنف (قليلة)[٥] النفع (كبيرة)[٦] الجسم. وبينها وبين العسالة حرب، فهي تقصدها وتغتالها، وتفتح عليها بيوتها، وتقصد هلاكها، والعسالة شديدة التيقظ والتحفظ منها، فإذا هجمت عليها في بيوتها (حاولتها)[٧] وألجأتها إلى أبواب البيوت، فتتلطخ بالعسل فلا تقدر على الطيران، ولا يفلت منها إلا كل طويل العمر، فإذا انقضت الحرب وبرد القتال عادت إلى القتلى، فحملتها وألقتها خارج الخلية، وقد ذكرنا أن الملك لا يخرج إلا في الأحايين، وإذا

---

(١) المزهر واليراع من آلات الملاهي، ولا يخفى أن المؤلف رحمه الله يحكي الواقع، وليس هو بصدد تقرير حكم آلات الطرب .

(٢) ساقطة من م، د، س .

(٣) الضغث هو: قبضة حشيش مختلف رطبها بيابسها. المصباح المنير (٢/ ٣٦٢) مادة (ضغث).

(٤) في د ، س : لطاعتها .

(٥) في د ، س : قليل .

(٦) في د ، س : كبير .

(٧) في د: حاورتها .

خرج خرج في مجموع[١] من الفراخ والشباب، وإذا عزم على الخروج ظل قبل ذلك بيوم أو يومين يعلم الفراخ وينزلها منازلها ويرتبها، فيخرج ويخرجن معه على ترتيب ونظام قد دبره معهن لا يخرجن عنه، وإذا تولدت عنده ذكران عرف (أنهن يطلبن) [٢] الملك فيجعل كل واحد منهن على طائفة من الفراخ ، ولا يقتل ملك منها ملكاً آخر ، لما في ذلك من فساد الرعية وهلاكها وتفرقها، وإذا رأى صاحب الخلية الملوك قد كثرت في الخلية، وخاف من تفرق النحل بسببهم، احتال عليهم وأخذ الملوك كلها إلا واحداً، ويحبس الباقي عنده في إناء ويدع عندهم من العسل ما يكفيهم، حتى إذا حدث بالملك المنصوب حدث (من) [٣] مرض أو موت أو كان مفسداً فقتلته النحل، أخذ من هؤلاء المحبوسين واحداً، وجعله مكانه لئلا يبقى النحل بلا ملك، فيتشتت أمرها.

ومن عجيب أمرها أن الملك إذا خرج متنزهاً ومعه الأمراء والجنود ربما لحقه إعياء، فتحمله / الفراخ، وفي النحل كرامٌ عمال ، لها سعي وهمة واجتهاد، وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة ، فالكرام دائماً تطردها، وتنفيها عن الخلية، ولا تساكنها خشية أن تعدي كرامها وتفسدها . ٧١ب

والنحل من (أنظف)[٤] الحيوان وأنقاه، ولذلك لا تلقى زبلها إلا (وهي)[٥] تطير، وتكره النتن والروائح الخبيثة، وأبكارها وفراخها أحرص وأشد اجتهاداً من الكبار، وأقل لسعاً وأجود عسلاً، ولسعها إذا لسعت أقل ضرراً من لسع الكبار .

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه – وقد خصت من وحي الرب

---

(١) في م : جموع .

(٢) في د : أنهم يتطلبن . وفي س : أنهن يتطلبن .

(٣) ساقطة من م ، د، س .

(٤) في د، س : ألطف .

(٥) في د، س : حين .

تعالى (وهدايته)[١] بما لم يشركها فيه غيرها، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام، والنور الذي يضيء في الظلام[٢] بمنزلة الهداة من الأنام - (كانت)[٣] أكثر الحيوان (أعداءً)[٤] وكان أعداؤها من أقل الحيوان منفعة وبركة، وهذه سنة الله في خلقه، وهو العزيز الحكيم .

فصل

وهذه النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها، وإن بعدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طريق معوجة بعيدة، ذات صعود وهبوط، في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان، فإذا خزنتها؛ عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت ، فإن كان ينبت مع فلقة باثنين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد وانتظرت به يوماً ذا شمس، فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ثم أعادته إليه، ولا تتغذى منها نملة (على ما)[٥] جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٦] فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت / بالاسم المبهم، ثم أتبعته ٤٧٢

---

(١) في م : وهدى الله .

(٢) حيث إن الشمع يستعمل للإضاءة. انظر القاموس المحيط ص(٤٩٤) مادة (شمع) .

(٣) في م، د، س : كان .

(٤) في د: أعداءها .

(٥) في د، س : مما .

(٦) كما في سورة النمل آية : ١٨ .

بما يثبته من اسم الجنس وإرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم (فيتحصنون)[١] من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول، وهو خشية أن تصيبهم (معرة)[٢] الجيش، فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية .

وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النملة بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[٣].

ثم قال : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾[٤] . فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودل على أن ذلك الوادي (معروفاً)[٥] بالنمل كوادي السباع[٦] ونحوه، ثم أخبر (عما)[٧] دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها، حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكناً لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت : ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ فجمعت بين اسمه وعينه، وعرفته بهما، وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فكأنها جمعت بين الاعتذار عن (معرة)[٨] الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث

---

(١) في د : فيتحصنوا .

(٢) في د: مضرة .

(٣) سورة النمل آية : ١٧ .

(٤) سورة النمل آية : ١٨ .

(٥) في د: معروف .

(٦) وادي السباع : موضع بين مكة والبصرة ، وبينه وبين البصرة خمسة أميال، وهو الذي قتل فيه الزبير بن العوام ﷺ ، انظر معجم البلدان (٥/ ٣٤٣) .

(٧) في د، س : بما .

(٨) في د، س : مضرة .

لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله سليمان ضاحكاً من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم .

وقد روى الزهري عن (عبيد الله)[١] بن عبد الله بن (عتبة)[٢] [٣] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل (أربع)[٤] : (النملة)[٥] والنحلة والهدهد والصُّرَد [٦][٧] .

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **« نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فقرصته نملة، فأمر بجهازه فأخرج، وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح، فهلا نملة واحدة»**[٨] .

---

(١) في د، س : عبد الله. وهو تصحيف، انظر ترجمته الآتي ذكرها .

(٢) في د، س : عيينة. وهو تصحيف .

(٣) هو: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، أبو عبد الله، المدني، ثقة فقيه، ثبت، من الثالثة، مات سنة أربع وتسعين، وقيل: ثمان، وقيل: غير ذلك، روى له الستة. تقريب التهذيب (١/ ٥٣٥) وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٣-٢٤) .

(٤) ساقطة من د، س .

(٥) في د، س : النمل .

(٦) الصرد هو : طائر ضخم الرأس والمنقار، له ريش عظيم، نصفه أبيض، ونصفه أسود، النهاية لابن الأثير (٣/ ٢١) .

(٧) رواه أبو داود (١٤/ ١٧٨) ك الأدب- باب في قتل الذر، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٤) ك الصيد – باب ما ينهى عن قتله. والإمام أحمد (١/ ٣٣٢-٣٤٧) وقال الشيخ أحمد شاكر: وإسناده صحيح . انظر المسند بتحقيقه (٥/ ٢٩-٣٠). والدارمي في سننه (٢/ ١٦) ك الأضاحي – باب النهي عن قتل الضفدع والنحلة. وعبد الرزاق في مصنفه (٤/ ٤٥١) . والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٣٧٠-٣٧١) والبغوي في شرح السنة (١٢/ ١٩٨) . وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٢/ ٤٦٢) . والبيهقي في سننه (٩/ ٣١٧) .

(٨) رواه البخاري (٤/ ٢٢) ك الجهاد والسير. وفي (٤/ ١٠٠) ك بدء الخلق. ومسلم =

وذكر هشام بن حسان[١] أن أهل الأحنف بن قيس[٢] لقوا من النمل شدة، فأمر الأحنف بكرسي/ فوضع عند (بيوتهن)[٣] فجلس عليه، ثم تشهد، ثم قال : لتنتهن أو لنحرقن عليكن ونفعل ونفعل، قال: فذهبن[٤] .

٧٢ب

وروى عوف بن أبي جميلة[٥] عن قسامة بن زهير[٦] قال : قال أبو موسى

= في (٤/ ١٧٥٩) ك السلام - باب النهي عن قتل النمل. وأبو داود (١٤/ ١٧٦-١٧٧) ك الأدب - باب في قتل الذر. والنسائي (٧/ ٢١٠-٢١١) ك الصيد والذبائح - باب قتل النمل. وابن ماجة (٢/ ١٠٧٥) ك الصيد - باب ما ينهى عن قتله. والإمام أحمد (٢/ ٣١٣، ٤٤٩) وعبد الرزاق في مصنفه (٤/ ٤٥٠) . والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٣٧٣) . وأبو يعلى في مسنده (١١/ ١٩٥) . والبغوي في شرح السنة (١٢/ ١٩٧) ك الطب والرقى - باب قتل الذر . والبيهقي في سننه (٥/ ٢١٤) .

(١) هو : هشام بن حسان الأزدي سبقت ترجمته في ص (٢٤٦) .

(٢) هو : الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي، أبو بحر ، أحد الدهاة الفصحاء الشجعان، يضرب به المثل في الحلم، أدرك النبي ﷺ ولم يره، شهد الفتوح في خراسان، واعتزل الفتنة يوم الجمل. توفي سنة سبع وستين. وقيل: اثنتين وسبعين. روى له الستة. تقريب التهذيب (١/ ٤٩) وتهذيب التهذيب (١/ ١٩١) .

(٣) في م ، د، س : تنورين .

(٤) ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان (٤/ ١٨) تحقيق عبد السلام هارون، ط الثانية، نشر مطبعة البابي الحلبي بمصر. والدميري في حياة الحيوان الكبرى (٢/ ٣٦٩) نشر دار الفكر، بيروت .

(٥) ثقة سبقت ترجمته في ص (٣١٧) .

(٦) هو : قسامة بن زهير المازني، البصري، ثقة، من الثالثة، مات بعد الثمانين، روى له أبو داود والترمذي والنسائي. تقريب التهذيب(٢/ ١٢٦) وانظر تهذيب التهذيب (٨/ ٣٧٨) .

الأشعري: إن لكل شيء سادة، حتى للنمل سادة[١] .

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه، قال: «خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها، فقال: ارجعوا، فقد كفيتم، أو سقيتم بغيركم». ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي[٢] في التهذيب وغيره[٣] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا (وكيع[٤] حدثنا مسعر[٥] عن زيد العمي[٦] عن

---

(١) ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان (٤/ ١٩) و(٥/ ٤٢٢) .

(٢) هو : الإمام المحدث الفقيه، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبدالملك، الأزدي الحجري، المصري الطحاوي، الحنفي، ابن أخت المزني، من أهل قرية طحا من قرى مصر، كان ثقة ثبتاً فقيها، انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة في مصر، ولد سنة (٢٣٧) سبع وثلاثين ومائتين، وتوفي سنة (٣٢١هـ) إحدى وعشرين وثلاثمائة. وله مصنفات منها: مشكل الآثار، وشرح معاني الآثار وغيرهما. سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧-٣٣) وطبقات الحافظ ص (٣٣٩) والأعلام (١/ ٢٠٦) .

(٣) انظر مشكل الآثار (١/ ٣٧٣) وسيذكر المؤلف بعد هذا الأثر رواية الإمام أحمد له بسندها .

(٤) هو : وكيع بن الجراح الرؤاسي، ثقة سبقت ترجمته في ص (١٨٧) .

(٥) هو : مسعر بن كدام، بكسر أوله وتخفيف ثانيه، ابن ظهير، الهلالي، أبو سلمة الكوفي، ثقة ثبت فاضل، من السابعة، مات سنة ثلاث أو خمس وخمسين ومائة. روى له الستة. تقريب التهذيب (٢/ ٢٤٣) . انظر تهذيب التهذيب (١٠/ ١١٣-١١٥) .

(٦) هو : زيد بن الحواري ، أبو الحواري، العمي، البصري، قاضي هراة، يقال: اسم أبيه مرة، وقيل له: العمي؛ لأنه إذا سئل عن شيء قال: لا حتى أسأل عمي، ضعيف من الخامسة. تقريب التهذيب (١/ ٢٧٤) . وتهذيب التهذيب (٣/ ٤٠٧-٤٠٩) .

أبي الصديق[١] الناجي)[٢] : خرج سليمان بن داود يستسقي، فرأى نملة مستلقية على ظهرها ، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا، وإما أن تهلكنا، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم)[٣] .

ولقد حدثني (من أثق به)[٤] أن نملة خرجت من بيتها، فصادفت شق جرادة، فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها ، قال : فرفعت ذلك من الأرض، فطافت في مكانه فلم تجده فانصرفوا وتركوها، قال: فوضعته فعادت تحاول حمله، فلم تقدر، فذهبت وجاءت بهم فرفعته، فطافت فلم تجده، فانصرفوا . قال: فعلت ذلك مراراً، فلما كان في المرة الأخيرة استدار النمل حلقة، ووضعوها في وسطها وقطعوها عضواً عضواً .

قال شيخنا[٥] وقد حكيت له هذه الحكاية: هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب .

والنمل من أحرص الحيوان، ويضرب بحرصه المثل، ويذكر أن سليمان

---

(١) هو : بكر بن عمرو ، قيل: ابن قيس ، أبو الصديق الناجي - بالنون والجيم - بصري ثقة، من الثالثة، مات سنة ثمان ومائة، روى له الستة. تقريب التهذيب (١/ ١٠٦) وتهذيب التهذيب (١/ ٤٨٦) .

(٢) ما بين القوسين بياض في م، ت، س، وما أثبت من كتاب الزهد للإمام أحمد، وانظر أيضاً مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٣١٢) فقد رواه عن وكيع ... به .

(٣) انظر كتاب الزهد للإمام أحمد ص (١١٠) . ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٣١٢)

(٤) ساقطة من د، س .

(٥) يعني شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

(بن داود)[١] صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من / الحنطة، فأمر بإلقائها في قارورة وسد فم القارورة، وجعل معها ثلاث حبات حنطة، وتركها سنة (بعدما قالت)[٢]، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد (فيها)[٣] حبة ونصف حبة فقال[٤] : أنتِ زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات، فقالت: نعم (ولقد صدقتك)[٥] ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح أبناء جنسك، حسبت الذي (معي)[٦] فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت، واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي، فعجب سليمان من شدة حرصها ، وهذا من أعجب الهداية (والفطنة)[٧] .

١٧٣أ

ومن حرصها: أنها تكد طول الصيف وتجمع للشتاء، علماً منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه، وهي ـ على ضعفها ـ شديدة القوى ؛ فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها .

ومن عجيب أمرها: أنك إذا أخذت عضو (جرادة يابس)[٨] فأدنيته إلى

---

(١) إضافة من ت .

(٢) ساقطة من ت .

(٣) في م بياض، وساقطة من د، س .

(٤) في د، س زيادة : أين زعمك .

(٥) ساقطة من م، د، س .

(٦) في د، س : بقي من عمري .

(٧) في د، س : والعطية .

(٨) في د، س : كزبرة يابساً .

أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه (فاحتملته)[١] ، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه، فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره، فتحمله وتذهب به وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاؤوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضاً حتى يساعدوا على حمله ونقله، وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها، فإن وجدتها حنطة قطعتها (وفرقتها)[٢] وإن وجدتها شعيراً (فلا)[٣] ، ولها صدق الشم، وبعد الهمة، وشدة الحرص، والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها .

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائداً يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه، فيخرجن مجتمعات. وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها، غير مختلسة من الحب شيئاً لنفسها دون صواحباتها .

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من (الذر)[٤] لا تسقط في

---

(١) ساقطة من م، د، س .

(٢) في د، س : ومزقتها .

(٣) في ت: تركتها فلها أولا. ومن عجائب النمل ما ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان (٦/٤) : بأنها تفلق الحب كله أنصافاً . فأما إذا كان الحب من حب الكزبرة فلقته أرباعاً، لأن أنصاف الكزبرة ينبت من بين جميع الحبوب.

(٤) في د، س : النمل. والذر هو : صغار النمل. انظر القاموس المحيط (٢/ ٣٤) مادة (ذر).

عسل أو نحوه، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء، أو يتخذ إناء كبيرًا ويملأه ماءً، ثم يضع فيه ذلك الشيء، فتأتي (الذر)[١] تطيف به فلا تقدر عليه، فتتسلق في الحائط وتمشي على السقف إلى أن تحاذي ذلك الشيء فتلقى نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك .

وأحمى صانعٌ مرة طوقاً بالنار، ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن (أسفل)[٢] الطوق (نمل)[٣] فتوجه في الجهات ليخرج (فيلحقه)[٤] وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق، وكان (فيه)[٥] (وكان)[٦] ذلك مركزاً له، وهو أبعد مكان من المحيط .

فصل

وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض (حيث)[٧] لا يراه غيره. ومن هدايته ما حكاه الله سبحانه عنه في كتابه أنه قال لنبي الله سليمان، وقد فقده وتوعده فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن (يبدره)[٨] سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطاباً هيجه به إلى الإصغاء إليه والقبول منه، فقال : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾[٩] وفي ضمن هذا أني

(١) في د، س : الذي .
(٢) في م، أشمل، وفي د، س : اشتمل .
(٣) في د، س : على نمل .
(٤) في م ، د، س : فلحقه .
(٥) ساقطة من د، س .
(٦) ساقطة من م ، د، س .
(٧) ساقطة من م، د، س .
(٨) في م ، د، س : ينذره .
(٩) سورة النمل آية : ٢٢ .

أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[١] والنبأ هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر (وقبوله)[٢] وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج، ثم كشف (له)[٣] عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً (بأداة)[٤] التأكيد، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾[٥]، ثم ١٧٤/أ أخبر عن شأن تلك الملكة، وأنها من أجل الملوك، بحيث أوتيت من كل/ شيء يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها (التي)[٦] تجلس عليه وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما (يدعوه)[٧] إلى قصدهم وغزوهم في (عقر)[٨] دارهم بعد عودتهم إلى الله، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٩]. وحذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذاناً بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها، ثم أخبر عن المغوي لهم، الحامل لهم على ذلك هو تزيين الشيطان لهم

(١) سورة النمل آية :٢٢ .
(٢) ساقطة من د، س .
(٣) ساقطة من م، دن س .
(٤) سورة النمل آية : ٢٣ .
(٥) في م ، د، س : بأدلة .
(٦) في د: الذي .
(٧) في د، س : يدعوهم .
(٨) في ت: غير .
(٩) سورة النمل آية : ٢٤ .

أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم، وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله ، الذي لا ينبغي السجود إلا له، ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السموات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء، وما يخرج من الأرض. وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض .

قال صاحب الكشاف[1]: وفي إخراج الخبء على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السماوات والأرض جلت قدرته ولطف علمه .

ولا يكاد يخفي على ذي الفراسة، الناظر بنور الله مخايل كل (مختص)[2] بصناعة أو فن من العلم في إروائه ومنطقه وشمائله، فما علم آدمي عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله[3] .

فصل

وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية، حتى قال الشافعي : أعقل الطير (الحمام)[4] . وبُرُد[5] الحمام هي التي تحمل الرسائل والكتب، ربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد، فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره، لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة

---

(١)هو : محمود بن عمر الزمخشري ، سبقت ترجمته في ص (٣٤٤) .

(٢) في م ، ت ، د، س : شخص. وما أثبت من الكشاف .

(٣) انظر الكشاف (٣/ ١٤٥).

(٤) ساقطة من د.

(٥) بُرُد : – بضمتين – جمع بريد . انظر المصباح المنير ص (٤٣) مادة (برد) .

٧٤ب ألف فرسخ[١] فما دونها. وتنهي الأخبار والأغراض والمقاصد/ التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول. والقيِّمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناء عظيماً، فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقت السفاد، وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها، والإناث عن ذكورها، ويخافون عليها من فساد أنسابها وحملها من غيرها، ويتعرفون صحة طرقها ومحلها (لأنهم)[٢] لا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكراً من عرض الحمام فتعتريها الهجنة)[٣] .

والقيّمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم، ويحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم، ويحتاطون لها. والقيمون (بأمرها)[٤] لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء، بحيث إذا رأوا حماماً ساقطاً لم يخف عليهم حسبها، ونسبها، وبلدها، ويعظمون صاحب التجربة والمعرفة، وتسمح أنفسهم بالجعل[٥] الوافر له، ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها، ويقولون : هو أحنّ إلى بيته لمكان أنثاه، وهو أشد متناً، وأقوى بدناً، وأحسن اهتداء . وطائفة منهم تختار لذلك الإناث؛ يقولون: الذكر إذا سافر وبعد

(١) فرسخ الطريق: ثلاثة أميال هاشمية، وقيل : اثنا عشر ألف ذراع، وهي ثمانية كيلات من الأمتار تقريباً. انظر القاموس المحيط ص (٣٢٩) والمنجد (٥٧٦) مادة (فرس) .

(٢) ساقطة من م، د، س .

(٣) هكذا في جميع النسخ ، ولعل صحة العبارة ان يقال: (لأنهم لا يأمنون أن يفسد الأنثى ذكر من عرض الحمام، فتعتري الهجنة فراخها). انظر الحيوان للجاحظ (٣/ ٢١٣-٢١٤) فقد ورد فيه هذا الكلام مع اختلاف يسير.

(٤) ساقطة من د .

(٥) الجعل – بالضم ـ : الأجر . انظر المصباح المنير (١/ ١٠٢) مادة (جعل) .

عهده حنّ إلى الإناث وتاقت نفسه إليهن، فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه، فلا يصبر عنها، فترك المسير ومال إلى قضاء وطره منها .

(وهداية الحمام)[١] على قدر التعليم والتوطين، والحمام موصوف باليُمن والإلف (والتأنس)[٢] ، ويحب الناس ويحبونه، ويألف المكان، ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه وإن أساء إليه، ويعود إليه من مسافات (شاسعة)[٣] وربما صُدَّ (واحتول)[٤] (عن)[٥] وطنه عشر حجج، وهو ثابت على الوفاء، حتى إذا وجد فرصة واستطاعة عاد إليه .

والحمام إذا أراد السفاد يلطف للأنثى غاية اللطف، فيبدأ بنشر ذنبه وإرخاء (جناحيه)[٦]، ثم يدنو من الأنثى، فيهدر لها ويقبلها (ويزقها)[٧] وينتفش ويرفع صدره، ثم يعتريه ضرب من (الحكة والفلي)[٨] والأنثى في ذلك مرسلة جناحها وكتفها على الأرض، فإذا قضى حاجته منها ركبته الأنثى، وليس / ذلك في شيء من الحيوان سواه. وإذا علم الذكر أنه أودع رحم ١٧٥أ الأنثى ما يكون منه الولد، يقوم هو والأنثى بطلب القصب والحشيش وصغار العيدان منه فيعملان منه أفحوصة، وينسجاها نسجاً متداخلاً في الموضع الذي يكون بقدر جثمان الحمامة، ويجعلان حروفها شاخصة مرتفعة

---

(١) في م ، د، س : وهدايته .
(٢) في د، س : للناس .
(٣) في د، س : بعيده .
(٤) ساقطة من م، د، س .
(٥) في م، د، س : فترك .
(٦) في د، س: جناحه .
(٧) في د، س : ويزفها .
(٨) في د، س : الوله .

لئلا يتدحرج عنها البيض، وتكون حضناً للحاضن، ثم يتعاودان ذلك المكان، ويتعاقبان الأفحوص يسخنانه ويطيبانه، وينفيان طباعه (الأول)[1] ويحدثان فيه طبعاً آخر مشتقاً ومستخرجاً من طباع أبدانهما ورائحتهما، لكي تقع البيضة إذا وقعت في مكان هو أشبه المواضع بأرحام الحمام، ويكون على مقدار من الحر والبرد والرخاوة والصلابة، ثم إذا ضربها المخاض بادرت إلى ذلك المكان (ووضعت فيه البيض، فإذا أفزعها رعد قاصف رمت بالبيضة دون ذلك المكان)[2] الذي هيأته، كالمرأة التي تسقط من الفزع، فإذا وضعت البيض في ذلك المكان، لم يزالا يتعاقبان الحضن، حتى إذا بلغ الحضن مداه وانتهت أيامه، انصدع عن الفرخ فأعاناه على خروجه، فيبدآن أولاً بنفخ الريح في حلقه حتى تتسع (حوصلته)[3] علماً منهما بأن (الحوصلة)[4] تضيق عن الغذاء، فتتسع (الحوصلة)[4] بعد التحامها وتتفق بعد ارتتاقها، ثم يعلمان أن (الحوصلة)[4] وإن كانت قد اتسعت شيئاً، فإنها في أول الأمر لا تحتمل الغذاء، فيزقانه[5] بلعابهما المختلط بالغذاء وفيه قوى الطعم، ثم يعلمان أن طبع (الحوصلة)[6] يضعف عن استمرار الغذاء، وأنها تحتاج إلى دفع وتقوية، لتكون لها بعض المتانة، فيلقطان من (أصول الحيطان)[7] الحب اللين الرخو،

---

(١) في د: الأولى .

(٢) ما بين القوسين ساقط من ت .

(٣) في د: حويصلته .

(٤) في د: الحويصلة .

(٥) الزَّقّ – بفتح الراء المشددة –: إطعام الطائر لفراخه . انظر القاموس المحيط ص(١١٥٠) مادة (زقق) .

(٦) في د : الحويصلة .

(٧) في د، س : الغيطان .

ويزقانه الفرخ، ثم يزقانه بعد ذلك الحب الذي هو أقوى وأشد، ولا يزالان يزقانه بالحب والماء على تدريج بحسب قوة الفرخ، وهو يطلب ذلك منهما، حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع ليحتاج إلى اللقط ويعتاده، وإذا علما أن (أدواته)[1] قد قويت ونمت، وأنهما إن فطماه/ فطاماً تاماً، قوي ٧٥ب على اللقط وتبلَّغ لنفسه، ضرباه إذا سألهما الزق ومعناه، ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهما، وينسيان ذلك (التعطف)[2] المتمكن حين يعلمان أنه قد أطاق القيام بنفسه والتكسب، ثم يبتدئان العمل ابتداءً على ذلك النظام[3].

والحمام (مشاكل)[4] الناس في أكثر طباعه ومذاهبه، فإن (في)[5] إناثه أنثى لا تريد إلا زوجها، وفيه أخرى لا ترد يد لامس، وأخرى لا تنال إلا بعد الطلب الحثيث، وأخرى تُركب من أول وهلة وأول طلب، وأخرى لها ذكر معروف بها، وهي تمكن ذكراً آخر منها (عند غيبة ذكرها لا تعدوه، قد اتخذته خدناً، وأخرى مسافحة)[6] إذا غاب زوجها لم تمتنع ممن ركبها، وأخرى تمكن من (نفسها غير)[7] زوجها وهو يراهما ويشاهدهما ولا تبالي بحضوره، وأخرى (تقمط[8])[9] الذكر وتدعوه إلى نفسها، وأنثى تركب أنثى وتساحقها،

---

(١) في د، س: رئته.

(٢) في د: العطف.

(٣) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (٣/ ١٤٩-١٥٤).

(٤) في د، س: يشاكل.

(٥) ساقطة من م. وفي د، س: من.

(٦) ما بين القوسين ساقط من د، س.

(٧) في د، س: يغنيها عن.

(٨) في د، تغري.

(٩) القمط: السفاد والجماع، وسفاد الطائر قمط. انظر معجم مقاييس اللغة (٥/ ٢٧) والقاموس المحيط ص (٨٨٣) مادة (قمط).

وذكر يركب ذكراً ويعسفه.

وكل حالة توجد في الناس ذكورهم وإناثهم توجد في الحمام. وفيها من لا تبيض ، وإن باضت أفسدت البيضة، كالمرأة التي لا تريد الولد كيلا يشغلها عن شأنها. وفي إناث الحمام من إذا عرض لها ذكر، أي ذكر كان، أسرعت هاربة، ولا تواتي غير زوجها البتة، بمنزلة المرأة الحرة. ومنها ما يأخذ أنثى يتمتع بها (مدة)[1] ثم ينتقل إلى غيرها، وكذلك الأنثى توافق ذكراً آخر غير زوجها وتنتقل عنه، وإن كانوا جميعاً في برج واحد. ومنها ما يتصالح على الأنثى منها ذكران أو أكثر (فتعاشرهم)[2] كلهم، حتى إذا غلب واحد منهم رفيقه وقهره، مالت إليه وأعرضت عن المغلوب[3] .

وفي الحديث أن النبي ﷺ رأى حمامة[4] تتبع حمامة، فقال: « **شيطان يتبع شيطانة** »[5] .

ومنها ما يزق فراخه خاصة، ومنها ما فيه شفقة ورحمة بالغة ويزق فراخه وغيرها .

---

(١) إضافة من ت .

(٢) في د، س : فتعايرهم .

(٣) انظر معنى هذا الكلام في كتاب الحيوان للجاحظ (٣/ ١٦٥-١٦٨) .

(٤) قوله: (رأى حمامة) هكذا وردت في جميع النسخ، وفي كتب تخريج الحديث وردت بلفظ (رأى رجلاً) .

(٥) هذا الحديث من رواية أبي هريرة رضي الله عنه . وأخرجه : أبو داود (١٣/ ٢٨٤) ك الأدب - باب في اللعب بالحمام. وابن ماجة (٢/ ١٢٣٨) ك الأدب - باب اللعب بالحمام. والإمام أحمد (٢/ ٣٤٥) . والبخاري في الأدب المفرد ص (٤٤١) . وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٣/ ١٨٣) . والبيهقي في سننه (١٠/ ١٩، ٢١٣). وفي شعب الإيمان (٥/ ٢٤٤). وذكره الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح (٢/ ١٢٧٦) وقال الألباني : إسناده حسن .

ومن عجيب / هداها أنها إذا حملت الرسائل سلكت الطرق البعيدة عن ١٧٦أ القرى ومواضع الناس؛ لئلا يعرض لها من يصدها. ولا ترد مياههم، بل ترد المياه التي لا يردها الناس.

ومن (هدايته)[1] أيضاً أنه إذا رأى (البازي)[2] في الهواء عرف أي (البزاة هو)[3] وأي نوع من الأنواع صده، فيخالف فعله ليسلم منه.

ومن (كيسه)[4] أنه في أول نهوضه (يعقل ويميز)[5] بين النسر والعقاب، وبين الرخم والبازي، وبين الغراب والصقر، فيعرف من يقصده ومن لا يقصده. وإن رأى الشاهين، فكأنه (رأى)[6] السم الناقع، ويأخذه (تحير)[7] كما يأخذ الشاة عند رؤية الذئب، والحمار عند مشاهدة الأسد[8] .

ومن هداية الحمام أن الذكر والأنثى تتقاسمان أمر الفراخ، فتكون الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى، وجلب القوت والرزق على الذكر، فإن الأب هو صاحب العيال والكاسب لهم، والأم هي التي تحبل وتلد وترضع .

---

(١) في م، د ، س : هدايتها.

(٢) في م، د، س : الناس. وما أثبت من ت. وهو مطابق لما في كتاب الحيوان للجاحظ .

(٣) في د، س : صنف يريده. وما أثبت من ت، م ، وهو مطابق لما في كتاب الحيوان للجاحظ .

(٤) في د، س : هدايته .

(٥) في د، س : يغفل ويمر. وفي كتاب الحيوان للجاحظ: يفصل .

(٦) في د، س : يرى .

(٧) في د، س : حيرة .

(٨) انظر معنى هذا الكلام في كتاب الحيوان للجاحظ (٣/ ١٨٧، ٢٢٠) .

ومن عجيب أمرها ما ذكره الجاحظ[1] أن رجلاً كان له زوج حمام مقصوص وزوج (حمام)[2] طيار، وللطيار فرخان، قال: ففتحت لهما في أعلى الغرفة كوة للدخول والخروج وزق فراخهما، قال: فحبسني السلطان فجأة، فاهتممت بشأن المقصوص غاية الاهتمام، ولم أشك في موتهما؛ لأنهما لا يقدران على الخروج من الكوة، وليس عندهما ما يأكلان ويشربان، قال: فلما خلي سبيلي ولم يكن لي هم غيرهما، فتحت البيت، فوجدت الفراخ قد كبرت، ووجدت المقصوص على أحسن حال، فعجبت ، فلم ألبث أن جاء الزوج الطيار، فدنا الزوج المقصوص إلى أفواههما يستطعمانهما كما يستطعم الفرخ فزقاهما[3] .

فانظر إلى هذه الهداية، فإن المقصوصين لما شاهدا تلطف الفراخ للأبوين، وكيف يستطيعانهما، (و)[4] اشتد بهما الجوع والعطش فعلا كفعل الفرخين ، فأدركتهما رحمة الطيارين، فزقاهما كما يزقان فرخيهما .

٧٦ب ونظير ذلك ما ذكره الجاحظ وغيره، قال الجاحظ: وهو أمر/ مشهور عندنا بالبصرة، إنه لما وقع الطاعون الجارف (أتى)[5] على أهل (دار)[6] فلم يشك

---

(١) هو : عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، كبير أئمة الأدب، رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. توفي في البصرة سنة ٢٥٥هـ . له مصنفات كثيرة؛ منها :الحيوان، والبيان والتبيين، والبخلاء، وغيرها. سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٢٦-٥٣٠). والفرق بين الفرق ص(١٦٠). والأعلام (٥/ ٧٤) .

(٢) ساقطة من م ، د، س .

(٣) انظر كتاب الحيوان (٢/ ١٥٦-١٥٨) .

(٤) في د، س : إذا .

(٥) ساقطة من د.

(٦) في د : محلة .

(أهل تلك المحلة)[١] أنه لم يبق منهم (أحداً)[٢] فعمدوا إلى باب الدار فسدوه، وكان قد بقي صبي صغير يرضع ولم يفطنوا له، فلما كان بعد ذلك بمدة تحول إليها بعض ورثة القوم، ففتح الباب فلما أفضى إلى عرصة[٣] الدار، إذا هو بصبي يلعب مع جراء[٤] كلبة قد كانت لأهل الدار، فراعه ذلك، فلم يلبث أن أقبلت كلبة قد كانت لأهل الدار، فلما رآها الصبي حبا إليها فأمكنته من أطبائها[٥] فمصها. وذلك أن الصبي لما اشتد جوعه، ورأى جراء الكلبة يرتضعون من (أطبائها)[٦] حبا إليها فعطفت عليه، فلما سقته مرة أدامت له ذلك وأدام هو الطلب. ولا يستبعد هذا وما هو أعجب منه، فإن الذي هدى المولود إلى مص إبهامه ساعة يولد، ثم هداه إلى التقام حلمة ثدي لم يتقدم به عادة، كأنه قد قيل له: هذه خزانة طعامك وشرابك التي كأنك لم تزل بها عارفاً[٧].

وفي هدايته للحيوان إلى مصالحه ما هو أعجب من ذلك، ومن ذلك أن الديك الشاب إذا (ألقي له حب)[٨] لم يأكله حتى يفرقه، فإذا هرم وشاخ

---

(١) في د: أهلها.

(٢) في د، س: أحد بالرفع، ولعله على اعتبار أنه فاعل. والفعل مبني للمعلوم.

(٣) عرصة الدار: ساحتها. وسبق تعريفها في ص (٥٢٤).

(٤) الجراء: جمع جرو، وهو ولد الكلبة الصغير، انظر المصباح المنير (١/ ٩٨) مادة (جرى).

(٥) أطباؤها: جمع طبي - بالكسر والضم -: حلمات الضرع التي من خف وظلف وحافر وسبع. القاموس المحيط ص (١٦٨٤) مادة (طبى).

(٦) في م، د، س: أطباء الكلبة.

(٧) انظر كتاب الحيوان للجاحظ (٢/ ١٥٥-١٥٦).

(٨) في م: لقي حب. وفي د، س: لقي حبا.

أكله من غير تفريق، كما قال المدائني[(١)] : إن إياس بن معاوية[(٢)] مر بديك ينقر حباً ولا يفرقه، فقال: ينبغي أن يكون هرماً ، فإن الديك الشاب يفرق الحب ليجتمع الدجاج حوله (فيصبن)[(٣)] منه، والهرم قد فنيت رغبته (فيهن)[(٤)] فليس له همة إلا نفسه[(٥)] .

قال إياس : والديك (الشاب)[(٦)] يأخذ الحبة (فيؤثرها)[(٧)] الدجاجة حتى يلقيها من فيه، والهرم يبتلعها ولا يلقيها للدجاجة[(٨)] .

وذكر ابن الأعرابي[(٩)] قال: أكلت حية بيض مكاء[(١٠)] فجعل المكاء

---

(١) هو : علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني، أبو الحسن، سكن المدائن ثم انتقل إلى بغداد، وكان عالماً بالفتوح والمغازي والشعر والأنساب وأيام العرب، مصدقاً فيما ينقله، عالي الإسناد، وله مصنفات كثيرة، توفي ببغداد سنة (٢٢٥) خمس وعشرين ومائتين، وكان مولده سنة (١٣٢) اثنتين وثلاثين ومائة. سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٠٠-٤٠٢) والأعلام (٤/ ٣٢٣) .

(٢) هو : إياس بن معاوية بن قرة بن إياس المزني، أبو واثلة البصري، القاضي المشهور بالذكاء، ثقة من الخامسة. مات سنة اثنتين وعشرين ومائة. روى له البخاري تعليقاً، ومسلم في المقدمة. تقريب التهذيب (١/ ٨٧) انظر سير أعلام النبلاء (٥/ ١٥٥).

(٣) د، س : فتصيب .

(٤) ساقطة من د، س .

(٥) ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان (٢/ ١٥٢) .

(٦) ساقطة من م، د، س .

(٧) في م، د ، س : فهو يريها .

(٨) لم أعثر له على تخريج

(٩) هو : محمد بن زياد، أبو عبد الله، المعروف بابن الأعرابي، ولد بالكوفة سنة ١٥٠هـ، من علماء اللغة وأهل الرواية، من كتبه (تفسير الأمثال) و(معاني الشعر). توفي بسامراء سنة ٢٣١هـ . سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦٨٧-٦٨٨) والأعلام (٦/ ١٣١) .

(١٠) المكاء ـ بالضم والتشديد ـ هو: طائر يسقط في الرياض ويمكو ، أي يصفر ، وهو مثل =

(يوسوس)[1] ويطير على رأسها ويدنو منها، حتى إذا فتحت فاها وهمت به ألقى (فيه)[2] حسكة[3] فأخذت بحلقها حتى ماتت .

وأنشد أبو (عمرو[4] الشيباني)[5] في ذلك قول الأسدي[6] : / ١٧٧

إن كنت أبصرتني عيلاً ومصطلماً فربما قتل المكاءُ ثعبانا[7]

= القنبرة إلا أن في جناحيه بلقاً. أدب الكاتب لابن قتيبة ص (١٩٣) تحقيق محمد الدالي، ط. الأولى ١٤٠٢هـ. نشر مؤسسة الرسالة، بيروت وهامش كتاب الحيوان (٧/ ٢٣) .

(١) في د، س : يصوت .

(٢) ساقطة من د، س .

(٣) الحسكة هي : نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم، ورقه كورق الرجلة وأدق، وعند ورقه شوك ملزز صلب، ذو ثلاث شعب، وله ثمر. القاموس المحيط ص (١٢٠٩) مادة (حسك) .

(٤) في ت: أبو عمران البناني .

(٥) هو : إسحاق بن مرار - بكسر أوله والتخفيف - الشيباني، وقيل: لم يكن شيبانياً، بل أدَّب بعض أولادهم فنسب إليهم، كوفي نزل بغداد، وكان نحوياً لغوياً، عالماً بالشعر، صدوقاً في رواية الحديث، وكان الإمام أحمد يلزم مجالسه ويكتب أماليه، له تصانيف، منها: كتاب اللغات، والنوادر المعروف بكتاب الجيم، وكتاب غريب الحديث وغيرها، مات سنة عشر ، أو ست ومائتين، وقد قارب مائة وعشرين سنة. روى له مسلم. ميزان الاعتدال (٤/ ٥٥٧) وتقريب التهذيب (٢/ ٤٥٥) وتهذيب التهذيب (١٢/ ١٨٢-١٨٤) والأعلام (١/ ٢٩٦) .

(٦) لم أقف على ترجمة له .

(٧) في كتاب الحيوان : (فذاً) بدلاً من عيلاً. ويوضح الجاحظ معنى هذا البيت بقوله : يقول: قد يظفر القليل بالكثير، والقليل الأعوان بالكثير الأعوان، والمكاء من أصغر الطير وأضعفه، وقد احتال للثعبان حتى قتله. انظر كتاب الحيوان (٧/ ٢٣) وقد ذكر فيه هذه القصة وبيت الشعر. وذكر القصة دون بيت الشعر الدميري في كتابه حياة الحيوان الكبرى (٢/ ٣٢٩) .

وهداية الحيوانات إلى مصالح معاشهما كالبحر، حدِّث عنه ولا حرج .

ومن عجيب هدايتها أن الثعلب إذا امتلأ من البراغيث أخذ صوفة بفمه، ثم عمد إلى ماء رقيق، فنزل فيه قليلاً حتى ترتفع البراغيث إلى الصوفة، فيلقيها في الماء ويخرج[١] .

ومن عجيب أمره أن ذئباً أكل أولاده، وكان للذئب أولاد وهناك زبية[٢] فعمد الثعلب وألقى نفسه فيها وحفر فيها سرداباً يخرج منه، ثم عمد إلى أولاد الذئب، فقتلهم وجلس ناحية ينتظر الذئب، فلما أقبل وعرف أنها فعلته هرب قدامه وهو يتبعه فألقى نفسه في الزبية ثم خرج من السرداب، فألقى الذئب نفسه وراءه، فلم يجده ولم يطق الخروج فقتله أهل الناحية .

ومن عجيب أمره أن رجلاً كان معه دجاجتان، فاختفى له وخطف إحداهما وفر، ثم أعمل فكره في أخذ الأخرى فتراءى لصاحبها من بعيد (وفي فمه)[٣] شبيه بالطائر، وأطمعه في استعادتها، بأن تركه وفر، فظن الرجل أنها الدجاجة، فأسرع نحوها، وخالفه الثعلب إلى أختها فأخذها وذهب.

ومن عجيب أمره أنه أتى إلى جزيرة فيها طير، فأعمل الحيلة كيف يأخذ منها شيئاً فلم يطق، فذهب وجاء بضغث[٤] من الحشيش وألقاه في مجرى الماء الذي نحو الطير، ففزع (الطير)[٥] منه، فلما عرفت أنه حشيش رجعت إلى

---

(١) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (٦/ ٣٠٦) .

(٢) الزبية : حفرة في موضع عال يصاد فيها الأسد ونحوه. المصباح المنير ص (٢٥١) مادة: (زبي) .

(٣) في د، س : وفي فمه شيء، بزيادة (شيء) .

(٤) الضغث هو : قبضة حشيش مختلط رطبها بيابسها. وسبق بيان ذلك في ص (٥٢٧).

(٥) ساقطة من د، س .

أماكنها، فعاد لذلك مرة ثانية وثالثة ورابعة حتى (توطنت)[1] الطير على ذلك وألفته، فعمد إلى جزرة أكبر من ذلك، فدخل فيها وعبر إلى الطير، فلم يشك الطير أنه من جنس ما قبله، فلم تنفر منه، فوثب على (طير)[2] منها وعدا به .

ومن عجيب أمر الذئب أنه عرض لإنسان يريد قتله، فرأى معه قوساً (وسهاماً)[3] فذهب وجاء بعظم رأس جمل في فيه، وأقبل نحو الرجل، فجعل الرجل كلما رماه بسهم اتقاه بذلك العظم / حتى أعجزه وعاين نفاد سهامه، ٧٧ب فصادف من استعان به على طرد الذئب .

ومن عجيب أمر القرد ما ذكره البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي[4] قال: رأيتُ في الجاهلية قرداً وقردة زنيا، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى (ماتا)[5] .

---

(١) في م، د، س : تواظب .

(٢) في م ، د، س : طائر .

(٣) في د، س : وسهما .

(٤) هو: عمرو بن ميمون الأودي، أبو عبد الله، ويقال أبو يحيى، مخضرم مشهور، ثقة، عابد ، نزل الكوفة ، مات سنة أربع وسبعين، وقيل: بعدها. روى له الستة. تقريب التهذيب (٢/ ٨٠) وتهذيب التهذيب (٨/ ١٠٩-١١٠) وأسد الغابة (٣/ ٧٧٢) .

(٥) انظر صحيح البخاري (٤/ ٢٣٨) ك مناقب الأنصار. ك القسامة في الجاهلية. ونصه: رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم. ا.هـ . وقد استنكر بعض العلماء – كابن عبد البر وابن الأثير الجزري – هذه القصة، وقالوا: فيها إضافة الزنا إلى غير مكلف وإقامة الحد على البهائم، وهذا منكر عند أهل العلم. ولو صحت طريق رواية هذه القصة، لكان هؤلاء من الجن؛ لأنهم من جملة المكلفين. وأجيب عن هذا بأن طريق الرواية صحيحة، كما أنه لا يلزم من كون صورة الواقعة صورة الزنا والرجم أن يكون ذلك زنا حقيقة ولا حداً، وإنما أطلق ذلك عليه لشبهه به، =

فهؤلاء القرود أقاموا حدَّ الله حين عطله بنو آدم[١] .

وهذه البقرة يضرب ببلادتها المثل . وقد أخبر النبي ﷺ : « **أن رجلاً بينا هو يسوق بقرة إذ ركبها، فقالت: (إنا)[٢] لم (نخلق)[٣] لهذا** » . فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم! فقال : « **فإني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر** »، وماهما ثمَّ[٤] . قال : « **وبينا رجل يرعى غنماً له إذ عدا الذئب على شاة منه فاستنقذها منه، فقال الذئب: فمن لها يوم السبع، يوم لا راعي لها غيري** »، فقال الناس : سبحان الله، ذئب يتكلم! فقال رسول الله ﷺ : « **إني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر** »، وما هما ثمَّ[٥][٦] .

= فلا يستلزم ذلك إيقاع التكليف على الحيوان. كما أن فعل القردة ذلك محمول على ما جبلت عليه من شدة الغيرة، والرجم هو وسيلتها في الانتقام مع كل أحد .

(١) مما سبق ذكره في التعليق قبل هذا يتبين أن فعل هؤلاء القردة ليس هو إقامة حد الله في الزنا، حيث إنها غير مكلفة ، ولعل المؤلف رحمه الله أطلق عليه ذلك لمشابهته له، من حيث إن الرجم وقع على ما هو انحراف في فطرة هذه الحيوانات .

(٢) ساقطة من م ، د، س . وما أثبت من ت، وصحيح البخاري .

(٣) في م، ت، د، س : أخلق ، وما أثبت من صحيح البخاري .

(٤) قوله: (وما هما ثمَّ) قال الحافظ ابن حجر : بفتح المثلثة، أي: ليسا حاضرين، وهو من كلام الراوي، ولم يقع ذلك في رواية الزهري. ومثله أيضاً قوله: (وما هما ثمَّ) التي وردت في آخر الحديث. انظر فتح الباري (٦/ ٥١٨) .

(٥) قوله : (ثم) وردت في (د) بالتاء، وبعد إغلاق قوس الحديث. وهو خطأ .

(٦) هذا الحديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه وأخرجه البخاري في (٤/ ١٤٩) ك الأنبياء الباب الذي يلي باب حديث الغار وفي (٤/ ١٩٢-١٩٣) ك. فضائل الصحابة – باب قول النبي ﷺ : « **لو كنت متخذاً خليلاً** » وفي (٣/ ٦٧) ك الحرث والمزارعة – باب استعمال البقر للحراثة. ومسلم (٤/ ١٨٥٧-١٨٥٨) ك فضائل الصحابة – باب فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه . والترمذي (٥/ ٥٧٥) ك المناقب . والإمام أحمد (٢/ ٢٤٥-٢٤٦).

ومن هداية الحمار الذي هو من أبلد الحيوان: أن الرجل يسير به، ويأتي به إلى منزله من البعد في ليلة مظلمة فيعرف المنزل فإذا خلي جاء إليه، ويفرق بين الصوت الذي يستوقف به، والصوت الذي يحث به على السير .

ومن عجيب أمر الفأر أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلى الجرة، فنقص وعز عليها الوصول إليه، ذهبت وحملت في أفواهها ماء وصبته في الجرة حتى يرتفع الزيت فتشربه.

والأطباء تزعم أن الحقنة أخذت من طائر طويل المنقار، إذا تعسر عليه الذرق جاء على البحر المالح، وأخذ بمنقاره منه واحتقن به فيخرج الذرق بسرعة[١] .

وهذا الثعلب إذا اشتد به الجوع، انتفخ ورمى بنفسه في الصحراء كأنه جيفة (فتدنو منه)[٢] الطير، فلا يظهر حركة ولا نَفَس (فلا) تشك أنه ميت، حتى إذا (نقرته بمنقارها)[٣] وثب عليها فضمها ضمة الموت .

وهذا ابن عرس[٤] والقنفذ إذا أكلا / الأفاعي والحيات ، عمدا إلى الصعتر[٥] (البري)[٦] فأكلاه كالترياق لذلك[٧] . ٧٨ أ

---

(١) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (٧/ ٣٢) .

(٢) في د، س : فتتداوله .

(٣) في م، د، س : نقر بمنقاره .

(٤) ابن عرس هو : دويبة تشبه الفأر. المصباح المنير (٢/ ٤٠٢) مادة عرس .

(٥) الصعتر أو السعتر: نبات من فصيلة الشفويات، طيب الرائحة ، زهره أبيض إلى الغبرة، يستعمل بعض أنواعه في الطب، وفي صنع العطور. المنجد ص(٣٣٣) مادة (سعت).

(٦) في م، د، س : النهري. وما أثبت من ت وهو مطابق لما في كتاب الحيوان للجاحظ.

(٧) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان(٧/ ٣٣) .

ومن عجيب أمر الثعلب أنه إذا أصاب القنفذ قَلَبَه لظهره لأجل شوكه فيجتمع القنفذ حتى يصير كبة شوك، فيبول الثعلب على بطنه ما بين مغرز عجبه إلى فكيه، فإذا أصابه البول اعتراه الأسر[١] فانبسط، فيسلخه الثعلب من بطنه ويأكل مسلوخه[٢] .

فصل

وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البُهم أموراً تنفعه في معاشه وأخلاقه وصناعته وحربه وحزمه وصبره .

وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس، قال تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[٣] .

قال أبو جعفر الباقر[٤] : والله ما اقتصر على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلاً منها[٥] . فمن هدى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أياماً، تهرب به من الذر والنمل؛ لأنها تضعه (كفدرة[٦])[٧] من لحم، فهي تخاف عليه من الذر والنمل، فلا تزال ترفعه وتضعه، وتحوله من

(١) الأسر ـ بالضم ـ: احتباس البول . القاموس المحيط ص(٤٣٧) مادة (أسر) .

(٢) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (٧/ ٣٣) .

(٣) سورة الفرقان آية : ٤٤ .

(٤) هو : محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو جعفر الباقر، ثقة فاضل، ولد بالمدينة سنة ٥٧هـ ، وتوفي سنة ١١٤هـ . تقريب التهذيب (٢/ ١٩٢) وتهذيب التهذيب (٩/ ٣٥٠-٣٥٢) والأعلام (٦/ ٢٧٠-٢٧١) .

(٥) لم أعثر له على تخريج .

(٦) في د، س : كقطعة. وما أثبت من م، ت. وهو مطابق لما في كتاب الحيوان للجاحظ.

(٧) الفدرة ـ بالكسر ـ: هي القطعة من اللحم. القاموس المحيط ص(٥٨٥) مادة (فدر).

مكان إلى مكان حتى يشتد[١] .

وقال ابن الأعرابي : قيل لشيخ من قريش : من علمك هذا كله، وإنما يعرف مثله أصحاب التجارب والتكسب ؟ .

قال: علمني الله ما علم الحمامة (تقليب)[٢] بيضها حتى تعطي الوجهين جميعاً نصيبهما من حضانتها، ولخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد[٣] .

وقيل لآخر : (ما)[٤] علمك اللجاج في الحاجة والصبر عليها وإن استعصت حتى تظفر بها؟

قال: من علم الخنفساء إذا صعدت في الحائط تسقط، ثم تصعد، ثم تسقط مراراً عديدة حتى تستمر صاعدة .

وقيل لآخر : من علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخل به؟

قال : من علم الطير تغدو خماصاً كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبُعدها لا تسأم ذلك ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض .

وقيل / لآخر : من علمك السكون والتحفظ والتماوت حتى تظفر ٧٨ب بأربك، فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته؟

فقال: الذي علم (السنورة)[٥] أن ترصد جحر الفأرة، فلا تتحرك ولا

---

(١) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (٧/ ٣٦) .

(٢) في د، س : تقلب .

(٣) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (٧/ ٣٥) .

(٤) في د، س : من .

(٥) في د : الهرة . وفي س : السهر. والسنور : الهر ، والأنثى : سنورة . المصباح المنير ص (٢٩١) مادة (سنر) .

(تموء)[١] ولا تختلج كأنها ميتة، حتى إذا برزت لها الفأرة وثبت عليها كالأسد .

وقيل لآخر : من علمك الصبر والجَلَد والاحتمال وعدم (الشكوى)[٢]؟.

قال : من علّم أبا أيوب[٣] صبره على الأثقال والأحمال الثقيلة والمشي (بها على ظهره من بلد إلى بلد، ماداً عنقه، مستسلماً صابراً على الجوع والعطش)[٤] والتعب وغلظة الجمال وضربه ، فالثقل والكَلّ[٥] على ظهره، ومرارة الجوع والعطش في كبده، وجهد التعب والمشقة ملء جوارحه، ولا يعدل (له)[٦] عن الصبر .

وقيل لآخر : من علّمك حُسن الإيثار والسماحة بالبذل؟ .

قال: من علّم الديك يصادف الحبة في الأرض، وهو (محتاج)[٧] إليها، فلا يأكلها، بل يستدعي (بالدجاج)[٨] ويطلبهن طلباً حثيثاً حتى تجيء الواحدة منهن، فتلتقطها وهو مسرور بذلك طيب النفس به، وإذا وضع (له)[٩] الحب الكثير فرقه وهاهنا، وإن لم يكن هناك دجاج، لأن طبعه قد ألف البذل

---

(١) في م: ولا تنوي . وفي د، س : ولا تتلوى . والمواء : صوت الهر. وانظر : أدب الكاتب لابن قتيبة ص (١٦١) .

(٢) في د، س : السكون .

(٣) يظهر من وصف المؤلف لمن سماه : (أبا أيوب) أنه يقصد به الجمل، ولم أقف على تسميته بهذا الاسم عند غيره .

(٤) ما بين القوسين ساقط من د، س .

(٥) الكَلّ : الثقل، انظر المصباح المنير ص (٥٣٨) مادة (كلل) .

(٦) في د، س : به ذلك .

(٧) في م، د، س : يحتاج .

(٨) في د، س : الدجاج .

(٩) ساقطة من م .

والجود، فهو يرى من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام .

وقيل لآخر : من علّمك هذا التحيل في طلب الرزق ووجوه تحصيلة؟ .

قال: من علّم الثعلب تلك الحيل التي يعجز العقلاء عن علمها وعملها، وهي أكثر من أن تذكر .

ومن علّم الأسد إذا مشى وخاف أن (يقتص)[١] أثره (ويطلب)[٢] عفى (على)[٣] أثر مشيته بذنبه، ومن علمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه، فينفخ في منخره (فيتحرك)[٤] ؛ لأن اللبوة تضعه جرواً كالميت، فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك، ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها، وإذا مر بفريسة غيره لم يدنُ منها ولو جهده الجوع، ومن علم الأسد أن يخضع للببر[٥] ويذل له إذا اجتمعا / حتى (ينجو)[٦] منه . ١٧٩أ

ومن عجيب أمره أنه إذا (عصى)[٧] عليه شيء من السباع، دعا الأسد، فأجابه إجابة المملوك لمالكه، ثم أمره فربض بين يديه، فيبول في (أذنه)[٨] فإذا رأت السباع ذلك أذعنت (للببر)[٩] بالطاعة والخضوع.

---

(١) في د، س : يقتفى .

(٢) ساقطة من ت .

(٣) سقطة من د، س .

(٤) ساقطة من م، د، س .

(٥) الببر : نوع من السباع الهندية ، وهو أبيض البطن والجانبين، ومخطط بخطوط سود. المنجد في اللغة والأعلام ص (٢٥) .

(٦) في م، س : ينال منه له . وفي د: ينال منه سؤله .

(٧) في د، س : استعصى .

(٨) في د، س : أذنيه .

(٩) في د، س : له .

ومن علّم الثعلب إذا اشتد به الجوع أن يستلقي على ظهره ويختلس نفسه إلى داخل بدنه حتى ينتفخ، فيظن (الطير)[1] أنه ميتة، فتقع عليه، فيثب على من انقضى عمره منها .

ومن علّمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى (صبغ)[2] معروف، فيأخذ منه ويضعه على جرحه كالمرهم.

ومن علّم الدب إذا أصابه كَلْم أن يأتي إلى نبت قد عرفه وجهله صاحب الحشائش، فيتداوى به فيبرأ .

ومن علّم الأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه؛ لأنها دون (سائر)[3] الحيوانات لا تلد إلا قائمة، لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان، وهي عالية، فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق، فتأتي (ماءً وسطاً فتضعه)[4] فيه يكون كالفراش اللين والوطاء الناعم.

ومن علّم الكلب إذا عاين الظباء أن يعرف المعتل من غيره، والذكر من الأنثى، فيقصد الذكر مع علمه بأن عدوه أشد، وأبعد وثبة، ويدع الأنثى على نقصان عدوها؛ لأنه قد علم أن الذكر إذا عدا شوطاً أو شوطين (حقب)[5] ببوله، وكل حيوان إذا اشتد فزعه، فإنه يدركه

---

(١) في م، د، س : الظن .

(٢) في ت : موضع .

(٣) إضافة من ت .

(٤) في ت: إلى وسط ماء فتضعه .

(٥) في د، س : حقن . وما أثبت من م، ت. وهو المطابق لما في كتاب الحيوان. وقد ورد في هامش ت تعليقٌ نصُّه: يقال : حقب البعير: إذا احتبس بوله، وانظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٨٩) مادة : (حقب) فقد وردت فيه هذه العبارة بنصها .

(الحقب)[١]، وإذا (حقب)[٢] الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو، فيقل عدوه، فيدركه الكلب، وأما الأنثى (فإنها تحذف)[٣] بولها؛ لسعة القُبُل وسهولة المخرج، فيدوم عدوها[٤].

ومَنْ علَّمه إذا كسا الثلجُ الأرض أن يتأمل الموضع الرقيق الذي قد انخسف/ فيعلم أن تحته جحر الأرنب، فينبشه ويصطادها، علماً منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق[٥]. ٧٩ب

ومن علَّم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نوباً بين عينيه، فينام بإحداهما، حتى إذا (تعبت)[٦] الأخرى نام بها وفتح النائمة، حتى قال (فيه)[٧] بعض العرب:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي   بأخرى المنايا فهو يقظان (هاجع[٨])[٩]

ومَنْ علَّم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث، فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء فيطيرون حول الفرخ، ويحركونه بأفعالهم، ويحدثون له قوة وهمة وحركة حتى يطير معهم[١٠].

---

(١) د، س: الحقن.

(٢) في د، س: حقن.

(٣) في د، س: فتحذف.

(٤) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (٢/ ١١٧-١١٨).

(٥) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (٢/ ١١٩).

(٦) في د، س: نعست.

(٧) ساقطة من م، د، س.

(٨) في د، س: نائم. وهي كذلك في العقد الفريد (٤/ ٢٦١).

(٩) هذا البيت من قصيدة قالها حميد بن ثور الهلالي. وقد ذكر هذا الكلام مع بيت الشعر الجاحظ في كتاب الحيوان (٦/ ٤٦٧).

(١٠) انظر معنى هذا الكلام في كتاب الحيوان (٥/ ٢١١).

قال بعض الصيادين : ربما رأيت العصفور على الحائط، فأومئ بيدي كأني أرميه فلا يطير، وربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئاً فلا يتحرك، فإن مسست بيدي أدنى حصاة أو حجر أو نواة، طار قبل أن تتمكن منها يدي[١] .

ومن علّم الحمامة إذا حملت أن تأخذ هي والأب في بناء العش، وأن يقيما له حروفاً تشبه الحائط، ثم يسخناه ويحدثا فيه طبيعة أخرى ثم (يقلبان)[٢] البيض في الأيام، ومن قسم بينهما الحضانة والكد، فأكثر ساعات الحضانة على الأنثى، وأكثر ساعات جلب القوت على الأب، وإذا خرج الفرخ علما ضيقَ حوصلته عن الطعام فنفخا فيه نفخاً متداركاً حتى تتسع حوصلته، ثم يزقانه اللعاب (أول شيء)[٣] قبل الطعام، وهو كاللبأ[٤] للطفل، ثم يعلمان احتياج الحوصلة إلى دباغ، فيزقانه من أصل الحيطان من شيء بين الملح والتارب، تندبغ به الحوصلة، فإذا اندبغت زقاه الحب، فإذا علما أنه أطاق اللقط منعاه الزق على التدريج فإذا تكاملت قوته وسألهما الكفالة ضرباه.

ومن علّمها إذا أرادا السفاد أن يبتدئ الذكر بالدعاء، فتتطارد له الأنثى قليلاً لتذيقه حلاوة المواصلة، ثم تطمعه في نفسها، ثم تمتنع بعض التمنع ليشتد طلبه وحبه، ثم تتهادى وتتكسل وتريه معاطفها / وتعرض محاسنها، ثم يحدث بينهما من التغزل والعشق والتقبيل والرشف ما هو مشاهد بالعيان[٥] .

٨٠ أ

---

(١) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيون (٢/ ٣٢٩) .

(٢) في د، س : يقلبا .

(٣) في م ، د، س : أو شيئاً .

(٤) اللبأ : أول اللبن. الصحاح للجوهري (١/ ٧٠) مادة (لبأ) .

(٥) كلام المؤلف هنا عن الحمام ، سبق أن ذكره في سياق كلامه عن هداية الحمام في

من علَّم المرسلة منها إذا سافرت ليلاً أن تستدل ببطون الأودية، ومجاري المياه والجبال، ومهاب الريح، ومطلع الشمس ومغربها، فتستدل بذلك وبغيره إذا ضلت، فإذا عرفت الطريق مرت (مر الريح)[١] .

من علَّم (الليث[٢])[٣] - وهو صنف من العناكب - أن يلطأ[٤] بالأرض ويجمع نفسه، فيري الذبابة أنه لاهٍ عنها، ثم يثب عليها وثوب الفهد[٥] .

ومن علم العنكبوت أن ينسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة، ويجعل في أعلاها خيطاً ثم يتعلق به، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة (نزل)[٦] إليها فاصطادها.

ومن علَّم الظبي أنه لا يدخل كناسه[٧] إلا مستدبراً ليستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه[٨] وخشفه[٩] .

ومن علَّم السنورة إذا (رأت)[١٠] فأرة في السقف أن ترفع

---

(١) في د، س : كالريح .

(٢) في د، س : اللبب . وهو خطأ ، وما أثبت الصواب .

(٣) قال ابن قتيبة: الليث: ضرب من العناكب، قصير الأرجل، كثير العيون، يصيد الذباب وثباً. أدب الكتاب ص(١٩٤) .

(٤) يلطأ بالأرض: أي يلصق بها. المصباح المنير (٢/ ٥٥٣) مادة (لطئ)

(٥) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (٥/ ٤١٢) و(٣/ ٣٣٧) .

(٦) في د، س : تدلت .

(٧) كناس الظبي: بيته. المصباح المنير (٢/ ٥٤٢) مادة (كنس) .

(٨) الخشف : ولد الغزال ، يطلق على الذكر والأنثى. المصباح المنير (١/ ١٧٠) مادة (خشف).

(٩) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (٦/ ٤٤) .

(١٠) في م ، د، س : رأى .

(يديهـا)[١] (كالمشيرة)[٢] إليها بالعود، ثم تشير (إليها)[٣] بالرجوع، وإنما تريد أن (ترهبها)[٤] فتزلق فتسقط[٥].

ومن علَّم اليربوع[٦] أن يحفر بيته في سفح الوادي حيث يرتفع عن مجرى السيل، ليسلم من مدق الحافر، ومجرى الماء، ويعمقه، ثم يتخذ في زواياه أبواباً عديدة، ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزاً رقيقاً، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء وخرج منه[٧]. ولما كان كثير النسيان[٨] لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة (أو شجرة)[٩] علامة له على البيت إذا ضل عنه.

ومن علم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل الحركة عليه حتى يذهب ذلك السمن ثم يظهر[١٠].

ومن علَّم الأيل إذا سقط قرنه أن يتوارى؛ لأن سلاحه قد ذهب، فيسمن لذلك، فإذا كمل نبات قرنه تعرض للشمس وللريح وأكثر من الحركة ليشتد

---

(١) في م: يدها، وفي د، س: رأسه.

(٢) في م، د، س: كالمشير.

(٣) في ت: عليها.

(٤) في م، د، س: تدهشها.

(٥) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (٥/ ٢٥٢).

(٦) اليربوع هو: دويبة نحو الفأرة، لكن ذنبه وأذناه أطول منها، ورجلاه أطول من يديه. المصباح المنير (١/ ٢١٧) مادة (ربع).

(٧) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (٥/ ٢٧٧) و(٦/ ٤٣).

(٨) المعروف بكثرة النسيان هو الضب، وليس اليربوع، انظر كتاب الحيوان للجاحظ (٦/ ٤٢).

(٩) ساقطة من م، د، س.

(١٠) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (٧/ ٤٢-٤٣).

لحمه ، ويزول السمن المانع له من العَدْو[(١)] .

وهذا باب واسع جداً ، ويكفي فيه قوله سبحانه : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾[(٢)] ، وقد قال النبي ﷺ : «**لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها**»[(٣)] .

٨٠ب

وهذا يحتمل وجهين :

إحداهما : أن يكون إخباراً عن أمر غير ممكن فعله، وهو أن الكلاب أمة

---

(١) ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (٧/ ٤٢-٤٣) .

(٢) سورة الأنعام آية ٣٨-٣٩.

(٣) هذا الحديث من رواية عبد الله بن مغفل رضي الله عنه ، وأخرجه : أبو داود (٨/ ٤٧) ك الصيد - باب اتخاذ الكلب للصيد وغيره. والترمذي (٤/ ٦٦) ك الأحكام والفوائد - باب ما جاء في قتل الكلب. وقال : هذا حديث حسن صحيح. والنسائي (٧/ ١٨٥) ك الصيد والذبائح - باب صفة الكلاب التي أمر بقتلها. وابن ماجه (٢/ ١٠٦٩) ك الصيد - باب النهي عن اقتناء الكلاب إلا كلب صيد أو حرث أو ماشية. والإمام أحمد (٤/ ٨٥) و(٥/ ٥٤، ٥٦، ٥٧) .والدارمي في سننه (٢/ ١٨) ك الصيد - باب في قتل الكلاب. وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٢/ ٤٧٢-٤٧٣) . والبيهقي في سننه (٦/ ١٠) ، وعبد بن حميد في المنتخب (١/ ٤٥٣) والطبراني في المعجم الأوسط (١/ ٣١١) ، والبغوي في شرح السنة (١١/ ٢١١) . وذكره السيوطي في الجامع الصغير ، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير (٥/ ٧٥) . قال الترمذي (٤/ ٦٦): وفي الباب عن ابن عمر وجابر وأبي رافع وأبي أيوب رضي الله عنهم. ا.هـ، وفي الباب أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنه عند الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٣٤٩) .

لا يمكن إفناؤها لكثرتها في الأرض، فلو أمكن إعدامها من الأرض لأمرت بقتلها .

والثاني : أن يكون مثل قوله : « من أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح ؟ »[١] فهي أمة مخلوقة بحكمة ومصلحة، فإعدامها وإفناؤها يناقض ما خلقت لأجله، والله أعلم بما أراد رسوله .

وقال ابن عباس في رواية عطاء : ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ يريد: يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني (ويحمدونني)[٢] مثل قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[٣] ومثل قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[٤]، (فعلى هذا جعلت أمماً أمثالنا في التوحيد والمعرفة بربها وتسبيحه)[٥][٦]. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾[٧]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾[٨]، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ

---

(١) قوله : «أمن أجل أن قرصتك نملة ...» إلخ طرف من حديث سبق تخريجه في ص(٥٣١).

(٢) في ت: ويمجدونني .

(٣) سورة الإسراء آية : ٤٤ .

(٤) سورة النور آية ٤١ .

(٥) ما بين القوسين ساقط من د، س .

(٦) قول ابن عباس هذا ذكره الواحدي في تفسيره «البسيط» ق(١١٦) مخطوط ، محفوظ أصله بمكتبة شستربتي في أيرلندا تحت رقم (٥١٠٥) وتوجد صورة منه في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض تحت الرقم نفسه .

(٧) سورة الحج آية : ١٨ .

(٨) سورة النحل آية : ٤٩ .

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾[(١)] ويدل عليه قوله : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[(٢)] وقوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾[(٣)] وقول سليمان عليه السلام : ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾[(٤)] وقال مجاهد: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أصناف مصنفة تعرف بأسمائها[(٥)] .

وقال الزَّجَّاج : ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ : في أنها تبعث[(٦)] .

وقال ابن قتيبة : ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ : في طلب الغذاء وابتغاء الرزق وتوقي المهالك[(٧)] .

وقال سفيان بن عيينة[(٨)] : ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من البهائم، فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومن من يعدو عدو الذئب، ومنهم / من ينبح نباح الكلب، ومنهم يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير ١٨١أ

---

(١) سورة سبأ آية : ١٠ .

(٢) سورة النحل آية : ٦٨ .

(٣) سورة النمل آية : ١٨ .

(٤) كما حكاه الله عز وجل عنه في سورة النمل آية : ١٦ .

(٥) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٧/ ١٨٧) . وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٦٦) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٦) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٢٤٥) .

(٧) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص(٤٤٥) شرح أحمد صقر، ط الثانية ١٣٩٣ هـ، نشر دار التراث بالقاهرة .

(٨) هو : سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي، ثم المكي، ثقة حافظ ، فقيه، إمام حجة، إلا أنه تغير حفظه بأخرة، وكان ربما دلس، لكن في غير الثقات. من رؤوس الطبقة الثامنة، وكان أثبت الناس في عمرو بن دينار. مات في رجب سنة ثمان وتسعين ومائة، وله إحدى وتسعون سنة. وروى له الستة. تقريب التهذيب (١/ ٣١٢) وتهذيب التهذيب (٤/ ١١٧-١٢٢) .

التي لو ألقي إليها الطعام الطيب عافته، فإذا قام الرجل عن رجيعه وَلَغَتْ فيه، فكذلك تجد من الآدميين، من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، وإن أخطأ رجل تروّاه وحفظه[١] .

قال الخطابي[٢] : ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمة؛ وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعاً لظاهره وجب المصير إلى باطنه، وقد أخبر الله تعالى عن وجود المماثلة (بيننا)[٣] وبين كل طائر ودابة، (وذلك ممتنع)[٤] من جهة الخلقة والصورة، (وعدم)[٥] من جهة (النطق)[٦] والمعرفة، فوجب أن يكون منصرفاً إلى المماثلة في الطباع والأخلاق .

وإذا كان الأمر كذلك، فاعلم أنك إنما تعاشر البهائم والسباع فليكن

---

(١) رواه الخطابي في كتاب العزلة ص١٥٩، تحقيق ياسين السواس، ط الثانية ١٤١٠هـ، نشر دار ابن كثير ، دمشق . وذكر قول سفيان بن عيينة وقول الخطابي الذي ذكره المؤلف بعده: الواحدي في تفسيره البسيط ق (١١٦-١١٧) مخطوط ، المرجع السابق.

(٢) هو : الإمام المحدث الرحال، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي، صاحب التصانيف ، كان ثقة ثبتاً ، من أوعية العلم، أخذ اللغة عن أبي عمر الزاهد، والفقه عن القفال وابن أبي هريرة، ووهم من سماه أحمد، وله شعر جيد، وله مؤلفات؛ منها: غريب الحديث، ومعالم سنن أبي داود، توفي ببست سنة ٣٨٨هـ . طبقات الحفاظ للسيوطي ص(٤٠٤-٤٠٥) وانظر سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٣) .

(٣) في د، س : بين الإنسان . وما أثبت من م، ت ، وهو المطابق لما في كتاب العزلة للخطابي .

(٤) في كتاب العزلة : وكان ذلك ممتنعاً .

(٥) في دن س : منعدم. وفي كتاب العزلة : عدماً .

(٦) في ت: المنطق. وما أثبت من م، وهو المطابق لما في كتاب العزلة.

حذرك منهم ومباعدتك إياهم على حسب ذلك، انتهى كلامه[١] .

والله سبحانه قد جعل بعض الدواب كسوباً محتالاً، وبعضها متوكلاً غير محتال. وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته، وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقاً مضموناً، وأمراً مقطوعاً، وبعضها يدخر ، وبعضها لا تكسب له، وبعض الذكورة يعول ولده، وبعضها لا يعرف ولده البتة، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه، وبعضها (تضيع)[٢] ولدها وتكفل ولد غيرها، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها، وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه، وجعل بعض الحيوانات يتمها من قبل أمهاتها، وبعضها يتمها من قبل آبائها، وبعضها لا يلتمس الولد، وبعضها يستفرغ الهم في طلبه[٣] ، وبعضها يعرف الإحسان ويشكره وبعضها (لا يؤثر)[٤] ذلك عنده شيئاً ، وبعضها يؤثر على نفسه، وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمة من جنسه لم يدع أحداً يدنو منه، وبعضها يحب السفاد ويكثر منه، وبعضها لا يفعله في السنة إلا مرة، وبعضها / يقتصر على أنثاه، وبعضها (لا يعف عن)[٥] ٨١ب أنثى ولو كانت أمه أو أخته، وبعضها لا تمكن غير زوجها من نفسها، وبعضها لا ترد يد لامس، وبعضها يألف بني آدم ويأنس بهم، وبعضها يستوحش منهم وينفر غاية النفار، وبعضها لا يأكل إلا الطيب، وبعضها لا

---

(١) انظر كتاب العزلة للخطابي ص (١٥٩-١٦٠).

(٢) في د، س : تضع. وما أثبت مطابق لما في كتاب الحيوان للجاحظ .

(٣) قوله : والله سبحانه قد جعل بعض الدواب كسوباً ... إلى قوله: يستفرغ الهم في طلبه. ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان (٢/ ١١٤) مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه.

(٤) في د ، س : ليس .

(٥) في م ، د، س : لا يقف على .

يأكل إلا الخبائث، وبعضها يجمع بين الأمرين، وبعضها لا يؤذي إلا من بالغ في أذاها، وبعضها يؤذي من لا يؤذيها، وبعضها حقود لا ينسى الإساءة، وبعضها لا يذكرها البتة، وبعضها لا يغضب، وبعضها يشتد غضبه، فلا يزال يُسترضى حتى يرضى، وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثر الناس، وبعضها لا معرفة له بشيء من ذلك البتة، وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه، وبعضها الحسن والقبيح سواء عنده، وبعضها يقبل التعليم بسرعة، وبعضها مع الطول، وبعضها لا يقبل ذلك بحال .

وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه، وعلى إتقان صنعه، وعجيب تدبيره، ولطيف حكمته، فإن فيما أودعها من غرائب المعارف، وغوامض الحيل، وحسن التدبير، والتأتي لما تريده؛ ما يستنطق الأفواه بالتسبيح، ويملأ القلوب من معرفته ، ومعرفة حكمته وقدرته، وما يعلم به كل عاقل أنه لم يخلق عبثاً، ولم يترك سدى، وأن (الله)[١] سبحانه له في كل مخلوق (حكم)[٢] باهرة، (وآيات)[٣] ظاهرة، (وبرهان قاطع)[٤] يدل على أنه رب كل شيء ومليكه، وأنه المنفرد بكل كمال دون خلقه، وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم .

---

(١) في د، س : له .

(٢) في د، س : حكمة .

(٣) في د،س : وآية .

(٤) في د، س : وبرهاناً قاطعاً .

فصل

فلنرجع إلى ما ساقنا إلى هذا الموضع، هو الكلام على الهداية العامة، التي هي قرينة الخلق في الدلالة على الرب تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته وتوحيده. قال تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾[١] .

قال مجاهد : ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ : لم يُعط / الإنسان خلق البهائم، ولا البهائم خلق الإنسان[٢] . ١٨٢أ

وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى. قال عطية ومقاتل: أعطى كل شيء صورته[٣] .

وقال الحسن وقتادة : أعطى كل شيء صلاحه[٤] .

(ومعنى هذا)[٥] أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم

---

(١) سورة طه آية : (٤٩-٥٠) .

(٢) قال ابن الجوزي في تفسيره - زاد المسير (٥/ ٢٩١) تفسير سورة طه: روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير. ا.هـ وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٨١-٥٨٢) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم .

(٣) سبق تخريج قول مقاتل في ص (٥١٨) .

(٤) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢٠/ ١٧) تفسير سورة طه. ولكنه قال: أنبأنا معمر عن قتادة عن الحسن. وذكره ابن الجوزي في تفسيره (زاد المسير) (٥/ ٢٩١) تفسير سورة طه ونسبه إلى قتادة . وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٨١) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر .

(٥) في م: ومعنى . وفي د ، س : والمعنى .

هداه لما خلق له، وهداه لما يصلحه (من)[١] معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه . هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، فيكون نظير قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[٢] .

وقال الكلبي والسدي: أعطى الرجل المرأة ، والبعير الناقة، والذكر الأنثى من جنسه[٣] .

ولفظ السدي : أعطى الذكر الأنثى مثل خلقه، ثم هدى إلى الجماع[٤] . وهذا القول اختيار ابن قتيبة[٥] والفراء .

قال الفراء : أعطى الذكر من الناس امرأة مثله، والشاة شاة، والثور بقرة، ثم ألهم الذكر كيف يأتيها[٦] .

قال أبو إسحاق : وهذا التفسير جائز؛ لأنا نرى الذكر من الحيوان يأتي الأنثى، ولم ير ذكراً قد أتى أنثى قبله، فألهمه الله ذلك وهداه إليه. قال: والقول الأول ينتظم هذا المعنى؛ لأنه إذا هداه لمصلحته، فهذا داخل في المصلحة[٧] .

---

(١) في د، س : في .

(٢)سورة الأعلى آية ٣ .

(٣) قول الكلبي رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٧) تفسير سورة طه .

(٤)قول السدي : رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٦/ ١٧٢) . وقال ابن الجوزي في تفسيره – زاد المسير (٥٠/ ٢٩١) تفسير سورة طه: (أعطى كل ذكر زوجه) رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال السدي .

(٥) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص (٤٤٤) .

(٦) انظر معاني القرآن للفراء (٢/ ١٨١) . وفي نسخة ت (ثم ألهم الذكر من الحيوان) بزيادة (من الحيوان) وهذه الزيادة ليست عند الفراء .

(٧) انظر معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج (٣/ ٣٩٥) .

قلت : أرباب هذا القول هضموا الآية معناها، فإن معناها أجل وأعظم مما ذكروه. وقوله : ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يأبى هذا التفسير؛ فإن حمل ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ على ذكور الحيوان وإناثه خاصة ممتنع لا وجه له، وكيف يخرج من هذا اللفظ الملائكة والجن، ومن لم يتزوج من بني آدم ومن لم يسافد من الحيوان، وكيف يسمى الحيوان الذي يأتيه الذكر خلقاً له، وأين نظير هذا في القرآن، وهو سبحانه لما أراد التعبير عن هذا المعنى الذي ذكروه ذكرَه بأدلِّ عبارة عليه وأوضحها، فقال : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾[1] وقال : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾[2] ، وقال : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾[3] فحمل قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾[4] على هذا المعنى غير صحيح ، فتأمله .

وفي الآية قول آخر، قاله الضحاك ، قال : ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ أعطى اليد البطش، والرجل المشي، واللسان النطق /، والعين البصر، والأذن ٨٢ب السمع[5]. ومعنى هذا القول: أعطى كل عضو من الأعضاء ما خلق له، والخلق على هذا بمعنى المفعول، أي أعطى كل عضو مخلوقه الذي خلقه له، فإن هذه المعاني كلها مخلوقة لله أودعها الأعضاء .

وهذا المعنى – وإن كان صحيحاً في نفسه – لكن معنى الآية أعم، والقول هو الأول، وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلق له، ولا خالق سواه سبحانه، ولا هادي غيره، فهذا الخلق، وهذه الهداية من

---

(١) سورة النجم آية : ٤٥ .

(٢) سورة الليل آية : ٣ .

(٣) سورة القيامة آية : ٣٩ .

(٤) سورة طه آية ٥٠ .

(٥) ذكره الواحدي في تفسيره البسيط ق(١٣٠) مخطوط، مرجع سابق انظر ص(٥٠٤).

آيات (ربوبيته)[١] ووحدانيته، فهذا وجه الاستدلال على عدو الله فرعون، ولهذا لما (عرف)[٢] فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه، عدل إلى سؤال فاسد غير وارد، فقال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾[٣] أي: فما للقرون الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبده، بل عبدت الأوثان، والمعنى: لو كان ما تقوله حقاً لم يخف على القرون الأولى، ولم يهملوه، فاحتج عليه (موسى عليه السلام)[٤] بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين، فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به، وشرك المشركين، وهذا شأن كل مبطل، ولهذا صار (ميراثاً)[٥] في ورثته يعارضون نصوص الأنبياء بأقوال الزنادقة[٦] والملاحدة[٧] وأفراخ الفلاسفة والصابئة[٨] والسحرة،

---

(١) في م، د، س : الربوبية .

(٢) في م ، د، س : علم .

(٣) كما حكاه الله عز وجل عنه في سورة طه، آية : ٥١ .

(٤) ما بين القوسين ساقط من م، د، س .

(٥) في د، س : ميزاناً .

(٦) الزنادقة: جمع زنديق، قال بعضهم: فارسي معرب، والمشهور على ألسنة الناس أن الزنديق هو الذي لا يتمسك بشريعة، ويقول بدوام الدهر، ولا يؤمن بالآخرة، ولا بواحدانية الخالق. المصباح المنير (١/ ٢٥٦) مادة (زندق) .

(٧) الملاحدة: جمع ملحد . والإلحاد في اللغة : الميل، يقال : ألحد الرجل، إذا مال عن طريق الحق والإيمان، والمشهور على ألسنة الناس أن الإلحاد مذهب من ينكر وجود الله. معجم مقاييس اللغة (٥/ ٢٣٦) لسان العرب(٥/ ٤٠٥) والصحاح (٢/ ٥٣٤) مادة (لحد) . وانظر الموسوعة الفلسفية للدكتور عبد المنعم الحنفي ص (٤٤٧) ط. الأولى ، نشر دار ابن زيدون ، بيروت .

(٨) الصابئة هم : قوم إبراهيم الخليل عليه السلام، وأهل دعوته، وكانوا بحران، وينقسمون إلى قسمين: صابئة حنفاء، وصابئة مشركين، والذين ذكرهم المؤلف هنا =

ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم، فأجابه موسى عليه الصلاة والسلام عن معارضته بأحسن جواب، فقال : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾[(١)] أي أعمال تلك القرون وكفرهم وشركهم معلوم لربي، قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب، فيجازيهم عليه يوم القيامة، ولم يودعه في كتاب خشية النسيان والضلال؛ فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى، وعلى هذا فالكتاب هاهنا كتاب الأعمال .

وقال الكلبي : يعني به اللوح المحفوظ[(٢)] .

وعلى هذا؛ فهو كتاب القدر السابق، والمعنى على هذا: أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها / فيكون هذا من تمام قوله: ٨٣ب ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[(٣)] فتأمله .

فصل

وهو سبحانه في القرآن كثيراً ما يجمع بين الخلق والهداية، كقوله في أول سورة أنزلها على رسوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾[(٤)] ،

= هم الصابئة المشركون الذين يعظمون الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر، ويصورونها في هياكلهم ، وأصل دينهم – فيما زعموا – أنهم يأخذون بمحاسن ديانات العالم ومذاهبهم، ولهذا سموا صابئة، أي خارجين، فقد خرجوا عن تقيدهم بجملة كل دين وتفصيله. نظر إغاثة اللهفان للمؤلف (٢/ ٢٥٠-٢٥١) واعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص (٩٠) . والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان للسكسكي ص (٩٢-٩٣) . والفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٧) .

(١) كما حكاه الله عز وجل عنه في سورة طه آية : ٥٢ .

(٢) ذكره الواحدي في تفسيره ق (١٣١) مخطوط، مرجع سابق انظر ص (٣٦٤) .

(٣) سورة طه آية : ٥٠ .

(٤) سورة العلق الآيات : ١-٥ .

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[١]، وقوله : ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[٢] ، وقوله : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾[٣] ، وقوله : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[٤] الآيات، ثم قال : ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[٥] فالخلق : إعطاء الوجود العيني الخارجي، والهدى : إعطاء الوجود العلمي الذهني، فهذا خلقه، وهذا هداه وتعليمه .

فصل

المرتبة الثانية من مراتب الهداية: هداية الإرشاد للمكلفين، وهذه الهداية لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق، وإن كانت شرطاً فيه، أو جزء سبب، وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب، بل قد يتخلف عنه المقتضي؛ إما لعدم كمال السبب، أو لوجود مانع، ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[٦] وقال : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[٧] فهداهم هدى البيان والدلالة، فلم

---

(١) سورة الرحمن آية : ١-٤ .

(٢) سورة البلد آية : ٨-١٠ .

(٣) سورة الإنسان آية : ٢-٣ .

(٤) سورة النمل آية : ٦٠ .

(٥) سورة النمل آية : ٦٣ .

(٦) سورة فصلت آية : ١٧ .

(٧) سورة التوبة آية : ١١٥ .

يهتدوا، فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولاً بعد أن عرفوا الهدى، فأعرضوا عنه، فأعماهم عنه بعد أن أراهموه.

وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فكفرها، فإن يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] وقال تعالى عن قوم فرعون :٨ب ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[2] أي: جحدوا بآياتنا بعد أن تيقنوا صحتها. وقال: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]، وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله، حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4] ونفى عنه (ملك)[5] الهداية الموجبة، وهي هداية التوفيق والإلهام بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[6] ولهذا قال ﷺ: **«بعثت دعياً ومبلغاً وليس إليّ من الهداية شيء، وبعث إبليس مزيناً ومغوياً وليس إليه من الضلالة شيء»**[7].

---

(١) سورة الأنفال آية: ٥٣.

(٢) سورة النمل آية: ١٤.

(٣) سورة آل عمران آية: ٨٦.

(٤) سورة الشورى آية: ٥٢.

(٥) في د: تلك.

(٦) سورة القصص آية: ٥٦.

(٧) هذا الحديث من رواية أبي الهيثم خالد بن عبد الرحمن العبدي عن سماك بن حرب، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب قال، قال رسول الله ﷺ ... إلخ. وقد أخرجه: =

....

= - ابن عدي في الكامل(٣/ ٩١٠) وقال: في قلبي من هذا الحديث شيء، ولا أدري سمع خالد من سماك، أو لحقه أم لا؟ ولا أشك أن خالداً هذا هو الخراساني، فكأن الحديث مرسل عنه عن سماك.
- والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢/ ٩) وقال: خالد بن عبد الرحمن العبدي : ليس بمعروف بالنقل، وحديثه غير محفوظ ولا يعرف له أصل .
- والدولابي في الكنى والأسماء (٢/ ١٥٧) .
- والبيهقي في كتاب القدر ص (١٠٢) وذكر قول ابن عدي فيه.
- واللالكائي في السنة (٤/ ٦٠٦) .
- وأبو القاسم إسماعيل التيمي في كتابه الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٦) . تحقيق محمد أبورحيم، ط الأولى ١٤١١هـ نشر دار الراية بالرياض .
- وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٧٢-٢٧٣) تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، ط الثانية ١٤٠٣هـ ، نشر دار الفكر، بيروت. وذكر قول العقيلي فيه.
- والذهبي في ميزان الاعتدال (١/ ٦٣٤) ونقل عن الدارقطني قوله في خالد ابن عبدالرحمن العبدي : لا أعلمه روى غير هذا الحديث الباطل، يعني هذا الحديث.
- وذكره ابن القيسراني في كتاب معرفة التذكرة في الأحاديث الموضوعة ص(١٣٧) ط. الأولى ١٤٠٦هـ نشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، وقال: فيه خالد بن عبد الرحمن العبدي ترك حديثه لأجل هذا الحديث .
- وذكره السيوطي في اللالئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (١/ ٢٥٤) ط الثالثة سنة ١٤٠١هـ ، نشر دار المعرفة ، بيروت. ونقل قول العقيلي وابن عدي فيه ثم قال: وخالد الخراساني روى له أبو داود والنسائي، ووثقه ابن معين وقال أبو حاتم: لا بأس به، وحينئذ فليس في الحديث إلا الإرسال، والله أعلم .
وذكره أيضاً أبو الحسن بن عراق في تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة (١/ ٣١٥) ط الثانية ١٤٠١هـ ، نشر دار الكتب العلمية، بيروت . ونقل قول العقيلي وابن عدي والسيوطي، وتعقبهم فقال فرق الحفاظ : الدارقطني والمزي والذهبي وابن حجر بين الخراساني والذي في هذا الإسناد. وقالوا : إن هذا هو العبدي العطار الكوفي ، وقال الدارقطني وابن حجر : إنه مجهول . والله أعلم . =

قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، فجمع سبحانه بين الهدايتين: العامة والخاصة، فعم بالدعوة حجة (منه)[2] وعدلاً، وخص بالهداية نعمة (منه)[3] وفضلاً، وهذه المرتبة أخص من (المرتبة)[4] التي قبلها؛ فإنها هداية تخص المكلفين، وهي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحداً إلا بعد إقامتها عليه، قال تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[5] ، وقال : ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[6] ، وقال : ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾[7] ، وقال : ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ

- وذكره المزي في تهذيب الكمال (٨/ ١٢٣) للتمييز بينه وبين خالد بن عبدالرحمن الخراساني. ميزان الاعتدال للذهبي (١/ ٦٣٤) وتهذيب التهذيب لابن حجر (٣/ ١٠٤)، وتقريب التهذيب له أيضاً (١/ ٢١٥) وذكر المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/ ٢٠٤-٢٠٥) نشر دار المعرفة ، بيروت سنة ١٣٩١هـ قول العقيلي وابن عدي، وتعقب السيوطي لهما، ثم أعقبه بقول الدارقطني الذي نقله عنه الذهبي .
- وذكره الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص (٥٠٥-٥٠٦) تحقيق عبد الرحمن المعلمي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت. ونقل قول العقيلي وابن عدي، وتعقب السيوطي لهما .
- قال الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٣/ ١٠-١١) عن هذا الحديث: إنه موضوع .

(١) سورة يونس آية : ٢٥ .

(٢) في د، س : مشيئة

(٣)في د، س : مشيئة .

(٤) ساقطة من م، د، س .

(٥) سورة الإسراء آية : ١٥ .

(٦) سورة النساء آية : ١٦٥ .

(٧) سورة الزمر آية ٥٦-٥٧ .

نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾[1] .

فإن قيل: فكيف تقوم حجته عليهم وقد منعهم من الهدى، وحال بينهم وبينه؟.

قيل: حجته قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى وبيان الرسل لهم، وإراءتهم (الطريق)[2] المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عياناً، وأقام لهم أسباب الهداية ظاهراً وباطناً ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب، ومن حال بينه وبينها / ١٨٤أ منهم بزوال عقل أو صغر لا تمييز معه أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله، فإنه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته، فلم يمنعهم من هذا الهدى ولم يحل بينهم وبينه .

نعم قطع عنهم توفيقه ولم يرد من نفسه إعانتهم والإقبال بقلوبهم إليه، فلم يحل بينهم وبين ما هو مقدور لهم، وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه، وهو فعله ومشيئته وتوفيقه، فهذا غير مقدور لهم، وهو الذي منعوه وحيل بينهم وبينه. فتأمل هذا الموضع واعرف قدره، والله المستعان .

فصل

المرتبة الثالثة من مراتب الهداية هداية التوفيق والإلهام، وخلق المشيئة المستلزمة للفعل .

وهذه المرتبة أخص من التي قبلها، وهي التي ضل جهال القدرية بإنكارها، وصاح عليهم سلف الأمة وأهل السنة منهم من نواحي الأرض عصراً بعد عصر إلى وقتنا هذا. ولكن الجبرية ظلمتهم ولم تنصفهم، كما ظلموا

---

(١) سورة الملك آية : ٨-٩ .

(٢) في د، س : الصراط .

أنفسهم بإنكار الأسباب والقوى، وإنكار فعل العبد وقدرته، وأن يكون له تأثير في الفعل البتة، فلم (يهتد القدرية)[1] لقول هؤلاء بل زادهم ضلالاً على ضلالتهم وتمسكاً بما هم عليه. وهذا شأن المبطل إذا دعا مبطلاً آخر إلى (أن يترك)[2] مذهبه لقوله ومذهبه الباطل، كالنصراني إذا دعا اليهودي إلى التثليث وعبادة الصليب، وأن المسيح إله تام غير مخلوق، وإلى أمثال ذلك من الباطل الذي هو عليه .

وهذه المرتبة تستلزم أمرين :

أحدهما : فعل الرب تعالى، وهو الهدى .

والثاني : فعل العبد، وهو الاهتداء، وهو أثر فعله سبحانه؛ فهو الهادي والعبد المهتدي، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾[3] ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التـام ، فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾[4] وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس (إليه)[5] ﷺ / ولو حرص عليه، ولا إلى أحد ٨٤ب غير الله، وأن الله سبحانه إذا أضل عبداً، لم يكن لأحد سبيل إلى هدايته، كما قال تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[7] ، وقال تعالى : ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ

---

(١) في م، د، س : يهتدوا .

(٢) في م ، د، س : ترك .

(٣) سورة الإسراء آية ٩٧ .

(٤) سورة النحل آية : ٣٧ .

(٥) في م، د، س : له .

(٦) سورة الأعراف آية : ١٨٦ .

(٧) سورة الأنعام آية : ٣٩ .

سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2] ، (وقال تعالى : ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ[3]﴾)[4] ، وقال تعالى : ﴿۞لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾)[5] ، وقال : ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾[6] وقال : ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾[7] وقال : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾[8] ، وقال أهل الجنة : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾[9] ولم يريدوا أن بعض (أنواع)[10] الهدى منه (وبعضها)[11] منهم، بل الهدى كله منه ولولا هدايته لهم لما اهتدوا، وقال تعالى:

---

(١) سورة فاطر آية : ٨ .

(٢) سورة الجاثية آية : ٢٣ .

(٣) سورة الروم آية : ٢٩ .

(٤) ما بين القوسين غير موجود في د، س .

(٥) سورة البقرة آية : ٢٧٢ .

(٦) سورة السجدة آية : ١٣ .

(٧) سورة الرعد آية : ٣١ .

(٨) سورة الأنعام آية : ١٢٥ .

(٩) كما حكاه الله سبحانه وتعالى عنهم في سورة الأعراف آية : ٤٣ .

(١٠) ساقطة من م، د، س .

(١١) في د ، س : وبعضه .

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2] وقال : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[4] ، وقال / ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾[5] وقال : ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[6] وقال : ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[7] ١٨٥

وأمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم كل يوم وليلة في الصلوات الخمس، وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط، والهداية فيه. كما أن الضلال نوعان :

---

(١) سورة الزمر آية : ٣٦-٣٧ .

(٢) سورة إبراهيم آية : ٤ .

(٣) سورة النحل آية : ٣٦ .

(٤) سورة إبراهيم آية : ٢٧ .

(٥) سورة المدثر آية : ٣١ .

(٦) سورة البقرة آية : ٢٦ .

(٧) سورة المائدة آية : ١٦ .

سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2] ، (وقال تعالى : ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ[3]﴾)[4] ، وقال تعالى : ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾[5] ، وقال : ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾[6] وقال : ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ ﴾[7] وقال : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ ﴾[8] ، وقال أهل الجنة : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾[9] ولم يريدوا أن بعض (أنواع)[10] الهدى منه (وبعضها)[11] منهم، بل الهدى كله منه ولولا هدايته لهم لما اهتدوا، وقال تعالى:

---

(١) سورة فاطر آية : ٨ .

(٢) سورة الجاثية آية : ٢٣ .

(٣) سورة الروم آية : ٢٩ .

(٤) ما بين القوسين غير موجود في د، س .

(٥) سورة البقرة آية : ٢٧٢ .

(٦) سورة السجدة آية : ١٣ .

(٧) سورة الرعد آية : ٣١ .

(٨) سورة الأنعام آية : ١٢٥ .

(٩) كما حكاه الله سبحانه وتعالى عنهم في سورة الأعراف آية : ٤٣ .

(١٠) ساقطة من م، د، س .

(١١) في د ، س : وبعضه .

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2] وقال : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[4] ، وقال / ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾[5] وقال : ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[6] وقال : ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[7]

١٨٥ب

وأمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم كل يوم وليلة في الصلوات الخمس، وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط، والهداية فيه. كما أن الضلال نوعان :

---

(١) سورة الزمر آية : ٣٦-٣٧ .

(٢) سورة إبراهيم آية : ٤ .

(٣) سورة النحل آية : ٣٦ .

(٤) سورة إبراهيم آية : ٢٧ .

(٥) سورة المدثر آية : ٣١ .

(٦) سورة البقرة آية : ٢٦ .

(٧) سورة المائدة آية : ١٦ .

ـ ضلال عن الصراط، فلا يهتدي إليه .

ـ وضلال فيه .

فالأول ضلال عن معرفته، والثاني ضلال عن تفاصيله أو بعضها.

قال شيخنا[١] : «ولما كان العبد في كل حال مفتقراً إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية، فهو محتاج إلى التوبة منها، وأمور هدي إلى أصلها دون تفصيلها، أو هدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها ليزداد هدى، وأمور هو محتاج إلى أن يحصل له من الهدية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خال عن اعتقاد فيها، فهو محتاج إلى الهداية فيها، وأمور لم يفعلها فهو محتاج إلى فعلها على وجه الهداية، إلى غير ذلك من أنواع الهدايات، فرض الله عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله، وهي الصلاة، مرات متعددة في اليوم والليلة». انتهى كلامه[٢] .

ولا يتم المقصود إلا بالهداية إلى الطريق والهداية فيها، فإن العبد قد يهتدي إلى طريق (قصده وتتميز له الطريق)[٣] عن غيرها، ولا يهتدي إلى تفاصيل سيره فيها، وأوقات السير من غيره، وزاد المسير وآفات الطريق. ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٤] قال : سبيلاً وسنة[٥] . وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، فالسبيل : الطريق / وهي المنهاج، ٨٥ب

---

(١) هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

(٢) انظر معنى هذا الكلام في الفتاوى (١٠/ ١٠٩) .

(٣) في م، س : قصده وتنزيله، وفي د، : تصده وتزيله .

(٤) سورة المائدة آية : ٤٨ .

(٥) رواه البخاري (١/ ٨) ك الإيمان – باب قول النبي ﷺ : بني الإسلام على خمس، معلقاً بصيغة الجزم ورواه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٩٢) . وابن جرير في تفسيره (٦/ ٢٧١) وقال الحافظ ابن حجر: وصل هذا التعليق عبدالرزاق في تفسيره بسند =

والسنة : الشرعة، وهي تفاصيل الطريق وحزوناته[١] ، وكيفية السير فيه، وأوقات المسير، وعلى هذا، فقوله : (سبيلاً وسنة) يكون السبيل: المنهاج، والسنة : الشرعة، فالمقدم في الآية للمؤخر في التفسير. وفي لفظ آخر (سنة وسبيلاً)[٢] فيكون المقدم (للمقدم)[٣] والمؤخر للثاني .

فصل

ومن هذا إخباره سبحانه بأنه طبع على قلوب الكافرين وختم عليها، وأنه أصمها عن الحق، وأعمى أبصارها عنه، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾[٤] . والوقف التام هنا[٥] . ثم قال : ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ﴾[٦] كقوله : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً ﴾[٧]، وقال تعالى : ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ

= صحيح. انظر فتح الباري (١/ ٤٨) . وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٩٦) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وسعيد بن منصور والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه من طرق .

(١) حزوناته : جمع حزن، والحزن: ما غلظ من الأرض، وهو خلاف السهل. المصباح المنير (١/ ١٣٤) مادة (حزن) .

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٦/ ٢٧٠-٢٧١) .

(٣) ساقطة من ت .

(٤) سورة البقرة آية ٦، ٧ .

(٥) انظر تفسير ابن جرير (١/ ١١٣-١١٤) . وتفسير ابن كثير (١/ ٤٦) .

(٦) سورة البقرة آية ٦، ٧ .

(٧) سورة الجاثية آية ٢٣ .

عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾[(١)] ، وقال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[(٢)] ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[(٣)] ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾[(٤)] وأخبر سبحانه أن على بعض القلوب أقفالاً تمنعها من أن تنفتح لدخول الهدى إليها، وقال : ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾[(٥)] فهذا الوقر والعمى حال بينهم وبين أن يكون لهم هدى وشفاء؛ قال تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾[(٦)]، وقال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾[(٧)] قرأها الكوفيون (وصُدّ) - بضم الصاد - حملاً على (زُيِّن)[(٨)] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾[(٩)] وقال : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(١٠)]

---

(١) سورة النساء آية : ١٥٥ .

(٢) سورة الأعراف آية : ١٠١ .

(٣) سورة يونس آية : ٧٤ .

(٤) سورة الأعراف آية ١٠٠ .

(٥) سورة فصلت آية : ٤٤ .

(٦) سورة الكهف آية : ٥٧ .

(٧) سورة غافر آية : ٣٧ .

(٨) وقرأ حميد وأبو عمرو وعامة قراء البصرة (وصَدَّ) بفتح الصاد، قال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان معروفتان في قراءة الأمصار، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب . انظر تفسير ابن جرير (٢٤/٦٦) .

(٩) سورة غافر آية : ٢٨ .

(١٠) جزء من الآيات التالية : - آية ٢٥٨ سورة البقرة . وآية ٨٦ سورة آل عمران ، وآية ١٩، ١٠٩ سورة التوبة وآية ٧ سورة الصف، وآية ٥ سورة الجمعة.

ومعلوم أنه لم ينف هدى البيان والدلالة الذي تقوم به الحجة، فإنه حجته على عباده. والقدرية ترد هذا كله إلى المتشابه، وتجعله من متشابه القرآن، وتتأوله على غير / تأويله بل تتأوله بما يقطع ببطلانه وعدم إرادة المتكلم له. ١٨٦أ كقول بعضهم: « المراد من ذلك تسمية الله تعالى العبد مهتدياً وضالاً » فجعلوا هداه وإضلاله مجرد تسمية العبد بذلك، وهذا مما يعلم قطعاً أنه لا يصح حمل هذه الآيات عليه. وأنت إذا تأملتها وجدتها لا تحتمل ما ذكروه البتة، وليس في لغة أمة من الأمم ـ فضلاً عن أفصح اللغات وأكملها ـ (هداه) بمعنى سماه مهتدياً، و(أضله) سماه ضالاً، وهل يصح أن يقال: (علمه) إذا سماه عالماً، و(فهمه) إذا سماه فهماً، وكيف يصح هذا في مثل قوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[1] فهل فهم أحد غير القدرية المحرفة للقرآن من هذا: ليس عليك تسميتهم مهتدين، ولكن الله يسمي من يشاء مهتدياً، وهل فهم أحد قط من قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[2] لا تسميه مهتدياً، ولكن الله يسميه بهذا الاسم، وهل فهم أحد من قول الداعي : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، وقوله: (اللهم اهدني من عندك) ونحوه: اللهم سمني مهتدياً؟!.

وهذا من جناية القدرية على القرآن ومعناه نظير جناية إخوانهم من الجهمية[3] على نصوص الصفات وتحريفها عن مواضعها ، وفتحوا

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٢ .

(٢) سورة القصص آية : ٥٦ .

(٣) هم أتباع جهم بن صفوان الضال المبتدع، سبقت ترجمته في ص (٤٥٩) والكلام عن مذهبه .

للزنادقة[١] والملاحدة[٢] جنايتهم على نصوص المعاد وتأويلها إن لم تكن أقوى من تأويلاتهم لم تكن دونها. وفتحوا للقرامطة[٣] والباطنية[٤] تأويل

(١) سبق التعريف بهم ص (٥٧٢) .

(٢) سبق التعريف بهم في ص (٥٧٢).

(٣) هم أتباع حمدان بن الأشعث، الملقب بقرمط - بكسر القاف والميم - بينهما راء ساكنة، أو بفتحهما؛ لأن خطوه متقارب، وقيل غير ذلك، وكان رجلٌ متوارياً صار إليه أحد دعاة الباطنية، ودعوه إلى معتقدهم فقبل الدعوة، ثم صار يدعو الناس إليها وضل بسببه خلق كثير. وكان أول ظهورهم في سنة ٢٧٨هـ، ثم استفحل أمرهم حتى آل بهم الحال إلى أن دخلوا المسجد الحرام فسفكوا دم الحجيج حول الكبة واقتلعوا الحجر الأسود من موضعه وذهبوا به إلى بلادهم (الإحساء) في سنة ٣١٧هـ، ثم لم يزل عندهم إلى سنة ٣٣٩هـ. ومن أشهر دعاتهم أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، وزكرويه بن مهروية. انظر : انتقادات فرق المسلمين والمشركين ص (٧٩) والكامل لابن الأثير (٧/ ٤٤٤) والمنتظم لابن الجوزي (٥/ ١١٠-١١٩) ط (١) نشر دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد في الهند، سنة ١٣٥٧هـ . وكشف أسرار الباطنية لأبي الفضائل اليماني، تحقيق د.محمد زنيهم ط الأولى ١٤٠٦هـ نشر دار الصحوة، بمصر. والبداية والنهاية (١١/ ٦١-٦٢) والرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص (٨٠) . والفرق بين الفرق ص (٢٦٦-٢٦٧) . والنجوم الزاهرة (٣/ ٧٨) .

(٤) سموا بذلك ؛ لأنهم يقولون : إن للنصوص ظاهراً وباطناً ولكل تنزيل تأويلاً، وإن الإله لا يوصف بوجود ولا عدم، ولا هو معلوم ولا مجهول، ومذهبهم في النبوات قريب من مذهب الفلاسفة، ويقولون : إنه لابد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق، يرجع إليه في تأويل الظواهر واتفقوا على إنكار القيامة، والمنقول عنهم الإباحة المطلقة، ورفع الحجاب واستباحة المحظورات وإنكار الشرائع، وهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم. الفرق بين الفرق ص٢٦٥ وما بعدها. واعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٧٦ ، وفضائح الباطنية ص١١، ٤٠، ٤٦ .

نصوص الأمر والنهي بنحو تأويلاتهم. فتأمل التحريف الذي (سلكته)[1] هذه الطوائف هو أصل فساد (الدنيا)[2] والدين، وخراب العالم. وسنفرد إن شاء الله كتاباً نذكر فيه جنية المتأولين على الدنيا والدين[3].

وأنت إذا وازنت بين تأويلات القدرية والجهمية [4] والرافضة [5] لم تجد بينها وبين تأويلات الملاحدة والزنادقة من القرامطة (الباطنية)[6] وأمثالهم كبير فرق. والتأويل الباطل يتضمن ما جاء به الرسول ﷺ/ والكذب على ٨٦ب **المتكلم أنه أراد ذلك المعنى، فيتضمن إبطال الحق، وتحقيق الباطل، ونسبة المتكلم إلى ما لا يليق به من التلبيس والإلغاز، مع القول عليه بلا علم إنه أراد هذا المعنى.**

فالمتأول عليه أن يبين صلاحية اللفظ للمعنى الذي ذكره أولاً، واستعمال المتكلم (به)[7] في ذلك المعنى في أكثر المواضع، حتى إذا استعمله فيما يحتم غيره، حمل على ما عهد منه استعماله فيه. وعليه أن يقيم دليلاً سالماً عن المعارض على الموجب لصرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته، إلى مجازه واستعارته، وإلا كان ذلك مجرد دعوى منه فلا تقبل.

وتأول بعضهم هذه النصوص على أن المراد بها هداية البيان والتعريف

---

(١) في م، د، س: سلسلته.

(٢) ساقطة من م، د، س.

(٣) هو كتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، وقد طبع القسم الأول منه بتحقيق الدكتور علي الدخيل الله.

(٤) سبق التعريف بهم في ص (٤٥٩).

(٥) سبق التعريف بهم في ص (٢٠٩).

(٦) في د، س: والباطنية. وبزيادة الواو.

(٧) في د، س: له.

لا خلق الهدى في القلب، فإن الله سبحانه لا يقدر على ذلك عند هذه الطائفة .

وهذا التأويل من أبطل الباطل، فإن الله سبحانه يخبر أنه قسم هدايته للعبد قسمين: قسماً لا يقدر عليه غيره، وقسماً مقدوراً للعبد، فقل في القسم المقدور (للبشر)[1] : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى :٥٢] وقال في غير المقدور (للبشر)[2] : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص : ٥٦] وقال: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ [الأعراف : ١٨٦] . ومعلوم قطعاً أن البيان والدلالة قد تحصل له ولا تنفى عنه، وكذلك قوله : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾[النحل : ٣٧] لا يصح حمله على هدية الدعوة والبيان، فإن هذا يهدى، - وإن أضله الله - بالدعوة والبيان. وكذا قوله : ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية : ٢٣] هل يجوز حمله على معنى فمن يدعوه إلى الهدى ويبين له ما تقوم به حجة الله عليه؟ وكيف يصنع هؤلاء بالنصوص التي فيها أنه سبحانه هو لذي أضلهم، أيجوز لهم حملها على أنه دعاهم إلى الضلال، فإن قالوا : ليس ذلك معناها وإنما معناها ألفاهم ووجدهم كذلك، أو أعلم ملائكته ورسله بضلالهم، أو جعل على قلوبهم علامة / يعرف الملائكة بها أنهم ضلال . ١٨٧

قيل هذا من جنس قولكم إن هداه سبحانه وإضلال بتسميتهم مهتدين وضالين، فهذه أربع تحريفات لكم (وهي)[3] أنه سماهم بذلك، وعلمهم بعلامة يعرفهم بها الملائكة، وأخبر عنهم بذلك، ووجدهم كذلك . فالأخبار من جنس التسمية، وقد بينا أن اللغة لا تحتمل ذلك، وأن النصوص إذا

(١) في د، س : للغير .

(٢) في د، س : لخير .

(٣) في د، س : وهذا .

تأملها المتأمل أبعد شيء (عن)[1] هذا المعنى.

وأما العلامة فيا عجباً لفرقة التحريف وما جنت على القرآن والإيمان، ففي أي لغة وأي لسان يدل قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص : ٥٦] على معنى إنك لا تعلمه بعلامة ولكن الله هو الذي يعلمه بها، قوله : ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف : ١٨٦] من يعلمه الله بعلامة الضلال لم يعلمه غيره بعلامة الهدى، وقوله : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة :١٣] لعلمنها بعلامة الهدى الذي خلقته هي لنفسها وأعطته نفسها. وفي أي لغة يفهم قوله الداعي: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ علمنا بعلامة يعرف الملائكة بها أننا مهتدون، وقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ لا تعلمها بعلامة أهل الزيغ. وقوله عليه أفضل الصلاة والسلام : «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[2] ، «**يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك**»[3] . وأمثال ذلك من النصوص، ففي أي لغة وأي لسان يفهم من هذا علمنا بعلامة الثبات والتصريف على طاعتك؟ وفي أي لغة يكون معنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة : ١٣] علمناها بعلامة القسوة أو وجدناها كذلك؟ نعم لو نزل القرآن بلغة القدرية والجهمية وأهل البدع لأمكن حمله على ذلك، وكان الحق تابعاً لأهوائهم، وكانت نصوصه تبعاً لبدع المبتدعين وآراء المتحيرين .

وأنت تجد جميع هذه الطوائف تنزل القرآن على مذهبنا وبدعها وآرائها،

---

(١) في د، س : من .

(٢) سبق تخريجه في ص (٤١٤) .

(٣) سبق تخريجه في ص (٤١٣) .

٨٧ب فالقرآن عند الجهمية جهمي، وعند المعتزلة معتزلي / وعند القدرية قدري، وعند الرافضة رافضي، وكذلك هو عند جميع أهل الباطل، وما كانوا أولياءه: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١].

وأما تحريفهم هذه النصوص وأمثالها بأن المعنى الفاهم ووجدهم، ففي أي لسان وأي لغة وجدتم (هديت) الرجل: إذا وجدته مهتدياً، وختم الله على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة : وجد كذلك؟ وهل هذا إلا افتراء محض على القرآن واللغة. فإن قالوا: نحن لم نقل هذا في نحو ذلك، وإنما قلناه في نحو (أضله) أي : وجده ضالاً. كما يقال : أحمدت الرجل وأبخلته (وأجبنته)[٢] ، إذا وجدته كذلك، أو نسبته إليه، فيقال لفرقة التحريف: هذا إنما ورد في ألفاظ معدودة نادرة، وإذاً فوضع هذا البناء على أنك فعلت ذلك به، ولا سيما إذا كانت الهمزة للتعدية من الثلاثي، كقام وأقمته، (وقعد وأقعدته)[٣] ، وذهب وأذهبته، وسمع وأسمعته، ونام وأنمته، وكذا ضل أضله الله، وأسعده وأشقاه، وأعطاه وأخزاه، وأماته وأحياه، وأزاغ قلبه وأقامه إلى طاعته، وأيقظه من غفلته واراه آياته، وأنزله منزلاً مباركاً وأسكنه جنته، إلى أضعاف ذلك ، وهل تجد فيها لفظاً واحداً معناه أنه وجده كذلك، تعالى الله عما يقول المحرفون .

ثم انظر في كتاب (فعل وأفعل) هل تظفر فيه بأفعلته بمعنى وجدته ـ مع سعة الباب ـ إلا في الحرفين أو الثلاثة نقلاً عن أهل اللغة؟

ثم انظر هل قال أحد من الأولين والآخرين من أهل اللغة إن العرب

---

(١) في ت: وبعد وأبعدته .

(٢) في د ن س: وأجننته .

(٣) اقتباس من آية : ٣٤ من سورة الأنفال .

وضعت أضله الله وهداه، وختم على سمعه وقلبه، وأزاغ قلبه وصرفه (على)[١] طاعته، ونحو ذك (بمعنى)[٢] وجده كذلك؟ ولما أراد سبحانه الإبانة عن هذا المعنى قال : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى : ٧] ولم يقل: وأضلك. وقال في حق من خالف الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وكفر بما جاء به : ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية :٢٣] ولم يقل : ووجده الله ضالاً.

ثم أي توحيد وتمدح وتعريف للعباد أن الأمر كله لله وبيده، وأنه ليس لأحد من أمره شيء، إلا مجرد التسمية والعلامة،ومصادفة الرب تعالى عباده كذلك، ووجوده لهم على هذه الصفات، من غير أن يكون له فيها صنع أو خلق أو مشيئة؟، وهل يعجز البشر عن التسمية والمصادفة والوجود، كذلك فأي مدح وأي ثناء يحسن على الرب تعالى بمجرد ذلك؟ فأنتم وإخونكم من الجبرية لم تمدحوا الرب بما يستحق أن يمدح به، ولم تثنوا عليه بأوصاف كماله، ولم تقدروه حق قدره. وأتباع الرسول وحزبه وخاصته بريؤون منكم ومنهم في باطلكم وباطلهم، وهم معكم ومعهم فيما عندكم من الحق لا يتحيزون إلى (فئة غير الرسول وما جاء به)[٣] ولا ينحرفون عنه نصرة لآراء الرجال المختلفة، وأهوائهم المتشتتة. و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد : ٢١] .

قل ابن مسعود: علمنا رسول الله ﷺ التشهد في الصلاة والتشهد في الحاجة : إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، واشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً

---

(١) في د، س : عن .

(٢) في د، س : لمعنى .

(٣) في د، س : غير ما بينه الرسول وجاء به .

عبده ورسوله، ويقرأ ثلاث آيات:﴿واتقوا الله حق تقاته﴾ [آل عمران : ١٠٢] الآية ، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] ، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب : ٧٠] الآية قال الترمذي: هذا حديث صحيح[١] .

قال أبو داود : حدثنا محمد بن كثير[٢]، أخبرنا سفيان[٣] عن خالد الحذاء[٤]

---

(١) انظر جامع الترمذي (٣/ ٤١٣-٤١٤) ك النكاح – باب ما جاء في خطبة النكاح. وقال: وفي الباب عن عدي بن حاتم ، وحديث عبد الله حديث حسن رواه الأعمش عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، عن النبي ﷺ. ورواه شعبة عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله عن النبي ﷺ وكلا الحديثين صحيح. ورواه أبو داود في سننه (٦/ ١٥٣-١٥٥) ك النكاح – باب في خطبة النكاح. والنسائي ي سننه (٦/ ٨٩) ك النكاح – باب ما يستحب من الكلام عند النكاح. وابن ماجة في سننه (١/ ٦٠٩-٦١٠) ك النكاح – باب خبطة النكاح. والإمام أحمد (١/ ٣٩٢، ٤٣٢) . والبيهقي في سننه (٣/ ٢١٤) ك النكاح – باب ما جاء في خطبة النكاح. وفي كتاب القدر ص(٢٠٠) . والآجري في الشريعة ص ١٩٧. والبغوي ي شرح السنة (٩/ ٤٩) . وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١١٤) وصححه الألباني . واللالكائي في السنة ٠٤/ ٦٥٨) . والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٤) . وعبد الرازق في مصنفه (١١/ ١٦٢-١٦٣) باب خطبة الحاجة. والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٢١) .

(٢) هو : محمد بن كثير العبدي البصري، ثقة ، لم يصب من ضعفه، من كبار الطبقة العاشرة، مات سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وله تسعون سنة. روى له الستة. تقريب التهذيب (٢/ ٢٠٣) وانظر تهذيب التهذيب (٩/ ٤١٧) وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٨٣) .

(٣) هو : سفيان الثوري، ثقة حافظ ، سبقت ترجمته في ص (٢٦٧).

(٤) هو : خالد بن مهران أبو المنازل – بفتح الميم وقيل بضمها وكسر الزاي – البصري الحذاء ، قيل له ذلك لأنه كان يجلس عندهم، وقيل لأنه كان يقول : أحذ على هذا النحو، وهو ثقة يرسل، من الخامسة. روى له الستة. توفي سنة ١٤٢هـ. تقريب التهذيب (١/ ٢١٩) وتهذيب التهذيب (٣/ ١٢٠-١٢٢) .

عن عبد الأعلى[١] عن عبد الله بن الحارث[٢] قال: خطب عمر بن الخطاب بالجابية[٣] فحمد الله وأثنى عليه وعنده جاثليق[٤] يترجم له ما يقول، فقال: من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، فنفض (جبته)[٥] كالمنكر لما يقول، قال عمر: ما يقول؟ قالوا:يا أمير المؤمنين يزعم أن الله لا يضل أحداً، قال / عمر : كذبت أي عدو الله، بل الله خلقك وقد أضلك ثم ٨٨ب يدخلك النار، وأما والله لولا عهد لك لضربت عنقك، إن الله عز وجل خلق أهل الجنة وما هم عاملون، وخلق أهل النار وما هم عاملون، فقال: هؤلاء لهذه، وهؤلاء لهذه. قال : فتفرق الناس وما يختلفون في القدر[٦].

---

(١) هو : عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر بن كريز - بالتصغير - أبو عبد لرحمن البصري، مقبول من الخامسة. روى له أبو داود في كتاب القدر. تقريب التهذيب (١/ ٤٦٤) وانظر تهذيب التهذيب (٦/ ٩٥) .

(٢) هو : عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي، أبو محمد المدني، أمير البصرة، له رؤية ، ولأبيه وجده صحبة، قال ابن عبد البر : أجمعوا على توثيقه، مات سنة تسع وتسعين، ويقال سنة أربع وثمانين. روى له الستة . تقريب التهذيب (١/ ٤٠٨) وانظر تهذيب التهذيب (٥/ ١٨٠-١٨١) .

(٣) الجابية : قرية من أعمال دمشق . معجم البلدان (٢/ ٩١) .

(٤) الجاثليق: بفتح الثاء المثلثة: رئيس للنصارى في بلاد الإسلام، ويكون تحت يد البطريق، ثم المطران تحت يده، ثم الأسقف يكون في كل بلد تحت المطران، ثم القسيس ثم الشماس. القاموس المحيط ص (١١٢٥) مادة (جثق) .

(٥) في د، س : جبينه. والصواب ما أثبت حيث ورد في إحدى روايات هذا الأثر (ثوبه)، وفي الأخرى (قميصه) كما أن النفض يناسب الجبة .

(٦) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في السنة (٢/ ٦٥٩-٦٦١) . والدارمي في كتاب الرد على الجهمية ص (٧٨) مختصراً. والبيهقي في كتاب القدر ص ٢١٠-٢١١. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦١٩) ونسبه إلى ابن أبي حاتم وبي الشيخ. وقد ذكر المؤلف رحمه الله أبا داود - صاحب السنن - ي أول السند، ولم أعثر على هذا الأثر في السنن، ولعله رواه

فصل

المرتبة الرابعة من مراتب الهداية : الهداية إلى الجنة والنار يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات : ٢٢-٢٣] ، وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾ [محمد : ٤-٥] فهذه هداية بعد قتلهم . فقيل المعنى : سيهديهم إلى طريق الجنة ويصلح (حالهم)[1] في الآخرة بإرضاء خصومهم وقبول أعمالهم[2] .

وقال ابن عباس : سيهديهم إلى أرشد الأمور ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا[3] .

واستُشكِل هذا القول ؛ لأنه أخبر عن المقتولين في سبيله بأنه سيهديهم ، واختاره الزجّاج ، وقال : يصلح بالهم في المعاش وأحكام الدنيا . قال : وأراد به : يجمع لهم خير الدنيا والآخرة[4] .

وعلى هذا القول فلابد من حمل قولـه : ﴿قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على معنى يصح معه إثبات الهداية وإصلاح البال .

* * *

في كتاب القدر ومما يؤكد ذلك ما ورد في ترجمة أحد الرواة – وهو عبد الأعلى بن عامر – من أن أبا داود خرّج له في كتاب القدر فقط . والله أعلم.

(١) في د ، س : بالهم .

(٢) بهذا فسر هذه الآية البغوي في تفسيره معالم التنزيل (٤/ ١٧٩) .

(٣) ذكره ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير (٧/ ٣٩٨) .

(٤) انظر : معاني القرآن و إعرابه للزجّاج (٥/ ٧) .



الباب الخامس عشر

في الطبع والختم والقفل والغل والسد والغشاوة الحائل بين الكافر وبين الإيمان وأن ذلك مجعول للرب تبارك وتعالى







الباب الخامس عشر

في الطبع والختم والقفل والغل والسد والغشاوة (الحائل)[1] بين الكافر وبين الإيمان[2] وأن ذلك مجعول[3] للرب تبارك وتعالى

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾[4] وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[5] وقال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[7] وقال: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[8]، وقال ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[9] وقال: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ

١٨٩أ

(١) في د . س : والحائل . بزيادة الواو.

(٢) قوله : الحائل بين الكافر وبين الإيمان . لم يرد في المقدمة عند ذكر المؤلف رحمه الله لأبواب الكتاب.

(٣) في المقدمة ص (١٣٠) : مفعول.

(٤) سورة البقرة آية ٦-٧.

(٥) سورة الجاثية آية ٢٣.

(٦) سورة النساء آية ١٥٥.

(٧) سورة الأعراف آية ١٠١.

(٨) سورة الأعراف آية ١٠٠.

(٩) سورة محمد آية ٢٤.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾[١].

وقد (ضل بهذه)[٢] الآيات ونحوها طائفتا القدرية والجبرية، فحرفها القدرية بأنواع من التحريف المبطل لمعانيها وما أريد منها. وزعمت الجبرية أن الله أكرهها على ذلك، وقهرها عليه، وأجبرها من غير فعل منها، ولا إرادة، ولا اختيار، ولا كسب البتة، بل حال بينها وبين الهدى ابتداءً من غير ذنب ولا سبب من العبد يقتضي ذلك، بل أمره وحال مع أمره بينه وبين الهدى، فلم ييسر إليه سبيلاً، ولا أعطاه عليه قدرة، ولا مكنه منه بوجه.

(وزاد)[٣] بعضهم : بل أحب له الضلال والكفر والمعاصي ورضيه منه. فهدى أهل السنة والحديث وأتباع الرسول لما اختلف فيه هاتان الطائفتان من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

قالت القدرية : لا يجوز حمل هذه الآيات على أنه منعهم من الإيمان، وحال بينهم وبينه، إذ يكون لهم الحجة على الله، ويقولون: كيف يأمرنا بأمر، ثم يحول بيننا وبينه ويعاقبنا عليه وقد منعنا من فعله؟! وكيف يكلفنا بأمر لا قدرة لنا عليه؟! وهل هذا إلا بمثابة من أمر عبده بالدخول من باب ثم سد عليه (ذلك)[٤] الباب سداً محكماً لا يمكنه الدخول معه البتة، ثم عاقبه أشد العقوبة على عدم الدخول؟! ومنزلة من أمره بالمشي إلى مكان، ثم قيده (تقييداً)[٥] لا يمكنه معه نقل قدمه، ثم أخذ يعاقبه على ترك المشي؟! وإذا كان

---

(١) سورة يس الآيات : ٧ - ١٠.

(٢) في د ، س : دخل هذه .

(٣) في د ، س : وأراد .

(٤) ساقطة من د، س : بقيد .

(٥) في د، س : بقيد .

هذا قبيحاً في حق المخلوق فكيف* ينسب إلى الرب تعالى ، مع كمال غناه وعلمه وإحسانه ورحمته.

قالوا : وقد كذّب اللهُ سبحانه الذين قالوا: قلوبنا غلف، وفي أكنة، وأنها قد طبع عليها، وذمهم على هذا القول، / فكيف ينسب إليه تعالى. ولكن ٨٩ب القوم لما أعرضوا وتركوا الاهتداء بهداه الذي بعث به رسله، حتى صار ذلك الإعراض والنفار كالإلف والطبيعة والسجية أشبه حالهم حال من منع عن الشيء وصد عنه، وصار هذا وقراً في آذانهم، وختماً على قلوبهم، وغشاوة على أعينهم، فلا يخلص إليها الهدى، وإنما أضاف الله تعالى ذلك إليه لأن هذه الصفة قد صارت في تمكنها وقوة ثباتها كالخلقة التي خلق عليها العبد. وقالوا : ولهذا قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] وقال : ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[2] وقال : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[3] وقال:﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[4].

ولعمر الله إن الذي قاله هؤلاء حقه أكثر من باطله، وصحيحه أكثر من سقيمه، ولكن لم يوفوه حقه، وعظموا الله من جهة وأخلوا بتعظيمه من جهة، فعظموه بتنزيهه عن الظلم وخلاف الحكمة، وأخلوا بتعظيمه من جهة

* نهاية سقط نسخة (ع) الذي بدأ في ص (٤٨٤) .

(١) سورة المطففين آية ١٤.

(٢) سورة النساء آية ١٥٥.

(٣) سورة الصف آية ٥.

(٤) سورة التوبة آية ٧٧.

التوحيد وكمال القدرة ونفوذ المشيئة. والقرآن يدل على صحة ما قالوه في الران والطبع والختم من وجه، (وعلى)[١] بطلانه من وجه.

أما صحته؛ فإنه سبحانه جعل ذلك عقوبة لهم، وجزاءً على كفرهم وإعراضهم عن الحق بعد أن عرفوه، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٢] وقال : ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[٣] وقال : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٤] وقال: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[٥].

وقد اعترف بعض القدرية بأن ذلك خلق الله سبحانه، ولكنه عقوبة على كفرهم وإعراضهم السابق، فإنه سبحانه يعاقب على الضلال المقدور بإضلال بعده، ويثيب على الهدى بهدى بعده، كما يعاقب على السيئة بسيئة مثلها، ويثيب على الحسنة بحسنة مثلها. / قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[٦] وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾[٧]. وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[٨] ومن الفرقان : الهدى الذي يفرق به بين الحق والباطل،

٩٠أ

(١) ساقطة من د،س .

(٢) سورة الصف آية ٥.

(٣) سورة المطففين آية ١٤.

(٤) سورة الأنعام آية ١١٠.

(٥) سورة التوبة آية ١٢٧.

(٦) سورة محمد آية ١٧.

(٧) سورة الأحزاب آية ٧٠-٧١.

(٨) سورة الأنفال آية ٢٩.

وقال في ضد ذلك: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾[1] وقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[2] وقال: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[3] .

وهذا الذي ذهب إليه هؤلاء حق، والقرآن دل عليه وهو موجب العدل، والله سبحانه ماض في العبد حكمه، وعدل في عبده قضاؤه، فإنه إذا دعا عبده إلى معرفته ومحبته وذكره وشكره، فأبى العبد إلا إعراضاً وكفراً، قضى عليه بأن أغفل قلبه عن ذكره، وصده عن الإيمان به، وحال بين قلبه وبين قبول الهدى، وذلك عدل منه فيه، وتكون عقوبته بالختم والطبع والصد عن الإيمان كعقوبته له بذلك في الآخرة مع دخول النار، كما قال تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾[4] فحجابه عنهم إضلال لهم وصد عن رؤيته وكمال معرفته، كما عاقب قلوبهم في هذه الدار بصدها عن الإيمان. وكذلك عقوبته لهم بصدهم عن السجود له يوم القيامة مع الساجدين هو جزاء امتناعهم من السجود له في الدنيا، وكذلك عماهم عن الهدى في الآخرة عقوبة لهم على عماهم في الدنيا (عنه)[5] ولكن (الفرق أن)[6] أسباب هذه الجرائم في الدنيا كانت مقدورة لهم واقعة لاختيارهم وإرادتهم وفعلهم، فإذا وقعت عقوبات لم تكن مقدورة، بل قضاء جار عليهم ماض عدل فيهم. قال تعالى : ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ

---

(١) سورة النساء آية ٨٨.

(٢) سورة البقرة آية ١٠.

(٣) سورة التوبة آية ١٢٧.

(٤) سورة المطففين آية ١٥-١٦.

(٥) ساقطة من د،س.

(٦) ساقطة من د ، س .

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[(١)] ومن هاهنا ينفتح للعبد باب واسع عظيم النفع جداً في قضاء الله المعصية والكفر والفسوق على العبد، وأن ذلك بمحض عدل فيه، وليس المراد بالعدل ما يقوله الجبرية / إنه من الممكن، فكل ما يمكن فعله بالعبد فهو عندهم عدل، والظلم هو الممتنع لذاته، فهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب الكلام في الأسباب والحكم. ولا المراد به ما يقوله القدرية النفاة: إنه إنكار عموم قدرة الله ومشيئته على أفعال عباده وهدايتهم وإضلالهم، وعموم مشيئته لذلك، وأن الأمر إليهم لا إليه.

وتأمل قول النبي ﷺ : «ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك»[(٢)] كيف ذكر العدل في القضاء مع الحكم النافذ، وفي ذلك رد لقول الطائفتين القدرية والجبرية، فإن العدل الذي أثبتته القدرية مناف للتوحيد، معطل لكمال قدرة الرب وعموم مشيئته، والعدل الذي أثبتته الجبرية مناف للحكمة والرحمة ولحقيقة العدل .

والعدل الذي هو اسمه وصفته ونعته سبحانه خارج عن هذا وهذا، ولم يعرفه إلا الرسل وأتباعهم. ولهذا قال هود ﷺ لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[(٣)] فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف شاء، ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم.

قال أبو إسحاق : أي هو سبحانه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء (فهو)[(٤)]

---

(١) سورة الإسراء آية ٧٢.

(٢) هذا جزء من حديث رواه ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: « ما أصاب أحد قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك ...» إلخ. والحديث سبق تخريجه في ص(١٣٣).

(٣) كما حكاه الله عز وجل عنه في سورة هود آية ٥٦.

(٤) في ع، د، س: فإنه. وما أثبت من م، ت، ومعاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج.

لا يشاء إلا العدل[١].

وقال ابن الأنباري[٢]: لما قال ﴿هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ كان في معنى لا يخرج (عن)[٣] قبضته وأنه قاهر بعظيم سلطانه لكل دابة، فأتبعه قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. (أي على الحق)[٤] قال: وهذا نحو كلام العرب إذا (وصفوه)[٥] بحسن السيرة والعدل والإنصاف، قالوا: فلان على طريقة حسنة، وليس ثم طريق. ثم ذكر وجهاً آخر، فقال: لما ذكر سلطانه قد قهر كل دابة أتبع هذا قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي (أنه)[٦] لا يخفى عليه مشتبه، ولا يعدل عنه هارب، فذكر الصراط المستقيم، وهو يعني به الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[٧][٨].

---

(١) انظر معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق للزجاج (٣/ ٥٨).

(٢) هو: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبوبكر الأنباري، من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار، قيل: كان يحفظ ثلاثمائة ألف شاهد في القرآن. ولد في الأنبار (بلد على الفرات) وتوفي ببغداد سنة ٣٢٨هـ. وله مؤلفات، منها: إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، وعجائب علوم القرآن، وغريب الحديث، وغيرها. سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧٤) تذكرة الحفاظ (٣/ ٥٧)، الأعلام (٦/ ٣٣٤).

(٣) في د، س: من.

(٤) إضافة من م.

(٥) هكذا في جميع النسخ الخطية والمطبوعة. وفي تفسير الواحدي (البسيط) وصفوا رجلاً.

(٦) ساقطة من ع، د، س.

(٧) سورة الفجر آية ١٤.

(٨) ذكره الواحدي في تفسير (البسيط) ق(٣٢-٣٣) مخطوط. مرجع سابق انظر ص(٣٨٧).

قلت : فعلى (القول)[١] الأول يكون المراد أنه في تصرفه في ملكه يتصرف بالعدل ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم مثقال ذرة ، ولا يعاقب أحداً بما لم يجنه ولا يهضمه ثواب ما علمه، ولا يحمل عليه ذنب غيره، ولا يأخذ أحداً بجريرة أحد. ولا يكلف نفساً ما لا تطيقه، فيكون من باب :(له الملك وله الحمد) ومن باب: (ماض فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك) ، ومن باب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي كما أنه رب العالمين المتصرف فيهم بقدرته ومشيئته، فهو المحمود على هذا التصرف وله الحمد على جميعه .

وعلى القول الثاني، فالمراد به التهديد والوعيد وأن مصير العباد وطريقهم عليه لا يفوته منهم أحد، كما قال تعالى :﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[٢] .

قال الفراء : يقول مرجعهم إليّ فأجازيهم، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[٣] .

قال: وهذا كما تقول في الكلام : طريقك عليّ وأنا على طريقك، لمن أوعدته[٤] وكذلك قال الكلبي، والكسائي[٥][٦] . ١٩١أ

(١) في ع ، د ، س : هذا القول .
(٢) سورة الحجر آية ٤١ .
(٣) سورة الفجر آية ١٤.
(٤) انظر معاني القرآن للفراء (٢/ ٨٩).
(٥) هو : علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو الحسن الكسائي، إمام في اللغة والنحو والقراءة، من أهل الكوفة، ولد في إحدى قراها، وتعلّم وقرأ النحو بعد الكبر، وتنقل في البادية، وسكن بغداد، وتوفي بالري عن سبعين عاماً، وهو مؤدب الرشيد العباسي وابنه الأمين . له تصانيف، منها: معاني القرآن ، والمصادر، والحروف . توفي سنة ١٨٩هـ . انظر سير أعلام النبلاء(٩/ ١٣١) وطبقات النحويين للزبيدي ص١٣٨. والأعلام (٤/ ٢٨٣).
(٦) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(٣٣) المرجع السابق .

ومثل قوله : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾[١] على أحد القولين في الآية.

قال مجاهد : الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه[٢]. و(منها) أي: ومن السبل ما هو جائر عن الحق، ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٣] . فأخبر عن عموم مشيئته (وقدرته)[٤] وأن طريق الحق موصلة إليه، فمن سلكها فإليه يصل، ومن عدل عنها فإنه يضل عنه .

والمقصود أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى وتوحيده، (وأنه)[٥] يتصرف في خلقه بملكه وحمده وعدله وإحسانه، فهو على صراط مستقيم؛ في قوله، وفعله، وشرعه، وقدره، وثوابه، وعقابه، يقول الحق ويفعل العدل، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[٦] .

فهذا العدل والتوحيد (الذي)[٧] دل (عليه)[٨] القرآن لا يتناقضان، وأما توحيد أهل القدر والجبر وعدلهم، فكل منهما يبطل الآخر ويناقضه .

---

(١) سورة النحل، آية ٩ .

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤/ ٨٤) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٩) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم .

(٣) سورة النحل ، آية ٩ .

(٤) ساقطة من ع ، د ، س .

(٥) في ع ، د ، س : والله .

(٦) سورة الأحزاب، آية ٤ .

(٧) في د : اللذان، وفي س : الذين .

(٨) في د ، س : عليهما .

فصل

ومن سلك من القدرية هذه الطريقة، فقد توسط بين الطائفتين ، لكنه يلزمه الرجوع إلى (قول)[١] مثبتي القدر قطعاً، وإلا تناقض أبين تناقض، فإنه إذا زعم أن الضلال والطبع والختم والقفل والوقر وما يحول / بين العبد ٩١ب وبين الإيمان مخلوق لله، وهو واقع بقدرته ومشيئته، فقد أعطى أن أفعال (العبد)[٢] مخلوقة ، وأنها (واقعة)[٣] بمشيئته، فلا فرق بين الفعل الابتدائي والفعل الجزائي إن كان هذا مقدوراً لله واقعاً بمشيئته (فالآخر)[٤] كذلك، وإن لم يكن ذاك مقدوراً، ولا يصح دخوله تحت المشيئة ، فهذا كذلك. والتفريق بين النوعين تناقض محض .

وقد حكى هذا التفريق عن بعض القدرية أبو القاسم الأنصاري[٥] في (شرح)[٦] الإرشاد ، فقال : ولقد اعترف (طوائف من)[٧] القدرية بأن الختم والطبع (موانع)[٨] غير أنها (عقوبات)[٩] من الله لأصحاب الجرائم. قال:

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س .

(٢) في ع ، د ، س : العباد

(٣) ساقطة من م .

(٤) في ع ، د ، س : والآخر

(٥) هو سليمان بن ناصر بن عمران بن محمد الأنصاري النيسابوري، أبو القاسم، كان فقيهاً شافعياً ومفسراً متكلماً. من تلاميذ إمام الحرمين الجويني. له كتب منها: (الغنية) في فروع الشافعية، وشرح الإرشاد في أصول الدين. توفي في نيسابور سنة ٥١١هـ. شذرات الذهب (٤/ ٣٤) العبر (٤/ ٢٧-٢٨). سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤١٢).

(٦) في ع، د ، س : شرحه .

(٧) في ع ، د ، س : بعض القدرية .

(٨) في ع ، د ، س : توابع .

(٩) في م : عقوبة .

وممن صار إلى هذا المذهب عبد الواحد بن زيد البصري[١] وبكر ابن أخته[٢] قال : وسبيل المعاقبين بذلك سبيل المعاقبين بالنار[٣]، وهؤلاء (بقي)[٤] عليهم درجة واحدة، وقد تحيزوا إلى أهل السنة والحديث .

فصل

وقالت طائفة منهم : الكافر هو الذي طبع على (قلب نفسه)[٥] في الحقيقة وختم على قلبه، والشيطان أيضاً فعل ذلك، ولكن لما كان الله سبحانه هو الذي أقدر العبد والشيطان على ذلك، نسب الفعل إليه (لإقداره)[٦] للفاعل

---

(١) هو عبد الواحد بن زيد البصري، أبو عبيدة ، حدث عن الحسن البصري وغيره، وحدث عنه محمد بن السماك ووكيع وغيرهما. قال البخاري: تركوه. وقال النسائي متروك الحديث. وقال الذهبي: فارق عمرو بن عبيد لاعتزاله، وقال بصحة الاكتساب، وقد نسب إلى شيء من القدر، ولم يشهر، بل نصب نفسه للكلام في مذاهب النساك، وتبعه خلق . وكان صاحب فنون، داخلاً في معاني المحبة والخصوص، وقد بقي عليه شيء من رؤية الاكتساب، وفي ذلك شيء من أصول أهل القدر، فإن عندهم : لا نجاة إلا بعمل. فأما أهل السنة فيحضون على الاجتهاد في العمل، وليس به النجاة وحده دون رحمة الله. مات بعد الخمسين ومائة . سير أعلام النبلاء (٧/ ١٧٨-١٨٠) وميزان الاعتدال (٢/ ٦٧٢-٦٧٣). والتاريخ الكبير للبخاري (٦/ ٦٢) الضعفاء والمتروكين للنسائي ص (١٦٢) .

(٢) لم أقف له على ترجمة. وإليه تنسب البكرية. وانظر عن آرائه الفرق بين الفرق ص (٢٠٠).

(٣) انظر شرح الإرشاد ق(١٨٠) مخطوط، توجد صورة منه بمركز الملك فيصل بالرياض تحت رقم (٤٢٥/ ف) ولم يشر فيها إلى مكان وجود النسخة الأصل .

(٤) في ع ، د ، س : قد بقي .

(٥) في د : قلبه بنفسه .

(٦) في ع ، س : لإقراره .

على ذلك (لا)[١] لأنه هو الذي فعله .

قال أهل السنة والعدل : هذا الكلام فيه حق وباطل، فلا يقبل مطلقاً، ولا يرد مطلقاً. فقولكم : إن الله سبحانه أقدر الكافر والشيطان على الطبع والختم كلام باطل، فإنه لم يقدره إلا على التزيين والوسوسة والدعوة إلى الكفر، ولم يقدره على خلق ذلك في قلب العبد البتة، وهو أقل من ذلك وأعجز، وقد قال النبي ﷺ : « بُعثت داعياً ومبلّغاً، وليس إليّ من الهداية شيء، وخلق إبليس مزيناً، وليس إليه من الضلالة شيء »[٢] .

فمقدور الشيطان أن يدعو العبد إلى فعل الأسباب التي إذا فعلها ختم الله على قلبه وسمعه، وطبع عليه، كما يدعوه إلى الأسباب التي إذا فعلها عاقبه الله بالنار، فعقابه بالنار / كعقابه بالختم والطبع، وأسباب العقاب فعله، وتزيينها وتحسينها فعل الشيطان، والجميع مخلوق لله . ١٩٢أ

وأما ما في هذا الكلام من الحق، فهو أن الله سبحانه أقدر العبد على الفعل الذي أوجب الطبع والختم على قلبه، فلولا إقدار الله (له)[٣] على ذلك لم يفعله.

وهذا حق، لكن القدرية لم توف هذا الموضع حقه. وقالت : أقدره قدرة تصلح للضدين، فكان فعل أحدهما باختياره ومشيئته التي لا تدخل تحت مقدور الرب، وإن دخلت قدرته الصالحة لهما تحت مقدوره سبحانه، فمشيئته واختياره وفعله غير واقع تحت مقدور الرب. وهذا من أبطل الباطل، فإن كل ما سواه مخلوق له، داخل تحت قدرته، واقع بمشيئته، فلو لم يشأ لم يكن .

---

(١) ساقطة من : م ، ع ، س .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في ص (٥٧٥) .

(٣) ساقطة من م .

(قالت)[١] القدرية : لما أعرضوا عن التدبر، ولم يصغوا إلى التذكر، وكان ذلك مقارناً لإيراد الله سبحانه حجته عليهم، أضيفت أفعالهم إلى الله تعالى؛ لأن حدوثها إنما اتفق عند إيراد الحجة عليهم .

قال أهل السنة : هذا من أمحل المحال، أن يضيف الرب إلى نفسه أمراً لا يضاف إليه البتة لمقارنته ما هو من فعله. ومن المعلوم أن الضد يقارن الضد، فالشر يقارن الخير، والحق يقارن الباطل، والصدق يقارن الكذب، وهل يقال: إن الله سبحانه يحب الكفر والفسوق والعصيان لمقارنتها ما يحبه من الإيمان والطاعة، وإنه يحب إبليس لمقارنة وجوده لوجود الملائكة؟! .

فإن قيل : قد ينسب الشيء إلى الشيء لمقارنته له، وإن لم يكن له فيه تأثير، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾[٢] . ومعلوم أن السورة لم تحدث لهم زيادة رجس، بل قارن زيادة رجسهم (لنزولها)[٣] فنسب إليها.

قيل : لم ينحصر الأمر (في)[٤] هذين الأمرين اللذين ذكرتهما / وهما ٩٢ب إحداث السورة الرجس، والثاني: مقارنته لنزولها، بل ها هنا أمر ثالث ، وهو أن السورة لما أنزلت اقتضى نزولها الإيمان بها، والتصديق والإذعان لأوامرها ونواهيها، والعمل بما فيها، فوطّن المؤمنون أنفسهم على ذلك، فزادوا إيماناً بسببها. فنسبت زيادة الإيمان إليها، إذ هي السبب في زيادته، وكذّب بها

(١) في ع ، س : قلت، وفي د : قال .

(٢) سورة التوبة آية ١٢٤-١٢٥ .

(٣) في د ، س : نزولها .

(٤) في ع : إلا في .

الكافرون وجحدوها، وكذبوا من جاء بها، ووطنوا أنفسهم على مخالفة ما تضمنته وإنكاره، فازدادوا بذلك رجساً، فنسب إليها؛ إذ كان نزولها ووصولها إليهم هو السبب في تلك الزيادة، فأين هذا من نسبة الأفعال القبيحة عندكم، التي لا تجوز نسبتها إلى الله عند دعوتهم إلى الإيمان وتدبر آياته. على أن أفعالهم القبيحة لا تنسب إلى الله سبحانه، وإنما هي منسوبة إليهم، والمنسوب إليه سبحانه أفعاله الحسنة الجميلة المتضمنة للغايات المحمودة والحكم المطلوبة. فالختم والطبع والقفل والإضلال أفعال حسنة من الله، ووضعها في أليق المواضع بها؛ إذ لا يليق بذلك المحل الخبيث غيرها. والشرك والكفر والمعاصي والظلم أفعالهم القبيحة التي لا تنسب إلى الله فعلاً، وإن نسبت إليه خلقاً، فخلقها غيرها والخلق غير المخلوق، والفعل غير المفعول والقضاء غير المقضي، والقدر غير المقدور، وتستمر بك هذه المسألة مستوفاة إن شاء الله في باب اجتماع الرضا بالقضاء وسخط الكفر والفسوق والعصيان إنشاء الله[١] .

(قالت)[٢] القدرية : لما بلغوا في الكفر إلى حيث لم يبق طريق إلى (تحصيل)[٣] الإيمان لهم إلا بالقسر والإلجاء، ولم تقتض حكمته تعالى أن يقسرهم على الإيمان لئلا تزول حكمة التكليف، عبر عن ترك الإلجاء والقسر بالختم والطبع إعلاماً (بأنهم)[٤] انتهوا في الكفر والإعراض إلى حيث لا ينتهون عنه إلا بالقسر، وتلك الغاية (في)[٥] وصف لجاجهم وتماديهم في الكفر .

١٩٣ قال أهل السنة : هذا كلام باطل؛ فإنه سبحانه قادر على أن يخلق / فيهم

(١) سيذكر المؤلف ذلك في الباب الثامن والعشرين .

(٢) في ع ، د : قال .

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

(٤) في ع ، د س : لهم بأنهم .

(٥) ساقطة من م ، ت .

مشيئة الإيمان وإرادته ومحبته، فيؤمنون بغير قسر ولا إلجاء، بل إيمان اختيار وطاعة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[١] وإيمان القسر والإلجاء لا يسمى إيماناً، ولهذا يؤمن الناس كلهم يوم القيامة، ولا يسمى ذلك إيماناً؛ لأنه عن إلجاء واضطرار، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[٢] وما يحصل للنفوس من المعرفة والتصديق بطريق الإلجاء والاضطرار والقسر لا يسمى هدى، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[٣] فقولكم: لم يبق طريق إلى (إيمانهم)[٤] إلا القسر باطل، فإنه بقي إلى إيمانهم طريق لم يرهم الله إياه وهو مشيئته وتوفيقه وإلهامه، وإمالة قلوبهم إلى الهدى وإقامتها على الصراط المستقيم، وذلك أمر لا يعجز عنه رب كل شيء ومليكه، بل هو القادر عليه كقدرته على (خلق)[٥] ذواتهم وصفاتهم وذرياتهم، ولكن منعهم ذلك لحكمته وعدله فيهم وعدم استحقاقهم وأهليتهم لبذل ذلك لهم، كما منع السفل خصائص العلو، ومنع الحار خصائص البارد، ومنع الخبيث خصائص الطيب. ولا يقال: فلم فعل هذا؟ فإن ذلك من لوازم ملكه وربوبيته ومن مقتضيات أسمائه وصفاته، وهل يليق بحكمته أن يسوي بين الطيب والخبيث، والحسن والقبيح، والجيد والرديء ؟! ومن لوازم الربوبية خلق الزوجين وتنويع المخلوقات وأخلاقها .

---

(١) سورة يونس آية ٩٩ .

(٢) سورة السجدة آية ١٣ .

(٣) سورة الرعد آية ٣١ .

(٤) في ع ، د س : الإيمان .

(٥) في ع ، د س : خلقه .

فقول القائل : لم خلق الرديء والخبيث واللئيم ؟ سؤال جاهل بأسمائه وصفاته، وملكه وربوبيته، وهو سبحانه فرق بين خلقه أعظم تفريق، وذلك من كمال قدرته وربوبيته فجعل منه ما يقبل جميع الكمال الممكن، ومنه ما لا يقبل شيئاً منه، وبين ذلك درجات متفاوتة لا يحصيها إلا الخلاق العليم. وهدى / كل نفس إلى حصول ما هي قابلة له، والقابل والمقبول كله مفعوله ومخلوقه، وأثر فعله وخلقه. وهذا هو الذي ذهب عن الجبرية والقدرية، ولم يهتدوا إليه، وبالله التوفيق . ٨٣ب

قالت القدرية : الختم والطبع هو شهادته سبحانه عليهم بأنهم لا يؤمنون، وعلى أسماعهم وعلى قلوبهم .

قال أهل السنة : هذا قولكم بأن الختم والطبع هو الإخبار عنهم بذلك، وقد تقدم فساد هذا بما فيه كفاية، وأنه لا يقال في لغة من لغات الأمم لمن أخبر عن غيره بأنه مطبوع على قلبه وأن عليه (ختماً)[1] إنه قد طبع على قلبه وختم عليه، بل هذا كذب على اللغات وعلى القرآن، وكذلك قول من قال : إن ختمه على قلوبهم اطلاعه على ما فيها من الكفر. وكذلك قول من قال : إنه إحصاؤه عليهم حتى يجازيهم به، وقول من قال : إنه إعلامها بعلامة تعرفها بها الملائكة. وقد بينا بطلان ذلك بما فيه كفاية .

قالت القدرية : لا يلزم من الطبع والختم والقفل أن تكون مانعة من الإيمان، بل يجوز أن يجعل الله فيهم ذلك من غير أن يكون منعهم من الإيمان، بل يكون ذلك من جنس الغفلة والبلادة والعشى في البصر، فيورث ذلك إعراضاً عن الحق وتعامياً / عنه، ولو أنعم النظر، وتفكر وتدبر لما آثر على الإيمان غيره . ١٩٤أ

---

(١) في م ، ت : ختم .

وهذا الذي قالوه يجوز أن يكون في أول الأمر، فإذا تمكن واستحكم من القلب ورسخ فيه امتنع معه الإيمان، ومع هذا فهو أثر فعله وإعراضه وغفلته وإيثار شهوته، وكبره على الحق والهدى، فلما تمكن واستحكم صار صفة راسخة وطبعاً وختماً وقفلاً وراناً، فكان مبدؤه غير حائل بينهم وبين الإيمان، والإيمان ممكن معه، ولو شاؤوا لآمنوا مع مبادئ تلك الموانع، فلما استحكمت لم يبق إلى الإيمان سبيل. ونظير هذا أن العبد يستحسن ما يهواه، فيميل إليه بعض الميل، ففي هذا الحال يمكن صرف (دواعيه وعشقه)[1] له؛ إذ الأسباب لم تستحكم، فإذا استمر على ميله ، واستدعى أسبابه (واستحكمت)[2] لم يمكنه صرف قلبه عن الهوى والمحبة، فيطبع على قلبه ويختم عليه، فلا يبقى فيه محل لغير ما يهواه ويحبه، فكان الانصراف (عن الغي)[3] مقدوراً له في أول الأمر، فلما تمكنت أسبابه، لم يبق مقدوراً له كما قال الشاعر :

تولــع بالعشــق حــتى عشــق	فــلما اســتقل بــه لم يطــق
رأى لجـــة ظـــنها موجـــة	فــلما تمكــن مــنها غــرق[4]

فلو أنهم بادروا في مبدأ الأمر إلى مخالفة الأسباب الصادة عن الهدى؛ لسهل

(١) في ع ، د ، س : الداعية .
(٢) في ع ، د ، س : واستمكنت .
(٣) ساقطة من ع ، د ، س .
(٤) لم أقف على اسم قائلهما ، وقد ذكرهما المؤلف في كتابه روضة المحبين ص ١٦٣، تحقيق د.سيد الجميلي ، ط الثالثة ١٤١٢هـ ، نشر دار الكتاب العربي، بيروت. وفي كتابه الكلام على مسألة السماع ص (٣٦٤) تحقيق الشيخ راشد بن عبدالعزيز الحمد، طب الأولى ١٤٠٩هـ ، نشر دار العاصمة بالرياض. وسيذكرهما في هذا الكتاب ـ مرة أخرى ـ في ص(٦٦٥).

عليهم ولما استعصى عليهم، ولقدروا عليه .

ونظير ذلك المبادرة إلى إزالة العلة قبل استحكام أسبابها، ولزومها للبدن لزوماً لا ينفك منها، فإذا استحكمت العلة وصارت كالجزء من البدن عز على الطبيب استنقاذ العليل منها .

ونظير ذلك المتوحل في حمأة[١]، فإنه ما لم يدخل تحتهـا، فهو قادر على التخلص، فإذا توسط معظمها عز عليه وعلى غيره إنقاذه، فمبادئ الأمور مقدورة للعبد، فإذا (تحكمت)[٢] أسبابها (منه)[٣] وتمكنت لم يبق (الأمر)[٤] مقدور له . فتأمل هذا الموضوع حق التأمل، فإنه من أنفع الأشياء في باب القدر، والله الموفق للصواب.

٩٤ب والله سبحانه جاعل ذلك كله وخالقه / فيهم بأسباب منهم، وتلك الأسباب قد تكون أموراً عديمة يكفي فيها عدم مشيئة أضدادها، فلا يشاء سبحانه أن يخلق للعبد أسباب الهدى، فيبقى على العدم الأصلي، وإن أراد من عبده الهداية، فهي لا تحصل حتى يريد من نفسه إعانته وتوفيقه، فإذا لم يرد سبحانه من (نفسه)[٥] ذلك لم تحصل له الهداية .

فصل

ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل حصول الإيمان، بأن يفك الذي ختم على القلب وطبع عليه وضرب عليه القفل ذلك الختم

(١) الحمأة : طين أسود . المصباح المنير ص (١٥٣) مادة (حمي) .

(٢) في ع ، د ، س : استحكمت .

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

(٤) في م ، ت : الأثر .

(٥) في م : عنده .

والطابع والقفل، ويهديه بعد (ضلاله)[١] ، ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيه، ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده، حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليه السعادة والإيمان.

وقرأ قارئ عند عمر بن الخطاب: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[٢] وعنده شاب فقال: اللهم عليها أقفالها، ومفاتيحها بيدك لا يفتحها سواك[٣]، فعرفها له عمر وزادته عنده خيراً .

وكان عمر رضي الله عنه يقول في دعائه : « **اللهم إن كنت كتبتني شقياً فامحني، واكتبني سعيداً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت** »[٤] .

(١) في م ، ت : ضلالته .

(٢) سورة محمد آية ٢٤ .

(٣) أورد المؤلف الأثر على أنه موقوف على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم أعثر له على تخريج، وقد روى سهل بن سعد رضي الله عنه أنه عند رسول الله ﷺ حيث قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ وغلامٌ جالس عند رسول الله ﷺ فقال : بلى والله يا رسول الله : إن عليها لأقفال لا يفتحها إلا الذي أقفلها، فلما وَلِيَ عمرُ طَلَبَه ليستعمله، وقال: إنه لم يقل ذلك إلا من عقل. ورواية سهل بن سعد هذه أخرجها: اللالكائي في السنة (٣/ ٥٥١) . والبغوي في شرح السنة (٣/ ٥٥). والبيهقي في كتاب القدر ص(٢٢٥). والطبري في تفسيره (٢٦/ ٥٨). والذهبي في ميزان الاعتدال (٤/ ١٧٦) في ترجمة مقدام بن داود. والسيوطي في الدر المنثور (٥٠١٧) ونسبها إلى الدارقطني في الأفراد. وابن مردويه. وفي سند هذا الحديث ذؤيب ابن عمامة. قال الذهبي: ضعيف. وفي سنده ـ أيضاً مقدام بن داود. قال فيه النسائي: ليس بثقة، وقال ابن يونس وغيره: تكلموا فيه، وقال محمد بن يوسف الكندي : كان فقيهاً مفتياً لم يكن بالمحمود في الرواية. ميزان الاعتدال (٤/ ١٧٦) .

(٤) رواه ابن جرير في تفسيره (١٣/ ١٦٧-١٦٨). واللالكائي في السنة (٤/ ٦٦٣-٦٦٤) والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٦٣). والدولابي في الكنى (ص١٥٥) والبيهقي =

فالرب تعالى فعال لما يريد، لا حجر عليه. وقد ضل ها هنا فريقان : القدرية حيث زعمت أن ذلك ليس مقدوراً للرب، ولا يدخل تحت فعله، إذ لو كان مقدوراً له ومنعه العبد لناقض جوده ولطفه. والجبرية حيث زعمت أنه سبحانه إذا قدر قدراً أو علم شيئاً، فإنه لا يغيره بعد هذا، ولا يتصرف فيه بخلاف ما قدره وعلمه.

والطائفتان حجرت على من لا يدخل تحت حجر أحد أصلاً. وجميع خلقه تحت حجره شرعاً وقدراً.

وهذه المسألة من أكبر مسائل القدر ، وسيمر بك إن شاء الله في باب المحو والإثبات ما يشفيك فيها. والمقصود أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرض العبد (لفك) [1] ذلك الختم والطابع. وفتح ذلك القفل، (لفتحه)[2] من بيده مفاتيح كل / شيء، وأسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه، ١٩٥أ وإن كان فك الختم وفتح القفل غير مقدور له، كما أن شرب الدواء مقدور له، وزوال العلة وحصول العافية غير مقدورة (له)[3] ، فإذا استحكم به المرض وصار صفة (لازمة)[4] لم يكن له عذر في تعاطي ما إليه من أسباب الشفاء وإن كان غير مقدور له، ولكن لما ألف العلة وساكنها، ولم يحب

= (ص١٤٩-١٥٠) وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥١٩) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٦٦١) ونسبه إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر .

(١) في : ع : أمكنه ، وفي د ، س : أمكنه فك ذلك .

(٢) في ع ، د ، س : يفتحه .

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

(٤) في ع ، د ، س : لازمة له .

زوالها، ولا آثر ضدها عليها، مع معرفته بما بينها وبين ضدها من التفاوت، فقد سد على نفسه باب الشفاء بالكلية، والله سبحانه يهدي عبده إذا كان ضالاً، وهو يحسب أنه على هدى، فإذا تبين له الهدى لم يعدل عنه لمحبته (له)(١) وملاءمته لنفسه. فإذا عرف الهدى فلم يحبه ولم يرض به، وآثر عليه الضلال مع تكرر تعريفه منفعة هذا وخيره، ومضرة هذا وشره، فقد سد على نفسه باب الهدى بالكلية، فلو أنه في هذه الحال تعرض وافتقر إلى من بيده هداه، وعلم أنه ليس إليه هدى نفسه، وأنه إن لم يهده فهو ضال، سأل الله أن (يقبل بقلبه)(٢) وأن يقيه شر نفسه (لوفقه)(٣) وهداه. بل لو علم الله منه كراهية لما هو عليه من الضلال ، وأنه مرض قاتل (له)(٤) وإن لم يشفه منه أهلكه، لكانت كراهته (له)(٥) وبغضه إياه ـ مع كونه مبتلى به ـ من أسباب الشفاء والهداية ولكن من أعظم أسباب الشقاء والضلال محبته له ورضاه به وكراهته (للهدى)(٦) والحق، فلو أن المطبوع على قلبه المختوم عليه كره ذلك، ورغب إلى الله في فك ذلك عنه، وفعل مقدوره؛ لكان هداه أقرب شيء إليه، لكن إذا استحكم الطبع والختم (والقفل)(٧) حال بينه وبين كراهة ذلك وسؤال الرب فكه وفتح قلبه.

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س .
(٢) في د ، يقيل قلبه .
(٣) في ع ، د ،س : وفقه .
(٤) ساقطة من ع ، د ، س .
(٥) في ع ، د ، س : الهدى .
(٦) إضافة من ع .
(٧) إضافة من ع .

فصل

فإن قيل : فإذا جوزتم أن يكون الطبع والختم والقفل عقوبة وجزاءً على الجرائم والإعراض والكفر السابق (فكيف يمكنكم طرد ذلك في الختم والطبع السابق على فعل /)[١] الجرائم؟!. ٩٥ب

قيل : هذا موضع يغلط فيه أكثر الناس، ويظنون بالله سبحانه خلاف موجب أسمائه وصفاته. والقرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان (و)[٢] بينه له، وإنما فعله (به)[٣] بعد (تكرر)[٤] الدعوة منه سبحانه والتأكيد في البيان والإرشاد (وتكرر)[٥] الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك.

والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع، بل كان اختياراً فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية، فتأمل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[٦] . ومعلوم أن هذا ليس حكماً يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفاراً قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وأسماعهم . فهذه

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

(٢) في ع ، د ، س : أو .

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

(٤) في ع ، د ، س : تكرار .

(٥) في د ، س : تكرار .

(٦) سورة البقرة آية ٦-٧ .

الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة، فهو سبحانه يعاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير، وبعضهم بالطمس على أعينهم: فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب، كما يعاقب بالطمس على الأعين ، فهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة ، وقد يعاقب به إلى وقت، ثم يعافي عبده ويهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك .

فصل

وهاهنا عدة أمور عاقب بها الكفار بمنعهم عن الإيمان، وهي الختم، والطبع، والأكنة، والغطاء، والغلاف، والحجاب، والغشاوة، والران، والغل، والسد، والقفل، والصمم، والوقر، والبكم، والعمى، والصد (والصرف، والشد على القلوب، والضلال)[1] وإزاغة القلوب، والخذلان والإغفال، والمرض، وتقليب الأفئدة، والحول بين المرء وقلبه، والإركاس، والتثبيط والتزيين / وعدم إرادة هداهم وتطهيرهم، وإماتة قلوبهم (بعدم)[2] خلق ١٩٦أ الحياة فيها، فتبقى على الموت الأصلي، وإمساك النور عنها فتبقى في الظلمة الأصلية، وجعل (القلب)[3] قاسياً لا ينطبع فيه مثال الهدى وصورته، وجعل الصدر ضيقاً حرجاً لا يقبل الإيمان .

وهذه الأمور منها ما يرجع إلى القلب كالختم والطبع والقفل والأكنة والإغفال والمرض ونحوها، (ومنها)[4] ما يرجع إلى رسوله الموصل إليه الهدى؛

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ت .

(٢) في ع ، د ، س : بعد .

(٣) في د : القلب قلباً .

(٤) ساقط من ع ، د .

كالصمم والوقر، (ومنها ما يرجع إلى طليعته ورائده كالعمى والعشا)[١] ومنها ما يرجع إلى ترجمانه ورسوله المبلغ عنه كالبكم النطقي، وهو نتيجة البكم القلبي، فإذا بكم القلب بكم اللسان. ولا تصغ إلى قول من يقول: إن هذه مجازات واستعارات، فإنه قال بحسب مبلغه من العلم والفهم عن الله ورسوله . كأن هذا القائل حقيقة القفل عنده أن يكون من حديد، والختم أن يكون بشمع أو طين، والمرض أن يكون حمى بنافض أو قولنج[٢] أو غيرهما من أمراض البدن، والموت هو مفارقة الروح البدن ليس إلا، والعمى ذهاب ضوء العين الذي تبصر به . وهذه الفرقة من أغلظ الناس حجاباً، فإن هذه الأمور إذا أضيفت إلى محالها كانت بحسب تلك المحال، فنسبة قفل القلب إلى القلب كنسبة قفل الباب إليه، وكذلك الختم والطابع الذي هو عليه هو بالنسبة إليه كالختم والطابع الذي على الباب والصندوق ونحوهما، وكذلك نسبة الصمم والعمى (إليه : نسبة الصمم والعمى)[٣] إلا الأذن والعين، وكذلك موته وحياته نظير موت البدن وحياته، بل هذه الأمور ألزم للقلب منها للبدن، فلو قيل: إنها حقيقة في ذلك، مجاز في الأجسام المحسوسة، لكان مثل قول هؤلاء وأقوى منه. وكلاهما باطل، فالعمى في الحقيقة والبكم والموت والقفل للقلب، ثم قال تعالى:﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[٤] /* (وهذا النفي يحتمل وجهين : ٩٦ب

---

(١) ساقط من م .

(٢) القولنج ـ بفتح اللام أو كسرها، وفتح القاف وضمها ـ: مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح. القاموس المحيط ص (٢٥٩) مادة (قلج) .

(٣) ساقطة من ع ، د ، س ، .

(٤) سورة الحج آية ٤٦ .

أحدهما: أن يكون المعنى أن أبصارهم لم تعم عن رؤية آياتنا، بل (رأوها)[١] عياناً، ولكن عميت قلوبهم عنها ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[٢] ثم قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ أي قد رأوا وأبصروا، ولكن عميت قلوبهم ولم يبصروا.

الوجه الثاني: أن يكون المعنى أنه ليس العمى في الحقيقة عمى البصر إذا كان القلب مبصراً، وإنما العمى الحقيقي عمى القلب الذي في الصدر)*[٣].

والمعنى أنه معظم العمى، وأصله، وهذا كقوله ﷺ: «**إنما الربا في النسيئة**»[٤]، وقوله: «**إنما الماء من الماء**[٥]»[٦] وقوله: «**ليس الغنى عن كثرة**

(١) في ت: ورأيها.

(٢) سورة الحج آية ٤٦.

(٣) ما بين النجمتين ساقط من ع، د، س.

(٤) هذا الحديث أوله قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: الدينار بالدينار والدرهم بالدرهم مثلاً بمثل، من زاد أو ازداد فقد أربى، وقول أبي سعيد عندما قيل له: إن ابن عباس يقول غير هذا: لقد لقيت ابن عباس، فقلت: أرأيت هذا الذي تقول، أشيء سمعته من رسول الله ﷺ أو وجدته في كتاب الله عز وجل؟ فقال: لم أسمعه من رسول الله ﷺ، ولم أجده في كتاب الله، ولكن حدثني أسامة بن زيد أن النبي ﷺ قال: «الربا في النسيئة». وهذا اللفظ لمسلم. وفي رواية: «إنما الربا في النسيئة». والحديث أخرجه:
- البخاري (٣/ ٣١) ك البيوع ـ باب بيع الدينار بالدينار نساءً.
- ومسلم (٣/ ١٢١٧-١٢١٩) ك المساقاة ـ باب بيع الطعام مثلاً بمثل.
- والنسائي (٧/ ٢٨١) ك البيوع ـ باب بيع الفضة بالذهب وبيع الذهب بالفضة.
- وابن ماجة (٢/ ٧٥٨) ك التجارات ـ باب من قال: لا ربا إلا في النسيئة.
- والإمام أحمد (٥/ ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٩).

(٥) قوله: «إنما الماء من الماء» قال ابن حجر في فتح الباري (١/ ٣٩٨): المراد بالماء الأول: ماء الغسل، وبالثاني: المني.

(٦) هذا الحديث رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وأخرجه مسلم (١/ ٢٦٩) ك الحيض ـ باب إنما الماء من الماء بلفظ «**إنما الماء من الماء**». وأخرجه أيضاً مطولاً (١/ ٢٦٩) =

....

ولفظه: قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه خرجت مع رسول الله ﷺ يوم الاثنين إلى قباء، حتى إذا كنا في بني سالم وقف رسول الله ﷺ على باب عتبان فصرخ به، فخرج يجر إزاره، فقال رسول الله ﷺ : «أعجلنا الرجل» فقال عتبان: يا رسول الله أرأيت الرجل يعجل امرأته ولم يمن ماذا عليه؟ قال رسول الله ﷺ : « إنما الماء من الماء » . وأخرجه أبو داود (١/ ٣٦٦) ك الطهارة ـ باب في الإكسال . مختصراً. والترمذي (١/ ١٨٦) ك الطهارة ـ باب ما جاء أن الماء من الماء. والإمام أحمد (٣/ ٢٩، ٣٦) مختصراً. وابن خزيمة في صحيحه (١/ ١١٧) مختصراً. وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣/ ٤٤٣) مختصراً والبيهقي في سننه (١/ ١٦٧). وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٤٣٢) مطولاً، ورواه البخاري في صحيحه (١/ ٥٢-٥٣) ك الوضوء ـ باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين القبل والدبر. مقتصراً على ذكر القصة فقط. ومثله الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٣) . وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣/ ٤٤٥-٤٤٦) . وفي الباب عن أبي أيوب رضي الله عنه، عند النسائي(١/ ١١٥) ك الوضوء ـ باب الذي يحتلم ولا يرى الماء. وابن ماجه(١/ ١٩٩) ك الطهارة ـ باب الماء من الماء. والإمام أحمد(٥/ ٤١٦، ٤٢١) والدارمي(١/ ١٩٤). والطبراني في المعجم الكبير(٤/ ٣١٧) . وفي الباب أيضاً عن رافع بن خديج. وعتبان بن مالك، وأبي هريرة. وقد جمع طرق هذا الحديث الحازمي في الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار ص (١٢٤-١٢٨) تحقيق د.عبد المعطي قلعجي، ط الثانية ١٤١٠هـ، نشر جامعة الدراسات الإسلامية بالباكستان. وانظر التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير لابن حجر العسقلاني (١/ ١٣٤-١٣٥) نشر دار الكتب الإسلامية بلاهور بالباكستان. قال الترمذي(١/ ١٨٥): وإنما كان الماء من الماء في أول الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، وهكذا روى غير واحد من أصحاب النبي ﷺ منهم : أبي بن كعب ورافع بن خديج. والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم: على أنه إذا جامع الرجل امرأته في الفرج وجب عليهما الغسل وإن لم ينزلا. انظر: فتح الباري(١/ ٣٩٧-٣٩٨). وعون المعبود شرح سنن أبي داود لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم أبادي (١/ ٣٦٣-٣٦٨). وشرح أحمد شاكر لجامع الترمذي(١/ ١٨٦-١٨٩).

العرض[١] إنما الغنى غنى النفس »[٢].

وقوله: **«ليس المسكين الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، إنما المسكين الذي لا يجد ما يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه»[٣].**

---

(١) العرض بالتحريك: متاع الدنيا وحطامها. النهاية لابن الأثير (٣/ ٢١٤).

(٢) هذا الحديث من رواية أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه البخاري(٧/ ١٧٨) ك الرقاق ـ باب الغنى غنى النفس . ومسلم (٢/ ٧٢٦) ك الزكاة ـ باب ليس الغنى عن كثرة العرض . والترمذي(٤/ ٥٠٦) ك الزهد ـ باب ما جاء أن الغنى غنى النفس. وقال : هذا حديث حسن صحيح . وابن ماجه (٢/ ١٣٨٦) ك الزهد ـ باب القناعة. والإمام أحمد (٢/ ٢٤٣، ٢٦١، ٣١٥، ٣٩٠، ٤٣٨، ٤٤٣، ٥٣٩، ٥٤٠). وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٢/ ٤٥٣). والقاضي محمد بن سلامة القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢١١-٢١٢) . وأبو يعلى في مسنده (١١/ ١٣٣)، (٥/ ٤٠٤). وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٩). والبغوي في شرح السنة:(١٤/ ٢٤٣).

(٣) هذا الحديث من رواية أبي هريرة ، وأخرجه : البخاري(٢/ ١٣٢) ك الزكاة ـ باب من سأل الناس تكثراً. وفي (٥/ ١٦٤) ك تفسير القرآن ـ تفسير سورة البقرة. باب قول الله تعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾، ومسلم (٢/ ٧١٩-٧٢٠)ك الزكاة ـ باب المسكين الذي لا يجد غنى ، ولا يفطن له فيتصدق عليه. وأبو داود (٥/ ٣٩-٤٠) ك الزكاة ـ باب من يعطى من الصدقة وحد الغنى، المطبوع مع شرحه عون المعبود. والنسائي في سننه الكبرى ـ كتاب التفسير(١/ ٢٨٤) تفسير سورة البقرة. وفي المجتبى(٥/ ٨٥) ك الزكاة ـ باب تفسير المسكين. والإمام مالك في الموطأ ص (٥٧٥) ك صفة النبي ﷺ باب ما جاء في المساكين. والإمام أحمد (٢/ ٢٦٠، ٣١٦، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ،٤٤٥، ٤٥٧، ٤٦٩ ،٥٠٦). والدارمي (١/ ٣١٨) ك الزكاة ـ باب المسكين الذي يتصدق عليه. وأبو يعلى في مسنده(١١/ ٢٢٠-٢٢١). والبيهقي في سننه (٧/ ١١) ك الصدقات ـ باب ما يستدل به على أن الفقير أمس حاجة من المسكين. والبغوي في تفسيره(١/ ٢٦٠) تفسير سورة البقرة. وفي شرح السنة (٦/ ٨٦-٨٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور(٢/ ٩٠) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن المنذر.

وقوله : «**ليس الشديد بالصرعة[(١)] إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[(٢)] .

ولم يرد نفي الاسم عن هذه المسميات ، وإنما أراد أن هؤلاء أولى بهذه الأسماء وأحق ممن يسمونه بها، فهكذا قوله تعالى: ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[(٣)] . وقريب من هذا قوله تعالى : ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[(٤)] الآية. وعلى التقديرين فقد أثبت للقلب عمى حقيقة، وهكذا جميع ما نسب إليه.

ولما كان القلب ملك الأعضاء، وهي جنوده، وهو الذي يحركها ويستعملها، والإرادة والقوى والحركة الاختيارية (منه)[(٥)] تنبعث، كانت هذه (الأشياء له)[(٦)] أصلاً (وللأعضاء)[(٧)] تبعاً .

---

(١) الصرعة ـ بضم الصاد وفتح الراء ـ: المبالغ في الصراع الذي لا يغلب ، فنقله إلى الذي يغلب نفسه عند الغضب ويقهرها، فإنه إذا ملكها كان قد قهر أقوى أعدائه وشر خصومه. النهاية لابن الأثير(٣/ ٢٤).

(٢) هذا الحديث من رواية أبي هريرة، وأخرجه البخاري (٧/ ٩٩) ك الأدب باب الحذر من الغضب . ومسلم (٤/ ٢٠١٤) ك البر والصلة والآداب ـ باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب. والنسائي في عمل اليوم والليلة ص ٣٠٧-٣٠٨. والإمام أحمد (٢/ ٥١٧،٢٦٨،٢٣٦). وفي الباب عند عبد الله بن مسعود عند أبي داود (١٣/ ١٣٧) ك الأدب ـ باب في كظم الغيظ. والإمام أحمد (١/ ٣٨٢).

(٣) سورة الحج آية ٤٦.

(٤) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٥) ساقطة من ع ، د ، س .

(٦) في ع ، د ، س : الأمثال .

(٧) في م ، ت : والأعضاء .

فلنذكر هذه الأمور مفصلة ومواقعها في القرآن فقد تقدم الختم . قال الأزهري : أصله التغطية ، وختم البذر في الأرض: إذا غطاه[1] .

وقال أبو إسحاق: معنى ختم وطبع في اللغة واحد، / وهو التغطية على ١٩٧أ الشيء والاستيثاق منه، فلا يدخله شيء، كما قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[2] وكذلك قوله تعالى: ﴿ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ[3]﴾[4] .

قلت : الختم والطبع يشتركان فيما ذكر، ويفترقان في معنى آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة ، فهو تأثير لازم لا يفارق.

وأما الأكنة، ففي قوله تعالى :﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[5] وهي جمع كنان، كعنان وأعنة، وأصله من الستر والتغطية، ويقال: كنه وأكنه وليسا بمعنى واحد، بل بينهما فرق، فأكنه إذا ستره وأخفاه، كقوله تعالى:﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾[6] وكنَّه: إذا صانه وحفظه، كقوله: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[7] ويشتركان في الستر . والكنان: ما أكن الشيء وستره، وهو كالغلاف. وقد أقروا على أنفسهم بذلك، فقالوا: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾[8] فذكروا غطاء القلب، وهي

---

(١) انظر تهذيب اللغة للأزهري (٧/ ٣١٦) مادة (ختم) .

(٢) سورة محمد آية ٢٤

(٣) سورة النحل آية ١٠٨ ، وسورة محمد آية ١٦ .

(٤) انظر معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاّج (١/ ٨٢).

(٥) سورة الأنعام آية ٢٥، وسورة الإسراء آية ٤٦ .

(٦) سورة البقرة آية ٢٣٥.

(٧) سورة الصافات آية ٤٩ .

(٨) كما حكى الله عنهم ذلك في سورة فصلت آية ٥.

الأكنة، وغطاء الأذن وهو الوقر، وغطاء العين وهو الحجاب. والمعنى: لا نفقه كلامك، ولا نسمعه، ولا نراك، والمعنى: إنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفقه ما تقول (ولا يسمعه)[١] ولا يراك .

قال ابن عباس : قلوبنا في أكنة مثل الكنانة التي فيها السهام[٢] .

وقال مجاهد : كجعبة النبل[٣] .

وقال مقاتل : عليها غطاء، فلا نفقه ما تقول[٤] .

فصل

وأما الغطاء، فقال تعالى: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾[٥] . وهذا يتضمن معنيين :

أحدهما : أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله وأدلة توحيده وعجائب قدرته .

والثاني : أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء (به)[٦] وهذا الغطاء للقلب أولاً ثم يسري منه إلى العين .

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س .

(٢) ذكره الواحدي في تفسيره «البسيط» ق (٢٣٧) مخطوط، مرجع سابق انظر ص(٣٨٧).

(٣) رواه عبد الرازق في تفسيره (٢/ ١٨٣) وابن جرير الطبري في تفسيره(٢٤/ ٩١) . وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٣١٢) ونسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر .

(٤) ذكره الواحدي في تفسيره « البسيط » ق (٢٣٧) مخطوط، المرجع السابق .

(٥) سورة الكهف آية ١٠٠-١٠١ .

(٦) ساقطة من م .

فصل

وأما الغلاف، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾[١] / ٩٧ب
وقد اختلف في معنى قولهم : (غُلْف) . فقالت طائفة : المعنى: قلوبنا أوعية للحكمة والعلم ، فما بالها لا تفهم عنك ما أتيت به أو لا تحتاج إليك، وعلى هذا يكون الغُلف جمع غلاف[٢] .

والصحيح قول أكثر المفسرين: إن المعنى : قلوبنا لا تفقه ولا تفهم ما تقول، وعلى هذا فهو جمع أغلف كأحمر وحمر[٣] .

قال أبو عبيدة[٤] : كل شيء في غلاف فهو أغلف، كما يقال : سيف أغلف، وقوس (غلفاء)[٥] ، ورجل أغلف غير مختون[٦] .

---

(١) سورة البقرة آية ٨٨ .

(٢) وهذا تأويل من قرأ (غُلُف) بتحريك اللام وضمها، وهذا التأويل منقول عن ابن عباس ، وعطيــة العوفي. انظر تفسير ابن جرير (١/ ٤٠٧) . والدر المنثور للسيوطي (١/ ٢١٤) .

(٣) وهذا تأويل من قرأ (غُلْف) بسكون اللام وتخفيفها، وهي قراءة عامة الأمصار التي لا يجوز غيرها لاجتماع الحجة من القراء وأهل التأويل على صحتها . انظر تفسير ابن جرير الطبري (١/ ٤٠٩،٤٠٦).

(٤) هو: معمر بن المثنى ، أبو عبيدة ، التيمي مولاهم ، البصري، النحوي، اللغوي ، صدوق، أخباري، وقد رمي برأي الخوارج، من السابعة ، مات سنة ثمان ومائتين، وقيل: بعد ذلك، وقد قارب المائة. روى له البخاري تعليقاً ، وأبو داود . تقريب التهذيب(٢/ ٢٦٦) وتهذيب التهذيب(١٠/ ٢٤٦).

(٥) في ع ، د ، س : أغلف ما أثبت من م ، ت ، والمجاز لأبي عبيدة .

(٦) انظر كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة (١/ ٤٦) . تحقيق د. محمد فؤاد سزكين . نشر مكتبة الخانجي بمصر .

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد : على قلوبنا غشاوة، فهي في أوعية، فلا تعي ولا تفقه ما تقول [(١)] .

وهذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن؛ كقوله: ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ ﴾[(٢)] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾[(٣)] ونظائر ذلك.

وأما قول من قال : هي أوعية للحكمة، فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة، وليس له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف، أي أوعية للعلم؟

والغلاف قد يكون وعاء للجيد والرديء ، فلا يلزم من كون القلب غلافاً أن يكون داخله العلم والحكمة . وهذا ظاهر جداً .

فإن قيل : فالإضراب ببل على هذا القول الذي قويتموه ما معناه؟.

وأما على القول الآخر فظاهر ، أي ليست قلوبكم محلاً للعلم والحكمة، بل مطبوع عليها ؟

قيل[(٤)] وجه الإضراب في غاية الظهور، وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح

---

(١) قول ابن عباس رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٤٠٦). وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ١٢٣) . وقول قتادة: رواه ابن جرير الطبري (١/ ٤٠٧) . وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ١٢٣). والسيوطي في الدر المنثور (١/ ٢١٤) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد . وقول مجاهد : رواه ابن جرير الطبري(١/ ٤٠٧) وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ١٢٣) والسيوطي في الدر المنثور(١/ ٢١٤) ولم ينسبه إلى غير ابن جرير .

(٢) سورة فصلت آية ٥ .

(٣) سورة الكهف آية ١٠١ .

(٤) في م : قيل من وجه ـ بزيادة (من).

لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته، بل جعل قلوبهم (داخلة في غلف فلا تفقهه، فكيف تقوم به عليهم الحجة، وكأنهم ادعوا أن قلوبهم)[١] خلقت في غلف، فهم معذورون في عدم الإيمان فأكذبهم الله سبحانه وتعالى وقال: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾[٢] وفي آية الأخرى ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾[٣] فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم / الذي اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان، فعاقبهم عليه بالطبع ١٩٨أ واللعنة، والمعنى: لم نخلق قلوبهم غلفاً لا تعي ولا تفقه، ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفهمونه ولا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالاً عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها.

فصل

وأما الحجاب، ففي قوله تعالى حكاية عنهم:﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[٤] وقوله:﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾[٥] على أصح القولين، والمعنى: جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبينهم حجاباً يحول بينهم وبين فهمه وتدبره والإيمان به، ويبينه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[٦].

---

(١) ما بين القوسين ساقط من م.

(٢) سورة النساء آية ١٥٥.

(٣) سورة البقرة آية ٨٨.

(٤) سورة فصلت آية ٥.

(٥) سورة الإسراء آية ٤٥.

(٦) سورة الإسراء آية ٤٦.

وهذه الثلاثة (هي الثلاثة)[١] المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[٢] . فأخبر سبحانه أن ذلك بجعله، فالحجاب يمنع (من)[٣] رؤية الحق، والأكنة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه.

وقال الكلبي : الحجاب هاهنا مانع يمنعهم (عن)[٤] الوصول إلى رسول الله ﷺ بالأذى من الرعب ونحوه مما يصدهم عن الإقدام عليه، ووصفه بكونه مستوراً، فقيل: بمعنى ساتر، وقيل: على النسب، أي ذو ستر، والصحيح أنه على بابه، أي مستوراً عن الأبصار فلا يرى ، ومجيء مفعول بمعنى فاعل لا يثبت، والنسب في مفعول لم يشتق من فعله، كمكان مهول، أي ذي هول، ورجل مرطوب، أي ذي رطوبة، فأما مفعول فهو جار على فعله الذي وقع عليه الفعل، كمضروب ومجروح ومستور.

فصل

وأما الران فقد قال تعالى:﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[٥] قال أبو عبيدة: غلب عليها، والخمر ترين على عقل السكران، والموت يرين على الميت فيذهب به[٦] ، ومن هذا حديث أسيفع جهينة[٧] وقول عمر : (فأصبح

---

(١) ساقط من ت ، د .

(٢) سورة فصلت آية ٥ .

(٣) ساقط من ع ، د ، س . وفي م : عن .

(٤) في ع ، د ، س : من .

(٥) سورة المطففين آية ١٤ .

(٦) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢/ ٢٨٩) .

(٧) لم أعثر له على ترجمة، وقد ورد ذكره في الموطأ ، وفي تهذيب اللغة لما ركبه الدين، وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : فأصبح قد رين به، أي أحاط به الدين .

قد رين به)[١] أي غلب عليه وأحاط به (الدين)[٢] .

وقال أبو معاذ النحوي[٣]: الرين: أن يَسْوَدَّ القلب / من الذنوب، والطبع: ٩٨ب أن يطبع على القلوب وهو أشد من الرين، والإقفال أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب[٤] .

قال الفراء : كثرت الذنوب والمعاصي منهم، فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها[٥] .

وقال أبو إسحاق: ران: غطى، يقال: ران على قلبه الذنب يرين ريناً، أي: غشيه، قال : والرين كالغشاء يغشي القلب، ومثله الغين[٦] .

قلت: أخطأ أبو إسحاق، فالغين ألطف شيء (يكون)[٧] وأرقه، قال

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ ص(٤٨١) ك الوصية ـ باب جامع القضاء وكراهيته. ونصه : أن رجلاً من جهينة كان يسبق الحاج، فيشتري الرواحل فيغلي بها. ثم يسرع السير فيسبق الحاج فأفلس، فرفع أمره إلى عمر بن الخطاب ، فقال : أما بعد أيها الناس، فإن الأسيفع، أسيفع جهينة رضي من دينه وأمانته بأن يقال : سبق الحاج، ألا وإنه قد كان معرضاً ، فأصبح قد رين به، فمن كان له عليه دين، فليأتنا بالغداة نقسم ماله بينهم، وإياكم والدَّيْن، فإن أوله هَمٌّ وآخره حرب .

(٢) في ت ، ع ، د ، س : الرين .

(٣) هو الفضل بن خالد ، أبو معاذ، النحوي، المروزي، مولى باهلة، روى عن عبدالله بن المبارك وداود بن أبي هند، وروى عنه محمد بن شقيق ، والأزهري، وأكثر عنه في تهذيب اللغة، وذكره ابن أبي حاتم، ولم يقل فيه شيئاً من الجرح والتعديل ، مات سنة(٢١١هـ). انظر الجرح والتعديل(٧/ ٦١) وبغية الوعاة (٢/ ٢٤٥) .

(٤) رواه الأزهري في تهذيب اللغة (١٥/ ٢٥٥) مادة (رين) .

(٥) انظر معاني القرآن للفراء (٢/ ٤٦) .

(٦) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٢٩٩) .

(٧) ساقطة من ع ، د ، س .

رسول الله ﷺ: «**إنه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»[١].

وأما الرين، فهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها .

قال مجاهد : هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه، فيموت القلب[٢] .

وقال مقاتل : غمرت القلوب أعمالهم الخبيثة[٣] .

وفي سنن النسائي والترمذي من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت**[٤] **في قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن (عاد)**[٥] **زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكره الله تعالى** :﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾»[٦]: قال الترمذي : هذا حديث صحيح[٧] .

---

(١) هذا الحديث من رواية الأغر المزني. وأخرجه مسلم(٤/ ٢٠٧٥) ك الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ـ باب استحباب الاستغفار والإكثار منه . وأبو داود (٤/ ٣٧٩) ك الوتر ـ باب في الاستغفار . والنسائي في عمل اليوم والليلة ص(٣٢٥-٣٢٦). والإمام أحمد(٤/ ٢١١، ٢٦٠). وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان(٣/ ٢١١). والبيهقي في سننه(٧/ ٥٢). والطبراني في المعجم الكبير(١/ ٢٨٠) .

(٢) رواه بمعناه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٢). وذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٨٥) .

(٣) ذكره الواحدي في تفسيره «البسيط» ق(١٧٥)مخطوط، مرجع سابق انظر ص( ) .

(٤) النكت: هو الأثر القليل كالنقطة ، شبه الوسخ في المرآة والسيف ونحوهما. النهاية لابن الأثير(٥/ ١١٤).

(٥) في ع ، د ، س : زاد، وما أثبت من م ، ت ، ومصادر التخريج .

(٦) سورة المطففين آية ١٤ .

(٧) انظر جامع الترمذي(٥/ ٤٠٤) ك تفسير القرآن ـ تفسير سورة المطففين. والسنن =

وقال عبد الله بن مسعود : كلما أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله [١] .

فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التي كسبوها أوجبت لهم رينًا على قلوبهم، فكان سبب الران منهم، وهو خلق الله فيهم، فهو خالق السبب ومسببه، لكن السبب باختيار العبد والمسبب خارج عن قدرته واختياره .

فصل

وأما الغل، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾[٢] .

وقال الفراء : حبسناهم على الإنفاق في سبيل الله[٣] .

وقال أبوعبيدة : منعنــاهم عن الإيمان بموانع ، ولما كان الغل مانعاً للمغلول / ١٩٩أ من التصرف والتقلب، كان الغل الذي على القلب مانعاً من الإيمان.

= الكبرى للنسائي ك التفسير(٢/ ٥٠٥) ـ تفسير سورة المطففين. وكتاب عمل اليوم والليلة ص(٣١٧) . ورواه ابن ماجه (٢/ ١٤١٨) ك الزهد ـ باب ذكر الذنوب . وابن حبان في صحيحة كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان(٣/ ٢١٠) والطبري في تفسيره (٣٠/ ٩٨) تفسير سورة المطففين. والحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٧) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور(٨/ ٤٤٥) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه .

(١) رواه الإمام مالك بلاغاً في الموطأ ص٦١٢ ك الكلام ـ باب ما جاء في الصدق والكذب .

(٢) سورة يس من آية ٧-٩.

(٣) انظر معاني القرآن للفراء : (٢/ ٣٧٣) .

فإن قيل : الغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب، فكيف ذكر الغل في العنق؟

قيل : لما كان عادة الغل أن يوضع في العنق ناسب (ذكره)[١] ذكر محله والمراد به القلب، كقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾[٢]. ومن هذا قولهم: إثمي في عنقك، وهذا في عنقك. ومن هذا قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾[٣] شبه الإمساك عن الإنفاق باليد إذا غلت إلى العنق.

ومن هذا قال الفراء : إن جعلنا في أعناقهم أغلالاً ، فحبسناهم عن الإنفاق .

قال أبو إسحاق : وإنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي لزومه كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق[٤] .

قال أبو علي : هذا مثل قولهم : طوقتك كذا ، وقلدتك كذا وكذا، ومنه: قلده السلطان كذا، أي: صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق[٥] .

قلت : ومن هذا قولهم : قلدت فلاناً حكم كذا وكذا ، كأنك جعلته طوقاً في عنقه. وقد سمى سبحانه التكاليف الشاقة أغلالاً في قوله ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[٦] فشبهها بالأغلال لشدتها وصعوبتها .

---

(١) ساقطة من م ، د ، س .

(٢) سورة الإسراء آية ١٣ .

(٣) سورة الإسراء آية ٢٩ .

(٤) سبق ذكر هذا القول وتوثيقه في ص (٤٩٨) .

(٥) سبق ذكر هذا القول في ص (٤٩٨) .

(٦) سورة الأعراف آية ١٥٧ .

قال الحسن : هي الشدائد التي كانت في العبادة كقطع أثر البول، وقتل النفس في (التوبة)[(١)]، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وتتبع العروق من اللحم[(٢)] .

وقال ابن قتيبة: هي تحريم الله سبحانه عليهم كثيراً مما أطلقه لأمة محمد ﷺ وجعلها أغلالاً؛ لأن التحريم يمنع كما يقبض الغل اليد[(٣)]. وقوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ قالت طائفة : الضمير يعود إلى الأيدي، وإن لم تذكر، لدلالة السياق عليها، قالوا : لأن الغل يكون في العنق فتجتمع إليه اليد، ولذلك سمي جامعه، وعلى هذا فالمعنى : فأيديهم أو فأيمانهم مضمومة إلى أذقانهم. هذا قول الفراء[(٤)] والزجاج[(٥)] / . ٩٩ب

وقالت طائفة : الضمير يرجع إلى الأغلال ، وهذا هو الظاهر ، وقوله : ﴿ فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ﴾ أي واصلة (وملزوزة)[(٦)] إليها، فهو غل عريض قد أحاط بالعنق حتى وصل إلى الذقن[(٧)] .

---

(١) في م : النفس .

(٢) ذكره الواحدي في تفسيره «البسيط» ق(٢٣٣) مخطوط، محفوظ أصله بمكتبة شيستربتي في بريطانيا تحت رقم(٥١٠٥) وتوجد صورة منه بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض تحت الرقم نفسه .

(٣) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص١٤٨) .

(٤) انظر معاني القرآن للفراء(٢/ ٢٧٢-٢٧٣) .

(٥) انظر معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج(٤/ ٢٧٩) .

(٦) في ت : وملزومة .

(٧) وممن قال بهذا الزمخشري في الكشاف(٢/ ٤٦٦) ط الثانية، نشر مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣١٧هـ ، وأبو حيان في تفسيره البحر المحيط (٧/ ٣٢٢) نشر مكتبة النصر بالرياض .

وقوله : ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾. قال الفراء[١] والزجاج[٢] : المقمح هو : الغاض بصره بعد رفع رأسه. ومعنى الإقماح في اللغة: رفع الرأس وغض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه وقمح[٣] .

وقال الأصمعي[٤] : بعير قامح: إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب[٥] .

قال الأزهري : لما غلت أيديهم إلى أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صعداً، كالإبل الرافعة رؤوسها . انتهى[٦] .

فإن قيل : فما وجه التشبيه بين هذا وبين حبس القلب عن الهدى والإيمان؟

قيل : أحسنُ وجه وأبيَنُه، فإن الغل إذا كان في العنق واليد مجموعة إليها منع اليد عن التصرف والبطش، فإذا كان عريضاً قد ملأ العنق ووصل إلى الذقن منع الرأس من تصويبه، وجعل صاحبه شاخص الرأس منتصبه، لا

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء (٢/ ٢٧٢ ، ٢٧٣) .

(٢) انظر معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج (٤/ ٢٧٩) .

(٣) انظر الصحاح للجوهري(١/ ٣٩٧) مادة (قمح) .

(٤) هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي، راوية العرب ، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. نسبته إلى جده أصمع ، كان كثير التطواف في البوادي ، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، قال الأخفش: ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي، له مؤلفات كثيرة، منها: الإبل، وخلق الإنسان، والمترادف، والخيل، وغيرها. توفي بالبصرة سنة ٢١٦هـ . تاريخ بغداد(١٠/ ٤١٠) وسير أعلام النبلاء(١٠/ ١٧٥) . والأعلام (٤/ ١٦٢) .

(٥) انظر كتاب الأضداد للأصمعي ص (١٦) تحقيق أوغست هفنر، طبع سنة ١٩١٣م في بيروت .

(٦) انظر كتاب تهذيب اللغة للأزهري (٤/ ٨٢) مادة (قمح) .

يستطيع له حركة، ثم أكد هذا (المنع)[1] والحبس بقوله : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾[2] .

قال ابن عباس : منعهم من الهدى لما سبق في علمه[3] .

والسد الذي جعل من بين أيديهم ومن خلفهم هو الذي سد عليهم طريق الهدى. فأخبر سبحانه عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم، ومثلها (أحسن)[4] تمثيل وأبلغه.

وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم، وضمت أيديهم إليها، وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينها، وأغشيت أبصارهم، فهم لا يرون شيئاً، وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له ثم جحده وكفر به وعاداه أعظم معاداة، وجدت هذا المثل مطابقاً له أتم مطابقة، وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان كما حيل بين هذا وبين التصرف، والله المستعان .

فصل / ١٠٠أ

وأما القفل: قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[5] .

قال ابن عباس : يريد: على قلوب هؤلاء أقفال[6] .

---

(١) في ع : المعنى .

(٢) سورة يس آية ٩ .

(٣) ذكره الواحدي في تفسيره «البسيط» ق(١٧٩) مخطوط، مرجع سابق انظر ص(٣٨٧).

(٤) في ع ، د ، س : بأحسن .

(٥) سورة محمد آية ٢٤ .

(٦) ذكره الواحدي في تفسيره «البسيط» ق(٣٣) مخطوط، مرجع سابق انظر ص(٣٨٧) .

وقال مقاتل : يعني الطبع على القلب[١] . وكأن القلب بمنزلة المرتج الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخله الإيمان والقرآن. وتأمل تنكير (القلوب)[٢] وتعريف الأقفال، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء وقلوب من هم بهذه الصفة، ولو قال: أم على (قلوبهم)[٣] لم تدخل قلوب غيرهم في (هذه)[٤] الجملة .

وفي قوله: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالتعريف نوع تأكيد، فإنه لو قال: (أقفال) لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلى القلوب علم أن المراد بها ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيره، والله أعلم .

فصل

وأما الصمم والوقر، ففي قوله تعالى:﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾[٥] وقوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[٦] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ

(١) ذكره الواحدي في تفسيره « البسيط » (٣٣) مخطوط، مرجع سابق ص(٣٨٧).
(٢) في د . س : القلب .
(٣) في ع ، د ، س : القلوب أقفالها .
(٤) ساقطة من ع ، د ، س .
(٥) سورة البقرة آية ١٨، ١٧١ .
(٦) سورة محمد آية ٢٣ .
(٧) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[١] .

قال ابن عباس : في آذانهم صمم عن استماع القرآن، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ : أعمى الله قلوبهم فلا يفقهونه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ مثل البهيمة التي لا تفهم إلاَّ دعاءً ونداءً[٢] .

وقال مجاهد : بعيد من قلوبهم[٣] .

وقال الفراء : تقول للرجل الذي لا يفهم (كلامك)[٤] : أنت تنادي من مكان بعيد. قال: وجاء في التفسير : كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون[٥] . انتهى .

والمعنى: أنهم لا يسمعون ولا يفهمون ، كما أن من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم .

فصل

وأما البكم، فقال تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾[٦] والبكم جمع أبكم، وهو الذي / ١٠٠ب لا ينطق . والبكم نوعان : بكم القلب، وبكم اللسان . كما أن النطق نطقان: نطق القلب، ونطق اللسان . وأشدهما بكم القلب، كما أن عماه وصممه أشد من عمى العين وصمم الأذن، فوصفهم سبحانه بأنهم لا يفقهون الحق

---

(١) سورة فصلت آية ٤٤ .

(٢) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(٢٤٣) مخطوط، مرجع سابق انظر ص(٣٨٧).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٢٨/٢٤) .

(٤) في ع ، د ، س : كذلك، وفي معاني القرآن للفراء : قولك .

(٥) انظر معاني القرآن للفراء (٣/ ٢٠) .

(٦) سورة البقرة آية ١٨، ١٧١ .

ولا تنطق به ألسنتهم.

والعلم يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب : من سمعه ، وبصره، وقلبه. وقد سدت عليه هذه الأبواب الثلاثة، فسد السمع بالصمم، والبصر بالعمى، والقلب بالبكم. ونظيره قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾[١] وقد جمع سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[٢]. فإذا أراد الله سبحانه هداية عبد فتح قلبه وسمعه وبصره، وإذا أراد ضلاله أصمه وأعماه وأبكمه، وبالله التوفيق .

فصل

وأما الغشاوة، فهي غطـاء العين، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[٣] وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب، فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه، وأنت إذا أبغضت رجلاً بغضاً شديداً وأبغضت كلامه ومجالسته تجد على عينك غشاوة وعند رؤيته (ومخاطبته)[٤]، فتلك أثر البغض والإعراض عنه. وغلظت على الكفار عقوبة لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول. وجعل الغشاوة

(١) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

(٢) سورة الأحقاف آية ٢٦ .

(٣) سورة الجاثية آية ٢٣ .

(٤) في م ، د ، س : ومخالطته .

عليها يشعر بالإحاطة على ما تحته ، كالعمامة، ولما عشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك العشا غشاوة على أعينهم ، فلا تبصر مواقع الهدى.

فصل

وأما الصد، فقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1] (قرأها)[2] أهل (الكوفة)[3] (وصُدَّ)[4] على البناء للمفعول حملاً على زين، وقرأ الباقون وصَدَّ ـ بفتح الصاد ـ[5] ويحتمل وجهين :

أحدهما : أعرض / فيكون لازماً. ١٠١أ

والثاني : صد غيره فيكون متعدياً .

والقراءتان كالآيتين لا تتناقضان .

وأما الشد على القلب ففي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾[6] فهذا الشد على القلب هو الصد والمنع. ولهذا قال ابن عباس : يريد أمنعها[7] . والمعنى: قسِّها واطبع عليها حتى لا تلين ولا

---

(١) سورة غافر آية ٣٧ .

(٢) في ع ، د ، س : قرأ .

(٣) في ع : مكة . وهو خطأ .

(٤) ساقطة من ع ، د ، س .

(٥) سبقت الإشارة إلى ذلك ص(٥٨٤) .

(٦) سورة يونس آية ٨٨ ، ٨٩ .

(٧) ذكره الواحدي في تفسيره «البسيط» ق(١٦) مخطوط مرجع سابق انظر ص(٣٨٧).

تنشرح للإيمان .

وهذا مطابق لما في التوراة أن الله سبحانه قال لموسى : اذهب إلى فرعون، فإني سأقسي قلبه، فلا يؤمن حتى تظهر آياتي وعجائبي بمصر[1] .

وهذا الشد والتقسية من كمال عدل الرب تعالى في أعدائه ، جعله عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم كعقوبة لهم بالمصائب، ولهذا كان محموداً عليه، وهو حسن منه سبحانه وأقبح شيء منهم، فإنه عدل وحكمة، وهو ظلم منهم وسفه.

فالقضاء والقدر فعل عادل حكيم غني عليم، يضع الخير والشر في أليق المواضع بهما، والمقضي المقدر ظلماً وجوراً وسفهاً وهو فعل جاهل ظالم سفيه .

فصل

وأما الصرف، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[2] فأخبر سبحانه عن فعلهم وهو الانصراف، وعن فعله فيهم، وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره، لأنهم ليسوا أهلاً له، فالمحل غير صالح ولا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين، حسن فهم، وحسن قصد، وهؤلاء قلوبهم لا تفقه، وقصودهم سيئة، وقد صرح سبحانه بهذا في قوله:

---

(١) انظر التوراة السامرية ص(١٢١) ترجمة الكاهن السامري : أبو إسحاق الصوري، عرف بها د. أحمد حجازي السقا، ط الأولى ١٣٩٨هـ ، نشر دار الأنصار بالقاهرة .

(٢) سورة التوبة آية ١٢٧ .

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1] فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم ، وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه (الإيمان)[2] إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع / إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه ١٠١ب سماعاً تقوم به عليهم حجته، فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم.

ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص، وهو الكبر والتولي والإعراض، فالأول مانع من الفهم، والثاني مانع من الانقياد والإذعان، فأفهام سيئة، وقصود رديئة، وهذه نسخة الضلال وعلم الشقاء، كما أن نسخة الهدى وعلم السعادة فهم صحيح وقصد صالح، والله المستعان .

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ كيف جعل هذه الجملة الثانية سواءً كانت خبراً أو (دعاءً)[3] عقبة لانصرافهم، فعاقبهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول، (فإن انصرافهم)[4] كان لعدم إرادته سبحانه ومشيئته لإقبالهم، لأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول، فلم (يشأ لهم)[5] الإقبال والإذعان، فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن، فجازاهم على ذلك صرفاً آخر غير الصرف الأول، كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة (أخرى)[6] غير الزيغ الأول، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٣ .

(٢) ساقطة من ع ، د ، س .

(٣) في ع ، د ، س : إعادة .

(٤) في ع : فانصرافهم .

(٥) في ع ، د ، س : ينلهم .

(٦) ساقطة من ع ، د ، س .

زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[(١)] وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه جازاه سبحانه بأن يعرض (بقلبه)[(٢)] عنه، فلا يمكنه من الإقبال عليه.

ولتكن قصة إبليس منك على ذكر تنتفع بها أتم انتفاع، فإنه لما عصى ربه تعالى ولم ينقد لأمره وأصر على ذلك، عاقبه بأن جعله داعياً إلى كل معصية، فعاقبه على معصيته الأولى (بأصول المعاصي)[(٣)] وفروعها، صغيرها وكبيرها، وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق.

فمن عقاب السيئة: السيئة بعدها، كما أن من (ثواب)[(٤)] الحسنة : الحسنة بعدها.

فإن قيل : كيف يلتئم إنكاره سبحانه عليه الانصراف والإعراض (وهو)[(٥)] (منه)[(٦)] . وقد قال تعالى:﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[(٧)] ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[(٨)] وقال : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾[(٩)] فإذا كان هو الذي صرفهم / وجعلهم معرضين ومأفوكين، فكيف (ينفي)[(١٠)] ذلك عليهم.

١٠٢أ

(١) سورة الصف آية ٥ .

(٢) ساقطة من ع ، د ، س .

(٣) في ع ، د ، س : بأن جعله داعياً إلى كل معصية .

(٤) في د ، س : عقاب .

(٥) ساقطة من ع ، د ، س .

(٦) في د ، س : عنه .

(٧) سورة يونس آية ٣٢ .

(٨) سورة الأنعام آية ٩٥ ، وسورة يونس آية ٣٤ ، وسورة فاطر آية ٣، وسورة غافر آية ٦٢ .

(٩) سورة المدثر آية ٤٩ .

(١٠) في ت : ينفي إنكار . ومعنى الكلام : فكيف ينكر ذلك عليهم .

قيل : هم دائرون بين عدله (فيهم)[1] وحجته عليهم، فمكنهم وفتح لهم الباب ، ونهج لهم الطريق، وهيأ لهم الأسباب، (وأرسل)[2] إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، ودعاهم على ألسنة رسله، وجعل لهم عقولاً تميز بين الخير والشر، والنافع والضار، وأسباب الردى، وأسباب الفلاح، وجعل لهم أسماعاً وأبصاراً، فآثروا الهوى على التقى، واستحبوا العمى على الهدى، وقالوا معصيتك آثر عندنا من طاعتك، والشرك (بك)[3] أحب إلينا من توحيدك، وعبادة سواك أنفع لنا في دنيانا من عبادتك. فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم، وانصرفت عن طاعته ومحبته وتوحيده وانفكت عن هداه فلما رآها سبحانه كذلك عدل فيها بأن صرفها وأعرض بها عنه، وصدها عن الإقبال عليه وعن معرفته ومحبته)[4]، فهذا عدله فيهم وتلك حجته عليهم، فهم سدوا على نفوسهم باب الهدى إرادة منهم واختياراً، فسده عليهم اضطراراً، فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم، وولاهم ما تولوه، ومكنهم فيما ارتضوه، وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه، وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه وهم معرضون، فلا أقبح من فعلهم، ولا أحسن من فعله، ولو شاء لخلقهم على غير هذه الصفة ولأنشأهم غير هذه النشأة، ولكنه سبحانه خالق العلو والسفل، والنور والظلمة، والنافع والضار، والطيب والخبيث، والملائكة والشياطين، والشاة والذئاب، ومعطيها آلاتها وصفاتها وقواها وأفعالها، ومستعملها فيما خلقت له، فبعضها بطباعها، وبعضها بإرادتها ومشيئتها، وكل ذلك جار على وفق حكمته، وهو موجب

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س .

(٢) في ع ن د ، س : فأرسل .

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

(٤) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

حمده ومقتضى كماله المقدس وملكه التام، ولا نسبة لما علمه الخلق من ذلك إلى ما خفي (عنهم)[1] بوجه ما، إن هو إلا كنقرة عصفور من البحر / . ١٠٢ب

فصل

وأما الإغفال، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[2] .

سئل أبو العباس ثعلب[3] عن قوله: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ فقال: من جعلناه غافلاً. قال: ويكون في الكلام: (أغفلته: سميته غافلاً، ووجدته غافلاً)[4] .

قلت : الغفل الشيء الفارغ ، والأرض الغفل: التي لا علامة بها، والكتاب الغفل الذي لا شكل عليه[5] فأغفلناه تركناه غفلاً عن الذكر فارغاً منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي؛ لأنه سبحانه لم يشأ له الذكر فبقي غافلاً، فالغفلة وصفه، والإغفال فعل الله فيه بمشيئته (لغفلته)[6] وعدم

---

(١) في ع ، د ، س : عليهم .

(٢) سورة الكهف آية ٢٨ .

(٣) هو: أحمد بن يحيى بن يزيد بن سيار الشيباني، مولاهم البغدادي، أبو العباس، المعروف بثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة، كان راوية للشعر، قال الخطيب : ثقة حجة ، دين صالح ، مشهور بالحفظ ، ولد سنة (٢٠٠هـ) وتوفي ببغداد سنة (٢٩١هـ) له مؤلفات؛ منها: كتاب الفصيح، وقواعد الشعر، والمجالس. سير أعلام النبلاء (١٤/ ٥-٧) وتاريخ بغداد (٥/ ٢٠٤-٢١٢) وتذكرة الحفاظ (٢/ ٦٦) .

(٤) رواه الأزهري في تهذيب اللغة(٨/ ١٣٦) مادة (غفل). والواحدي في تفسيره (البسيط) ق (٧١-٧٢) مخطوط، محفوظ أصله في دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٣) تفسير، وتوجد صورة منه بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض تحت رقم ١٠٨٤٣/ ف.

(٥) انظر الصحاح (٥/ ١٧٨٣) مادة (غفل) .

(٦) ساقطة من ع ، د ، س .

مشيئته لتذكره، فكل منهما مقتض لغفلته، فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر، وإذا شاء غفلته امتنع منه التذكر.

فإن قيل : فهل تضاف الغفلة والكفر والإعراض ونحوها إلى عدم مشيئة الرب أضدادها، أم إلى مشيئته لوقوعها ؟.

قيل: القرآن قد نطق بهذا وهذا، قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾[(١)] وقال : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾[(٢)] وقال: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ ﴾[(٣)] .

فإن قيل : فكيف يكون عدم السبب المقتضي موجباً للأثر ؟

قيل : الأثر إن كان وجودياً، فلا بد له من مؤثر وجودي، وأما العدم، فيكفي فيه عدم سببه وموجبه، فيبقى على العدم الأصلي ، فإذا أضيف إليه كان من باب إضافة الشيء إلى دليله، فعدم السبب دليل على عدم المسبب، وإذا سمي موجباً ومقتضياً بها الاعتبار، فلا مشاحة في ذلك، وأما أن يكون العدم أثراً ومؤثراً فلا .

وهذا الإغفال ترتب عليه اتباع هواه وتفريطه في أمره .

قال مجاهد : كان أمره فرطاً : أي ضياعاً[(٤)] .

وقال قتادة : أضاع أكبر الضيعة[(٥)] .

---

(١) سورة المائدة آية ٤١ .

(٢) سورة المائدة آية ٤١ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٢٥ .

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١٥/ ٢٣٦) . وذكره السيوطي في الدر المنثور(٥/ ٣٨٤) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم .

(٥) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(٧٢) مخطوط، المرجع السابق.

وقال السدي : هلاكاً[١] .

وقال أبو الهيثم[٢] : أمره فرط : أي متهاون به مضيع ، والتفريط: تقديم العجز[٣] .

قال أبو إسحاق : من قدم العجز في أمر أضاعه (وأهلكه[٤])[٥] .

قال الليث[٦] : الفرط : الأمر الذي يفرط فيه، (يقول)[٧] : كل أمر فلان فرط [٨] .

١٠٣أ قال / الفراء : فرطاً : متروكاً[٩] .

(ففرط)[١٠] فيما لا ينبغي التفريط فيه، واتبع ما لا ينبغي اتباعه، وغفل عما لا يحسن الغفلة عنه .

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٥/ ٢٣٧).

(٢) هو : سليمان بن عمرو بن عبد أو عبيد ، الليثي، أبو الهيثم المصري، ثقة، روى عن أبي سعيد الخدري وكان في حجره، وأبي هريرة، وعنه كعب بن علقمة وغيره. روى له البخاري في الأدب المفرد، والأربعة . تقريب التهذيب (١/ ٣٢٩) وتهذيب التهذيب (٤/ ٢١٢-٢١٣).

(٣) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(٧٢) المرجع السابق.

(٤) في د ، س : وأهله .

(٥) نص عبارة أبي إسحاق الزجاج في كتاب معاني القرآن وإعرابه(٣/ ٢٨١) : (أي كان أمره التفريط، والتفريط تقديم العجز).

(٦) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي . سبقت ترجمته في ص(١٦٤).

(٧) في د . يقال .

(٨) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(٧٢) المرجع السابق .

(٩) انظر معاني القرآن للفراء (٢/ ١٤٠) .

(١٠) في ع ، د ، س : يفرط .

فصل

وأما المرض، فقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[١] وقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[٢] وقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾[٣] .

ومرض (القلوب خروجها عن كمال صحتها واعتدالها)[٤] فإن (صحتها)[٥] أن تكون (عارفة)[٦] بالحق ، (محبة له، مؤثرة)[٧] له على غيره، (فمرضها)[٨] إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه، فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غي وشهوة . وقد سمى الله سبحانه كلاً منهما (بالمرض)[٩] .

قال ابن الأنباري[١٠] : أصل المرض في اللغة : الفساد، مرض فلان: فسد جسمه، وتغيرت حاله . ومرضت الأرض: تغيرت وفسدت[١١] .

---

(١) سورة البقرة آية ١٠ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٢ .

(٣) سورة المدثر آية ٣١ .

(٤) في ع : القلب خروج عن صحتها واعتدالها. وفي د ، س : القلب خروج عن صحته واعتداله .

(٥) في د ، س : صحته .

(٦) في د ، س : عارفاً .

(٧) في د ، س : محباً له مؤثراً .

(٨) في د ، س : فمرضه .

(٩) في د ، س : مرضاً .

(١٠) هو محمد بن القاسم . سبقت ترجمته في ص(٦٠٣) .

(١١) ذكره الواحدي في تفسيره ق (٢٨) مخطوط ، محفوظ أصله بمكتبة شهيد علي بتركيا تحت رقم(٩٣) وتوجد صورة منه بمركز الملك فيصل بالرياض تحت رقم (٢٢٥/ ف).

قالت ليلى الأخيلية[١] :

إذا هبط الحَجَّاجُ[٢] أرضاً مريضةً ... تَتَبَّعَ أقصى دائها فشفاها[٣]

وقال آخر[٤] :

ألم تر أن الأرض أضحت مريضة ... لفقد الحسين والبلاد اقشعرّت[٥]

---

(١) هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب، الأخيلية ، من بني عامر بن صعصعة، شاعرة فصيحة ذكية، وفدت على الحجاج بن يوسف مرات، فكان يكرمها، وطبقتها في الشعر تلي طبقة الخنساء، توفيت سنة ٨٠هـ تقريباً . الشعر والشعراء(١/ ٤٤٨) . فوات الوفيات للكتبي(٣/ ٢٢٦-٢٢٨) تحقيق د.إحسان عباس، نشر دار الثقافة، بيروت. الأعلام(٥/ ٢٤٩) .

(٢) قال ابن حجر رحمه الله : الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل الثقفي، الأمير المشهور، الظالم، المبير، وقع ذكره وكلامه في الصحيحين وغيرهما، وليس بأهل بأن يروى عنه، ولي إمرة العراق عشرين سنة، ومات سنة خمس وتسعين، قال الذهبي : وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه وأمره إلى الله. سير أعلام النبلاء(٤/ ٣٤٣) وتهذيب التهذيب (٢/ ٢١٠-٢١٣) وتقريب التهذيب(١/ ١٥٤).

(٣) هذا البيت من قصيدة قالتها ليلى الأخيلية ، تمدح بها الحجاج بن يوسف الثقفي ، ومطلعها :

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما ... المنايا بكف الله حيث يراها

انظر فوات الوفيات ص (٣/ ٢٢٧).

(٤) هو سليمان بن حبيب المحاربي ، يعرف بابن قتة ـ بالفتح وتشديد المثناة ـ نسبة إلى أمه ، من فحول الشعراء، روى عن ابن عباس وعمرو بن العاص وغيرهما، وروى عنه حميد الطويل وغيره، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩٦) وتبصير المنتبه(٣/ ١١٢٢) .

(٥) هذا من ضمن عدة أبيات قالها ابن قتة في رثاء الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ وقد ورد هذا البيت في الاستيعاب (١/ ٢٧٩) وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣١٩) والبداية والنهاية (٨/ ٢١١) .

والمرض يدور على أربعة أشياء: فساد، وضعف، ونقصان، وظلمة. ومنه: مرض الرجل في الأمر: إذا ضعف فيه ولم يبالغ، وعين مريضة النظر: أي فاترة ضعيفة، وريح مريضة: إذا ضعف هبوبها كما قال:

راحت لأربعك الرياح مريضة[١] ....

أي: لينة ضعيفة حتى لا يعفى أثرها.

وقال ابن الأعرابي: أصل المرض: النقصان، ومنه بدن مريض، أي ناقص القوة، وقلب مريض: ناقص الدين، ومرض في حاجتي: إذا نقصت حركته (فيها[٢])[٣].

وقال الأزهري عن المنذري[٤] عن بعض أصحابه: المرض: إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها. قال: والمرض الظلمة، وأنشد: / ١٠٣ب

وليلة مرضت من كل ناحية (فما)[٥] يضيء لها شمس ولا قمر[٦]

(١) لم أعرف اسم قائله.

(٢) ساقطة من م، ع، د، س: وما أثبت من ت، وهو المطابق لرواية الأزهري لهذا القول في تهذيب اللغة.

(٣) انظر قول ابن الأعربي هذا في تهذيب اللغة للأزهري (١٢/ ٣٤) مادة(مرض).

(٤) هو: محمد بن أبي جعفر، أبو الفضل المنذري الهروي، اللغوي الأديب، أخذ العربية عن ثعلب والمبرد، وله عدة مصنفات؛ منها: نظم الجمان، والملتقط، والشامل، روى عنه الأزهري فأكثر إملاء التهذيب بالرواية عنه. مات سنة تسع وعشرين وثلاثمائة. بغية الوعاة للسيوطي (١/ ٧٢).

(٥) في تهذيب اللغة للأزهري (١٢/ ٣٥) فلا.

(٦) انظر تهذيب اللغة للأزهري (١٢/ ٣٤-٣٥) مادة (مرض) ومعنى قوله: (وليلة مرضت) فيما فسره ثعلب ونقله الأزهري: أظلمت ونقص نورها. والبيت للهيثم ابن الربيع بن زرارة، من بني عامر، أبو حية النميري، شاعر مجيد من أهل البصرة،=

هذا أصله في اللغة ، ثم الشك والجهل والحيرة والضلال وإرادة (الغي)[1] وشهوة الفجور في القلب تعود إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض، فيعاقبه الله بزيادة المرض لإيثاره أسبابه وتعاطيه لها .

فصل

أما تقليب الأفئدة، فقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2] وهذا عطف على أنها إذا جاءت لا يؤمنون[3] ، أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية، فلا يؤمنون . واختلف في قوله : ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فقال كثير من المفسرين : المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة[4] .

قال ابن عباس في رواية عطاء عنه : ونقلب أفئدتهم وأبصارهم حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي. قال : وهذا كقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ[5]﴾[6] .

= من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، مات سنة بضع وثمانين ومائة . فوات الوفيات (٤/ ٢٤٢-٢٤٤) ، والأعلام (٨/ ١٠٣).

(١) في ت : العمى .

(٢) سورة الأنعام آية ١١٠ .

(٣) يعني قول الله عز وجل في الآية التي قبلها : ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ آية ١٠٩ الأنعام .

(٤) وهذا القول مروي عن ابن عباس ، وابن زيد، ومجاهد ، انظر تفسير ابن جرير الطبري (٧/ ٣١٤) والدر المنثور للسيوطي (٣/ ٣٤٠) .

(٥) سورة الأنفال آية ٢٤ .

(٦) رواه ابن جرير الطبري (٧/ ٣١٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٤١) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم .

وقال آخرون : المعنى : ونقلب أفئدتهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة، فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم[١] .

وهذا معنى حسن ، فإن كاف التشبيه تتضمن نوعاً من التعليل كقوله : ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[٢] وقوله : ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[٣] .

والذي حسَّنَ اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر .

والتقليب : تحويل الشيء من وجه إلى وجه . وكان الواجب من مقتضى إنزال الآية (ووصولها إليهم)[٤] كما سألوا ، أن يؤمنوا إذا جاءتهم ، لأنهم رأوها عياناً وعرفوا (دلالتها)[٥] وتحققوا صدقها، فإذا لم يؤمنوا كان ذلك تقليباً لقلوبهم وأبصارهم عن وجهها الذي / ينبغي أن تكون عليه. وقد ١٠٤أ روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء » ، ثم قال رسول الله ﷺ : « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك »[٦] .

---

(١) وهذا اختيار ابن جرير الطبري . انظر : تفسيره (٧/ ٣١٥) .

(٢) سورة القصص آية ٧٧ .

(٣) سورة البقرة آية ١٥١-١٥٢ .

(٤) في ع ، د ، س : ووصولهم إليها .

(٥) في ع ، د ، س : أدلتها .

(٦) سبق تخريجه في ص (٤١٣) .

وروى الترمذي من حديث أنس قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك »، فقلت : يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا ؟ قال : « نعم . إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء ». قال : هذا حديث حسن[(١)] .

وروى حماد[(٢)] عن (أيوب)[(٣)] وهشام[(٤)] و(المعلى[(٥)])[(٦)] بن زياد عن الحسن[(٧)] قال : قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : دعوة كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » ، فقالت: يا

---

(١) انظر جامع الترمذي(٤/ ٣٩٠- ٣٩١) ك القدر ـ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، ورواه الإمام أحمد (٣/ ١١٢، ٢٥٧)، والبخاري في الأدب المفرد(ص٢٣٧) وابن ماجه (٢/ ١٢٦٠) ك. الدعاء باب دعاء الرسول ﷺ . والطبري في تفسيره (٣/ ١٨٨). وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٠١) وقال الألباني: حديث صحيح. والآجري في الشريعة ص٣١٧. وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٢٠٩) ك الدعاء ـ باب من كان يقول : يا مقلب القلوب. والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٦) وصححه . ووافقه الذهبي ، ورواه البغوي في شرح السنة (١/ ١٦٥) ، وأبويعلى في مسنده (٦/ ٣٥٩-٣٦٠). والبيهقي في كتاب القدر ص(٢٢٣) .

(٢) هو حماد بن زيد . سبقت ترجمته في ص (١٩٥) .

(٣) هو : أيوب بن أبي تميمة السختياني، ثقة ثبت حجة، روى عن الحسن البصري، وروى عنه حماد بن زيد، سبقت ترجمته في ص(١٩٤).

(٤) هو : هشام بن حسان، ثقة سبقت ترجمته في ص (٢٤٦) .

(٥) في جميع النسخ :(ويعلى) وما أثبت من المسند .

(٦) هو : معلى بن زياد القردوسي ـ بقاف ـ أبو الحسين البصري، صدوق ، قليل الحديث، زاهد ، اختلف قول ابن معين فيه، روى عن الحسن البصري، وروى عنه حماد بن زيد، من السابعة، روى له البخاري تعليقاً، وروى له مسلم والأربعة. تقريب التهذيب(٢/ ٢٦٥) وتهذيب التهذيب(١٠/ ٢٣٧) وتهذيب الكمال(٢٨/ ٢٧٨) .

(٧) هو الحسن البصري، ثقة مشهور، وكان يرسل كثيراً ويدلس، سبقت ترجمته في ص(١٤٧).

رسول الله، دعوة كثيراً ما تدعو بها، قال: «**إنه ليس من عبد إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه**»[(١)] .

وقوله : ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[(٢)] .

قال ابن عباس : أخذلهم وأدعهم في ضلالتهم يتمادون[(٣)] .

فصل

وأما إزاغة القلوب، فقال تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[(٤)] وقال عن عباده المؤمنين إنه سألوه : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[(٥)] وأصل الزيغ: الميل، ومنه: زاغت الشمس: إذا مالت[(٦)]، فإزاغة القلب: إمالته،

---

(١) رواه الإمام أحمد(٦/ ٩١) من طريق حماد بن زيد ... به . ورجال إسناده ثقات رجال مسلم، إلا أن الحسن البصري كان يرسل كثيراً ويدلس. قال الحافظ المزي في تهذيب الكمال (٦/ ٩٧): رأى الحسن البصري علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيدالله وعائشة ، ولم يصح له سماع من أحد منهم. ورواه الإمام أحمد أيضاً في المسند (٦/ ٢٥٠-٢٥١) من طريق علي بن زيد عن أم محمد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً. ومن هذا الطريق رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٢١٠) . وابن أبي عاصم في السنة(١/ ١٠٠-١٠١) . وأبو يعلى في مسنده (٨/ ١٢٩). والآجري في الشريعة ص(٣١٧). وعلي بن زيد هو ابن جدعان ، ضعيف. كما في التقريب (٢/ ٣٧) وانظر تهذيب الكمال (٢٠/ ٤٣٤-٤٤٥). والحديث سبق تخريجه في ص( ) بلفظ مقارب من رواية النواس بن سمعان رضي الله عنه .

(٢) سورة الأنعام آية ١١٠ .

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٧/ ٣١٤).

(٤) سورة الصف آية ٥ .

(٥) سورة آل عمران آية ٨ .

(٦) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٤٠-٤١) مادة (زيغ) .

وزيغه: ميله عن الهدى إلى الضلال. والزيغ يوصف به القلب والبصر كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾(١). قال قتادة ومقاتل: شخصت فرقاً(٢)(٣).

وهذا تقريب للمعنى، فإن الشخوص غير الزيغ، وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرف. ومنه: شخص بصر الميت. ولما مالت الأبصار عن كل ١٠٤ب شيء، فلم تنظر إلا إلى / هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر، فمالت عنه وشخصت بالنظر إلى الأحزاب.

قال الكلبي : مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم(٤).

وقال الفراء : زاغت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها متحيرة تنظر إليه(٥).

قلت : القلب إذا امتلأ رعباً شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف، فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله .

فصل

وأما الخذلان، فقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ

---

(١) سورة الأحزاب آية ١٠ .

(٢) الفرق : الخوف . المصباح المنير(٢/ ٤٧١) مادة (فرق).

(٣) قول قتادة رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢١/ ١٣١) وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١١٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم. وذكره الواحدي في تفسيره ق(١٤٦) مخطوط مرجع سابق انظر ص(٣٨٧) كما ذكر قول مقاتل .

(٤) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(١٤٦) مخطوط ، المرجع السابق.

(٥) انظر معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٣٦) .

﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾[١]. وأصل الخذلان : الترك والتخلية. ويقال للبقرة والشاة إذا تخلفت مع ولدها في المرعى وتركت صواحباتها : خذول[٢] .

قال محمد بن إسحاق[٣] في هذه الآية : إن ينصرك الله فلا غالب لك من الناس، ولن يضرك خذلان من خذلك ، وإن يخذلك فلن ينصرك الناس، أي لا تترك أمري للناس وارفض الناس لأمري[٤] .

فالخذلان أن يخلي الله تعالى بين العبد وبين نفسه ويكله إليها، والتوفيق ضده أن لا يدعه ونفسه ولا يكله إليها، بل يصنع له ويلطف به ويعينه ويدفع عنه ويكلؤه كلاءة الوالد الشفيق للولد العاجز عن نفسه، فمن خلى بينه وبين نفسه، فقد هلك كل الهلاك، ولهذا كان من دعائه ﷺ: « **يا حي يا قيوم، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك** »[٥] فالعبد مطروح بين الله وبين عدوه إبليس، فإن تولاه الله لم يظفر

---

(١) سورة آل عمران آية ١٦٠ .

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ١٦٥) مادة (خذل) .

(٣) هو : محمد بن إسحاق بن يسار ، أبو بكر ، المطلبي ، مولاهم ، المدني، نزيل العراق، إمام المغازي ، صدوق يدلس، ورمي بالتشيع والقدر، من صغار الخامسة، مات سنة خمسين ومائة، ويقال: بعدها . روى له البخاري تعليقاً، وروى له مسلم والأربعة. له كتب؛ منها : السيرة النبوية. تقريب التهذيب (٢/ ١٤٤) وانظر تهذيب التهذيب (٩/ ٣٨).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٦٣٦) . ورواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ١٥٤) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٦١) وزاد نسبته إلى ابن المنذر .

(٥) هذا الحديث من رواية عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، في دعاء النبي ﷺ عند الكرب. رواه أبو داود (١٣/ ٤٣٤) ك الأدب ـ باب ما يقول إذا أصبح. والترمذي (٥/ ٥٠٤) ك الدعوات ـ باب(٩٢) وقال : هذا حديث غريب ، وقد روي عن =

به عدوه، وإن خذله وأعرض عنه افترسه الشيطان كما يفترس الذئب الشاة (إذا خلى الراعي بينه وبينها. فالشيطان ذئب الإنسان)[١] .

فإن قيل : فما ذنب الشاة إذا خلى الراعي بين الذئب وبينها، وهل يمكنها أن تقوى على الذئب وتنجو منه ؟ / . ١٠٥أ

قيل: لعمر الله (إن الشيطان ذئب الإنسان) كما قاله الصادق المصدوق[٢]. ولكن لم يجعل الله لهذا الذئب اللعين على هذه الشاة سلطاناً مع ضعفها، فإذا أعطت بيدها وسالمت الذئب ، ودعاها فلبت دعوته ، وأجابت أمره ولم

= أنس من غير وجه. والنسائي في عمل اليوم والليلة ص (٤١٣). والإمام أحمد (٥/ ٤٢). والبخاري في الأدب المفرد ص (٢٤٥). وأبو داود الطيالسي في مسنده ص١١٧ . وابن حبان في صحيحه ، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣/ ٢٥٠) . وابن أبي شيبة في مصنفه(١٠/ ١٩٦) ك الدعاء ـ باب ما كان النبي ﷺ يقوله عند الكرب. وابن السني في عمل اليوم والليلة ص(٩٢) بنحوه مختصراً. والبيهقي في كتاب الدعوات الكبير (ص١٢٣) . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٧) وقال : رواه الطبراني وإسناده حسن . والطبراني في المعجم الصغير (١/ ١٥٩). وذكره الخطيب التبريزي في المشكاة (٢/ ٧٥٨). وكلاهما من رواية أنس ابن مالك رضي الله عنه .

(١) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

(٢) هذا الحديث من رواية العلاء عن زياد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، وتكملته: «كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد» . ورواه الإمام أحمد (٥/ ٢٣٣-٢٤٣) . وأبونعيم في الحلية (٢/ ٢٤٧) في ترجمة العلاء بن زياد. والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ١٦٤-١٦٥) . وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٤٠) والسيوطي في الجامع الصغير، وضعفه الألباني، انظر ضعيف الجامع الصغير (٢/ ٥٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٣) (٥/ ٢١٩) وقال : رواه أحمد، والطبراني، ورجال أحمد ثقات، إلا أن العلاء بن زياد قيل: لم يسمع من معاذ. وذكره الخطيب التبريزي في المشكاة (١/ ٦٥) وضعفه الألباني .

تتخلف، بل أقبلت نحوه سريعة مطيعة، وفارقت حمى الراعي الذي ليس للذئاب الذي ليس عليه سبيل ، ودخلت في محل الذئاب الذي من دخله كان صيداً لهم، فهل الذنب كل الذنب إلا (للشاة)[1]، فكيف والراعي يحذرها ويخوفها وينذرها ، وقد أراها مصارع الشاء التي انفردت عن الراعي ودخلت وادي الذئاب .

قال أحمد بن مروان[2] المالكي في كتاب المجالسة: سمعت ابن أبي الدنيا[3] يقول : إن لله سبحانه من العلوم ما لا يحصى ، يعطي كل واحد من ذلك ما لا يعطي غيره. لقد حدثنا أبو عبدالله أحمد بن محمد ابن سعيد[4] (القطان)[5] حدثنا (عبدالله)[6] بن بكر السهمي[7] عن

---

(١) في م ، د : على الشاة .

(٢) هو : أحمد بن مروان الدينوري المالكي، أبو بكر : قاض ، من رجال الحديث، كان على قضاء (القلزم) ثم ولي قضاء (أسوان) بمصر عدة سنين. وتوفي بالقاهرة سنة ٣٣٣هـ . من كتبه (المجالسة وجواهر العلم) و(مناقب مالك) وغيرهما. سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤٢٧) والأعلام(١/ ٢٥٦).

(٣) هو عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان، القرشي، مولاهم أبو بكر بن أبي الدنيا ، البغدادي، صدوق حافظ ، صاحب تصانيف ، من الطبقة الثانية عشرة ، مات سنة إحدى وثمانين ومائتين، وله ثلاث وسبعون سنة. روى له ابن ماجه في التفسير، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٩٧) وتهذيب التهذيب (٦/ ١٢) وتقريب التهذيب (١/ ٤٤٧).

(٤) سبقت ترجمته في ص (٣٠٦) .

(٥) في ت ، م : الطائي .

(٦) في ع ، د ، س : عبيد الله .

(٧) هو : عبد الله بن بكر بن حبيب السهمي الباهلي، أبو وهب البصري، نزيل بغداد، امتنع من القضاء، ثقة حافظ، من التاسعة، مات في المحرم سنة ثمان ومائتين ، روى له الستة. تقريب التهذيب(٢/ ٤٠٤) وتهذيب التهذيب(٥/ ١٦٢).

أبيه أن قوماً كانوا في سفر، فكان فيهم رجل يمر الطائر، فيقول : أتدرون ما تقول هؤلاء ؟ فيقولون: لا، فيقول : تقول كذا وكذا، فيحيلنا على شيء لا ندري أصادق هو أم كاذب، إلى أن مروا على غنم وفيها شاة قد تخلفت على سخلة[١] لها فجعلت تحنو[٢] عنقها إليها وتثغو ، فقال: أتدرون ما تقول هذه الشاة؟ قلنا: لا، قال : تقول للسخلة: الحقي لا يأكلك الذئب كما أكل أخاك عام أول في هذا المكان. قال : فانتهينا إلى الراعي، فقلنا له : ولدت هذه الشاة قبل عامك هذا؟ قال نعم. ولدت سخلة عام أول، فأكلها الذئب بهذا المكان. ثم أتينا على قوم فيهم ظعينة على جمل لها وهو يرغو ويحنو عنقه إليها، فقال : أتدرون ما يقول هذا البعير ؟ قلنا : لا . قال : فإنه يلعن راكبته ويزعم أنها رحلته على مخيط وهو في سنامه، قال : فانتهينا إليهم، فقلنا : يا هؤلاء إن صاحبنا هذا يزعم أن هذا البعير يلعن راكبته، ويزعم أنها رحلته / ١٠٥ب على مخيط، وأنه في سنامه، قال : فأناخوا البعير وحطوا عنه، فإذا هو كما قال[٣] .

فهذه شاة قد حذرت سخلتها من الذئب مرة فحذرت . وقد حذر الله

---

(١) السخلة : تطلق على الذكر والأنثى من أولاد الضأن والمعز ساعة تولد. المصباح المنير(١/ ٢٦٩) .

(٢) يقال :حنوت العود، أحنيه حنيا، وحنوته أحنوه حنواً : إذا ثنيته. المصباح المنير (١/ ١٥٥) ماد (حنا) .

(٣) انظر كتاب المجالسة وجواهر العلم ص (٣٠٥) الجزء الرابع عشر، وهو عن مخطوطة محفوظة بمكتبة طوب قابوسراي في استانبول بتركيا، نشره معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في جامعة فرانكفورت بألمانيا، وأصدره الدكتور فؤاد سزكين سنة ١٤٠٧هـ .

سبحانه وتعالى ابن آدم من ذنبه مرة بعد مرة ، وهو يأبى إلا أن يستجيب له إذا دعاه، ويبيت معه ويصبح ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] .

فصل

وأما الإركاس، فقال تعالى: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[2] .

قال الفراء : أركسهم : ردهم إلى الكفر[3] .

قال أبو عبيد : يقال ركست الشيء وأركسته، لغتان، إذا رددته[4] .

والركس : قلب الشيء على رأسه. أو رد أوله على آخره، والارتكاس: الارتداد. قال أمية[5] :

---

(١) سورة إبراهيم آية ٢٢ .

(٢) سورة النساء آية ٨٨ .

(٣) انظر معاني القرآن للفراء (١/ ٢٨١) .

(٤) انظر : غريب الحديث لأبي عبيد الهروي (١/ ٢٧٥) .

(٥) هو أمية بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي: شاعر جاهلي ، من أهل الطائف. قدم دمشق قبل الإسلام ، وكان مطلعاً على الكتب القديمة، يلبس المسوح تعبداً، وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر، ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية، ورحل إلى البحرين فأقام ثماني سنين ظهر في أثنائها الإسلام ، وعاد إلى =

فأركسوا في جحيم النار أنهم كانوا عصاة وقالوا الإفك والزورا[1]

ومن هذا يقال للروث : الركس ، لأنه رد إلى حال النجاسة ، ولهذا المعنى سمي رجيعاً . والركس والنكس، والمركوس والمنكوس بمعنى واحد [2] .

قال الزجاج : أركسهم : نكسهم وردهم [3] .

والمعنى: أنه ردهم إلى حكم الكفر من الذل والصغار . وأخبر سبحانه عن حكمه وقضائه فيهم وعدله، وأن (إركاسهم)[4] كان بسبب كسبهم وأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[5] فهذا توحيده وهذا عدله، لا ما تقوله القدرية المعطلة أن التوحيد: إنكار الصفات. والعدل : التكذيب بالقدر .

= الطائف ، فسأل عن خبر النبي ﷺ ، فقيل له: يزعم أنه نبي، فخرج حتى قدم عليه بمكة وسمع منه آيات من القرآن وانصرف عنه ، فتبعته قريش تسأله عن رأيه فيه، فقال أشهد أنه على الحق، قالوا: فهل تتبعه، فقال: حتى أنظر في أمره. وخرج إلى الشام وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وحدثت وقعة بدر، وعاد أمية من الشام، يريد الإسلام، فعلم بمقتل أهل بدر وفيهم ابنا خال له، فامتنع وأقام في الطائف إلى أن مات سنة خمس من الهجرة. الأعلام (٢/ ٢٣) والشعر والشعراء لابن قتيبة ص(١٧٦) .

(١) انظر ديوان أمية بن أبي الصلت ص (٤٠٨) جمع وتحقيق د . عبد الحفيظ السطلي، ط (بدون) ونص البيت فيه هكذا :

أركسوا في جهنم أنهم كا نوا عتاة تقول إفكاً وزوراً

وورد عند الطبري في تفسيره (٥/ ١٩٢) باللفظ الذي ذكره المؤلف .

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة (٢/ ٤٣٤) و(٥/ ٤٧٧) مادة : (ركس) و(نكس).

(٣) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٨٨) .

(٤) في ع ، د ، س : كان إركاسه .

(٥) سورة المطففين آية ١٤ .

فصل

وأما التثبيط، فقال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾[1] .

والتثبيط / : رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله . ١٠٦أ

قال ابن عباس : يريد خذلهم وكسلهم عن الخروج[2] .

وقال في رواية أخرى : حبسهم[3] .

قال مقاتل : وأوحي إلى قلوبهم اقعدوا مع القاعدين[4] .

وقد بين سبحانه حكمته في هذا التثبيط والخذلان قبل وبعد، فقال : ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ (يعني في التخلف عنك)[5] ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[6] .

فلما تركوا الإيمان به وبلقائه، وارتابوا بما لا ريب فيه، ولم يريدوا الخروج في (طاعته)[7] ولم يستعدوا له ولا أخذوا أهبة ذلك، كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه، فإن من لم يرفع به وبرسوله وكتابه رأساً، ولم يقبل هديته التي

---

(١) سورة التوبة آية ٤٦ .

(٢) لم أعثر له على تخريج .

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ق(٥٣) مخطوط، محفوظ أصله بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة تحت رقم(٥٠) تفسير ، وتوجد صورة منه بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض تحت رقم ٢٩٦/ ف .

(٤) لم أعثر له على تخريج .

(٥) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

(٦) سورة التوبة آية ٤٥ .

(٧) في ع ، د ، س : طاعة الله .

أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه وأكرمهم عليه، ولم يعرف قدر هذه النعمة ولا شكرها، بل بدلها كفراً ، فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله يكرهه الله سبحانه، فثبطه لئلا يقع ما يكره من خروجه ، وأوحى إلى قلبه قدراً وكوناً أن يقعد مع القاعدين .

ثم أخبر سبحانه عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تثبيط هؤلاء عنهم، فقال : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾[1]، والخبال: الفساد والاضطراب ، فلو خرجوا مع المؤمنين؛ لأفسدوا عليهم أمرهم، وأوقعوا بينهم الاضطراب والاختلاف .

قال ابن عباس :﴿ مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ : عجزاً وجبناً [2]، يعني يجبنونهم عن لقاء العدو بتهويل أمرهم (عليهم)[3] وتعظيمهم في صدورهم.

ثم قال : ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي : أسرعوا في الدخول بينكم (للتضريب)[4] والإفساد .

قال ابن عباس : يريد : أضعفوا شجعانكم، يعني (بالتضريب)[5] بينهم لتفرق الكلمة فيجبنوا عن العدو[6] .

وقال الحسن : لأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات البين[7] .

---

(١) سورة التوبة آية ٤٧ .

(٢) لم أعثر له على تخريج .

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

(٤) في د ، س : للتفريق. والتضريب هو : الإفساد . انظر المصباح المنير ص (٣٥٩) مادة (ضرب).

(٥) في د ، س : للتفريق .

(٦) لم أعثر له على تخريج .

(٧) ذكره ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير (٣/ ٤٤٨) .

وقال الكلبي : ساروا بينكم يبغونكم (العنت[1])[2] .

قال (امرؤ القيس[3])[4] / : ١٠٦ب

أرانا موضعــين لحتم غيــب ونسحر بالطعــام وبالشراب[5]

أي مسرعين ، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة [6] :

---

(١) في م ،ع ، د ، س : العيب .

(٢) لم أعثر له على تخريج .

(٣) في ت : لبيد .

(٤) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي ، من بني آكل المرار، أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يماني الأصل ، مولده بنجد، أو بمخلاف السكاسك باليمن ، اشتهر بلقبه، واختلف المؤرخون في اسمه، فقيل: حندج، وقيل: مليكة، وقيل: عدي، وكان أبوه ملك أسد وغطفان، وأمه أخت المهلهل الشاعر، قال الشعر وهو غلام، وجعل يشبب ويلهو فبلغ ذلك أباه فنهاه عن سيرته فلم ينته، فأبعده إلى دمون بحضرموت، وثار بنو أسد على أبيه وقتلوه، فبلغ ذلك امرأ القيس، ونهض من غده، فلم يزل حتى ثأر لأبيه من بني أسد، وقال في ذلك شعراً كثيراً، ذهب إلى قيصر الروم للاستعانة به على الفرس، وفي طريق عودته ظهرت في جسمه قروح، فأقام إلى أن مات في أنقرة نحو سنة ٨٠ قبل الهجرة، ويعرف امرؤ القيس بالملك الضليل (لاضطراب أمره طول حياته) وذي القروح (لما أصابه في مرض موته) وكتب الأدب مشحونة بأخباره. الأعلام (٢/ ١١-١٢) والشعر والشعراء لابن قتيبة ص(٣٦) .

(٥) انظر ديوان امرئ القيس ص(٩٧) وفيه: (أرانا موضعين لأمر غيب ....)إلخ. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، نشر دار المعارف بمصر، ط (بدون).

(٦) هو : عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، أبو الخطاب، من طبقة جرير والفرزدق، ولم يكن في قريش أشعر منه، وولد في الليلة التي توفي بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فسمي باسمه، وكان يفد على عبد الملك بن مروان فيكرمه ويقربه، ورفع إلى عمر بن عبد العزيز أنه يتعرض لنساء الحاج ويشبب بهن ، فنفاه إلى (دهلك) ثم غزا في البحر فاحترقت السفينة به وبمن معه، فمات فيها غرقاً. سنة ٩٣هـ . الشعر والشعراء لابن قتيبة ص (٢٧٦) . الأعلام (٥/ ٥٢) .

تباً لهن بالعرفان لما عرفنني وقلن امرؤ باغٍ أكل وأوضعا[١]

أي : أسرع حتى كلت مطيته .

﴿ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾[٢] .

وقال قتادة : وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم[٣] .

وقال ابن إسحاق[٤] : وفيكم قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم[٥] .

ومعناه على هذا القول : وفيكم أهل سمع وطاعة لهم، لو صحبهم هؤلاء المنافقون أفسدوهم عليكم .

قلت : فضمن (سمَّاعين) معنى (مستجبين).

وقال مجاهد وابن زيد والكلبي : المعنى : وفيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون ، أي جواسيس[٦] .

والقول هو الأول، كما قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾[٧] أي: قابلون له، ولم يكن في المؤمنين جواسيس للمنافقين، فإن المنافقين كانوا مختلطين بالمؤمنين، ينزلون معهم ، ويرحلون ويصلون معهم، ويجالسونهم، ولم يكونوا (متحيزين)[٨] عنهم قد أرسوا فيهم العيون ينقلون إليهم أخبارهم ، فإن هذا

---

(١) انظر ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٢٢٨ نشر دار صادر بيروت ط (بدون)

(٢) سورة التوبة آية ٤٧ .

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ١٤٦) .

(٤) سبقت ترجمته في ص(٦٦٦) .

(٥) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ١٤٦) .

(٦) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ١٤٦) .

(٧) سورة المائدة آية (٤٢) .

(٨) في ع : متحيزون .

إنما يفعله من انحاز عن طائفة ولم يخالطها وأرصد بينهم عيوناً له .

فالقول قول قتادة وابن إسحاق، والله أعلم .

فإن قيل : انبعاثهم إلى طاعته طاعة له، فكيف يكرهها ؟ فإذا كان سبحانه يكرهها، فهو يحب ضدها لا محالة، إذ كراهة أحد الضدين تستلزم محبة الضد الآخر، فيكون قعودهم محبوباً له فكيف يعاقبهم عليه؟ .

قيل: هذا سؤال له شأن ، وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب، وأجوبة الطوائف (عنه)[1] على حسب أصولهم .

فالجبرية تجيب عنه بأن أفعاله لا تعلل بالحكم والمصالح، وكل ممكن فهو جائز عليه ، ويجوز أن يعذبهم على فعل ما يحبه ويرضاه وترك ما يبغضه ويسخطه ، والجميع بالنسبة إليه سواء[2] .

وهذه الفرقة قد سدت / على أنفسها باب الحكمة والتعليل . ١٠٧أ

والقدرية تجيب عنه على أصولها بأنه سبحانه لم يثبطهم حقيقة ولم يمنعهم بل هم منعوا أنفسهم وثبطوها على الخروج، وفعلوا ما لا يريد، ولما كان في خروجهم المفسدة التي ذكرها الله سبحانه ألقى في نفوسهم كراهة الخروج مع رسوله.

قالوا: وجعل سبحانه إلقاء كراهة الانبعاث في قلوبهم كراهة (منه)[3]

---

(١) ساقطة من د ، س .

(٢) انظر في عدم تعليل أفعال الله سبحانه وتعالى بالمصالح عندهم : المواقف للإيجي ص(٣٢٤،٣٢٨،٣٢٩،٣٣١) وكتاب المسائل الخمسون في أصول الدين للرازي ص(٦٢) تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ط الأولى ١٩٨٩م، نشر المكتب الثقافي بالقاهرة.

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

(لذلك)[1] من غير أن يكره هو سبحانه انبعاثهم، فإنه أمرهم به، قالوا : وكيف يأمرهم بما يكرهه؟!

ولا يخفى على من نور الله تعالى بصيرته فساد هذين الجوابين وبعدهما من دلالة القرآن، فالجواب الصحيح أنه سبحانه أمرهم بالخروج طاعة له ولأمره، واتباعاً لرسوله ﷺ، ونصرة له وللمؤمنين، وأحب ذلك منهم، ورضيه لهم ديناً، وعلم سبحانه أن خروجهم لو خرجوا لم يقع على هذا الوجه، بل يكون (خروج)[2] خذلان لرسوله وللمؤمنين ، فكان خروجاً يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه، ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه، وكان مكروهاً (له)[3] من هذا الوجه ومحبوباً له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه. (وهو)[4] يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه إليه فكرهه، وعاقبهم على ترك الخروج الذي يحبه ويرضاه، لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه. وعلى هذا، فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة حتى لو فعلوه لم يثبهم عليه ولم يرضه منهم. وهذا الخروج المكروه له ضدان.

أحدهما: الخروج المرضي المحبوب ، وهذا الضد هو الذي يحبه .

والثاني: التخلف عن رسوله والقعود عن الغزو معه .

وهذا الضد يبغضه ويكرهه أيضاً . وكراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا ينافي كراهته لهذا الضد .

فنقول للسائل : قعودهم (يكون محبوباً له ليس بصحيح، بل

---

(١) في ع ، د ، س : مشيئة .

(٢) في ع ، د ، س : خروجهم خروج .

(٣) ساقطة من د .

(٤) في ت : لم .

قعودهم)[١] مبغوض له. ولكن هاهنا أمران مكروهان له سبحانه/ وأحدهما ١٠٧ب أكره (إليه)[٢] من الآخر؛ لأنه أعظم مفسدة. فإن قعودهم مكروه له، وخروجهم على الوجه الذي ذكره أكره إليه، ولم يكن لهم بد من أحد المكروهين إليه سبحانه، فدفع المكروه الأعلى بالمكروه الأدنى، فإن مفسدة قعودهم عنه أصغر من مفسدة خروجهم معه، فإن مفسدة قعودهم تختص بهم ، ومفسدة خروجهم تعود على المؤمنين ، فتأمل هذا الموضع .

فإن قلت : فهلا وفقهم للخروج الذي يحبه ويرضاه، وهو الذي خرج عليه المؤمنون ؟

قلت : قد تقدم جواب مثل هذا السؤال مراراً . وإن حكمته تأبى أن يضع التوفيق في غير محله وعند غير أهله، فالله أعلم حيث يجعل هداه وتوفيقه وفضله ، وليس كل محل يصلح لذلك ، ووضع الشيء في غير محله لا يليق بحكمته .

فإن قلت : وعلى ذلك، فهلا جعل المحال كلها صالحة ؟

قلت : يأباه كمال ربوبيته وملكه، وظهور (آثار)[٣] أسمائه وصفاته في الخلق والأمر . وهو سبحانه لو فعل ذلك لكان محبوباً له، فإنه يحب أن يذكر ويشكر، ويطاع ويوحد ويعبد، ولكن كان ذلك يستلزم فوات ما هو أحب إليه من استواء أقدام الخلائق في الطاعة والإيمان، وهو محبته لجهاد أعدائه، والانتقام منهم، وإظهار قدر أوليائه وشرفهم، وتخصيصهم بفضله، وبذل

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س.

(٢) في ع ، د ، س : له .

(٣) ساقطة من د .

نفوسهم له في معاداة من عاداه، وظهور عزته وقدرته وسطوته، وشدة أخذه وأليم عقابه، وأضعاف أضعاف هذه الحكم التي لا سبيل للخلق ولو تناهوا في العلم والمعرفة إلى الإحاطة بها، ونسبة ما عقلوه منها إلى ما خفي عنهم كنقرة عصفور في بحر .

فصل

وأما التزيين، فقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾[(١)] . وقال : ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾[(٢)]. وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[(٣)] فأضاف التزيين إليه سبحانه خلقاً، ومشيئة، وحذف فاعله تارة، ونسبه إلى سببه ومن أجراه على يده تارة.

١٠٨أ وهذا التزيين منه سبحانه جزاء وابتلاء واختبار / (العبيده لتمييز)[(٤)] المطيع منهم من العاصي، والمؤمن من الكافر، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[(٥)] . وهو من الشيطان قبيح. وأيضاً فتزيينه سبحانه للعبد عمله السيِّئ عقوبة منه له على إعراضه عن توحيده وعبوديته وإيثاره سيِّئ العمل على حسنه، فإنه لابد أن يعرفه سبحانه السيِّئ من الحسن، فإذا آثر القبيح واختاره وأحبه ورضيه لنفسه، زيَّنه سبحانه له وأعماه عن رؤية قبحِهِ بعد أن رآه قبيحاً، وكل ظالم وفاجر فاسق لابد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحاً، فإذا تمادى عليه ارتفعت رؤية

---

(١) سورة الأنعام آية ١٠٨ .

(٢) سورة فاطر آية ٨ .

(٣) سورة الأنعام آية ٤٣ .

(٤) في د ، س : بعيد ليتميز .

(٥) سورة الكهف آية ٧ .

قبحه من قلبه، فربما رآه حسناً عقوبة له، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه وحجة الله عليه، فإذا تمادى في غيِّه وظلمه ذهب ذلك النور، فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم. ومع هذا فحجة الله قائمة عليه بالرسالة وبالتعريف الأول، فتزيين الرب تعالى عدل (وعقوبة وحكمة)[1] وتزيين الشيطان إغواء وظلم، وهو السبب الخارج عن العبد، والسبب الداخل فيه حبه وبغضه وإعراضه. والرب سبحانه خالق الجميع، والجميع (واقع)[2] بمشيئته وقدرته، ولو شاء لهدى خلقه أجمعين. والمعصوم من عصمه الله، والمخذول من خذله الله (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)[3].

فصل

وأما عدم مشيئته سبحانه وإرادته، فكما قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[4] وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[5]. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[6] وعدم مشيئته للشيء مستلزم لعدم وجوده، كما أن مشيئته (له)[7] تستلزم وجوده. فما شاء الله وجب وجوده، وما لم يشأ امتنع وجوده، وقد أخبر سبحانه أن العباد لا يشاؤون إلا بعد مشيئته، ولا يفعلون (إلا)[8] بعد مشيئته. فقال:

(١) في د. س: وعقوبته حكمة.
(٢) ساقطة من م.
(٣) اقتباس من آية ٥٤ سورة الأعراف.
(٤) سورة المائدة آية ٤١.
(٥) سورة السجدة آية ١٣.
(٦) سورة يونس آية ٩٩.
(٧) ساقطة من ع، د، س.
(٨) في ع، د، س: شيئاً إلا.

١٠٨ب/ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(١) و(قال)(٢) : ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٣) .

فإن قيل: فهل يكون الفعل مقدوراً للعبد في حال عدم مشيئة الله له أن يفعله؟

قيل : إن العبد أريد بكونه مقدوراً سلامة آلة العبد التي يتمكن بها من الفعل، وصحة أعضائه ، ووجود قواه ، وتمكينه من أسباب الفعل (وتعريفه)(٤) طريق فعله وفتح الطريق له. فنعم هو مقدور بهذا الاعتبار .

وإن أريد بكونه مقدوراً القدرة المقارنة للفعل، وهي الموجبة له، التي إذا وجدت لم يتخلف عنها الفعل، فليس بمقدور بهذا الاعتبار .

وتقرير ذلك أن القدرة نوعان :

قدرة مصححة : وهي قدرة الأسباب والشروط وسلامة الآلة، وهي مناط التكليف، وهذه متقدمة على الفعل غير موجبة له .

وقدرة مقارنة للفعل مستلزمة له، لا يتخلف الفعل عنها ، وهذه ليست شرطاً في التكليف، فلا يتوقف صحته وحسنه عليها، فإيمان من لم يشأ الله إيمانه، وطاعة من لم يشأ الله طاعته مقدور بالاعتبار الأول، غير مقدور بالاعتبار الثاني .

وبهذا التحقيق تزول الشبهة في تكليف ما لا يطاق، كما يأتي بيانه في

---

(١) سورة الإنسان آية ٣٠ .

(٢) ساقطة من ع ، د ، س .

(٣) سورة المدثر آية ٥٦ .

(٤) في ع ، د ، س : وتهيئة .

موضعه إنشاء الله تعالى .

فإن قيل : هل خلق لمن علم أنه لا يؤمن قدرة على الإيمان أم لم يخلق له قدرة؟

قيل : خلق قدرة مصححة متقدمة على الفعل هي مناط الأمر والنهي، ولم يخلق له قدرة موجبة للفعل مستلزمة له لا يتخلف عنها ، فهذا فضله يؤتيه من يشاء ، وتلك عدله التي تقوم بها حجته على عبده .

فإن قيل : هل يمكنه الفعل ولم يخلق له هذه القدرة ؟

قيل : هذا هو السؤال السابق بعينه، وقد عرفت جوابه ، وبالله التوفيق .

فصل

وأما إماتة قلوبهم، ففي قوله : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[(٢)] وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[(٣)] وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[(٤)].

فوصف الكافر / بأنه ميت وأنه بمنزلة أصحاب القبور ، وذلك أن القلب ١٠٩أ الحي هو الذي يعرف الحق ويقبله ويحبه ويؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحق والباطل، ولا إرادة للحق وكراهة للباطل، بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحس بلذة الطعام والشراب وألم فقدهما .

---

(١) سورة النمل آية ٨٠ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٢٢ .

(٣) سورة يس آية ٧٠ .

(٤) سورة فاطر آية ٢٢ .

وكذلك وصف سبحانه كتابه ووحيه بأنه روح، لحصول حياة القلب به، فيكون القلب حياً، ويزداد حياة بروح الوحي، فيحصل له حياة على حياة، ونور على نور، ونور الوحي على نور الفطرة. قال تعالى: ﴿ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[1] وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] فجعله روحاً لما يحصل له من الحياة، ونوراً لما يحصل به من الهدى والإضاءة، وذلك نور وحياة (زائد)[3] على نور الفطرة وحياتها، فهو نور على نور، وحياة على حياة. ولهذا يضرب سبحانه لمن عدم ذلك مثلاً بمستوقد النار التي ذهب عنه ضوؤها ، وبصاحب الصيب الذي كان حظه منه الصواعق والظلمات والرعد والبرق، فلا استنار بما أوقد من النار ولا حيي بما في الصيب من الماء[4] .

وكذلك ضرب هذين المثلين في سورة الرعد[5] لمن استجاب له، فحصل على الحياة والنور، ولمن لم يستجب له وكان حظه الموت والظلمة.

---

(١) سورة غافر آية ١٥ .

(٢) سورة الشورى آية ٥٢ .

(٣) في ع ، د ، س : زائدة .

(٤) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ﴾ سورة البقر آية ١٧-١٩ .

(٥) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ۝ ﴾الرعد آية ١٦ .

(وأخبر[١]) عمن أمسك عن نوره بأنه في الظلمة ليس له من نفسه نور، فقال تعالى: ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾[٢].

ثم ذكر من أمسك عنه هذا النور ولم يجعله له، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾[٣]. ١٠٩ب

وفي المسند من حديث عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله»[٤].

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٥].

---

(١) في ع، د، س: فاخبر.

(٢) سورة النور آية ٣٥.

(٣) سورة النور آية ٣٩، ٤٠.

(٤) سبق تخريجه في ص (١٤٩).

(٥) سورة الأنعام آية ٣٩.

وهذه الظلمات ضد الأنوار التي يتقلب فيها المؤمن؛ فإن نور الإيمان في قلبه، ومدخله نور، ومخرجه نور، (وعلمه)[١] نور، و(مشيه)[٢] في الناس(نور)[٣] ، وكلامه نور، ومصيره إلى (النور)[٤] ،والكافر بالضد، ولَمّا كان النور من أسمائه سبحانه الحسنى وصفاته كان دينه نوراً، ورسوله نوراً، وكلامه نوراً وداره نوراً يتلألأ، والنور يتوقد في قلوب عباده المؤمنين، ويجري على ألسنتهم، ويظهر على وجوههم، وكذلك لما كان الإيمان (صفته)[٥] واسمه المؤمن لم يعطه إلا أحب خلقه إليه. وكذلك الإحسان وصفته وهو المحسن ويحب المحسنين، وهو صابر يحب الصابرين، شاكر يحب الشاكرين ، عفو يحب أهل العفو، حيي يحب أهل الحياء، ستير يحب أهل الستر، قوي يحب أهل القوة من المؤمنين، عليم يحب أهل العلم من عباده، جواد يحب أهل الجود، جميل يحب المتجملين، بر يحب الأبرار، رحيم يحب الرحماء، عدل يحب أهل العدل، رشيد يحب أهل الرشد، وهو الذي جعل من يحبه من خلقه كذلك، وأعطاه من هذه الصفات ما شاء ، وأمسكها عمن يبغضه، وجعله على أضدادها، فهذا / عدله ، وذلك فضله، والله ذو الفضل العظيم . ١١٠أ

فصل

وأما جعله القلب قاسياً، فقال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا

(١) في ع ، د ، س : وعلمه .
(٢) في ع ، س ، ومشيئة ، وفي د ، : ومشيئته .
(٣) في م : بالنور ، وفي ت : في النور .
(٤) في ع ، د ، س : نور .
(٥) ساقطة من ع ، س .

﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾[١] والقسوة: الشدة والصلابة في كل شيء، يقال: حجر قاس، وأرض قاسية: لا تنبت شيئاً[٢].

قال ابن عباس: قاسية عن الإيمان[٣].

وقال الحسن: طبع عليها[٤].

والقلوب ثلاثة: قلب قاس، وهو اليابس الصلب الذي لا يقبل صورة الحق، ولا تنطبع فيه (ليبسه)[٥]، وضده القلب اللين المتماسك، وهو السليم من المرض الذي يقبل صورة الحق بلينه (يحفظها)[٦] بتماسكه، بخلاف المريض الذي لا يحفظ ما ينطبع فيه، لميعانه ورخاوته، كالمائع الذي إذا طبعت فيه الشيء قبل صورته بما فيه من اللين ولكن رخاوته تمنعه من حفظها، فخير القلوب الصلب الصافي اللين، فهو يرى الحق بصفائه، ويقبله بلينه، ويحفظه بصلابته.

وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ: **«القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أصلبها وأرقها وأصفاها»**[٧].

---

(١) سورة المائدة آية ١٣.

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٨٧) والصحاح للجوهري (٦/ ٢٤٦٢) مادة (قسا).

(٣) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(٢٠) مخطوط، محفوظ أصله بمكتبة شستربتي في بريطانيا تحت رقم (٥١٠٥) وتوجد صورة منه بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية تحت الرقم نفسه.

(٤) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(٢٠) المرجع السابق.

(٥) ساقطة من ع، د، س.

(٦) في ع، د، س: ويحفظه.

(٧) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في زوائده على كتاب الزهد للإمام أحمد ص١٩١ بسنده =

وقد ذكر سبحانه أنواع القلوب في قوله تعالى : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾[1] .

= عن أبي أمامة مرفوعاً. ومن طريقه رواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٩٧) . قال الألباني: وفي سنده محمد بن القاسم الأسدي، وهو ضعيف جداً، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٢٦٤). ورواه الطبراني في المعجم الكبير كما في المنتقى منه (ق٤٠/ ١) مخطوط محفوظ أصله بالمكتبة الظاهرية بدمشق ضمن مجموع تحت رقم (٧١) بسنده عن أبي عنبة الخولاني. وقال الألباني : إسناده قوي. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٢٦٣). وذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٤٩٦) ونقل عن الهيثمي ـ وأقره ـ قوله: إسناده حسن. وذكره أيضاً السيوطي في الجامع الصغير . وقال الألباني: إسناده حسن. انظر صحيح الجامع الصغير (١/ ٢٣٠) . ولم أعثر على هذا الحديث في مسند الإمام أحمد ـ كما ذكر المؤلف رحمه الله تعالى ـ وذلك بعد البحث عنه في مظانه وفي فهرس المسند، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، وموسوعة أطراف الحديث النبوي، وغيرها من كتب الفهرسة والتخريج. وقد روي هذا الحديث موقوفاً على خالد بن معدان . وممن رواه : الإمام أحمد في كتاب الزهد ص٤٦٠ حيث قال: إن لله تبارك في الأرض ، وأحب آنية الله إليه ما رق منها وصفا، وآنية الله في الأرض قلوب عباده الصالحين. قال الألباني: وهذا إسناد صحيح. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة(٤/ ٢٦٤). وقد ذكر المؤلف رحمه الله تعالى هذه الرواية الموقوفة ونسبها إلى بعض السلف في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية ص٥٢. كما ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الفتاوى (٩/ ٣١٥) بقوله: وبلغنا عن بعض السلف، قال: القلوب آنية الله في الأرض ... إلخ. ثم قال: وهذا مثل حسن، فإن القلب إذا كان رقيقاً ليناً كان قبوله للعلم سهلاً ويسيراً، ورسخ العلم فيه وثبت وأثر، وإن كان قاسياً غليظاً كان قبوله للعلم صعباً عسيراً.

(١) سورة الحج آية ٥٣-٥٤ .

فذكر القلب المريض ، وهو الضعيف المنحل الذي لا تثبت فيه صورة الحق، والقلب القاسي اليابس الذي لا يقبلها ولا تنطبع فيه، فهذان القلبان شقيان معذبان. ثم ذكر القلب المخبت المطمئن إليه ، وهو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به.

قال الكلبي : ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ فترق للقرآن قلوبهم[(١)] .

وقد بين سبحانه حقيقة الإخبات ووصف المخبتين في قوله تعالى:﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[(٢)] / فذكر للمخبتين أربع ١١٠ب علامات: وجل قلوبهم عند ذكره ـ والوجل خوف مقرون بهيبة ومحبة ـ وصبرهم على أقداره ، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان، ظاهراً وباطناً ، وإحسانهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم . وهذا إنما يتأتى للقلب المخبت .

قال ابن عباس : (المخبتين) : المتواضعين[(٣)] .

وقال مجاهد : المطمئنين إلى الله[(٤)] .

وقال الأخفش : الخاشعين[(٥)] .

---

(١) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(٣٤) مخطوط، محفوظ أصله بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٣) تفسير ، وتوجد صورة منه بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض تحت رقم (١٠٨٤٤/ ف) .

(٢) سورة الحج آية ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(٢٥) المرجع السابق .

(٤) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧/ ١٦١) . وذكره في الدر المنثور (٦/ ٤٨) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم .

(٥) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(٢٥) المرجع السابق .

وقال ابن جرير : الخاضعين[١] .

وقال الزجَّاج : اشتقاقه من الخبت، وهو المنخفض من الأرض، وكل مخبت متواضع[٢] . فالإخبات سكون الجوارح على وجه التواضع والخشوع لله تعالى.

فإن قيل : فإذا كان معناه: التواضع والخشوع ، فكيف عدي بإلى في قوله : ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[٣] .

قيل : ضمن معنى أنابوا واطمأنوا وتابوا ، وهذه عبارات السلف في هذا الموضع. والمقصود أن القلب المخبت ضد القاسي والمريض ، وهو سبحانه الذي جعل بعض القلوب مخبتاً إليه (وبعضها مريضاً)[٤] وبعضها قاسياً، وجعل للقسوة: آثاراً وللإخبات آثاراً. فمن آثار القسوة تحريف الكلم عن مواضعه، وذلك من سوء الفهم وسوء القصد، وكلاهما ناشئ عن قسوة القلب، ومنها : نسيان ما ذكر به، وهو ترك ما أمر به علماً وعملاً . ومن آثار الإخبات: وجل القلوب لذكره سبحانه ، والصبر على أقداره، والإخلاص في عبوديته، والإحسان إلى خلقه .

فصل

وأما تضييق الصدر وجعله حرجاً لا يقبل الإيمان، فقال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبري (١٧/ ١٦١) .

(٢) انظر معاني القرآن وإعرابه (٣/ ٤٢٧) .

(٣) سورة هود آية ٢٣ .

(٤) ما بين القوسين ساقط من د ، س .

حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[١] والحرج هو : الشديد الضيق في قول أهل اللغة جميعهم، يقال: رجل حرج، وحرج أي ضيق الصدر، قال الشاعر[٢] :

لا حرج الصدر ولا عنيف[٣]

قال عبيد بن عمير[٤]: قرأ ابن عباس هذه الآية، فقال : هاهنا أحد من / ١١١أ بني بكر[٥] ؟ قال رجل : نعم. قال : ما الحرجة فيكم ؟ قالوا : الوادي الكثير الشجر الذي لا طريق فيه. فقال ابن عباس : كذلك قلب الكافر[٦] .

وقرأ عمر بن الخطاب الآية، فقال: (إيتوني)[٧] رجلاً من كنانة[٨] واجعلوه

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٥ .

(٢) لم أقف على اسمه .

(٣) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة (٤/ ١٣٧) وابن منظور في لسان العرب(٢/ ٢٣٣) مادة (حرج).

(٤) هو : عبيد بن عمير بن قتادة الليثي سبقت ترجمته في ص (٢٧٦) .

(٥) هم : بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان ، بطن من كنانة بن خزيمة العدنانية . جمهرة أنساب العرب ص(١٧٠-١٧٦) . ومعجم قبائل العرب (١/ ٩٢) .

(٦) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(٧٩) مخطوط، مرجع سابق. انظر ص(٣٨٧) وأشار إليه الأزهري في تهذيب اللغة (٤/ ١٣٧) مادة (حرج).

(٧) في م ،ع : ايفوني .

(٨) كنانة : قبيلة عظيمة من العدنانية ، وهم بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. كانت ديارهم بجهات مكة ، وينقسمون إلى عدة بطون . جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص(١٠) معجم قبائل العرب (٣/ ٩٩٦) .

راعياً. فأتوه به ، فقال (له)[١] عمر : يا فتى ما الحرجة فيكم ؟ فقال: الشجرة تحدق بها الأشجار (الكثيرة)[٢] فلا تصل إليها راعية ولا وحشية ، فقال عمر: كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شيء من الخير[٣] .

قال ابن عباس : يجعل صدره ضيقاً حرجاً ، إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه، (ونفسه، وإذا)[٤] ذكر شيء من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك[٥] .

ولما كان القلب محلاً للمعرفة والعلم والمحبة والإنابة ، وكانت هذه الأشياء إنما تدخل في القلب إذا اتسع لها، فإذا أراد الله هداية (عبده)[٦] وسع صدره وشرحه، فدخلت فيه وسكنته ، وإذا أراد ضلاله ضيق صدره وأحرجه، فلم تجد محلاً تدخل فيه فتعدل عنه ولا تساكنه.

وكل إناء فارغ إذا دخل (فيه)[٧] الشيء ضاق به، وكلما أفرغت فيه الشيء ضاق ، إلا القلب (اللين)[٨]، فكلما أفرغ فيه الإيمان والعلم اتسع وانفسخ، هذا من آيات قدرة الرب تعالى .

وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح».

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س .

(٢) ساقطة من م .

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ٢٨) . وذكره ابن كثير في تفسيره(٢/ ١٧٥) . والسيوطي في الدر المنثور(٣/ ٣٥٦) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ .

(٤) ساقطة من ع ، د ، س .

(٥) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره مختصراً (ق١٠٩) مخطوط، مرجع سابق .

(٦) في ع ، د ، س : عبد .

(٧) ساقطة من د .

(٨) ساقطة من م ، ت .

قالوا: فما علامة ذلك يا رسول الله ؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**»[١] .

---

(١) لم أعثر على رواية الترمذي لهذا الحديث ، وذلك بعد البحث عنه في مظانه من جامع الترمذي ، وغيره من كتب فهرسة الحديث وتخريجه. وقد عزاه المؤلف رحمه الله ـ أيضاً ـ في كتابه الفوائد ص(٢٧) إلى الترمذي . وقد عثرت عليه بعد ذلك في كتاب العلل للترمذي، وقد رجح نور الدين عتر ـ محقق شرح علل الترمذي ـ ما رآه بعض الشراح من أن كتاب العلل بحث تابع للجامع كالخاتمة له للتعريف بمصطلحاته، ولعل هذا هو السبب في نسبة المؤلف رحمه الله هذا الحديث إلى الترمذي. انظر: شرح علل الترمذي لابن رجب الحنبلي(٢/ ٢٧٢). ومقدمة محقق شرح العلل (١/ ١٨) . والحديث رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣١١) ك الرقاق ـ من طريق عدي بن الفضل عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً، وسكت عنه . وتعقبه الذهبي، فقال: عدي ساقط. ورواه البيهقي في كتاب الزهد الكبير ص٣٥٦. وفي كتاب القدر ص٢٢٧-٢٢٨. وابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ٢٧) . وقد روي هذا الحديث مرسلاً من رواية أبي جعفر المدائني، وأخرج هذه الرواية : ابن المبارك في كتاب الزهد ص١٠٦. وابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ٢٦-٢٧) وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢١٨) . والبيهقي في الأسماء والصفات ص ١٩٨-١٩٩ . وسئل عنه الدارقطني، فقال ـ بعد أن ذكر الاختلاف في طرق روايته ـ: والصواب عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر عبدالله بن المسور مرسلاً عن النبي ﷺ. كذلك قاله الثوري. وعبدالله بن المسور بن عون بن جعفر بن أبي طالب هذا متروك. انظر العلل للدار قطني (٥/ ١٨٩-١٩٠) وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧٥) وقال بعد أن ذكر بعض طرقه : فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً والله أعلم، وقال الشيخ محمود شاكر: وأخطأ الحفاظ جداً ، فإن حديث أبي جعفر الهاشمي أحاديث كذاب وضاع لا تشد شيئاً ولا تحله. انظر تفسير ابن جرير بتحقيقه(١٢/ ٩٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور(٣/ ٣٥٤) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه . وقد جمع طرق هذا الحديث وفصَّل القول=

فشرح الصدر من أعظم أسباب الهدى، وتضييقه من أسباب الضلال، كما أن شرحه من أجل النعم، وتضييقه من أعظم النقم ، فالمؤمن مشروح الصدر منفسحة في هذه الدار على ما ناله من مكروهها ، وإذا قوي الإيمان وخالطت بشاشته القلوب، كان على مكارهها أشرح صدراً منه على شهواتها ومحابها. فإذا فارقها كان انفساح روحه والشرح الحاصل له بفراقها أعظم بكثير . كحال من خرج من سجن ضيق إلى فضاء واسع موافق / له ، ١١١ب فإنها سجن المؤمن، فإذا بعثه الله يوم القيامة، فرأى من انشراح صدره وسعته ما لا نسبة لما قبله إليه، فشرح الصدر كما أنه سبب الهداية، فهو أصل كل نعمة وأساس كل خير . وقد سأل كليم الرحمن موسى بن عمران ربه أن يشرح له صدره لما علم أنه لا يتمكن من تبليغ رسالته والقيام بأعبائها إلا إذا شرح له صدره[1] . وقد عدد سبحانه من نعمه على خاتم أنبيائه ورسله شرح

= فيها الشيخ الألباني في كتابه سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/ ٣٨٣-٣٨٧) ثم قال :

« وجملة القول: إن هذا الحديث ضعيف لا يطمئن القلب لثبوته عن رسول الله ﷺ ؛ لشدة ضعفه الذي في جميع طرقه ، وبعضها أشد ضعفاً من بعض ، فليس فيها ما ضعفه يسير يمكن أن ينجبر، خلافاً لما ذهب إليه ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧٥) ، وإن قلده في ذلك جماعة ممن ألفوا في التفسير كالشوكاني في فتح القدير (٢/ ١٥٤) ، وصديق حسن خان في فتح البيان (٣/ ٢٣٤) ، وجزم الآلوسي في روح المعاني (٨/ ٢٢) بنسبته إلى رسول الله ﷺ ، ومن قبله ابن القيم في الفوائد ص(٢٧) وعزاه للترمذي ! فجاء بوهم آخر . والعصمة لله وحده » اهـ .

قلت : وقد سبق بيان أن الترمذي ذكره في كتاب العلل .

(١) يشير إلى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ ﴾سورة طه آية ٢٥ ، ٢٦ .

صدره لـه[١] . وأخبر عن أتباعه أنه شرح صدورهم للإسلام[٢] .

فإن قلت : فما الأسباب التي تشرح الصدر والتي تضيقه ؟

قلت: السبب الذي يشرح الصدر : النور الذي يقذفه الله سبحانه فيه، فإذا دخله ذلك النور (اتسع بحسب قوة النور وضعفه، وإذا فقد النور)[٣] أظلم وتضايق .

فإن قلت : فهل (يمكن)[٤] اكتساب هذا النور أم هو وهبي؟

قلت : هو وهبي وكسبي ، واكتسابه أيضاً مجرد موهبة من الله تعالى، فالأمر كله لله، والحمد كله له، والخير كله بيده، وليس مع العبد من نفسه شيء البتة، بل الله واهب الأسباب ومسبباتها، وجاعلها أسباباً، ومانحها من يشاء، ومانعها من يشاء ، فإذا أراد بعبده خيراً وفقه لاستفراغ وسعه ، وبذل جهده في الرغبة والرهبة إليه، فإنها مادتا التوفيق، فبقدر قيام الرغبة والرهبة في القلب يحصل التوفيق .

فإن قلت : فالرغبة والرهبة بيده لا بيد العبد .

قلت : نعم والله، وهما مجرد فضله ومنته، وإنما يجعلهما في المحل الذي يليق بهما ويحبسهما عمن (لا يصلح)[٥] .

فإن قلت : فما ذنب من لا يصلح ؟

---

(١) يشير إلى قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ سورة الشرح آية ١ .

(٢) يشير إلى قوله تعالى :﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ الزمر آية ٢٢ .

(٣) ما بين القوسين ساقط من د .

(٤) في د ، يمكنه .

(٥) في ع ، د ، س : لا يصلح لهما .

قلت : (أكبر)[١] ذنوبه أنه لا يصلح، لأن (عدم)[٢] صلاحيته بما اختاره لنفسه وآثره وأحبه من الضلال والغي على بصيرة من أمره، فآثر هواه على حق ربه ومرضاته، واستحب العمى على الهدى ، وكان كفر المنعم عليه (بصرف)[٣] النعم وجحد إلهيته والشرك به، والسعي في مساخطه أحب إليه ١١٢أ من شكره / وتوحيده والسعي في مرضاته، فهذا من عدم صلاحيته لتوفيق خالقه ومالكه، وأي ذنب فوق هذا ؟ فإذا أمسك الحكم العدل توفيقه عمن هذا شأنه، كان قد عدل فيه وانسدت عليه أبواب الهداية وطرق الرشاد، فأظلم قلبه، فضاق عن دخول الإسلام والإيمان فيه، فلو جاءته كل آية لم تزده إلا ضلالاً وكفراً. وإذا تأمل من شرح الله صدره للإسلام والإيمان هذه الآية وما تضمنته من أسرار التوحيد والقدر والعدل وعظمة شأن الربوبية صار لقلبه عبودية أخرى ومعرفة خاصة، وعلم أنه عبد من كل وجه وبكل اعتبار، وأن الرب تعالى رب كل شيء ومليكه من الأعيان والصفات والأفعال ، والأمر كله بيده، والحمد كله له ، وأزمة الأمور بيده، ومرجعها كلها إليه.

ولهذه الآية شأن فوق عقولنا، وأجل من أفهامنا، وأعظم مما قال فيها المتكلمون، الذين ظلموها معناها وأنفسهم كانوا يظلمون. تالله لقد غلظ عنها حجابهم، وكثفت عنها أفهامهم، ومنعتهم الوصول إلى المراد بها أصولهم التي أصلوها وقواعدهم التي أسسوها، فإنها تضمنت إثبات التوحيد والعدل الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، (لا التوحيد)[٤] والعدل الذي

(١) في ع ، د ، س : أكثر .
(٢) ساقطة من ع ، د ، س .
(٣) في م ، ع ، د ، س : بصنوف .
(٤) ساقطة من ع ، س .

يقوله معطلو الصفات ونفاة القدر[١] .

وتضمنت إثبات الحكمة والقدرة ، والشرع والقدر، والسبب والحكم، والذنب والعقوبة ، ففتحت للقلب الصحيح باباً واسعاً من معرفة الرب تعالى بأسمائه وصفات كماله، ونعوت جلاله، وحكمته في شرعه وقدره ، وعدله في عقابه، وفضله في (ثوابه)[٢] وتضمنت كمال توحيده (في)[٣] (ربوبيته)[٤] وقيوميته. وإلهيته، وأن مصادر الأمور كلها عن محض إرادته ومردها إلى كمال حكمته ، وأن (المهدي)[٥] من خصه بهدايته وشرح صدره لدينه وشريعته ، وأن الضال من / جعل صدره ضيقاً حرجاً عن معرفته ١١٢ب ومحبته كأنما يصعد في السماء، وليس ذلك في قدرته، وأن ذلك عدل (منه)[٦] في عقوبته لمن لم يقدره حق قدره وجحد كمال ربوبيته وكفر بنعمته وآثر عبادة الشيطان على عبوديته، فسد عليه باب توفيقه وهدايته، وفتح عليه أبواب غيه وضلالته، فضاق صدره، وقسا قلبه، وتعطلت من عبودية ربها وجوارحه، وامتلأت بالظلمة جوانحه، والذنب له حيث أعرض عن الإيمان واستبدل به الكفر والفسوق والعصيان، ورضي بموالاة الشيطان، وهانت عليه معاداة الرحمن، لا يحدث نفسه بالرجوع إلى مولاه، ولا (يعزم)[٧] يوماً عن إقلاعه عن هواه، وقد ضاد الله في أمره بحب ما يبغضه وببغض ما يحبه،

---

(١) هم المعتزلة وقد سبق التعريف بهم .

(٢) في ت : براءته .

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

(٤) في ت : ديمومته .

(٥) في م : المهتدي .

(٦) ساقطة من ع ، د ، س .

(٧) في م ، يقوم .

ويوالي من يعاديه ، ويعادي من يواليه، ويغضب إذا رضي الرب، ويرضى إذا غضب . هذا وهو يتقلب في إحسانه، ويسكن في داره (يغتذي)[١] برزقه، ويتقوى على معاصيه بنعمه، فمن أعدل منه سبحانه عما يصفه به الجاهلون والظالمون إذا جعل (الرجس) على أمثال هذا من الذين لا يؤمنون .

فصل

إذا شرح الله صدر عبده بنوره الذي يقذفه في قلبه، أراه في ضوء ذلك النور حقائق الأسماء والصفات التي تصل (إليها)[٢] معرفة العبد، إذ لا يمكن أن يعرفها العبد على ما هي عليه في نفس الأمر ، وأراه في ضوء ذلك النور حقائق الإيمان وحقائق العبودية وما يصححها وما يفسدها ، (وتفاوت)[٣] (الناس في)[٤] معرفة الأسماء والصفات والإيمان والإخلاص وأحكام العبودية بحسب تفاوتهم في هذا النور. قال تعالى : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[٥] وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾[٦] . / ١١٢ أ

فيكشف لقلب المؤمن في ضوء ذلك النور عن حقيقة المثل الأعلى مستوياً على عرش الإيمان في قلب العبد المؤمن، فيشهد بقلبه رباً عظيماً قاهراً قادراً

---

(١) في د ، س : ويتغذى .

(٢) في د ، س : فيها .

(٣) في د ، وتفاوتت .

(٤) ساقطة من د ، س .

(٥) سورة الأنعام آية ١٢٢ .

(٦) سورة الحديد آية ٢٨ .

أكبر من كل شيء في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله. السماوات السبع قبضة إحدى يديه (والأرضون)[(١)] السبع قبضة اليد الأخرى، فيمسك السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، ثم يهزهن ثم يقول: أنا الملك[(٢)].

---

(١) في م: والأرضين.

(٢) قول المؤلف رحمه الله تعالى: يمسك السماوات على إصبع ...إلخ. مقتبس من الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد (أو يا أبا القاسم)! إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال الحبر، تصديقاً له، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سورة الزمر آية ٦٧ (هذا لفظ مسلم). والحديث رواه البخاري (٦/ ٣٣) ك التفسير ـ تفسير سورة الزمر ـ باب قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾. وفي كتاب التوحيد (٨/ ١٧٤) باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ وفي (٨/ ١٨٧) باب قول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾. وفي (٨/ ٢٠٢) باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. ومسلم (٤/ ٢١٤٧-٢١٤٨) ك صفات المنافقين وأحكامهم ـ كتاب صفة القيامة والجنة والنار. والترمذي (٥/ ٣٤٥-٣٤٦) ك التفسير، تفسير سورة الزمر. والنسائي في سننه الكبرى ـ كتاب التفسير (٢/ ٢٣٦-٢٣٨) تفسير سورة الزمر ـ باب قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾. وكتاب النعوت كما عزاه إليه المزي في تحفة الأشراف(٧/ ٩٢) والإمام أحمد في مسنده (١/ ٤٢٩،٤٥٧). وابن خزيمة في التوحيد (١/ ١٨٠-١٨١). وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٣٨-٢٣٩). والبيهقي في الأسماء والصفات ص (٤٢١-٤٢٣) باب ما ذكر في الأصابع. وابن منده في الرد على الجهمية ص(٨٣-٨٥). والآجري في الشريعة ص(٣١٨) وعبد الله ابن الإمام أحمد في السنة (١/ ٢٦٤).=

فالسماوات السبع في كفه كخردلة في كف العبد [١] ، ويحيط ولا يحاط به، ويحصر خلقه ولا يحصرونه ، ويدركهم ولا يدركونه، لو أن الناس من لدن آدم إلى آخر الخلق قاموا صفاً واحداً ما أحاطوا به سبحانه، ثم يشهده في علمه فوق كل عليم، وفي قدرته فوق كل قدير، وفي جوده فوق كل جواد، وفي رحمته فوق كل رحيم، وفي جماله فوق كل جميل، حتى لو كان جمال الخلائق كلهم على شخص واحد، منهم ثم أعطي الخلق كلهم مثل ذلك الجمال، لكان نسبته إلى جمال الرب تبارك وتعالى دون نسبة سراج ضعيف إلى ضوء الشمس. ولو اجتمعت قوى الخلائق على شخص واحد منهم، ثم أعطي كل واحد منهم مثل تلك القوة، لكانت نسبتها إلى قوته سبحانه دون نسبة قوة البعوض إلى (الأسد)[٢] . ولو كان جودهم على رجل واحد وكل الخلائق على ذلك الجود، لكانت نسبته إلى جوده دون نسبة قطرة إلى البحر. وكذلك علم الخلائق إذا نسب إلى علمه كان كنقرة عصفور في البحر.

= وابن جرير الطبري في تفسيره (٢٤/٢٦) تفسير سورة الزمر. والدارقطني في كتاب الصفات ص(٣٨-٤٥) تحقيق د. علي الفقيهي، ط الأولى، ١٤٠٣هـ ، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٢٤٦) وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

(١) قول المؤلف رحمه الله تعالى : فالسماوات السبع في كفة كخردلة في كف العبد. مقتبس من قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الذي أخرجه ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره (٢٤/ ٢٥) ونصه : ما السماوات السبع، والأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم . وقد ذكر المؤلف هذا القول وصرح بنسبته إلى ابن عباس في كتابه الصواعق المرسلة (١/ ٢٨٢) .

(٢) في ع ، د ، س : حملة العرش .

(وهكذا)[١] سائر صفاته؛ كحياته وسمعه وبصره وإرادته، فلو فرض البحر المحيط بالأرض مداداً تحيط به سبع أبحر، وجميع أشجار الأرض شيئاً بعد شيء أقلاماً، لفني ذلك المداد والأقلام ولا تفنى كلماته ولا تنفد[٢]، فهو أكبر / في علمه من كل عالم ، وفي قدرته من كل قادر، وفي جوده من كل ١١٣ب جواد. وفي غناه من كل غني، وفي علوه من كل عال، وفي رحمته من كل رحيم. استوى على عرشه واستولى على خلقه، منفرد بتدبير مملكته، فلا قبض ولا بسط (ولا عطاء)[٣] ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا سعادة ولا شقاوة، ولا موت ولا حياة، ولا نفع ولا ضر إلا بيده، ولا مالك غيره ، ولا مدبر سواه، ولا يستقل أحد بملك مثقال ذرة في السماوات والأرض، (ولا يشركه)[٤] في ملكها. ولا يحتاج إلى وزير ولا ظهير ولا معين ، (ولا يغيب)[٥] فيخلفه غيره، (ولا يعي)[٦] فيعينه سواه. ولا يتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه لمن شاء فيمن شاء.

(فهذا)[٧] أول مشاهد المعرفة، ثم يترقى منه إلى مشهد (آخر)[٨] فوقه لا

---

(١) في ع ، د ، س : كذلك .

(٢) هذه العبارة مقتبسة من معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ سورة لقمان آية ٢٧.

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

(٤) في ع ، د ، س : ولا له شركة .

(٥) في م ، ت : ولا مغيث .

(٦) في م ، ت : ولا معين .

(٧) ساقطة من ع ، س : فهو .

(٨) ساقطة من ع ، د ، س .

يتم (الإيمان)[١] إلا به، وهو مشهد الإلهية، فيشهده سبحانه متجلياً في (كلامه)[٢] بأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وثوابه وعقابه، (وعدله في عقابه)[٣] وفضله في ثوابه، فيشهد رباً قيوماً متكلماً آمراً ناهياً، يحب ويبغض ، ويرضى ويغضب، قد أرسل رسله، وأنزل كتبه، وأقام على عباده (حجته)[٤] البالغة، وأتم عليهم نعمته السابغة، يهدي من يشاء (نعمة منه)[٥] وفضلاً، ويضل من يشاء حكمة منه وعدلاً، (ينزل إليهم أوامره وتعرض عليه أعمالهم . لم يخلقهم عبثاً، ولم يتركهم سدى، بل أمره)[٦] جار عليهم في حركاتهم وسكناتهم وظواهرهم وبواطنهم، فلله عليهم حكم وأمر في كل تحريكة وتسكينة، ولحظة ولفظة ، وينكشف له في (هذا النور)[٧] عدله وحكمته، ورحمته ولطفه، وإحسانه وبره، (في)[٨] شرعه وأحكامه، وأنها أحكام رب رحيم محسن لطيف حكيم، قد بهرت (حكمته)[٩] العقول، وأقرت بها الفطر، وشهدت لمنزلها بالوحدانية ولمن جاء بها بالرسالة والنبوة، فينكشف له في ضوء ذلك النور إثبات صفات الكمال وتنزيهه سبحانه عن

---

(١) ساقطة من د ، س .

(٢) في د ، س : كماله .

(٣) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

(٤) في ع ، د ، س : الحجة .

(٥) في ع ، د ، س : منه نعمة .

(٦) ما بين القوسين ساقط من ت .

(٧) في م : ضوء هذا النور ، بزيادة (ضوء).

(٨) في م : و .

(٩) ساقطة من م .

(النقائص)[1] والمثال، وأن كل / كمال في الوجود فمعطيه وخالقه أحق به ١١١٤أ وأولى، وكل نقص وعيب فهو سبحانه منزه (عنه)[2] متعال عنه، وتنكشف له في ضوء هذا النور حقائق المعاد واليوم الآخر، وما أخبر به الرسول عنه حتى كأنه يشاهده عياناً وكأنه يخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأمره ونهيه ووعده ووعيده إخبار من كأنه قد رأى وعاين وشاهد ما أخبر به.

فمن أراد الله سبحانه هدايته شرح صدره لهذا، فاتسع له وانفسح، ومن أراد ضلالته جعل صدره من ذلك ضيق وحرج لا يجد فيه مسلكاً ولا منفذاً، والله الموفق المعين.

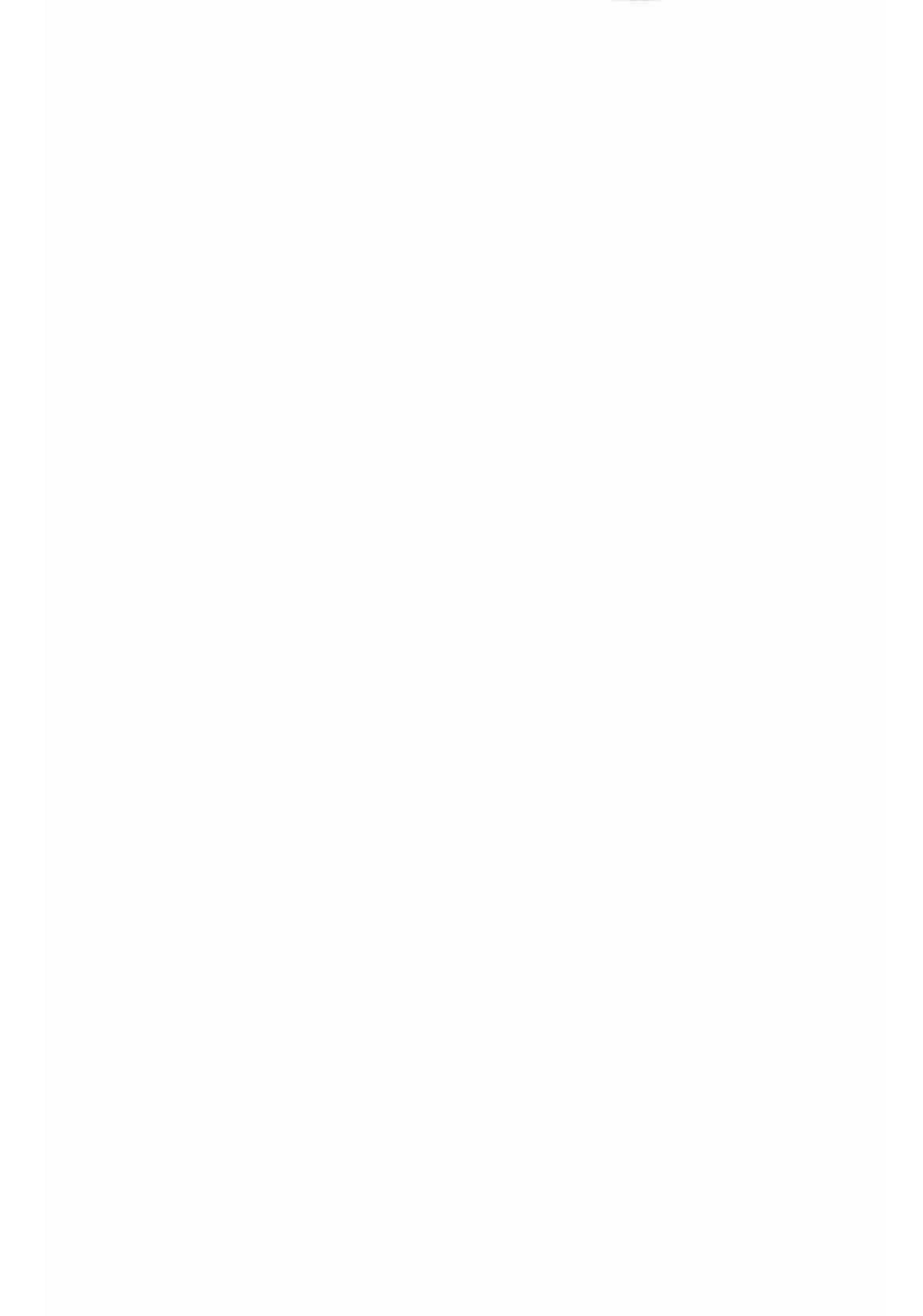
وهذا الباب يكفي اللبيب في معرفة القدر والحكمة، ويطلعه على العدل والتوحيد اللذين تضمنهما قوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[3] .

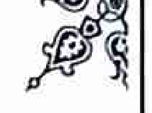


(١) في د ، س : النقص .

(٢) ساقطة من ع ، د ، س .

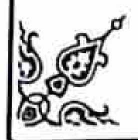
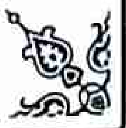
(٣) سورة آل عمران آية ١٨-١٩ .





الباب السادس عشر

ما جاء في السنة من تفرد الرب تعالى بخلق أعمال العباد كما هو منفرد بخلق ذواتهم وصفاتهم

الباب السادس عشر
(ما)[1] جاء في السنة (من)[2] تفرد الرب تعالى بخلق أعمال العباد كما هو منفرد بخلق ذواتهم وصفاتهم

قال البخاري في كتاب خلق أفعال العباد : حدثنا علي بن عبد الله[3] حدثنا مروان بن معاوية[4] حدثنا أبو مالك[5] عن ربعي بن حراش[6] عن حذيفة، قال: قال النبي ﷺ: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته». قال البخاري : وتلا بعضهم عند ذلك ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ[7] ﴾[8] .

---

(١) في ع ، س : فيما .

(٢) في م ، ت : في .

(٣) هو : علي بن عبد الله المديني . ثقة ثبت إمام. سبقت ترجمته في ص(٣٠٢) .

(٤) هو : مروان بن معاوية بن الحارث بن أسماء الفزاري، أبو عبد الله الكوفي ، نزيل مكة ثم دمشق، ثقة حافظ ، وكان يدلس أسماء الشيوخ، من الثامنة مات سنة ثلاث وتسعين ومائة. روى له الستة. تقريب التهذيب (٢/ ٢٣٩) وتهذيب التهذيب (١٠/ ٩٦) وسير أعلام النبلاء (٩/ ٥١) .

(٥) هو سعيد بن طارق أبو مالك الأشجعي الكوفي ، ثقة من الرابعة، مات في حدود الأربعين ومائة. روى له البخاري تعليقـاً، وروى له مسلم والأربعة. تقريب التهذيب (١/ ٢٨٧) وتهذيب التهذيب (٣/ ٤٧٢-٤٧٣) وسير أعلام النبلاء (٦/ ١٨٤) .

(٦) هو : ربعي بن حراش ـ بكسر المهملة وآخره معجمة ـ أبو مريم العبسي الكوفي ، ثقة عابد مخضرم ، من الثانية . مات سنة مائة . وقيل: غير ذلك . روى له الستة. تقريب التهذيب (١/ ٢٤٣). تهذيب التهذيب (٣/ ٢٣٦-٢٣٧). سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٥٩-٣٦٢).

(٧) سورة الصافات آية ٩٦ .

(٨) انظر كتاب خلق أفعال العباد ص(٣٩-٤٠) تخريج بدر البدر، نشر الدار السلفية بالكويت. والحديث رواه أيضاً : الحاكم في المستدرك : (١/ ٣١-٣٢) وقال : هذا =

حدثنا محمد[١] حدثنا أبو معاوية[٢] عن الأعمش[٣] عن شقيق[٤] عن حذيفة نحوه موقوفاً عليه[٥].

أما استشهاد بعضهم بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٦] بحمل (ما) على المصدر، أي خلقكم وأعمالكم، فالظاهر خلاف هذا وأنها موصولة، أي خلقكم وخلق الأصنام التي تعملونها، فهو يدل على خلق أعمالهم من جهة اللزوم، فإن الصنم اسم للآلة التي حل فيها العمل / ١١٤ب المخصوص، فإذا كان مخلوقاً لله كان خلقه متناولاً لمادته وصورته.

= حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: وهو كما قالا. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ١٨١) ورواه البيهقي في الأسماء والصفات ص(٤٣، ٤٩١) وفي كتاب القدر ص(٨٣) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٥٨). وقال الألباني: حديث صحيح.

(١) هو: محمد بن المثنى بن عبيد، العنزي - بفتح النون والزاي أبو موسى البصري، المعروف بالزمن، مشهور بكنيته وباسمه، ثقة ثبت، من العاشرة، وكان هو وبندار فرَسَي رهان، وماتا في سنة واحدة، روى له الستة، تقريب التهذيب (٢/ ٢٠٤) وتهذيب التهذيب (٩/ ٤٢٥-٤٢٧).

(٢) هو: محمد بن خازم - بمعجمتين - أبو معاوية الضرير الكوفي، عمي وهو صغير، ثقة من أحفظ الناس بحديث الأعمش، وقد يهم في حديث غيره، من كبار التاسعة، مات سنة خمس وتسعين ومائة، وله اثنتان وثمانون سنة، وقد رمي بالإرجاء. روى له الستة. تقريب التهذيب (٢/ ١٥٧) وتهذيب التهذيب (٩/ ١٣٧-١٣٩).

(٣) هو سليمان بن مهران، الأعمش، ثقة، سبقت ترجمته في ص(١٤١).

(٤) هو شقيق بن سلمة الأسدي، أبو وائل الكوفي، ثقة مخضرم، مات في خلافة عمر بن عبد العزيز، وله مائة سنة. تقريب التهذيب (١/ ٣٥٤) وتهذيب التهذيب (٤/ ٣٦١-٣٦٣) وسير أعلام النبلاء (٤/ ١٦١).

(٥) انظر كتاب خلق أفعال العباد ص(٤٠).

(٦) سورة الصافات آية ٩٦.

قال البخاري : وحدثنا عمرو بن محمد[١] حدثنا ابن عيينة[٢] عن عمرو[٣] عن طاوس[٤] عن ابن عمر : « كل شيء بقدر، حتى وضعك يدك على خدك »[٥] .

قال البخاري: وحدثني إسماعيل[٦] قال: حدثني مالك[٧] عن زياد بن سعد[٨]

---

(١) هو : عمرو بن محمد بن بكير الناقد، أبو عثمان البغدادي، نزيل الرقة، ثقة حافظ ، وهم في حديث ، من العاشرة، مات سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . روى له البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي. تقريب التهذيب(٢/ ٧٨) وتهذيب التهذيب (٨/ ٩٦-٩٧) .

(٢) هو : سفيان بن عيينه ، ثقة ، فقيه، سبقت ترجمته في ص(٥٦٥) .

(٣) هو : عمرو بن مسلم الجندي ـ بفتح الجيم والنون ـ اليماني ، صدوق له أوهام، من السادسة، روى له البخاري في خلق أفعال العباد، وروى له مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، تقريب التهذيب (٢/ ٧٩) وتهذيب التهذيب (٨/ ١٠٤-١٠٥)

(٤) هو : طاوس بن كيسان اليماني، أبو عبد الرحمن الحميري مولاهم الفارسي، يقال: اسمه ذكوان ، وطاووس لقبه، ثقة فقيه فاضل، من الثالثة، مات سنة ست ومائة، وقيل بعد ذلك ، روى له الستة. تقريب التهذيب (١/ ٣٧٧) وتهذيب التهذيب (٥/ ٨-١٠).

(٥) في كتاب خلق أفعال العباد ذكر هذا الأثر منسوباً إلى ابن عباس، وذكر قبله ـ بالسند نفسه ـ أثراً منسوباً إلى ابن عمر لم يذكره المؤلف هنا. انظر كتاب خلق أفعال العباد ص(٤١) .

(٦) هو : إسماعيل بن عبد الله بن أويس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي ، أبو عبد الله بن أبي أويس المدني، صدوق، أخطأ في أحاديث من حفظه، من العاشرة، مات سنة ست وعشرين ومائتين. روى له البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه . تقريب التهذيب (١/ ٧١) وتهذيب التهذيب (١/ ٣١٠-٣١٢).

(٧) هو : مالك بن أنس إمام دار الهجرة . سبقت ترجمته في ص (١٧٠) .

(٨) هو : زياد بن سعد بن عبد الرحمن الخراساني، نزيل مكة ثم اليمن، ثقة ثبت. قال ابن عيينه: كان أثبت أصحاب الزهري، من السادسة. روى له الستة . تقريب التهذيب (١/ ٢٦٨) وتهذيب التهذيب (٣/ ٣٦٩-٣٧٠) .

عن عمرو بن مسلم[١] عن طاووس[٢] قال : أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون كل شيء بقدر، حتى العجز[٣] والكيس[٤] .

رواه مسلم في صحيحه عن طاووس وقال : سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: « **كل شيء بقدر حتى العجز والكيس** » . قال البخاري : وقال ليث[٥] عن طاووس عن ابن عباس ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ

---

(١) سبقت ترجمته في الصفحة السابقة .

(٢) العجز : يحتمل أن يريد به عدم القدرة، وقيل : هو ترك ما يجب فعله بالتسويف به وتأخيره عن وقته، وقيل : ويحتمل أن يريد بذلك العجز والكيس في الطاعات، ويحتمل أن يريد به أمور الدين والدنيا، والكيس: بفتح الكاف ، ضد العجز، ومعناه الحذق في الأمور ، ويتناول أمور الدنيا والآخرة، انظر مشارق الأنوار للقاضي عياض(٢/ ٦٨) نشر المكتبة العتيقة بتونس ودار التراث بالقاهرة. وفتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٧٨) .

(٣) قوله : « حتى العجز والكيس » هذه زيادة لم أجدها عند البخاري في كتاب خلق أفعال العباد، ولا عند مسلم وغيره ممن خرجوا هذا الأثر . وهي موجودة في الحديث المرفوع الذي بعد هذا الأثر .

(٤) انظر كتاب خلق أفعال العباد (ص٤٠) . وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٥) ك القدر- باب كل شيء بقدر. ورواه أيضاً : الإمام مالك في الموطأ ص(٥٦١) ك القدر - باب النهي عن القول بالقدر. وهو المذكور بالسند. والإمام أحمد في المسند (٢/ ١١٠) . والفريابي في القدر ص(٣٢٦-٣٢٧) . والآجري في الشريعة ص(٢١٣) . وعبد الله ابن الإمام أحمد في السنة (٢/ ٤١٧) . واللالكائي في السنة (٤/ ٥٨٠) . والبيهقي في سننه (١٠/ ٢٠٥) ك (الشهادات - باب ما ترد به شهادة أهل الأهواء ، ورواه أيضاً في كتاب القدر ص(١٠٩). وفي كتاب الاعتقاد ص (١٣٥-١٣٦). والبغوي في شرح السنة (١/ ١٣٤).

(٥) هو ليث بن أبي سليم بن زنيم - بالزاي والنون مصغراً - واسم أبيه : أيمن ، وقيل: غير ذلك ، صدوق اختلط أخيراً ، ولم يتميز حديثه فترك ، من السادسة، مات سنة ثمان وأربعين ومائة . روى له البخاري تعليقاً . وروى له مسلم والأربعة. تقريب التهذيب (٢/ ١٣٨) وتهذيب التهذيب (٨/ ٤٦٥-٤٦٨) .

بِقَدَرٍ﴾[1] حتى العجز والكيس[2] .

قال البخاري: سمعت عبيدالله بن سعيد[3] يقول سمعت يحيى ابن سعيد[4] يقول: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : أفعال العباد مخلوقة. قال البخاري: حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة[5] .

قال جابر بن عبد الله: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : « إذا هم أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فيسره لي ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به ». قال: ويسمي حاجته، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[6] .

---

(١) سورة القمر آية ٤٩ .

(٢) رواه الآجري في الشريعة ص(٢١٣) موقوفاً على طاوس بلفظ: العجز والكيس من القدر . ورواه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١١٧-١١٨) من طريق آخر عن ابن عباس .

(٣) هو عبيد الله بن سعيد بن يحيى اليشكري ، أبو قدامة السرخسي، نزيل نيسابور ، ثقة مأمون ، من العاشرة، مات سنة إحدى وأربعين ومائتين. روى له البخاري ومسلم، والنسائي، تقريب التهذيب (١/ ٥٣٣) وتهذيب التهذيب (٧/ ١٦-١٧) .

(٤) هو : يحيى بن سعيد بن فروخ ـ بفتح الفاء وتشديد الراء المضمومة ـ بسكون الواو ثم المعجمة ـ التميمي، أبو سعيد القطان البصري ، ثقة متقن حافظ ، إمام قدوة من كبار التاسعة. مات سنة ثمان وتسعين ومائة . روى له الستة. تقريب التهذيب (٢/ ٣٤٨) وتهذيب التهذيب (١١-٢١٦-٢٢٠) . وسير أعلام النبلاء (٩/ ١٧٥) .

(٥) انظر كتاب خلق أفعال العباد ص(٤١-٤٢) .

(٦) سبق تخريجه في ص (٣٤٦) .

فقوله : « **إذا هم أحدكم بالأمر** » صريح في أنه الفعل الاختياري المتعلق بإرادة العبد. وإذا علم ذلك، فقوله : « **أستقدرك بقدرتك** » أي: أسألك أن تقدرني على فعله بقدرتك .

ومعلوم أنه لم يسأل القدرة المصححة التي هي سلامة الأعضاء وصحة البنية، وإنما سأل القدرة التي توجب الفعل، فعلم أنها مقدورة لله ومخلوقة له، وأكد ذلك بقوله: « **فإنك تقدر ولا أقدر** » (أي)[1] تقدر أن تجعلني قادراً فاعلاً ولا أقدر أن أجعل نفسي كذلك.

وكذلك قولـه: « **تعلم ولا أعلم** » أي: حقيقة العلم بعواقب الأمور ومآلها، والنافع منها والضار عندك وليس عندي.

وقولـه : « **يسره لي أو اصرفه عني** » فإنه طلب من الله تيسيره « إن كان له فيه مصلحة وصرفه عنه إن كان عليه فيه مفسدة. وهذا التيسير»[2] والصرف متضمن إلقاء داعية الفعل في القلب، أو إلقاء داعية الترك فيه، ومتى حصلت داعية الفعل حصل الفعل، وداعية الترك امتنع الفعل .

وعند القدرية ترجيح فاعلية العبد على تركه منه ليس للرب فيه صنع ولا تأثير ، فطلب هذا التيسير منه لا معنى له عندهم، فإن تيسير الأسباب التي لا قدرة للعبد عليها موجود ولم يسأله العبد.

وقوله: « **ثم رضني به** » يدل على أن حصول الرضا ـ وهو فعل اختيار من أفعال القلوب ـ أمر مقدور للرب تعالى ، وهو الذي (يلقيه في قلب عبده، فيجعله راضياً وعند القدرية هو الذي)[3] يجعل نفسه راضياً .

وقوله : « **فاصرفه عني واصرفني عنه**» صريح في أنه سبحانه وتعالى هو

---

(١) ساقطة من د .

(٢) ما بين القوسين ساقط من م .

(٣) ما بين القوسين ساقط من د ، س .

الذي يصرف عبده عن فعله الاختياري إذا شاء صرفه عنه، كما قال تعالى في حق يوسف الصديق: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾[1] وصرف السوء والفحشاء هو صرف دواعي القلب وميله إليهما فينصرفان عنه بصرف دواعيهما.

وقوله: «**اقدر لي الخير حيث كان**» يعم الخير المقدور للعبد من طاعته وغير المقدور له، فعلم أن فعل / العبد للطاعة والخير إما مقدور لله إن لم يقدره ١١٥ب الله للعبد لم يقع من العبد. ففي هذا الحديث الشفاء في مسألة القدر.

وأمر النبي ﷺ الداعي به أن يقدم بين يدي هذا الدعاء ركعتين عبودية منه بين يدي نجواه، وأن يكونا من غير الفريضة، ليتجرد فعلهما لهذا الغرض المطلوب .

ولما كان الفعل الاختياري متوقفاً على العلم والقدرة والإرادة لا يحصل إلا بها، توسل الداعي إلى الله بعلمه وقدرته وإرادته التي يؤتيه بها من فضله، وأكد هذا المعنى بتجرده وبراءته من ذلك، فقال: « **إنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر** » وأمر الداعي أن يعلق (التيسير والصرف بالشرط)[2] .

وهو علم الله سبحانه تحقيقاً للتفويض إليه واعترافاً بجهل العبد بعواقب الأمور كما اعترف بعجزه. ففي هذا الدعاء إعطاء العبودية حقها (وإعطاء الربوبية حقها)[3] . والله المستعان .

وفي الترمذي وغيره من حديث الحسن بن علي[4] قال: علمني رسول الله

(١) سورة يوسف آية ٢٤ .

(٢) في د ، س : التيسير بالخير والصرف بالشر .

(٣) ما بين القوسين ساقط من د ، س :

(٤) هو الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي، سبط رسول الله ﷺ ، وريحانته، وقد =

ﷺ كلمات أقولهن في الوتر : « **اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت وتعاليت** »[(١)].

فقوله : «**اهدني**» سؤال للهداية المطلقة التي لا يتخلف عنها الاهتداء .

وعند القدرية أن الرب ـ سبحانه وتعالى عن قولهم ـ لا يقدر على هذه الهداية، وإنما يقدر على هداية البيان والدلالة المشتركة بين المؤمنين والكفار .

وقوله : « **فيمن هديت** » فيه فوائد :

= صحبه وحفظ عنه، مات شهيداً بالسم، سنة تسع وأربعين ، وهو ابن سبع وأربعين ، وقيل : بل مات سنة خمسين، وقيل: بعدها. روى له الستة. تقريب التهذيب (١/ ١٦٨) وتهذيب التهذيب (٢/ ٢٩٥-٣٠١) وسير أعلام النبلاء (٣/ ٢٤٥) والاستيعاب (١/ ٣٦٩) والإصابة (١/ ٣٢٨) .

(١) انظر جامع الترمذي (٢/ ٣٢٨) أبواب الوتر ـ باب ما جاء في القنوت في الوتر. وقال: هذا حديث حسن ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث أبي الحوراء السعدي، واسمه (ربيعة بن شيبان) ولا نعرف عن النبي ﷺ في القنوت في الوتر شيئاً أحسن من هذا. وقال الألباني: إسناده صحيح. انظر مشكاة المصابيح (١/ ٣٩٨) بتحقيقه . ورواه أبو داود في سننه (٣/ ٢٤٨) ك قيام الليل وتطوع النهار ـ باب الدعاء في الوتر. وابن ماجه في سننه (١/ ٣٧٢) ك إقامة الصلاة والسنة فيها ـ باب ما جاء في القنوت في الوتر. والإمام أحمد في مسنده(١/ ١٩٩) وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح. وانظر المسند بتحقيقه (٣/ ١٦٧). وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١٥١-١٥٢) باب جماع أبواب الدعاء في القنوت. وأبو داود الطيالسي في مسنده (ص١٦٣) والحاكم في المستدرك (٣/ ١١٧-١١٨) . وابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٣٠٠) ك الصلوات ـ باب في قنوت الوتر من الدعاء. وابن حبان في صحيحه ، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣/ ٢٢٥) . والبغوي في شرح السنة (٣/ ١٢٩) باب الدعاء في القنوت .

أحدها : أنه سؤال له أن يدخله في جملة (المهتدين)[١] وزمرتهم ورفقتهم .

والثانية : توسل إليه بإحسانه وإنعامه ، أي (إنك)[٢] قد هديت من عبادك بشراً كثيراً فضلاً منك وإحساناً إليّ كما أحسنت إليهم . كما يقول الرجل للملك اجعلني من جملة من أغنيته وأعطيته / وأحسنت إليه . ١١١٦أ

الثالثة : أن ما حصل لأولئك من الهدى لم يكن منهم ولا بأنفسهم ، وإنما كان منك فأنت الذي هديتهم .

وقوله : « **وعافني فيمن عافيت** » إنما يسأل العافية المطلقة، وهي العافية من الكفر والفسوق والعصيان والغفلة والإعراض، وفعل ما لا يحبه، وترك ما يحبه، فهذا حقيقة العافية ، ولهذا ما سئل الرب سبحانه شيئاً أحب إليه من العافية، لأنها كلمة جامعة للتخلص من الشر كله وأسبابه .

وقوله: «**وتولني فيمن توليت**» سؤال للتولي الكامل ليس المراد به ما فعله بالكافرين من خلق القدرة وسلامة الآلة وبيان الطرق، فإن كان هذا هو ولايته للمؤمنين، فهو ولي الكفار كما ولي المؤمنين، وهو سبحانه يتولى أولياءه بأمور لا توجد في حق الكفار من توفيقهم وإلهامهم وجعلهم مهتدين مطعين.

ويدل عليه قوله : «**إنه لا يذل من واليت**» فإنه منصور عزيز غالب بسبب توليك له، وفي هذا تنبيه على أن من حصل له (ذل)[٣] في الناس فهو بنقصان ما فاته من تولي الله (له)[٤]، وإلا فمع الولاية الكاملة ينتفي الذل كله ولو سلط عليه بالأذى من في أقطارها، فهو العزيز غير الذليل .

---

(١) في ع ، د ، س : المهديين .

(٢) في ع ، : أي يا رب .

(٣) في د : ذلك .

(٤) ساقطة من ع ، د ، س .

وقوله : « **وقني شر ما قضيت** » يتضمن أن الشر بقضائه ، وأنه هو الذي يقي منه .

وفي المسند وغيره أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل : « **يا معاذ ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** »[1] .

وهذه أفعال اختيارية ، قد يسأل الله أن يعينه على فعلها . وهذا الطلب لا معنى له عند القدرية، فإن الإعانة عندهم الإقرار والتمكين وإزاحة الأعذار وسلامة الآلة، هذا حاصل للمسلم وللكافر أيضاً . والإعانة التي سألها أن يجعله ذاكراً (له)[2] (شاكراً)[3] محسناً لعبادته كما في حديث ابن عباس عنه ﷺ ١١٦ب في دعائه / المشهور : « **يا رب أعني ولا تعن علي ، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي ، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكاراً ولك ذكاراً، ولك رهاباً مطواعاً، ولك**

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد (٥/ ٢٤٤-٢٤٥، ٢٤٧) ورواه أبو داود في سننه (٤/ ٣٨٤) أبواب الوتر ـ باب في الاستغفار . والنسائي في سننه (٣/ ٥٣) ك السهو ـ باب الدعاء بعد الذكر. وفي كتاب عمل اليوم والليلة ص(١٨٧) وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٣٦٩) ك الصلاة ـ باب الأمر بمسألة الرب عز وجل في دبر الصلوات، والمعونة على ذكره وشكره وحسن عبادته والوصية بذلك. وابن حبان في صحيحه ، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٥/ ٣٦٤-٣٦٦) وابن السني في عمل اليوم والليلة ص(٣٣) . وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٤١) و(٥/ ١٣٠) والحاكم في المستدرك (١/ ٢٧٣) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي . ورواه أيضاً (٣/ ٢٧٣-٢٧٤) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . ورواه البيهقي في كتاب الدعوات الكبير (ص٦٨) . والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٦٠ ، ١١١، ١٢٥) .

(٢) ساقطة من ع ، د ، س .

(٣) ساقطة من د .

مخبتاً[1]، إليك أواهاً[2] منيباً ، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي[3]، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل[4] سخيمة[5] صدري». رواه الإمام أحمد في المسند (والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح[6])[7] وفيه أحد وعشرون دليلاً فتأملها[8] .

وفي الصحيحين أنه ﷺ كان يقول بعد انقضاء صلاته : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك[9] الجد »[10] وكان يقول

---

(١) مخبتاً : أي خاشعاً مطيعاً، والإخبات: الخشوع والتواضع ، النهاية لابن الأثير (٢/ ٤).

(٢) الأواه : المتأوه المتضرع، وقيل : هو الكثير البكاء، وقيل: الكثير الدعاء، النهاية لابن الأثير: (١/ ٨٢) .

(٣) حوبتي : من الحوب، وهو الإثم . انظر الأمالي لأبي علي القالي(٢/ ٢٦٣) نشر دار الكتاب العربي، بيروت .

(٤) اسلل : يقال : سل البعير وغيره في جوف الليل: إذا انتزعه من بين الإبل. النهاية لابن الأثير (٢/ ٣٩٢) .

(٥) السخيمة : الحقد ، انظر الأمالي لأبي علي القالي (٢/ ٢٦٣) .

(٦) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

(٧) سبق تخريجه في ص (٤٧٨) .

(٨) الأدلة التي أشار إليها المؤلف رحمه الله تأتي من اشتمال هذا الحديث على واحد وعشرين دعوة كلها تتضمن طلب فعل من الرب سبحانه ، عاماً أو خاصاً ، يجعل العبد فاعلاً لما يصلحه، تاركاً لما يفسده، مصروفاً عنه ما يضره ، ميسراً له ما ينفعه .

(٩) ولا ينفع ذا الجد منك الجد : أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه، وإنما ينفعه الإيمان والطاعة. النهاية لابن الأثير (١/ ٢٤٤) .

(١٠) هذا الحديث من رواية ورّاد ـ كاتب المغيرة ـ قال : كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إلي ما سمعت من رسول الله ﷺ فكتب إليه أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة: «لا =

ذلك الدعاء عند اعتداله من الركوع ، ففي هذا نفي الشريك عنه بكل اعتبار، وإثبات عموم الملك له بكل اعتبار، وإثبات عموم الحمد ، وإثبات عموم القدرة ، وأن الله سبحانه إذا أعطى عبداً فلا مانع له، وإذا منعه فلا معطي له .

وعند القدرية أن العبد قد يمنع من أعطى الله، ويعطي من منعه، فإنه يفعل باختياره عطاءً ومنعاً لم يشأه الله، ولم يجعله معطياً مانعاً، فيتصور أن يكون لمن أعطى مانع ولمن منع معط .

وفي الصحيح (عنه)[1] أن رجلاً سأله أن يدله على عمل يدخل به الجنة

= إله إلا الله وحده لا شريك له ...» إلخ . وأخرجه البخاري في المواضع التالية : (١/ ٢٠٥) ك الأذان ـ باب الذكر بعد الصلاة. و(٧/ ١٥١) ك الدعوات ـ باب الدعاء بعد الصلاة. و(٧/ ١٨٤) ك الرقاق ـ باب ما يكره من قيل وقال. (٧/ ٢١٤-٢١٥) كتاب القدر ـ باب لا مانع لما أعطى الله . ومسلم (١/ ٤١٤-٤١٥) ك المساجد ومواضيع الصلاة ـ باب استحباب الذكر بعد الصلاة ، وبيان صفته. وأبو داود : (٤/ ٣٧١) ك الصلاة ـ باب ما يقول الرجل إذا سلم . والنسائي في سننه (٣/ ٧٠-٧١) ك السهو ـ باب نوع آخر من القول بعد انقضاء الصلاة . وفي كتاب عمل اليوم والليلة ص(١٩٧) باب ما يقول عند انصرافه من الصلاة. والإمام أحمد في مسنده (٤/ ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٥) . وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٢٣١). والحميدي في مسنده (٢/ ٣٣٧). وابن خزيمة في صحيحه: (١/ ٣٦٥) . وأبو عوانة في مسنده (٢/ ٢٤٣-٢٤٤) . وعبد الرزاق في مصنفه(٢/ ٢٤٤) . وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٥/ ٣٤٥-٣٤٩). والبيهقي في سننه (٢/ ١٨٥). وفي كتاب الدعوات الكبير ص(٧٢). والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٣٨٦، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٥، ٣٩٦). والبغوي في شرح السنة (٣/ ٢٢٥).

(١) ساقطة من ع ، د ، س .

فقال: «إنه ليسير على من يسره الله عليه»[١] فدل على أن التيسير الصادر من قبله سبحانه يوجب اليسر في العمل، وعدم التيسير يستلزم عدم العمل، لأنه ملزومه والملزوم ينتفي لانتفاء لازمه. والتيسير بمعنى التمكين، وخلق الفعل، وإزاحة الأعذار، وسلامة الأعضاء حاصل للمؤمن والكافر. والتيسير المذكور في الحديث أمر آخر وراء ذلك، وبالله التوفيق والتيسير.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال لأبي موسى: «ألا أدلك على كنز من / كنوز الجنة، لا حول ولا قوة إلا بالله»[٢]. ١١٧أ

---

(١) هذا الحديث من رواية معاذ بن جبل، قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: «لقد سألتني عن عظيم، أنه ليسير على من يسره الله عليه ..» الخ. وهو حديث طويل. والحديث أخرجه: الترمذي (٥/ ١٣-١٤) ك الإيمان ـ باب ما جاء في حرمة الصلاة، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في الكبرى ـ ك التفسير(٢/ ١٥٧) تفسير سورة السجدة آية ١٦. وابن ماجه (٢/ ١٣١٤) ك الفتن ـ باب كف اللسان في الفتنة. والإمام أحمد (٥/ ٢٣١، ٢٣٧، ٢٤٥). وابن أبي شيبة في كتاب الإيمان ص(٢) وفي المصنف (١١/ ٧) والحاكم في المستدرك (٢/ ٧٦، ٤١٢) مختصراً ومطولاً، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٠) وفي شعب الإيمان (٣/ ٢١٣) و(٤/ ٢٤٧-٢٤٨). والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ١٠٣، ١٣٠-١٣١، ١٤٢-١٤٤، ١٤٧-١٤٨) وابن جرير في تفسيره (٢١/ ١٠٢) مختصراً. وذكره السيوطي في الدر المنثور(٦/ ٥٤٧) وزاد نسبته إلى ابن نصر في كتاب الصلاة وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) هذا الحديث رواه أبو موسى الأشعري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فرفعوا أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون قريباً مجيباً يسمع دعاءكم ويستجيب». ثم قال: «يا عبد الله بن قيس، أو يا أبا موسى، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله» لفظ الإمام أحمد في المسند). وأخرجه =

....

= البخاري في المواضع التالية: (٥/ ٧٥) ك المغازي ـ باب غزوة خيبر .(٧/ ١٦٢) ك الدعوات ـ باب الدعاء إذا علا عقبة . (٧/ ١٦٩) ك الدعوات ـ باب قول لا حول ولا قوة إلا بالله . (٧/ ٢١٣) ك القدر ـ باب لا حول ولا قوة إلا بالله. (٨/ ١٦٧-١٦٨) ك التوحيد باب ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾. وفي كتاب خلق أفعال العباد ص(٩١). ومسلم (٤/ ٢٠٧٦-٢٠٧٨) ك الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ـ باب استحباب خفض الصوت بالذكر. وأبو داود (٤/ ٣٨٦-٣٨٨٩ ك الصلاة ـ باب في الاستغفار. والترمذي (٥/ ٤٧٥-٤٧٦) ك الدعوات ـ باب ما جاء في فضل النعوت في ثلاثة مواضع ، و في ك السير في موضعين ، كما في تحفة الأشراف للمزي (٦/ ٤٢٦) وفي ك التفسير (٢/ ٢٠٠-٢٠١) تفسير سورة سبأ آية (٥٠) وفي كتاب عمل اليوم والليلة ص(٣٦٤-٣٦٥، ٣٧٢). وابن ماجه (٢/ ١٢٥٦) ك الأدب ـ باب ما جاء في (لا حول ولا قوة إلا بالله). والإمام أحمد (٤/ ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٧-٤١٨، ٤١٩). وابن أبي شيبة في المصنف(١٠/ ٣٧٦) مختصراً . وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان(٣/ ٨٤) . وعبد الرازق في المصنف(٥/ ١٥٩-١٦٠) مختصراً . وابن السني في عمل اليوم والليلة ص(١٣٨، ١٣٩) . وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧٤، ٢٧٥) مختصراً . والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ١٨٤). وفي كتاب الدعوات الكبير ص (١٠١) وفي الأسماء والصفات ص(٦٢) . وفي شعب الإيمان (١/ ٤٤٥) والبغوي في شرح السنة (٥/ ٦٦) .

وفي الباب عن أبي ذر، قال كنت أمشي خلف النبي ﷺ فقال: « يا أبا ذر ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟»... الحديث رواه النسائي في سننه الكبرى ـ ك التفسير (٢/ ٥) تفسير سورة الكهف آية ٣٩ . وفي عمل اليوم والليلة ص(١٤١) . وابن ماجة (٢/ ١٢٥٦) ك الأدب ـ باب ما جاء في (لا حول ولا قوة إلا بالله). والإمام أحمد(٥/ ١٤٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٧٩) . وابن حبان في صحيحه ، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣/ ١٠١ ـ ١٠٢) . والبغوي في شرح السنة (٥/ ٦٧-٦٨) . الحميدي في مسنده (١/ ٧٢) . والطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١٦٣-١٦٤) .

وقد أجمع المسلمون على هذه الكلمة وتلقيها بالقبول، وهي شافية في إثبات القدر وإبطال قول القدرية. وفي بعض الحديث: «**إذا قالها العبد قال الله: أسلم عبدي واستسلم**»[1] وفي بعضه «**فوض إلي عبدي**»[2] قال بعض

= وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ...**» رواه الترمذي (٥/ ٥٤١) ك الدعوات ـ باب فضل لا حول ولا قوة إلا بالله. وقال: ليس إسناده بمتصل، مكحول لم يسمع من أبي هريرة. والحاكم في المستدرك(١/ ٥١٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه هكذا. ووافقه الذهبي. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٥٠١): وإسناده قوي. والنسائي في عمل اليوم والليلة ص(١٤٠-١٤١، ٢٩٥). والإمام أحمد (٢/ ٢٩٨، ٣٣٥، ٥٢٠). وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، انظر المسند بتحقيقه (١٥/ ١١٥). وإسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٢٨٠) تحقيق د. عبد الغفور البلوشي، ط الأولى ١٤١٢هـ توزيع مكتبة الإيمان بالمدينة المنورة. وعبدالرزاق في مصنفه (١١/ ٢٨٣) مطولاً. والبيهقي في كتاب الدعوات الكبير ص(١٠١) والطيالسي في مسنده (ص٣٢٢).

وعن معاذ رضي الله عنه رواه البيهقي في كتاب الدعوات الكبير ص(١٠١) والطيالسي في مسنده (ص٣٢٢). والنسائي في عمل اليوم والليلة ص(٢٩٥). والإمام أحمد (٥/ ٢٤٤). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٩٧) وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح غير عطاء بن السائب. وقد حدث عنه حماد بن سلمة قبل الاختلاط.

وعن أبي أيوب الأنصاري عند الطبراني في المعجم الأوسط(٢/ ٥٦٢) انظر المطالب العالية (٣/ ١١٣، ٢٦١، ٢٦٢) ومجمع الزوائد (١٠/ ٩٧ – ٩٩). وفتح الباري (١١/ ٥٠١).

(١) وردت هذه الزيادة في رواية المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه (٢/ ٢٩٨، ٣٣٥، ٥٢٠). ورواية إسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٢٨٠). وعند البزار، كما في كشف الأستار (٤/ ١٥). وعند البيهقي في كتاب الدعوات الكبير ص(١٠١). وذكرها السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٩٢) ولم ينسبها إلى غير الإمام أحمد.

(٢) لم أعثر على هذه اللفظة فيما رجعت إليه من كتب التخريج.

(المثبتين)[١] للقدر: لما كانت القدرة بالنسبة إلى الفعل وإلى (الترك)[٢] على السوية، وما دام الأمر كذلك، امتنع صدور الفعل، فإذا رجح جانب الفعل على الترك بحصول الدواعي وإزالة الصوارف حصل الفعل، وهذه القوة هي المشار إليها بقولنا: (لا حول ولا قوة إلا بالله)[٣]. وشأن الكلمة أعظم مما قال، فإن العالم العلوي والسفلي (في)[٤] تحول من حال، وذلك التحول لا يقع إلا بقوة يقع بها التحول، فكذلك الحول، وتلك القوة (عليه)[٥] بالله وحده، ليست بالتحول، فيدخل في هذا كل حركة في العالم العلوي والسفلي، وكل قوة على تلك الحركة (سواء كانت الحركة)[٦] قسرية أو إرادية أو طبيعية، وسواء كانت من الوسط أو إلى الوسط أو على الوسط، وسواء كانت في الكم[٧] أو (في)[٨] الكيف[٩] أو في الأين[١٠]، وحركة الطبيعة، وحركة الحيوان، وحركة الفلك، وحركة النفس والقلب، والقوة على هذه الحركات

---

(١) في م ن ع ، د ، س : المتسببين .

(٢) في د ، س : الترك بحصول الدواعي .

(٣) في ع ، د ، س : زيادة (العلي العظيم) .

(٤) في ع ، د ، س : له .

(٥) في د ، س : قائمة .

(٦) ما بين القوسين ساقط من د .

(٧) الكم عند أهل الكلام هو العرض الذي لا يقبل القسمة لذاته . انظر المواقف للإيجي ص(٩٧) والمحصل للرازي ص(٢١٧-٢١٨) .

(٨) ساقطة من ع ، د ، س .

(٩) الكيف عند أهل الكلام هو : العرض الذي لا يقبل القسمة والنسبة لذاته . انظر المواقف ص(٩٧) . والمحصل ص (٢١٨)

(١٠) الأين عند أهل الكلام هو : حصول الجسم في المكان، أي الحيز الذي يخصه ، انظر المواقف ص(٢٩٧) والمحصل (ص٢١٧) .

التي هي حول، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ولما كان الكنز هو المال النفيس المجتمع الذي يخفى على أكثر الناس، وكان هذا شأن هذه الكلمة ، كانت كنزاً من كنوز الجنة، وأوتيها النبي ﷺ من كنز تحت العرش. وكأن قائلها أسلم واستسلم لمن أزمة الأمور بيديه وفوض أمره إليه.

وفي المسند والسنن عن (ابن)[1] الديلمي، قال: أتيت أبي بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي، فقال: إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم / ولو أنفقت مثل أحد ذهباً ١١٧ب ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على ذلك لكنت من أهل النار. قال: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت فكل منهم حدثني بمثل ذلك عن رسول الله ﷺ . وهذا الحديث حديث صحيح ، رواه الحاكم في صحيحه[2] وله شأن عظيم ، وهو دال على أن من تكلم به أعرف الخلق بالله، وأعظمهم له توحيداً ، وأكثرهم له تعظيماً ، وفيه الشفاء التام في باب العدل والتوحيد، فإنه لا يزال يجول في نفوس كثير من الناس كيف يجتمع القضاء والقدر ، والأمر والنهي ، وكيف يجتمع العدل والعقاب على المقضي المقدر الذي لا للعبد من فعله .

ثم سلك كل طائفة في هذا المقام وادياً وطريقاً ، فسلكت الجبرية وادي الجبر وطريق المشيئة المحضة (التي)[3] ترجح مثلاً على مثل من غير اعتبار علة

---

(١) في ع ، د ، س : أبي . والصواب ما أثبت . انظر ترجمته في ص (١٥١) .

(٢) سبق تخريجه في ص(٤٨٦) . وقد ذكرت في ذلك الموضع أني لم أعثر عليه في المستدرك للحاكم .

(٣) في ع ، د ، س : الذي .

ولا غاية ولا حكمة .

قالوا : وكل ممكن عدل، والظلم هو الممتنع لذاته، فلو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لكان متصرفاً في ملكه، والظلم : تصرف القادر في غير ملكه، وذلك مستحيل عليه سبحانه . قالوا: ولما كان الأمر راجعاً إلى محض المشيئة لم تكن الأعمال سبباً للنجاة ، فكانت رحمته للعباد هي المستقلة بنجاتهم (لا أعمالهم)[١]، فكانت رحمته خيراً من أعمالهم[٢] . وهؤلاء راعوا جانب الملك وعطلوا جانب الحمد، والله سبحانه له الملك وله الحمد.

وسلكت القدرية وادي العدل والحكمة ، ولم يوفوه حقه، وعطلوا جانب التوحيد، (والملك)[٣] وحاروا في هذا الحديث ولم يدروا ما وجهه . وربما قابله كثير منهم بالتكذيب والرد له، وأن الرسول ﷺ لم يقل ذلك .

قالوا : وأي ظلم يكون أعظم من تعذيب من استنفد أوقات عمره كلها، واستفرد قواه في طاعته، وفعل ما يحبه ولم يعصه طرفة عين، وكان يعمل بأمره دائماً؟ فكيف يقول الرسول ﷺ: إن تعذيب هذا يكون عدلاً لا ظلماً؟ قالوا: ولا يقال إن حقه عليهم ، وما ينبغي له أعظم من طاعتهم، فلا تقع تلك الطاعات في مقابلة نعمه وحقوقه فلو عذبهم لعذبهم بحقه عليهم، لأنهم إذا فعلوا مقدورهم من طاعته لم يكلفوا بغيره، فكيف يعذبون على ترك ما لا قدرة لهم عليه ؟ وهل ذلك إلا بمنزلة تعذيبهم على كونهم لم يخلقوا السماوات والأرض، ونحو ذلك مما لا يدخل تحت مقدورهم ؟ .

قالوا : فلا وجه لهذا الحدث إلا رده أو تأويله وحمله على معنى يصح،

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س .

(٢) انظر المواقف ص(٣١٤، ٣١٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨) .

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

وهو أنه لو أراد تعذيبهم لجعلهم أمة واحدة على الكفر ، فلو عذبهم في هذه الحال لكان غير ظالم لهم ، وهو لم يقل: لو عذبهم مع كونهم مطيعين له عابدين له لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ثم أخبر أنه لو عمهم بالرحمة لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم، ثم أخبر أنه لا يقبل من العبد عمل حتى يؤمن بالقدر، والقدر هو علم الله بالكائنات وحكمه فيها، ووقفت طائفة أخرى في وادي الحيرة بين القدر والأمر، والثواب والعقاب، فتارة يغلب عليهم شهود (القدر)[١] فيغيبون به عن (الأمر)[٢]، (وتارة يغلب عليهم شهود الأمر، فيغيبون (به)[٣] عن القدر)[٤] وتارة يبقون في حيرة وعمى. وهذا كله إنما سببه الأصول الفاسدة والقواعد الباطلة التي بنوا عليها . ولو جمعوا بين الملك والحمد، والربوبية والإلهية، والحكمة والقدرة، وأثبتوا له الكمال المطلق، ووصفوه بالقدرة التامة الشاملة، والمشيئة العامة النافذة التي لا يوجد كائن إلا بعد وجودها والحكمة البالغة التي ظهرت في كل موجود لعلموا حقيقة الأمر، وزالت عنهم الحيرة، ودخلوا إلى الله سبحانه من باب أوسع من السماوات / السبع، وعرفوا أنه لا يليق بكماله المقدس إلا ما أخبر به عن نفسه على ألسنة رسله، وأن ما خالفه ظنون كاذبة وأوهام تولدت (من)[٥] بين أفكار باطلة وآراء مظلمة . ١١٨ب

فنقول، وبالله التوفيق، وهو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به، تبارك اسمه وتعالى جده، ولا إله غيره، هو المنعم على الحقيقة

(١) في ع ، الأمر .

(٢) في ع : القدر .

(٣) ساقطة من د ، س .

(٤) ما بين القوسين ساقطة من ع .

(٥) ساقطة من ع ، د ، س .

بصنوف النعم التي لا يحصيها أهل سماواته وأرضه، فإيجادهم نعمة منه ، وجعلهم أحياء ناطقين نعمة منه، وإعطاؤهم الأسماع والأبصار والعقول نعمة منه، وإدرار الأرزاق عليهم على اختلاف أنواعها وأصنافها نعمة منه، وتعريفهم نفسه بأسمائه وصفاته وأفعاله نعمة منه، وإجراء ذكره على ألسنتهم ومحبته ومعرفته على قلوبهم نعمة منه، وحفظهم بعد إيجادهم نعمة منه، وقيامه بمصالحهم دقيقها وجليلها نعمة منه، وهدايتهم إلى أسباب مصالحهم ومعاشهم نعمة منه، وذكر نعمه على سبيل التفصيل لا سبيل إليه ولا قدرة للبشر عليه ويكفي أن النفَس من أدنى نعمه التي لا يكادون (يتعدون بها)[1] وهو أربعة وعشرون ألف نَفَسٍ في كل يوم وليلة. فلله تعالى على العبد في النفس خاصة أربعة وعشرون ألف نعمة كل يوم وليلة ، دع ما عدا ذلك من أصناف نعمه على العبد .

ولكل نعمة من هذه النعم حق من الشكر تستدعيه وتقتضيه، فإذا وزعت طاعات العبد كلها على هذه النعم، لم يخرج قسط كل نعمة منها إلا جزءاً يسيراً جداً لا نسبة (له)[2] إلى قدر تلك النعمة بوجه من الوجوه .

قال أنس بن مالك : ينشر للعبد يوم القيامة ثلاثة دواوين، ديوان فيه ذنوبه (وديوان فيه النعم)[3]، وديوان فيه العمل الصالح، فيأمر الله تعالى أصغر نعمة من نعمه فتقوم فتستوعب عمله كله، ثم تقول: أي رب، وعزتك وجلالك ما استوفيت ثمني وقد بقيت الذنوب والنعم . فإذا أراد الله بعبد خيراً قال : ابن آدم / ضعَّفت حسناتك، وتجاوزت عن سيئاتك ووهبت لك ١١٩أ

(١) في ع ، د ، س يعدونها .

(٢) ساقطة من ع ، د ، س .

(٣) ما بين القوسين ساقطة من ع ، د ، س .

نعمي فيما بيني وبينك[1].

وفي صحيح الحاكم حديث صاحب الرمانة الذي عبد الله تعالى خمسمائة سنة يأكل كل يوم رمانة تخرج له من شجرة، ثم يقوم إلى صلاته، فسأل ربه وقت الأجل أن يقبضه ساجداً، وأن لا يجعل للأرض عليه سبيلاً، حتى يبعث وهو ساجد، فإذا كان يوم القيامة وقف بين يدي الرب، فيقول تعالى: «أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: رب، بل بعملي، فيقول الرب جل جلاله: قايسوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله، (فتوجد)[2] نعمة البصر (قد أحاطت)[3] بعبادة خمسمائة سنة، وبقيت نعمة الجسد فضلاً عليه، فيقول: أدخلوا عبدي النار، فيجر إلى النار، فينادي (رب برحمتك)[4]، رب برحمتك أدخلني الجنة فيقول: ردوه. فيوقف بين يديه، فيقول: يا عبدي، من خلقك ولم تك شيئاً؟ فيقول: : أنت يارب[5]، فيقول: من قواك على عبادة خمسمائة سنة[6]؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول: من أنزلك في جبل وسط اللجة وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح، وأخرج لك كل يوم[7] رمانة، وإنما تخرج مرة

---

(١) رواه البزار، كما في كشف الأستار: (٤/ ١٦٠) ك البعث ـ باب في الحساب. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٥٧) وقال: رواه البزار، وفيه صالح المري، وهو ضعيف.

(٢) في م، ع، د، س: فتؤخذ، وما أثبت من ت. وهو المطابق لما في المستدرك للحاكم.

(٣) ساقطة من ع، د، س.

(٤) ما بين القوسين لم يرد في المستدرك.

(٥) وردت في هذا الموضع من المستدرك عبارة ساقطة هنا، ونصها: (فيقول: كان ذلك من قبلك، أو برحمتي، فيقول: بل برحمتك).

(٦) في المستدرك: لعبادة خمسمائة عام.

(٧) في المستدرك ليلة.

في السنة، وسألتني أن أقبضك ساجداً ففعلت ذلك بك؟ فيقول : أنت يا رب، فيقول الله[١] : فذلك برحمتي، وبرحمتي أدخلتك الجنة).

رواه من طريق يحيى بن بكير[٢]، حدثنا الليث بن سعد[٣] عن سليمان بن هرم[٤] عن محمد بن المنكدر[٥] عن جابر[٦] عن النبي ﷺ[٧]، والإسناد

---

(١) في المستدرك : فقال .

(٢) هو : يحيى بن عبد الله بن بكير المخزومي، مولاهم ، المصري، وقد ينسب إلى جده ، ثقة في الليث، وتكلموا في سماعه من مالك ، من كبار العاشرة، مات سنة إحدى وثلاثين ومائتين ، وله سبع وسبعون سنة، روى له البخاري ومسلم وابن ماجه . تقريب التهذيب (٢/ ٣٥١) وتهذيب التهذيب (١١/ ٢٣٨) .

(٣) الليث بن سعد ، ثقة ، ثبت ، فقيه ، سبقت ترجمته في ص(١٦٤).

(٤) قال الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/ ٢٢٧) : سلميان بن هرم. عن محمد بن المنكدر الأزدي : لا يصح حديثه . وقال العقيلي : مجهول ، وحديثه غير محفوظ . وانظر الضعفاء الكبير للعقيلي (٢/ ١٤٤) .

(٥) هو : محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير ـ بالتصغير ـ التيمي المدني، ثقة فاضل، من الثالثة، مات سنة ثلاثين ومائة أو بعدها ، روى له الستة . تقريب التهذيب (٢/ ٢١٠)، وتهذيب التهذيب (٩/ ٤٧٣) . وسير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥٣) . وتاريخ الثقات للعجلي ص(٤١٤) .

(٦) هو : جابر بن عبد الله بن حرام، الصحابي المشهور. سبقت ترجمته في ص (١٧٦) .

(٧) انظر المستدرك للحاكم (٤/ ٢٥٠-٢٥١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، فإن سليمان ابن هرم العابد من زهاد أهل الشام، والليث بن سعد لا يروي عن المجهولين. وتعقبه الذهبي، فقال: لا والله، وسليمان غير معتمد . ورواه الخرائطي في كتاب فضيلة الشكر لله على نعمه ص(٥١-٥٣) تحقيق محمد مطيع الحافظ ط الأولى ١٤٠٢هـ نشر دار الفكر، بيروت، والعقيلي في كتاب الضعفاء الكبير (٢/ ١٤٤-١٤٥) ، في ترجمة سليمان بن هرم، وقال: مجهول في الرواية، حديثه غير محفوظ. والذهبي في ميزان الاعتدال (٢/ ٢٢٧-٢٢٨) في ترجمة سليمان بن هرم، وقال : لم يصح هذا والله تعالى يقول: ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم =

صحيح[1] ومعناه صحيح لا ريب فيه، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : «لن ينجو أحد منكم بعمله»، وفي لفظ : «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» . قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[2] فقد أخبر ﷺ أنه لا ينجي أحداً عمله (لا)[3] من الأولين ولا من الآخرين إلا برحمة ربه تبارك وتعالى، فتكون / رحمته له خيراً من عمله، لأن رحمته ١١٩ب تنجيه وعمله لا ينجيه. فعلم أنه سبحانه لو عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم ببعض حقه عليهم .

ومما يوضحه أنه كلما كملت نعمة الله على العبد عظم حقه عليه، وكان ما يطالب به من الشكر أكثر مما يطالب (به)[4] من (هو)[5] دونه، فيكون حق الله عليه أعظم وأعماله لا تفي بحقه عليه .

وهذا إنما يعرفه حق المعرفة من عرف الله وعرف نفسه، هذا كله لو لم يحصل للعبد من الغفلة والإعراض والذنوب ما يكون في قبالة طاعاته، فكيف إذا حصل له من ذلك ما (يوازي)[6] طاعاته أو يزيد عليها، فإن من حق الله على عبده أن يعبده لا يشرك به شيئاً، وأن يذكره ولا ينساه، وأن يشكره ولا يكفره ، وأن يرضى به رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً .

= تعملون﴾ ولكن لا ينجي أحداً عمله من عذاب الله، كما صح، بل أعمالنا الصالحة هي من فضل الله علينا ومن نعمه ، لا بحول منا ولا بقوة، فله الحمد على الحمد له .

(١) إسناده فيه : سليمان بن هرم، ضعيف. كما سبق ذكره في الحاشية السابقة .

(٢) سبق تخريجه في ص(٤٨٥) .

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

(٤) ساقطة من ع ، د ، س .

(٥) ساقطة من ع ، د ، س .

(٦) في ت : ما يوازن .

وليس الرضا بذلك مجرد إطلاق هذا اللفظ وحاله وإرادته تكذبه به وتخالفه، فكيف يرضى به رباً، من يسخط ما يقضيه له إذا لم يكن موافقاً لإرادته وهواه فيظل ساخطاً به متبرماً، يرضى وربه غضبان، ويغضب وربه راض، فهذا إنما رضي (بحظه)[1] من ربه حظاً لم يرض بالله رباً ؟ وكيف يدعي الرضا بالإسلام ديناً من ينبذ أصوله خلف ظهره، إذ خالفت بدعته وهواه، وفروعه وراءه إذ لم توافق غرضه وشهوته ؟ وكيف يصح الرضا بمحمد رسولاً (لمن)[2] لم يحكمه على ظاهره وباطنه، ويتلقى أصول دينه وفروعه من مشكاته وحده ؟ وكيف يرضى به رسولاً من يترك ما جاء به لقول غيره، ولا يترك قول غيره لقوله، ولا يحكمه ويحتج بقوله إلا إذا وافق تقليده ومذهبه، فإذا خالفه لم يلتفت إلى قوله؟ .

والمقصود أن من حقه سبحانه على كل أحد من عبيده أن يرضى به رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، وأن يكون حبه كله لله، وبغضه في الله، (وفعله)[3] لله، وتركه لله، وأن يذكره ولا ينساه، ويطيعه ولا يعصيه، ويشكره / ولا يكفره، وإذا قام بذلك كله كانت نعم الله عليه أكثر من عمله، بل ذلك نفسه من نعم الله عليه، حيث وفقه له ويسره وأعانه عليه، وجعله من أهله واختصه به على غيره ، فهو يستدعي شكراً آخر عليه، ولا سبيل له إلى القيام بما يجب لله من الشكر أبداً .

١٢٠أ

فنعم الله تطالبه بالشكر وأعماله لا تقابلها، وذنوبه وغفلته وتقصيره قد تستنفد عمله، فديوان النعم وديوان الذنوب يستنفدان طاعاته كلها .

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س .

(٢) في ع ، د ، س : ممن .

(٣) في ع ، د ، س : وقوله .

هذا وأعمال العبد مستحقة عليه . بمقتضى كونه عبداً مملوكاً فيما يأمره به سيده ، فنفسه مملوكة ، وأعماله مستحقة بموجب العبودية، فليس له شيء من أعماله، كما أنه ليس له ذرة من نفسه، فلا هو مالك لنفسه ولا لصفاته ولا أعماله، ولا لما بيده في الحقيقة، بل كل ذلك مملوك عليه، مستحق عليه لمالكه، أعظم استحقاقاً من سيد اشترى عبداً بخالص ماله ثم قال: اعمل وأدِّ إلي فليس لك في نفسك ولا في كسبك شيء. فلو عمل هذا العبد من الأعمال ما عمل (لرأى)[1] (ذلك)[2] كله (مستحقاً)[3] عليه لسيده (وحقاً)[4] من حقوقه عليه، فكيف بالمنعم المالك على الحقيقة، الذي لا تعد نعمه وحقوقه على عبده، ولا يمكن أن تقابلها طاعاته بوجهه، فلو عذبه سبحانه لعذبه وهو غير ظالم له، وإذا رحمه فرحمته خير له من أعماله ، ولا تكون أعماله ثمناً لرحمته البتة، فلولا فضل الله ورحمته ومغفرته ما هنأ أحداً عيشٌ البتة ، ولا عرف (خالقه)[5] ولا ذكره، ولا آمن به ، ولا أطاعه ، فكما أن وجود العبد محض (جوده)[6] وفضله ومنته عليه، وهو المحمود على إيجاده، فتوابع وجوده كلها كذلك، ليس للعبد منها شيء، كما ليس في وجوده شيء، فالحمد كله لله، والفضل كله له، والإنعام كله له، والحق له على جميع خلقه، ومن لم ينظر في حقه / عليه (ويرى)[7] تقصيره وعجزه عن القيام به فهو من أجهل الخلق ١٢٠ب

---

(١) في ع ، د ، س : فإن .

(٢) إضافة من ع .

(٣) في د ، س : مستحق .

(٤) في م ، ت ، د ، س : وحق .

(٥) في د : أحد خالقه .

(٦) في د ، س : وجوده .

(٧) ساقطة من ع ، د ، س .

بربه وبنفسه، ولا تنفعه طاعاته ولا يُسمع دعاؤه .

قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج[١] حدثنا جرير بن حازم[٢] عن وهب[٣] قال : بلغني أن نبي الله موسى ﷺ مر برجل يدعو ويتضرع، فقال: يا رب ارحمه فإني قد رحمته ، فأوحى الله تعالى إليه : لو دعاني حتى ينقطع (فؤاده)[٤] ما استجبت له حتى ينظر في حقي عليه[٥] .

والعبد يسير إلى الله بين مشاهدة منته عليه ونعمه وحقوقه، وبين رؤية عيب نفسه وعمله وتفريطه وإضاعته، وهو يعلم أن ربه لو عذبه أشد العذاب لكان قد عدل فيه، وأن أقضيته كلها عدل فيه، وأن ما هو فيه من الخير فمجرد فضله ومنته وصدقه عليه .

ولهذا كان في حديث سيد الاستغفار : «أبوء[٦] لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي »[٧] فلا يرى نفسه إلا مقصراً مذنباً، ولا يرى ربه إلا محسناً متفضلاً،

---

(١) هو : حجاج بن محمد المصيصي . ثقة ثبت ، لكنه اختلط في آخر عمره . سبقت ترجمته في ص(١٨٨) .

(٢) هو جرير بن حازم بن زيد بن عبد الله الأزدي ، ثقة، وله أوهام إذا حدث من حفظه. سبقت ترجمته ص(١٩٣) .

(٣) هو : وهب بن منبه بن كامل اليماني ، أبو عبد الله الأنباري ـ بفتح الهمزة وسكون الموحدة بعدها نون ـ ثقة ، من الثالثة . مات سنة بضع عشرة ومائة. روى له البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجة في التفسير . تقريب التهذيب (٢/ ٣٣٩) وتهذيب التهذيب (١١/ ١٦٦-١٦٨). وسير أعلام النبلاء (٤/ ٥٤٤-٥٥٧) .

(٤) في م ، ت : قواه .

(٥) لم أعثر له على تخريج . وهو بهذا السند من أخبار بني إسرائيل.

(٦) أبوء : أي: التزم وأرجع وأقر، وأصل البواء: اللزوم ، النهاية لابن الأثير (١/ ١٥٩).

(٧) هذا طرف من حديث رواه شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «سيد الاستغفار =

وقد قسم الله خلقه إلى قسمين لا ثالث لهما: تائبين ، وظالمين، فقال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1] .

وكذلك جعلهم قسمين : معذبين ، وتائبين، فمن لم يتب فهو معذب ولا بد، قال تعالى:﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾[2] .

= **أن تقول : اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت ، وأبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. قال: من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة».**
والحديث رواه البخاري (٧/ ١٤٥) ك الدعوات ـ باب فضل الاستغفار ، وفي باب ما يقول إذا أصبح(٧/ ١٥٠) . ورواه أيضاً في كتاب الأدب المفردص(٢١٦-٢١٧) باب سيد الاستغفار . والترمذي (٥/ ٤٣٦-٤٣٧) ك الدعوات باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى . قال : هذا حديث حسن غريب. والنسائي في سننه (٧/ ٢٧٩) ك الاستعاذة ـ باب الاستعاذة من شر ما صنع. وفي عمل اليوم والليلة ص (١٤٣-١٤٤-٣٣٣-٣٣٤-٣٨٧)، والإمام أحمد (٤/ ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥) . وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٢٩٦) . الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٨) وصححه ، وأقره الذهبي . والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٤٧) . وفي كتاب الدعوات الكبير ص(١٠٤) وفي كتاب القدر ص(١٧٣). والطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٣٥٠-٣٥١-٣٥٦) . وفي المعجم الأوسط (٢/ ١٣) . وعبد بن حميد ، كما في المنتخب (٣/ ٣٢) . وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣/ ٢١٢) . والبغوي في شرح السنة (٥/ ٩٣-٩٤) . وقال الترمذي (٥/ ٤٣٦): وفي الباب عن أبي هريرة، وابن عمر، وابن مسعود، وابن أبزى، وبريدة رضي الله عنهم .

(١) سورة الحجرات آية ١١ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٧٣ .

وأمر جميع المؤمنين من أولهم إلى آخرهم بالتوبة، ولا يُستثنى من ذلك أحد، وعلق فلاحهم بها، قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] وعدد سبحانه من جملة نعمه على خير خلقه وأكرمهم عليه وأطوعهم له وأخشاهم له أن تاب الله عليه وعلى خواص أتباعه فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾[2] .

ثم كرر توبته عليهم، فقال: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3] / وقدم توبته عليه على توبة الثلاثة الذين خلفوا[4] وأخبر سبحانه أن الجنة التي وعدها أهلها في التوراة والإنجيل (والقرآن إنما[5]) يدخلها التائبون، فذكر عموم التائبين أولاً، ثم خص النبي والمهاجرين والأنصار بها، ثم خص الثلاثة الذين خلفوا، فعلم بذلك احتياج جميع الخلق إلى توبته عليهم ومغفرته لهم وعفوه عنهم.

١٢١أ

وقد قال تعالى لسيد ولد آدم وأحب خلقه إليه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾[6]

---

(١) سورة النور آية ٣١ .

(٢) سورة التوبة آية ١١٧ .

(٣) يشير إلى قوله تعالى بعد الآية السابقة من سورة التوبة ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ..﴾ الآية . سورة التوبة آية ١١٨ .

(٤) ساقطة من د ، س .

(٥) يشير إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية ثم قال : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ... ﴾ سورة التوبة آية ١١١ -١١٢ .

(٦) سورة التوبة ، آية ٤٣ .

فهذا خبر منه سبحانه، وهو أصدق القائلين، أو دعاء لرسوله بعفوه عنه، وهو طلب من نفسه. وكان صلوات الله عليه وسلم يقول في سجوده، أقرب ما يكون من ربه : « أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك»[(١)] .

وقال لأطوع نساء الأمة وأفضلهن وخيرهن الصديقة بنت الصديق، وقد قالت له: يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر، فما أدعو به؟ قال : «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني». قال الترمذي: حديث حسن صحيح[(٢)] .

وهو سبحانه لمحبته للعفو وللتوبة خلقه على صفات وهيئات وأحوال تقتضي توبتهم إليه واستغفارهم، وطلبهم عفوه مغفرته . وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « (والذي نفسي

---

(١) سبق تخريجه في المقدمة ص(١٣١) عند سرد المؤلف لأبواب الكتاب ـ الباب (٢٦).

(٢) انظر جامع الترمذي(٥/ ٤٩٩) ك الدعوات ـ باب (٨٥) . ورواه النسائي في سننه الكبرى ـ كتاب النعوت، في خمسة مواضع منه، كما في تحفة الأشراف للمزي(١١/ ٤٣٤ -٤٣٥). وفي ك التفسير (٢/ ٥٣٨-٥٣٩) تفسير سورة القدر. وفي كتاب عمل اليوم والليلة ص(٤٩٩-٥٠٠) . وابن ماجه (٢/ ١٢٦٥) ك الدعاء بالعفو والعافية. والإمام أحمد (٦/ ١٧١، ١٨٢، ١٨٣، ٢٥٨) . والحاكم في المستدرك (١/ ٥٣٠) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ورواه البيهقي في كتاب الدعوات الكبير ص(١٥٠) وفي الأسماء والصفات ص(٧٥) وفي شعب الإيمان (٣/ ٣٣٨-٣٣٩). والقضاعي في مسند الشهاب(٢/ ٣٣٥) . ومحمد بن نصر في قيام الليل، كما في مختصره لأحمد بن علي المقريزي ص (٢٣٩) ط الأولى ١٤٠٢هـ ، نشر حديث أكاديمي بالباكستان باب ما يدعى به في ليلة القدر. والبغوي في تفسيره معالم التنزيل (٤/ ٥١٢) تفسير سورة (القدر). وابن السني في عمل اليوم والليلة ص(٢٠٧) . وذكره السيوطي في الجامع الصغير، وصححه الألباني : انظر صحيح الجامع الصغير(٤/ ١٤٥) .

بيده)[١] لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم»[٢].

والله تعالى يحب التوابين. والتوبة من أحب الطاعات إليه، ويكفي في محبتها شدة فرحه بها سبحانه، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه (حيث)[٣] يذكرني والله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته / في الفلاة»[٤]. ١٢١ب

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ع ن د، س.

(٢) انظر صحيح مسلم (٤/ ٢١٠٦) ك التوبة ـ باب سقوط الذنوب بالاستغفار، توبة. ورواه الإمام أحمد (٢/ ٣٠٩). والبيهقي في كتاب الأدب ص(٥١٧-٥١٨). وفي الأسماء والصفات ص(٧٥-٧٦) وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٨١-١٨٢). وفي الباب عن أبي أيوب الأنصار رضي الله عنه، عند مسلم (٤/ ٢١٠٥-٢١٠٦) ك التوبة باب سقوط الذنوب بالاستغفار، توبة وعند الترمذي (٥/ ٥١٢) ك الدعوات ـ باب في فضل التوبة والاستغفار، وما ذكر من رحمة الله لعباده.

(٣) في ع، د، س: حين، وقد وردت في إحدى روايتي مسلم.

(٤) انظر صحيح مسلم (٤/ ٢١٠٢) ك التوبة ـ باب في الحض على التوبة والفرح بها. وتكملة هذا الحديث: «ومن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإذا أقبل إليّ يمشي، أقبلت إليه أهرول». ورواه مسلم أيضاً في(٤/ ٢٠٦١) ك. الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ـ باب الحث على ذكر الله تعالى. دون قوله: «والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في الفلاة». وبمثله رواه البخاري في صحيحه(٨/ ١٧١) ك التوحيد ـ باب قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾. والترمذي (٥/ ٥٤٢) ك الدعوات ـ باب في حسن الظن بالله عز وجل. وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥-١٢٥٦) ك الأدب ـ باب فضل العمل. وابن خزيمة في كتاب التوحيد(١/ ١٥-١٦). والإمام أحمد (٢/ ٢٥١، ٤١٦، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٤، ٥٣٤، ٥٣٥). وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب ابن حبان(٣/ ٩٣). والبغوي في شرح السنة =

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ: **«لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض (دوية)[1] مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى المكان الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة المؤمن من هذا براحلته وزاده»**[2].

= (٥/ ٢٤) والبيهقي في الأسماء والصفات ص(٢٧٢). وأبو يعلى في مسنده(١١/ ٤٧٨-٤٧٩). ورواه البخاري مختصراً في (٨/ ٢١٢) ك التوحيد - باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه. وفي كتاب خلق أفعال العباد ص(٨٥).

(١) دوية: الدّو: الصحراء التي لا نبات بها، والدّوية منسوبة إليها. النهاية لابن الأثير (٢/ ١٤٣).

(٢) انظر صحيح البخاري (٧/ ١٤٥-١٤٦) ك الدعوات - باب التوبة. (فقد رواه موصولاً، ومعلقاً) وفيه زيادة عما ذكره المؤلف، ونصها: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو شهاب عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن الحارث عن سويد، حدثنا عبد الله ابن مسعود حديثين أحدهما عن النبي ﷺ والآخر عن نفسه، قال: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال به هكذا، قال أبو شهاب بيده فوق أنفه. ورواه مسلم دون هذه الزيادة في(٤/ ٢١٠٣) ك التوبة - باب في الحض على التوبة والفرح بها. والترمذي (٤/ ٥٦٨) ك صفة القيامة. باب (٤٩) بالزيادة المذكورة. والنسائي في سننه الكبرى ك النعوت، دون الزيادة، انظر تحفة الأشراف(٧/ ١٥) والإمام أحمد (١/ ٣٨٣) بالزيادة المذكورة. والبغوي في شرح السنة(٥/ ٨٤-٨٦) بمثل رواية البخاري. وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٢٩) بالزيادة المذكورة، وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٢/ ٣٨٤) دون الزيادة.

وفي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير[١] يرفعه إلى النبي ﷺ قال: **«لله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل حمل زاده ومزاده[٢] على بعير ثم سار حتى كان بفلاة (من الأرض)[٣] فأدركته القائلة فنزل (فقال)[٤] تحت شجرة، فغلبته عينه وانسل[٥] بعيره، فاستيقظ فسعى شرفاً[٦] فلم ير شيئاً، ثم سعى شرفاً ثانياً، ثم سعى شرفاً ثالثاً، فلم ير شيئاً، فأقبل حتى أتى مكانه الذي قال فيه، فبينا هو قاعد فيه إذ جاء بعيره يمشي حتى وضع خطامه في يده، فلله أشد فرحاً بتوبة العبد من هذا حين وجد بعيره (على حاله[٧])»**[٨] .

فتأمل محبته سبحانه لهذه الطاعة التي هي أصل الطاعات وأساسها. (وإن)[٩] من زعم أن أحداً من الناس يستغني عنها ولا حاجة به إليها، فقد جهل حق الربوبية، ومرتبة العبودية ، (وينقص بمن)[١٠] أغناه بزعمه عن

---

(١) هو : النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري ، الخزرجي ، له ولأبويه صحبة، سكن الشام، ثم ولي إمرة الكوفة، ثم قتل بحمص سنة خمس وستين وله أربع وستون سنة. روى له الستة. تقريب التهذيب (٢/ ٣٠٣) وتهذيب التهذيب(١٠/ ٤٤٧-٤٤٩) .

(٢) المزادة : الظرف الذي يحمل فيه الماء، كالراوية والقربة. النهاية لابن الأثير (٤/ ٣٢٤) .

(٣) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

(٤) ساقطة من م ، وقوله: (فقال) من القيلولة : وهي نوم نصف النهار. انظر الصحاح (٥/ ١٨٠٨) والمصباح المنير (٢/ ٥٢١) مادة (قيل) .

(٥) وانسل بعيره : أي ذهب في خفية . شرح النووي لصحيح مسلم (٧/ ٦٢١) .

(٦) ساقطة من ع ، د ، س .

(٧) الشرف : المكان العالي . الصحاح (٤/ ١٣٧٩) مادة (شرف) .

(٨) انظر صحيح مسلم (٤/ ٢١٠٣-٢١٠٤) ك التوبة ـ باب الحض على التوبة . وذكره المزي في تحفة الأشراف (٩/ ٢٥) ولم ينسبه إلى غير مسلم .

(٩) في ع ، د ، س : فإن .

(١٠) في ع ، د ، س : وينتقص من .

التوبة من حيث زعم أنه معظم له، إذ عطله عن هذه الطاعة العظيمة التي هي من أجل الطاعات، والقربة الشريفة التي هي من أجل القربات، وقال: لست من أهل هذه الطاعة ولا حاجة بك إليها، فلا قدر الله حق قدره، ولا قدر العبد حق قدره، وجعل بعض عباده غنياً عن مغفرة الله وعفوه وتوبته إليه، وزعم (أنه)[1] لا يحتاج إلى ربه في ذلك.

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب(إليه)[2] (من)[3] (أحدكم)[4] كان على راحلته/ بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع (في ظلها)[5] وقد يئس من راحلته، فبينا هو كذلك إذ بها قائمة عنده (فأخذ بخطامها)[6] ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة (الفرح)**»[7] وأكمل الخلق: أكملهم توبة، وأكثرهم استغفاراً.

١٢٢أ

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) ساقطة من م، ت.

(٢) ساقطة من د، س.

(٣) في د، س: عن.

(٤) في د، س: أحدكم من رجل.

(٥) ساقطة من ع، د، س.

(٦) ساقطة من ع، د، س.

(٧) انظر صحيح البخاري (١٤٦/٧) ك الدعوات ـ باب التوبة. وصحيح مسلم (٤/ ٢١٠٤) ك التوبة ـ باب في الحض على التوبة والفرح بها. ورواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٢١٣). والبغوي في شرح السنة (٥/ ٨٧). وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان(٢/ ٢٨٣).

يقول : «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[١] .
ولما سمع أبو هريرة هذا من النبي ﷺ كان يقول ما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد عنه : (إني أستغفر الله في اليوم والليلة اثني شر ألف مرة بقدر ديتي).
ثم ساقه من طريق آخر وقال: (بقدر ديته)[٢] .

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد : (حدثنا أبي)[٣] ، حدثنا يزيد بن هارون[٤] أخبرنا محمد بن راشد[٥] عن مكحول[٦] عن رجل عن أبي هريرة، قال : (ما جلست إلى أحد أكثر استغفاراً من رسول الله ﷺ). قال الرجل: وما جلست

---

(١) انظر صحيح البخاري (٧/ ١٤٥) ك الدعوات ـ باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة، ورواه النسائي في عمل اليوم والليلة ص(٣٢٣-٣٢٤). وابن ماجه (٢/ ١٢٥٤) ك الأدب ـ باب الاستغفار . والإمام أحمد (٢/ ٢٨٢، ٣٤١، ٤٥٠) . وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٢٩٧) . والبغوي في شرح السنة (٥/ ٦٧). وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣/ ٢٠٤) والإصابة (١/ ٥٥).

(٢) لم أجده في كتاب الزهد للإمام أحمد. ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٨٣).

(٣) ما بين القوسين إضافة من كتاب الزهد.

(٤) هو : يزيد بن هارون بن زاذان ، السلمي ، مولاهم ، أبو خالد الوسطي ، ثقة متقن ، عابد ، من التاسعة، مات سنة ست ومائتين، وقد قارب التسعين، روى له الستة. تقريب التهذيب (٢/ ٣٧٢)، وتهذيب التهذيب (١١/ ٣٦٦-٣٦٩).

(٥) هو محمد بن راشد المكحول الخزاعي ، الدمشقي نزيل البصرة، صدوق يهم، رمي بالقدر، من السابعة، مات بعد الستين. روى له الستة. تقريب التهذيب (٢/ ١٦٠) ، وتهذيب التهذيب (٩/ ١٥٨-١٦٠) .

(٦) هو مكحول الشامي، أبو عبد الله، ثقة ، فقيه، كثير الإرسال، مشهور، من الخامسة، مات سنة بضع عشر ومائة. روى له مسلم والأربعة. تقريب التهذيب (٢/ ٢٧٣)، وتهذيب التهذيب(١٠/ ٢٨٩-٢٩٣) . وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٥٥) .

إلى أحد أكثر استغفاراً من أبي هريرة)[١] .

وفي صحيح مسلم عن الأغر المزني[٢] أن رسول الله ﷺ قال: **«إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»**[٣] وفي السنن والمسند من حديث ابن عمر قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة **«رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم»** . قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[٤] .

---

(١) انظر الزهد للإمام أحمد ص(٥٠) وفي إسناده رجل لم يسم. ورواه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣/ ٢٠٧-٢٠٨) من طريق خالد بن عبدالله بن الحسين، عن أبي هريرة مرفوعاً .

(٢) هو : الأغر بن عبد الله ، المزني، ويقال: الجهني، ومنهم من فرق بينهما، صحابي، قال البخاري: المزني أصح. روى له البخاري في الأدب المفرد، وروى له مسلم، وأبو داود والنسائي، تقريب التهذيب (١/ ٨٢) وتهذيب التهذيب (١/ ٣٦٥) ، والإصابة (١/ ٥٥) .

(٣) سبق تخريجه في ص (٦٣٢) .

(٤) انظر جامع الترمذي (٥/ ٤٦١) ك الدعوات ـ باب ما يقول إذا قام من المجلس. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. ولفظه: (إنك أنت التواب الغفور . ومسند الإمام أحمد ، وقال الشيخ أحمد شاكر : وإسناده صحيح. انظر المسند بتحقيقه (٦/ ٣٢٨)، (٧/ ١٩٠) ورواه أبو داود (٤/ ٣٧٩-٣٨٠) ك الوتر ـ باب في الاستغفار . والنسائي في عمل اليوم والليلة ص(٣٣١-٣٣٢). وفيه (..إنك أنت التواب الغفور). وابن ماجه (٢/ ١٢٥٣) ك الأدب ـ باب الاستغفار . وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٢٩٧-٢٩٨) ك الدعاء ـ باب ما ذكر في الاستغفار ولفظه (.. إنك أنت التواب الغفور) . والبخاري في الأدب المفرد ص(٢١٧) . وعبد بن حميد في المنتخب (٢/ ٢٩) بلفظ (إنك أنت التواب الغفور). والبغوي في شرح السنة (٥/ ٧١) . وقال الألباني: إسناده صحيح . وابن حبان في صحيحه ، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣/ ٢٠٦) . والبيهقي في الأسماء والصفات ص(٩٩) . وفي كتاب الدعوات الكبير ص(١٠٧) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل[١] حدثنا يونس[٢] عن حميد بن هلال[٣] عن أبي بردة[٤] : جلست إلى شيخ[٥] من أصحاب رسول الله ﷺ في مسجد الكوفة، فحدثني قال : سمعت رسول الله ﷺ، أو قال: قال رسول الله ﷺ: « **يا أيها الناس توبوا إلى الله عز وجل، واستغفروه، فإني أتوب إلى الله وأستغفره كل يوم / مائة مرة** »[٦] . ١٢٢ب

قال الإمام أحمد: وحدثنا يحيى[٧] عن شعبة[٨] حدثنا عمرو بن مرة[٩] قال

---

(١) هو : إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الأسدي ، مولاهم ، المعروف بابن علية ، ثقة حافظ ، سبقت ترجمته في ص (٢٦٨) .

(٢) هو : يونس بن عبيد بن دينار العبدي ، أبو عبيدة البصري ، ثقة ثبت فاضل ورع ، من الخامسة ، مات سنة تسع وثلاثين ومائة ، روى له الستة . تقريب التهذيب (٢/ ٣٨٥) تهذيب التهذيب (١١/ ٤٤٢-٤٤٥) .

(٣) هو : حميد بن هلال العدوي ، أبو نصر البصري ، ثقة عالم ، توقف فيه ابن سيرين لدخوله عمل السلطان ، من الثالثة . روى له الستة . تقريب التهذيب (١/ ٢٠٤)، وتهذيب التهذيب (٣/ ٥١) .

(٤) هو : أبو بردة بن أبي موسى الأشعري ، قيل : اسمه عامر ، وقيل: الحارث، ثقة من الثالثة، مات سنة أربع مائة، وقيل: غير ذلك، وقد جاز الثمانين . روى له الستة. تقريب التهذيب (٢/ ٣٩٤) وتهذيب التهذيب (١٢/ ١٨) .

(٥) هذا الشيخ هو الأغر : المزني، كما بينته روايتا الحديث السابقة واللاحقة، وأشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب (١٢/ ٣٩٢) .

(٦) انظر مسند الإمام أحمد : (٥/ ٤١١) ورواه الإمام أحمد أيضاً في مسنده بسند آخر (٤/ ٢٦٠- ٢٦١) والنسائي في عمل اليوم والليلة ص(٣٢٦). والطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢٧٩). وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٢٩٩) ك الدعاء ـ باب ما ذكر في الاستغفار .

(٧) هو : يحيى بن سعيد بن فروخ ، أبو سعيد القطان البصري، ثقة متقن حافظ ، سبقت ترجمته في ص (٧٠١) .

(٨) هو : شعبة بن الحجاج ، ثقة حافظ متقن، سبقت ترجمته في ص(٢٤٩) .

(٩) هو : عمرو بن مرة بن عبد الله بن طارق، الجَمَلي، بفتح الجيم والميم المرادي، أبوعبدالله الكوفي، الأعمى ثقة عابد ، كان لا يدلس ، ورمي بالإرجاء من الخامسة ، مات سنة =

سمعت أبا بردة قال: سمعت الأغر يحدث ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **يا أيها الناس توبوا إلى ربكم عز وجل، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة** »[١] .

وقال أحمد: حدثنا يزيد[٢] أخبرنا حماد بن سلمة[٣] عن علي بن زيد[٤] عن أبي عثمان النهدي[٥] عن عائشة، قالت: كان النبي ﷺ يقول: «**اللهم اجعلني من الذين إذ أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤوا استغفروا**»[٦] .

= ثمان عشرة ومائة ، وقيل: قبلها. روى له الستة. تقريب التهذيب (٢/ ٧٨) وتهذيب التهذيب (٨/ ١٠٢-١٠٣) .

(١) انظر المسند (٤/ ٢١١) وكتاب الزهد ص (٥٠) . ورواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٥-٢٠٧٦) ك الذكر الدعاء والتوبة والاستغفار ـ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه. والبخاري في الأدب المفرد ص(٢١٨). والنسائي في عمل اليوم والليلة ص(٣٢٧). وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٢٩٨) . والبغوي في شرح السنة (٥/ ٧١) . وابن حبان في صحيحه ، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣/ ٢٠٩) . وأبو داود الطيالسي في مسنده (ص١٦٦-١٦٧) والبيهقي في الدعوات الكبير ص(١٠٣) .

(٢) هو : يزيد بن هارون ، ثقة متقن عابد ، سبقت ترجمته في ص (٧٣٠) .

(٣) ثقة عباد ، سبقت ترجمته في ص (١٨١) .

(٤) هو : علي بن زيد بن عبد الله بن زهير بن عبد الله بن جدعان التيمي البصري، أصله حجازي ، وهو المعروف بعلي بن زيد بن جدعان، نسب أبوه إلى جد جده، ضعيف من الرابعة، مات سنة إحدى وثلاثين ومائة، وقيل: قبلها، روى له البخاري في الأدب المفرد، وروى له مسلم والأربعة. تقريب التهذيب (٢/ ٣٧). وتهذيب التهذيب (٧/ ٣٢٢-٣٢٤) .

(٥) هو : عبد الرحمن بن مل بن عمرو النهدي، ثقة، ثبت عابد، مضت ترجمته في ص(٧٣٣) .

(٦) انظر مسند الإمام أحمد(٦/ ١٤٥، ٢٣٩) وكتاب الزهد له ص(٥٠)، ورواه الإمام أحمد بطرق أخرى في مسنده (٦/ ١٢٩، ١٨٨) . ورواه ابن ماجه (٢/ ١٢٥٥) ك الأدب ـ =

وكان من دعائه ﷺ في أول الصلاة عن الاستفتاح بعد التكبير : « **اللهم أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي ، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئ الأخلاق لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك، والخير في يديك، وأنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك** » . رواه مسلم[(١)] .

وفي الصحيحين عنه أنه كان يقول في (دعاء الاستفتاح)[(٢)] : «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد**» . وكان يقول هذا سراً لم يعلم به من خلفه حتى سأله عنه أبو هريرة[(٣)] .

= باب الاستغفار . وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٤٤٦) . وذكره السيوطي في الجامع الصغير ، وقال الألباني : ضعيف ، انظر ضعيف الجامع الصغير (١/ ٣٥٥). والحديث في إسناده علي بن زيد ، وهو ضعيف . انظر الضعفاء للعقيلي (٣/ ٢٢٩، ٢٣١) والكامل لابن عدي (٥/ ١٨٤٠-١٨٤٥) .

(١) سبق تخريج هذا الحديث في ص (١٢٥) عند ورود جزء منه، وهو قول النبي ﷺ : «**والشر ليس إليك** » .

(٢) في ع ، د ، س : دعائه .

(٣) هذا الحديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبيرة وبين القراءة إسكاتة ، قال: أحسبه قال : هنيهة، فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، إسكاتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال : « **أقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ...** » إلخ . وأخرجه البخاري (١/ ١٨١) ك الأذان ـ باب ما يقول بعد التكبير . ومسلم (١/ ١٤٩) ك المساجد ومواضع الصلاة ـ باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة ، وأبو داود (٢/ ٤٨٥-٤٨٦) ك الصلاة ـ باب السكتة عند الافتتاح . والنسائي (١/ ٥٠-٥١) ك الطهارة ـ باب الوضوء بالثلج وفي (٢/ ١٢٨-١٢٩) =

وروى عنه علي بن أبي طالب أنه كان إذا استفتح الصلاة قال: «لا إله إلا أنت سبحانك، ظلمت نفسي وعملت سوءاً، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[١].

وفي الصحيحين أنه كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»[٢].

= ك الافتتاح ـ باب الدعاء بين التكبيرة. والقراءة وابن ماجة (١/ ٢٦٤-٢٦٥) ك إقامة الصلاة ـ باب افتتاح الصلاة. والإمام أحمد (٢/ ٢٣١، ٤٩٤). وأبو عوانة في مسنده (٢/ ١٠٧-١٠٨) ك الصلاة ـ باب ما يقال في السكتة لتكبيرة الافتتاح. والدارمي في سننه (١/ ٢٨٣). وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٢٣٧) و(٢/ ٣٩، ٦٣). والبغوي في شرح السنة (٣/ ٣٩-٤٠) وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب ابن حبان (٥/ ٧٥-٧٨) نشر دار نشر الكتب الإسلامية بلاهور في الباكستان ـ باب السكوت بين التكبير والقراءة والدارقطني في سننه (١/ ٣٣٦) ك الصلاة ـ باب موضع سكتات الإمام لقراءة المأموم.

(١) أخرجه البيهقي في سننه (٢/ ٢٣) ك الصلاة ـ باب افتتاح الصلاة بعد التكبير ـ من طريق عمرو بن عون عن هشيم عن شعبة عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً، وقال: وقد حكاه الشافعي عن هشيم من غير سماع عن بعض أصحابه عن أبي إسحاق عن أبي الخليل، عن علي. فإن كان محفوظاً، فيحتمل أن يكون أبو إسحاق سمعه منهما، والله أعلم. وذكره النووي في كتاب الأذكار ص (٣٦) وقال: هو حديث ضعيف، فإن الحارث الأعور: متفق على ضعفه.

(٢) هذا الحديث من رواية عائشة رضي الله عنها. وأخرجه البخاري في (١/ ١٩٣) ك الأذان ـ باب الدعاء في الركوع ـ وفي (١/ ١٩٩) باب التسبيح والدعاء في السجود. وفي (٥/ ٩٤) ك المغازي ـ باب رقم (٥١). وفي (٦/ ٩٣) ك التفسير ـ تفسير سورة ﴿إذا جاء نصر الله﴾ ومسلم (١/ ٣٥٠-٣٥١) ك الصلاة ـ باب ما يقال في الركوع والسجود. وأبو داود (٣/ ١٣٠) ك الصلاة ـ باب الدعاء في الركوع والسجود. والنسائي (٢/ ١٩٠) ك الافتتاح ـ باب نوع آخر من الذكر في الركوع وفي (٢/ ٢١٩- ٢٢٠) =

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن أبي أوفى[1] أنه ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع قال: **«سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد ملء/ السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد، اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ»**[2].

١٢٣أ

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده: **«اللهم اغفر ذنبي كله، دقه وجله، أوله وآخره، علانيته وسره»**[3].

= ك الافتتاح باب الدعاء في السجود، وفي سننه الكبرى كتاب التفسير (٢/ ٥٦٤-٥٦٥) تفسير سورة ﴿إذا جاء نصر الله﴾ وابن ماجه (١/ ٢٨٧) ك إقامة الصلاة والسنة فيها ـ باب التسبيح في الركوع والسجود والإمام أحمد (٦/ ٤٣، ٤٩). وعبد الرازق في مصنفه (٢/ ١٥٥-١٥٦) وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٣٠٥) و(٢/ ٣٠)، وأبو عوانة في مسنده (٢/ ٢٠٣-٢٠٤). والبيهقي في سننه (٢/ ٨٦، ١٠٩) والبغوي في شرح السنة (٣/ ١٠٠). وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٥/ ٢٥٦).

(١) هو عبد الله بن أبي أوفى، علقمة بن خالد الحارث الأسلمي، صحابي شهد الحديبية، وعمر بعد النبي ﷺ مات سنة سبع وثمانين، وهو آخر من مات بالكوفة من الصحابة. روى له الستة. تقريب التهذيب (١/ ٤٠٢). وتهذيب التهذيب (٥/ ١٥١-١٥٢) وأسد الغابة (٣/ ٧٨).

(٢) انظر صحيح مسلم (١/ ٣٤٦) ك الصلاة ـ باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع. ورواه ابن ماجه (١/ ٢٨٤) ك إقامة الصلاة والسنة فيها ـ باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع. والإمام أحمد (٤/ ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٨١).

(٣) انظر صحيح مسلم (١/ ٣٥٠) ك الصلاة ـ باب ما يقال في الركوع والسجود. ورواه أبو داود (٣/ ١٣١) ك الصلاة ـ باب الدعاء في الركوع والسجود. وابن خزيمة في صحيحه(١/ ٣٣٥) والبغوي في شرح السنة (٣/ ١٠١-١٠٢). وأبو عوانة في مسنده (٢/ ٢٠٣) باب قول المصلي في سجوده. والطحاوي في شرح معاني الآثار: (١/ ٢٣٤) =

وفي مسند الإمام أحمد أنه كان يقول في صلاته :«**اللهم اغفر لي ذنبي ، ووسّع علي في ذاتي، وبارك لي فيما رزقتني**»[١] .

وفي صحيح مسلم عن فروة بن نوفل[٢] قال: قلت لعائشة : حدثيني بشيء كان رسول الله ﷺ يدعو به في صلاته، قالت: نعم كان يقول:«**اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل**»[٣] .

وكان يقول بين السجدتين : «**اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني واهدني وارزقني**»[٤] .

= ك الصلاة ـ باب ما ينبغي أن يقال في الركوع والسجود . وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٥/ ٢٥٧-٢٥٨). والبيهقي في سننه (٢/ ١١٠).

(١) هذا الحديث من رواية سعيد الجريري، قال: سمعت عبيد بن القعقاع يحدث رجلاً من بني حنظلة، قال : رمق رجل رسول الله ﷺ وهو يصلي، فجعل يقول في صلاته ...إلخ. انظر مسند الإمام أحمد (٥/ ٣٧٥، ٣٧٧) .

(٢) هو : فروة بن نوفل الأشجعي مختلف في صحبته، والصواب أن الصحبة لأبيه وهو من الثالثة، قتل في خلافة معاوية . روى له مسلم وأبوداود والنسائي وابن ماجه. تقريب التهذيب (٢/ ١٠٩) وتهذيب التهذيب (٨/ ٢٦٦) .

(٣) انظر صحيح مسلم (٤/ ٢٠٨٥-٢٠٨٦) ك الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ـ باب التعوذ من شر ما عمل ، ومن شر ما لم يعمل . ورواه أبو داود (٤/ ٤٠) ك الصلاة ـ باب في الاستعاذة والنسائي (٣/ ٥٦) ك السهو ـ باب التعوذ في الصلاة . وفي (٨/ ٢٨٠ -٢٨١) ك الاستعاذة ـ باب الاستعاذة من شر ما عمل. وابن ماجه (٢/ ١٢٦٢) ك الدعاء ـ باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ . والإمام أحمد (٦/ ٣١، ١٠٠، ١٣٩، ٢١٣، ٢٥٧، ٢٧٨) . وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ١٨٦-١٨٧) ك الدعاء . وابن حبان في صحيحه ، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣/ ٣٠٥-٣٠٦) . والبغوي في شرح السنة (٥/ ١٦٩) .

(٤) هذا الحديث من رواية ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يقول بين السجدتين في =

وكان يقول في قيامه إلى صلاة الليل « اللهم لك الحمد ...» الحديث. وفيه : «فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»[1] .

= صلاة الليل : « اللهم ...» الحديث. وأخرجه أبو داود (٣/ ٨٧) ك الصلاة ـ باب الدعاء بين السجدتين ـ والترمذي (٢/ ٧٦). أبواب الصلاة ـ باب ما يقال بين السجدتين. وقال : هذا حديث غريب . وابن ماجة (١/ ٢٩٠) ك إقامة الصلاة والسنة فيها ـ باب ما يقول بين السجدتين . والإمام أحمد (١/ ٣٧١) . وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح. انظر المسند بتحقيقه (٥/ ١٧٢-١٧٣) . والحاكم في المستدرك (١/ ٢٦٢ -٢٧١) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(١) هذا الحديث من رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . وأخرجه : البخاري (٢/ ٤١-٤٢) ك التهجد ـ باب التهجد في الليل. وفي (٧/ ١٤٨) ك الدعوات ـ باب الدعاء إذا انتبه من الليل . وفي (٨/ ١٦٧) ك التوحيد ـ باب قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق﴾. وفي (٨/ ١٨٤) ك التوحيد ـ باب قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾. وفي (٨/ ١٩٨) ك التوحيد باب قوله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ . ومسلم (١/ ٥٣٢-٥٣٣) ك الصلاة ـ باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء . والترمذي (٥/ ٤٤٩) ك الدعوات ـ باب ما يقول إذا قام من الليل إلى الصلاة. وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في سننه (٣/ ٢٠٩-٢١٠) ك قيام الليل ـ باب ذكر ما يستفتح به القيام . وفي عمل اليوم والليلة ص(٤٩٧) . وابن ماجه (١/ ٤٣٠-٤٣١) ك إقامة الصلاة والسنة فيها ـ باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل. والإمام مالك في الموطأ ص(١٥٠-١٥١) ك القرآن ـ باب ما جاء في الدعاء . والإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٩٨، ٣٠٨، ٣٥٨، ٣٦٦) ، والدارمي في سننه (١/ ٢٨٧-٢٨٨) ك الصلاة ـ باب الدعاء عند التهجد. والحميدي في مسنده (١/ ٢٣١) . وعبد الرزاق في مصنفه (٢/ ٧٩) . والبيهقي في سننه (٣/ ٤،٥) ك الصلاة ـ باب ما يقول إذا قام من الليل يتهجد. وأبو عوانة في مسنده (٢/ ٢٩٩-٣٠٠-٣٠١) وابن السني في عمل=

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء : «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير**»[1] .

وحقيقة الأمر أن العبد فقير إلى الله (من كل)[2] وجه وبكل اعتبار ، فهو فقير (إليه من جهة ربوبيته له ، وإحسانه إليه، وقيامه بمصالحه، وتدبيره له، وفقير إليه)[3] من جهة إلهيته وكونه معبوده وإلهه ومحبوبه الأعظم، الذي لا صلاح له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا بأن يكون أحب شيء إليه، فيكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله وولده ومن الخلق كلهم. (وفقير إليه من جهة معافاته له من أنواع البلاء، فإنه إن لم يعافه منها هلك ببعضها)[4]

= اليوم والليلة ص(٦٨٤-٦٨٦) . وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١٨٤-١٨٥) أبواب صلاة التطوع بالليل ـ باب التحميد والثناء عند افتتاح صلاة الليل. وابن حبان في صحيحه ، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٦/ ٣٣٢-٣٣٥). وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٢٩٢). والطبراني في المعجم الكبير(١١/ ٤٣، ٤٤، ٥٠، ٥١). والبغوي في شرح السنة (٤/ ٦٨-٦٩) .

(١) انظر صحيح البخاري : (٧/ ١٦٦) ك الدعوات ـ باب قول النبي ﷺ اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت . وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٨٧) ك الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار . ورواه البخاري أيضاً في كتاب الأدب المفرد ص(٢٢٩). والإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤١٧). وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٢٨١) ك الدعاء ـ باب ما كان يدعو به النبي ﷺ والبغوي في شرح السنة (٥/ ١٧٢) . وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب ابن حبان (٣/ ٢٣٥، ٢٣٨) . والبيهقي في الأسماء والصفات ص(١٠٧) .

(٢) في ع ، د : بكل .

(٣) ما بين القوسين ساقط من ت.

(٤) ما بين القوسين ساقط من ت.

وفقير إليه من جهة عفوه عنه، ومغفرته له ، (فإن)[١] لم يعف عن العبد ويغفر له / فلا سبيل (له)[٢] إلى النجاة ، فما نجا أحد إلا بعفو الله، ولا دخل الجنة إلا برحمة الله، وكثير من الناس ينظر إلى نفس ما يتاب منه فيراه نقصاً، وينظر إلى كمال الغاية والحاصلة بالتوبة، وأن العبد بعد التوبة النصوح خير منه قبل الذنب، ولا ينظر إلى كمال الربوبية وتفرد الرب بالكمال وحده، وأن لزوم البشرية لا ينفك منها البشر، وأن التوبة غاية كل أحد من ولد آدم وكماله كما كانت هي غايته وكماله، فليس للعبد كمال بدون التوبة البتة، كما أنه سبحانه ليس له انفكاك عن سببها (فالله)[٣] سبحانه هو المتفرد المستأثر بالغنى والحمد من كل وجه وبكل اعتبار (والعبد هو الفقير المحتاج إليه (المضطر إليه)[٤] بكل وجه وبكل اعتبار)[٥]، فرحمته للعبد خير له من عمله، فإن عمله لا يستقل بنجاته ولا سعادته ، ولو وكل إلى عمله لم ينج به (البتة)[٦]. فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم»[٧] .

١٢٣ب

ومما يوضحه: أن شكره سبحانه مستحق عليه بجهة ربوبيته لهم وكونهم عبيده ومماليكه، وذلك يوجب عليهم أن يعرفوه ويعظموه ويوحدوه ويتقربوا

---

(١) في ع ، د : فإنه .

(٢) ساقطة من ع ، د ، س . في ع ، د ، س : فإنه

(٣) ما بين القوسين ساقطة من د .

(٤) ما بين القوسين ساقط من م .

(٥) ما بين القوسين ساقط من د .

(٦) ساقطة من ت .

(٧) سبق تخريجه في ص (٤٨٦) .

إليه تقرب العبد المحب (لسيده)[1] الذي يتقلب في نعمه لا غنى به عنه طرفة عين ، فهو يدأب في التقرب إليه بجهده ، ويستفرغ في ذلك وسعه وطاقته ، ولا يعدل به سواه في شيء من الأشياء، ويؤثر رضا سيده على إرادته وهواه، بل لا هوى له ولا إرادة إلا فيما يريد سيده ويحبه .

وهذا يستلزم علوماً وأعمالاً وإرادات وعزائم لا يعارضها غيرها، ولا يبقى له معها التفات إلى غيره بوجه. ومعلوم أن ما (طبع)[2] عليه البشر لا يفي بذلك، وما يستحقه الرب جل جلاله لذاته، وأنه أهل أن يعبد أعظم مما يستحقه لإحسانه ، فهو المستحق لنهاية العبادة (والمحبة)[3] / والخضوع ١٢٤أ والذل لذاته ولإحسانه وإنعامه. وفي بعض الآثار : (لو لم أخلق جنة ولا ناراً (أما كنت)[4] أهلاً أن أعبد)[5] ولهذا يقول أعبد خلقه له يوم القيامة وهم الملائكة: (سبحانك ما عبدناك حق عبادتك) فمن كرمه وجوده ورحمته أن رضي من عباده بدون اليسير مما ينبغي أن يعبد به ويستحقه لذاته وإحسانه، فلا نسبة للواقع منهم إلى ما يستحقه بوجه من الوجوه، فلا يسعهم إلا عفوه وتجاوزه. وهو سبحانه أعلم بعباده منهم بأنفسهم، فلو عذبهم لعذبهم بما

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س : .

(٢) في ع ، د ، س : يطبع .

(٣) ساقطة من ع، س .

(٤) في د ، س : لكنت .

(٥) هذا أثر إلهي، وهو في الغالب مما يروى عن بني إسرائيل، ولم أقف له على تخريج، وهو مما يتمسك به الصوفية القائلون : إنا لا نعبده رغبة في جنته ولا خوفاً من ناره. هذا القول مخالف لمنهج الرسل الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ..﴾ آية ٩٠ من سورة الأنبياء . وقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ سورة الإسراء آية ٥٧ .

يعلمه منهم ، وإن لم يحيطوا به علماً ، ولو عذبهم قبل (إرسال)[١] رسله إليهم على أعمالهم لم يكن ظالماً لهم، كما أنه لم يظلمهم بمقته لهم قبل إرسال رسوله على كفرهم وشركهم وقبائحهم، فإنه سبحانه نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم إلاّ بقايا من أهل الكتاب[٢] ولكن أوجب على نفسه إذ كتب عليها الرحمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه برسالته.

وسر المسألة أنه لما كان شكر المنعم على قدره ، وعلى قدر نعمه ، ولا يقوم بذلك أحد، كان حقه سبحانه على كل أحد، وله المطالبة به، فإن لم يغفر له ويرحمه وإلاّ عذبه . فحاجتهم إلى مغفرته ورحمته وعفوه كحاجتهم إلى حفظه وكلاءته ورزقه، فإن لم يحفظهم هلكوا، وإن لم يرزقهم هلكوا، وإن لم يغفر لهم ويرحمهم هلكوا وخسروا . ولهذا قال أبوهم آدم عليه السلام (وأمهم)[٣] : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٤]. وهذا شأن ولده من بعده، وقد قال موسى كليمه: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[٥] وقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٦]. وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾[٧] وقال:﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾[٨] / ١١٠أ

---

(١) في ع ، د ، س : أن يرسل .

(٢) قوله : (إنه سبحانه نظر إلى أهل الأرض ـ إشارة إلى حديث عياض بن حمار رضي الله عنه وقد سبق تخريجه في ص(١١٣) .

(٣) في د : وأمهم حواء .

(٤) كما حكاه الله عز وجل عنهما في سورة الأعراف آية ٢٣ .

(٥) كما حكاه الله عز وجل عنه في سورة الأعراف آية ١٥١ .

(٦) كما حكاه الله عز وجل في سورة الأعراف آية ١٤٣ .

(٧) كما حكاه الله عز وجل عنه في القصص آية ١٦ .

(٨) كما حكاه الله عز وجل عنه في سورة الأعراف آية ١٥٥ .

وقال خليله إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[1] وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى قوله : ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[2] وقال أول رسله إلى أهل الأرض: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3] وقال تعالى لأكرم خلقه وأحبهم إليه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾[4].

وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝﴾[5] وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝﴾[6].

وقد تقدم حديث ابن عباس في دعائه ﷺ: «ربي أعني ولا تعن علي» وفيه: «رب تقبل توبتي واغسل حوبتي»[7].

وقد أخبر سبحانه أن أعبد البشر داود أنه (استغفر ربه وخر راكعاً وأناب). وقال تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ﴾[8] وقال عن نبيه سليمان: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا

---

(١) كما حكاه الله عز وجل في سورة إبراهيم آية ٤٠-٤١ .

(٢) كما حكاه الله عز وجل في سورة الشعراء الآيات ٧٨-٨٢ .

(٣) وهو نوح عليه السلام كما حكاه الله عز وجل عنه في سورة هود آية ٤٧ .

(٤) سورة محمد آية ١٩ .

(٥) سورة النساء آية ١٠٥-١٠٦ .

(٦) سورة الفتح آية ١-٢ .

(٧) في ص (٤٧٨) .

(٨) سورة ص آية ٢٤-٢٥ .

سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾[(١)] وقال عن نبيه يونس إنه ناداه في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٢)] وقال (له)[(٣)] صديق[(٤)] الأمة وخيرها وأبرها وأتقاها لله بعد رسوله : يا رسول الله، علمني دعاءً أدعو به في صلاتي، فقال: « **قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كبيراً**[(٥)] ، **ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت (الغفور الرحيم**[(٦)])[(٧)]. فاستفتح الخبر عن نفسه بأداة التوكيد

---

(١) سورة ص آية ٣٤-٣٥ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٨٧ .

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

(٤) هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

(٥) في ت : كثيراً .

(٦) في ت : أرحم الراحمين . وما أثبت من بقية النسخ، وهو المطابق لما ورد في كتب التخريج .

(٧) رواه البخاري (١/ ٢٠٣) ك الأذان ـ باب الدعاء قبل السلام. وفي (٧/ ١٥٠) ك الدعوات ـ باب الدعاء في الصلاة ، وفي (٨/ ١٦٨) ك التوحيد ـ باب قول الله تعالى : ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾. ومسلم (٤/ ٢٠٧٨) ك الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ـ باب استحباب خفض الصوت بالذكر. والترمذي (٥/ ٥٠٧) ك الدعوات ـ باب (٩٧). النسائي (٣/ ٥٣) ك السهو ـ باب نوع آخر من الدعاء . وفي سننه الكبرى ـ ك النعوت ، كما جاء في تحفة الأشراف (٥/ ٢٩٧)، وفي باب دعاء رسول الله ﷺ. والإمام أحمد (١/ ٣-٤، ٧) والمروزي في مسند أبي بكر الصديق ص(١٠١-١٠٢). وابن خزيمة في صحيحه ص(٢/ ٢٩-٣٠) . والبغوي في شرح السنة (٣/ ٢٠٢) . والبيهقي في سننه (٢/ ١٥٤) وفي كتاب الأسماء والصفات ص (٧٧) . وفي كتاب الدعوات الكبير ص(٧٠) . وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٥/ ٣١٤) . وأبو يعلى في مسنده (١/ ٣٧-٣٨) .

التي تقتضي تقرير ما بعدها، ثم ثنى بالإخبار عن ظلمه لنفسه، ثم وصف ذلك الظلم (بكونه)[١] ظلماً (كبيراً)[٢]، ثم طلب من ربه / أن يغفر له ١٢٥أ مغفرة من عنده، أي لا يبلغها (عمله)[٣] ولا سعيه، بل هي محض منته وإحسانه، وأكبر من علمه، فإذا كان هذا شأن من وزن بالأمة فرجح[٤] بهم، فكيف بمن دونه *(وأيضاً فإن حق الله على عبده أن يطيعه ولا يعصيه، ويذكره ولا ينساه، ويشكره ولا يكفره، فتكون هذه حاله دائماً لا يغير عنها ولا يفارقها طرفة عين ولا نفساً واحداً. ومعلوم أن الغفلة والذهول والاشتغال أحياناً (بعد)[٥] ذلك واقع لابد، وهو سبب التعذيب الذي هو الألم وليس في الحديث أنه لو عذبهم في النار سرمداً[٦] لكان غير ظالم لهم، والأعم لا يستلزم الأخص، بل لو آلم من غفل عن ذكره وشكره وعبادته، وأوصل إليه عذاباً بحينه، لكان غير ظالم له.

---

(١) في م، ت: بأنه.

(٢) في ت: كثيرا.

(٣) في ع، د، س: علمه.

(٤) قوله: «فإذا كان شأن من وزن بالأمة فرجح بهم» يعني أبا بكر الصديق رضي الله عنه، كما ورد في الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات غداة بعد طلوع الشمس، فقال: **«رأيت قبيل الفجر كأني أعطيت المقاليد والموازين، فأما المقاليد فهذه المفاتيح، وأما الموازين فهذه التي تزنون بها، فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة، فوزنت بها فرجحت، وجيء بأبي بكر فوزن بهم فوزن ...»** الحديث.
وأخرجه الإمام أحمد (٧٦/٢). وقال الشيخ أحمد شاكر: وإسناده صحيح. وذكره الهيثمي في مجمع الزائد (٥٨/٩) وقال: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات.

(٥) في ت: بعض.

(٦) في م: سرمداً أبداً.

وعلى كل حال فكمال حقوقه على أهل السماوات والأرض تستلزم وجوب (كمال)[١] عبوديته (التي)[٢] تقتضيها عظمة المنعم وكثرة نعمه ودوامها، وذلك غير مقدور (والمقدور)[٣] منه لابد أن يعرض فيه من النقص ما يناسب نقص المخلوق ، فلا يسعه إلا المغفرة والرحمة [٤] * .

❊ ❊ ❊

(١) ساقطة من م .

(٢) في ت : الذي .

(٣) ساقطة من م .

(٤) ما بين النجمتين ساقطة من ع ، د ، س .



الباب السابع عشر

في الكسب والجبر ومعناهما لغة واصطلاحاً وإطلاقهما نفيا وإثباتا وما دل عليه السمع والعقل من ذلك







الباب السابع عشر
في الكسب والجبر ومعناهما لغة واصطلاحا واطلاقهما نفيا واثباتا وما دلَّ عليه السمع والعقل (من)[١] ذلك

أما الكسب، فأصله في اللغة: الجمع، قاله الجوهري[٢]، (قال)[٣]: وهو طلب الرزق، يقال: كسبت شيئاً واكتسبته، بمعنى، وكسبت أهلي خيراً، وكسبت الرجل مالاً فكسبه. وهذا مما جاء على فعلته ففعل . والكواسب: الجوارح[٤] . وتكسب: تكلف الكسب . انتهى[٥] .

والكسب: قد وقع في القرآن على ثلاثة أوجه :

أحدها: عقد القلب وعزمه، كقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٦] اي بما عزمتم عليه وقصدتموه .

---

(١) في، ع: في .

(٢) هو: إسماعيل بن حماد التركي، أبو نصر الأتراري، وأترار هي مدينة فاراب، مصنف كتاب الصحاح، وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة، وفي الخط، وكان يحب الأسفار، دخل بلاد ربيعة في تطلب لسان العرب، ودار الشام والعراق، ثم عاد إلى خراسان، فأقام بنيسابور يدرس ويصنف، ويعلم الكتابة، وينسخ المصاحف. وقد أخذ العربية عن أبي سعيد السيرافي وغيره، مات متردياً من سطح داره في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة . سير أعلام النبلاء (١٧/ ٨٠-٨٢) .

(٣) ساقطة من ع، د، س .

(٤) الجوارح من السباع والطير: ذوات الصيد، وقيل لها: كواسب، لأنها تكتسب بيدها . انظر: الصحاح للجوهري (١/ ٣٥٨) والمصباح المنير (١/ ٩٥) مادة (جرح) .

(٥) انظر الصحاح للجوهري (١/ ٢١٢-٢١٣) مادة (كسب) .

(٦) سورة البقرة آية ٢٢٥ .

وقال الزجاج: أي: يؤاخذكم بعزمكم على ألا تبروا، وألا تتقوا، وأن تعتلُّوا في ذلك بأنكم حلفتم[1] .

١٢٥ب وكأنه التفت إلى لفظ المؤاخذة، وأنها تقتضي تعذيباً / فجعل كسب قلوبهم عزمهم على ترك البر والتقوى لمكان اليمين، والقول الأول أصح، وهو قو جمهور أهل التفسير[2]، فإنه قابل به لغو اليمين، وهو أنه لا يقصد اليمين، فكسب القلب المقابل نحو اليمين هو عقده وعزمه، كما في الآية الأخرى: ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ﴾[3] فتعقيد الإيمان هو كسب القلب .

الوجه الثاني من الكسب: كسب المال من التجارة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾[4] .
فالأول للتجارة والثاني للزرع .

والوجه الثالث من الكسب: السعي والعمل؛ كقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[5] وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[6]، (وقوله)[7] : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾[8]

---

(١) انظر معاني القرآن وإعرابه (١/ ٢٩٩) .
(٢) انظر تفسير ابن جرير (٢/ ٤٠٤) .
(٣) سورة المائدة آية ٨٩ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٦٧ .
(٥) سورة البقرة آية ٢٨٦ .
(٦) سورة الأعراف آية ٣٩ .
(٧) ساقطة من د، س .
(٨) سورة الأنعام آية ٧٠ .

(وقولـه: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[1])[2] فهذا كله للعمل .

واختلف الناس في الكسب والاكتساب هل هما بمعنى واحد أم بينهما فرق ؟ .

فقالت طائفة: معناهما واحد. قال أبو الحسن علي بن أحمد (الواحدي[3])[4] وهو صحيح عند أهل اللغة ولا فرق بينهما[5] . قال ذو الرمة[6]:

ألفى أباه (بذاك) الكسب يكتسب[7] .

وقال آخرون: الاكتساب أخص من الكسب، لأن الكسب ينقسم إلى كسبه لنفسه، ولغيره، ولا يقال (أهله)[8] . قال الحطيئة[9] :

---

(١) سورة الشورى آية ٣٠ .

(٢) ما بين القوسين لم يرد في ع، د، س .

(٣) ساقطة من ع، د، س .

(٤) سبقت ترجمته في ص(٥٠٥) .

(٥) انظر تفسير « البسيط » للواحدي (٢٢٧) مخطوط، مرجع سابق .

(٦) هو: غيلان بن عقبة بن هيس بن مسعود العدوي، من مضر، أبو الحارث، ذو الرمة، شاعر، من فحول الطبقة الثانية في عصره، قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة، وكان شديد القصر، دميماً، يضرب لونه إلى السواد، أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين، وكان مقيماً بالبادية يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيراً، وامتاز بإجادة التشبيه. توفي بأصبهان، وقيل بالبادية سنة ١١٧هـ . الأعلام (٥/ ١٢٤) . والشعر والشعراء (٢٠٦) وفيات الأعيان (١/ ٤٠٤) .

(٧) هذا عجز بيت وصدره: ومطعم الصيد هبال لبغيته. انظر ديوان ذي الرمة(١/ ٩٩) تحقيق د/ عبد القدوس أبو صالح، طبع مجمع اللغة بدمشق، ١٣٩٢هـ .

(٨) ساقطة من ع، د، س .

(٩) هو: جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو مليكة: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية =

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر هداك مليك الناس يا عمر[١]

قلت: والاكتساب افتعال، وهو يستدعي اهتماماً وتعملاً واجتهاداً .

وأما الكسب فتصح نسبته بأدنى شيء، ففي جانب الفضل جعل لها (ما لها)[٢] فيه أدنى سعي، وفي جانب العدل لم يجعل عليها إلا ما لها فيه اجتهاد واهتمام .

وأما الجبر، فيرجع في اللغة إلى ثلاثة أصول :

أحدها: أن يغني الرجل من فقره، أو يجبر عظمه من كسر . وهذا من (الإصلاح)[٣] وهذا الأصل يستعمل / لازماً ومتعدياً. ويقال: جبرت ١٢٦أ العظم، وجبر (العظم)[٤] . وقد جمع العجاج[٥] بينهما في قوله :

= والإسلام. كان هجاءً عنيفاً، لم يكد يسلم من لسانه أحد. توفي نحو سنة ٤٥هـ. فوات الوفيات (١/ ٩٩) والشعر والشعراء (١١٠) . والأعلام (٢/ ١١٨) .

(١) انظر ديوان الحطيئة ص(٢٠٨) ـ تحقيق نعمان طـه، نشر مكتبة البابي الحلبي بمصر ط(١) سنة ١٣٧٨هـ ونص البيت فيه :

غيبت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر

(٢) ساقطة من ت .

(٣) في م: الاصطلاح .

(٤) ساقطة من ع، د، س .

(٥) هو: عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر السعدي التميمي، أبو الشعثاء، العجاج: راجز مجيد، من الشعراء . ولد في الجاهلية وقال الشعر فيها، ثم أسلم، وعاش إلى أيام الوليد بن عبد الملك، ففلج وأقعد، وهو أول من رفع الرجز وشبهه بالقصيد، وكان لا يهجو . وهو والد (رؤبة) الراجز المشهور أيضاً . توفي نحو سنة ٩٠هـ. الشعر والشعراء لابن قتيبة ص(٢٩٥) . الأعلام (٤/ ٨٦-٨٧) .

قد جَبَر الدِّينَ الإلهُ فَجَبَر[1][2]

الأصل الثاني: الإكراه والقهر، وأكثر ما يستعمل هذا على أفعال، يقال: أجبرته على كذا: إذا أكرهته عليه، ولا يكاد يجيء إلا قليلاً[3].

والأصل الثالث: من العز والامتناع، ومنه: نخلة جبارة. قال الجوهري: والجبار من النخل: ما طال وفات اليد[4]. قال الأعشى[5]:

---

(١) هذا البيت في مطلع أرجوزة قالها العجاج في مدح عمر بن عبيد الله بن معمر، وكان عبد الملك بن مروان وجهه إلى أبي فديك الحروري فقتله وأصحابه. انظر ديوان العجاج ص(١٥) طبع ليبسج سنة ١٩٠٣م. وتكملته هي:

وعور الرحمن من ولي العور.

(٢) انظر الصحاح للجوهري (٢/ ٦٠٧) مادة (جبر)

(٣) انظر الصحاح للجوهري (٢/ ٦٠٨) مادة (جبر).

(٤) انظر الصحاح للجوهري (٢/ ٦٠٨) مادة (جبر).

(٥) هو: ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس، ويقال له: أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير، من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، غزير الشعر، عاش عمراً طويلاً، وأدرك الإسلام ولم يسلم، ولقب بالأعشى لضعف بصره، وعمي في أواخر عمره، مولده ووفاته في منفوحة. قال ياقوت الحموي: منفوحة قرية مشهورة من نواحي اليمامة، كان يسكنها وبها قبره. ا.هـ.

قلت: وقد دخلت الآن في مدينة الرياض. وما زالت تعرف بهذا الاسم حتى الآن. وتوفي الأعشى سنة ٧ هـ. معجم البلدان (٥/ ٢١٤-٢١٥). وخزانة الأدب البغدادي (١/ ١٧٥) تحقيق عبدالسلام هارون، ط الثانية، ١٩٧٩م مكتبة الخانجي بالقاهرة، وجمهرة أشعار العرب ص (٦٧) لابن أبي الخطاب القرشي، نشر دار صادر، ببيروت سنة ١٣٨٣ هـ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص(١١٤) والأعلام (٧/ ٣٤١).

طريق وجبار رواءً أصولـه   عليه أبابيل من الطير تنعب[١]

وقال الأخفش في قوله تعالى :﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾[٢] قال: أراد الطول والقوة والعظم[٣] . ذهب في هذا إلى الجبار من النخل، وهو الطويل الذي فات الأيدي .ويقال: رجل جبار، إذا كان طويلاً عظيماً قوياً، تشبيهاً بالجبار من النخل .

قال قتادة: كانت لهم أجسام وخلق عجيبة ليست لغيرهم[٤] .

وقيل: الجبار هاهنا: من جبره على الأمر، إذا أكرهه عليه. قال الأزهري: وهي لغة معروفة، وكثير من الحجازيين يقولونها، وكان الشافعي رحمه الله يقول: جبره السلطان، ويجوز أن يكون الجبار من أجبره على الأمر، إذا أكرهه[٥] .

قال الفراء: لم أسمع فعالاً من أفعل إلا في حرفين، وهما: جبار من أجبر، والدراك من أدرك[٦]. وهذا اختيار الزجاج، قال: الجبار من الناس: العاتي

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها الأعشى يهجو فيها الحارث بن وعلة، ومطلعها:

تصابيت أم بانت بعقلك زينب   وقد جعل الود الذي كان يذهب

ومعنى قوله: (طريق وجبار): أي نخل طويل . (عليه أبابيل) أي: جماعات . انظر ديوان الأعشى ص (١٠-١١) طبع دار صادر - بيروت .

(٢) سورة المائدة آية ٢٢ .

(٣) ذكره الواحدي في تفسيره « البسيط » ق (٢٥) مخطوط، محفوظ أصله بمكتبة شستربتي في بريطانيا تحت رقم (٥١٠٥) وتوجد صورة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض تحت الرقم نفسه .

(٤) رواه الطبري في تفسيره (٦/ ١٧٤) .

(٥) انظر تهذيب اللغة (١١/ ٦٠) مادة (جبر) .

(٦) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة (١١/٥٨) مادة (جبر)، والواحدي في تفسيره =

الذي يجبر الناس على ما يريد[١] . وأما الجبار (في)[٢] أسماء الرب تعالى (فسر)[٣] بأنه الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير، والرب تبارك وتعالى كذلك، ولكن ليس هذا معنى اسمه الجبار، ولهذا قرنه باسمه المتكبر، وإنما هو (من)[٤] الجبروت .

وكان النبي ﷺ يقول: **«سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»**[٥] .

= (البسيط) ق (١٠٨)، مخطوط محفوظ أصله بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٣) تفسير، وتوجد صورة منه بمركز الملك فيصل بالرياض تحت رقم ١٤٢٥/ف .

(١) انظر معاني القرآن للزجاج (٢/ ١٦٣) .

(٢) في ع، د، س: من .

(٣) في ع، د، س: فسره .

(٤) ساقطة من ع، د، س .

(٥) هذا الحديث من رواية عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: **« سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة »**، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة . وهذا الحديث أخرجه أبوداود (٣/ ١٢٥) ك الصلاة ـ باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده . والنسائي (٢/ ٢٢٣) ك الافتتاح ـ باب الدعاء في السجود . والإمام أحمد في مسنده (٦/ ٢٤) . والطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٦١) والبغوي في شرح السنة (٤/ ٢٢) والبيهقي في سننه (٢/ ٣١٠) . وفي كتاب الأسماء والصفات ص(١٧٢) وذكره التبريزي في مشكاة المصابيح (١/ ٢٧٨) وقال الألباني: رواه النسائي وأبو داود بسند صحيح . وذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٨٣) في تفسير آخر سورة يس .

وفي هذا الباب عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي في الليـل ، =

فالجبار اسم من أسماء التعظيم كالمتكبر والملك والعظيم والقهار .

١٣٦ب قال ابن / عباس في قوله تعالى: ﴿ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾[(١)] هو العظيم . وجبروت الله عظمته[(٢)]. والجبار من أسماء الملوك . والجبر: الملك. والجبابرة: الملوك. قال الشاعر :

وأنعم صباحاً أيها الجَبْرُ[(٣)]

أي: أيها الملك . وقال السدي: الذي يجبر الناس ويقهرهم على ما يريد[(٤)]

= فكان يقول: « الله أكبر (ثلاثاً) ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة». ثم استفتح فقرأ البقرة .. الحديث. وأخرجه أبو داود (٣/ ١٢٥-١٢٧) ك الصلاة ـ باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده. والنسائي (٢/ ١٩٩-٢٠٠) ك الافتتاح ـ باب ما يقول في قيامه ذلك . والإمام أحمد (٥/ ٣٩٨). والبغوي في شرح السنة (٤/ ٢٠) وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٢٣١) مختصراً . والبيهقي في الأسماء ص(١٧٢) .

(١) سورة الحشر آية ٢٣ .

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٢٢٧) والواحدي في تفسيره (البسيط) ق(١٠٨) مرجع سابق انظر ص (٦٠٤) .

(٣) وصدره: أسلم براووق حييت به . وقائله هو: عمرو بن أحمر بن العمرد بن عامر الباهلي، أبو الخطاب، كان من شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام فأسلم وغزا مغازي الروم، ونزل بالشام مع خيل خالد بن الوليد حين وجهه إليها أبو بكر، ثم سكن الجزيرة، وأدرك أيام عبد الملك بن مروان، مات نحو سنة خمس وستين من الهجرة ، انظر الشعر والشعراء (١/ ٣١٥-٣١٨) ومعجم الشعراء للدكتور عفيف عبدالرحمن، نشر دار العلوم بالرياض سنة ١٤٠٣هـ ص (٢١٨) .

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٢٢٧) والواحدي في تفسير (البسيط) ق(١٠٨) مرجع سابق انظر ص(٧٥٤) .

وعلى هذا، فالجبار معناه: القهار .

قال محمد بن كعب: إنما سمي الجبار؛ لأنه جبر الخلق على ما أراد، والخلق أدق شأناً من أن يعصوا ربهم طرفة عين إلا بمشيئته[١] .

وقال الزجاج: الجبار الذي جبر الخلق على ما أراد[٢] .

وقال ابن الأنباري: الجبار في صفة الرب سبحانه الذي لا ينال، ومنه قولهم: نخلة جبارة: إذا فاتت يد المتناول[٣] .

فالجبار في صفة الرب سبحانه وتعالى يرجع إلى (ثلاثة)[٤] معان: الملك، والقهر، والعلو، فإن النخل إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي سميت جبارة، ولهذا جعل سبحانه اسمه الجبار مقروناً بالعزيز والمتكبر . وكل واحد من هذه الأسماء الثلاثة يتضمن الاسمين الآخرين . وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة، وهي الخالق البارئ المصور. فالجبار المتكبر يجريان مجرى التفصيل لمعنى اسم العزيز، كما أن البارئ المصور تفصيل لمعنى اسم الخالق، فالجبار من أوصافه يرجع إلى كمال القدرة والعزة والملك، ولهذا كان من أسمائه الحسنى .

---

(١) رواه الخلال في كتاب السنة ص(٥٥٧) . والبيهقي في الأسماء والصفات ص(٤٨). وذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(١٠٨) المرجع السابق .والسيوطي في الدر المنثور (٨/ ٢٣) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وابن المنذر .

(٢) انظر معاني القرآن وإعرابه (٥/ ١٥١) .

(٣) انظر قول ابن الأنباري في تهذيب اللغة لتلميذه الأزهري (١١/ ٥٨) مادة (جبر)، وفي تفسير الواحدي (البسيط) ق (١٠٨) المرجع السابق .

(٤) في ت: ثلاث .

وأما المخلوق، فاتصافه بالجبار ذم له ونقص (قال)[1] تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[2] قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[3] أي مسلط تقهرهم وتكرههم على الإيمان.

وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: «**يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤهم الناس**»[4].

فصل

إذا عرف هذا، فلفظ الكسب تطلقه القدرية على معنى، والجبرية على معنى، وأهل السنة والحديث على معنى .

---

(١) في ع، د، س: كما قال .

(٢) سورة غافر آية ٣٥ .

(٣) سورة ق آية ٤٥.

(٤) انظر جامع الترمذي (٤/ ٥٦٥) ك صفة القيامة والرقائق والورع ـ باب ما جاء في شدة الوعيد للمتكبرين . وقال: هذا حديث حسن صحيح . وهذا الحديث من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار، طينة الخبال**». والحديث أخرجه أيضاً النسائي في سننه الكبرى ـ ك الرقائق، كما في تحفة الأشراف (٦/ ٣٣٧). والإمام أحمد في مسنده، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، انظر المسند بتحقيقه (١٠/ ١٥٦-١٥٧). ومن طريق الإمام أحمد ذكره ابن كثير في تفسير (١/ ١٢٥) و(٤/ ٨٦) . وذكره الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح (٣/ ١٤١٤) والسيوطي في زيادات الجامع الصغير، وقال الألباني إسناده حسن، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦/ ٣٢٧) .

فكسب القدرية هو وقوع الفعل عندهم بإيجاد / العبد وإحداثه ومشيئته، ١٢٧أ من غير أن يكون الله شاءه أو أوجده[١] .

وكسب الجبرية لفظ لا معنى له ولا حاصل تحته، وقد اختلفت عباراتهم فيه، وضربوا له الأمثال وأطالوا فيه المقال، فقال القاضي[٢]: الكسب ما وجد وعليه قدرة محدثة، وقيل: إنه المتعلق بالقادر على غير جهة الحدوث، وقيل: إنه المقدور بالقدرة الحادثة، قالوا: ولسنا نريد بقولنا: (ما وجد وعليه قدرة محدثة) أنها قدرة على وجوده، فإن القادر على وجوده هو الله وحده، وإنما نعني بذلك أن للكسب تعلقاً بالقدرة الحادثة لا من باب الحدوث والوجود[٣].

وقال الإسفرائيني[٤]: (حقيقة الخلق من الخالق: وقوعه بقدرته من حيث صح انفراده به، وحقيقة الفعل: وقوعه بقدرته، وحقيقة الكسب من المكتسب: وقوعه بقدرته مع انفراده به . ويختص القديم تعالى بالخلق، ويشترك القديم والمحدث في الفعل، ويختص المحدث بالكسب)[٥] .

قلت: مراده أن إطلاق لفظ الخلق لا يجوز إلا على الله وحده، وإطلاق لفظ الكسب يختص بالمحدث، وإطلاق لفظ الفعل يصح على الرب سبحانه وعلى العبد .

---

(١) انظر الملل والنحل (١/ ٤٥) .

(٢) هو: أبو بكر الباقلاني، مضت ترجمته في ص (٤٥١) .

(٣) انظر التمهيد للباقلاني ص (٣٢٤، ٣٤٧)، ومقالات الإسلاميين ص(٥٤٢) . والملل والنحل (١/ ٩٧-٩٨) .

(٤) سبقت ترجمته في ص (٤٥٨) .

(٥) لم أجد له كتباً مطبوعة. وانظر معنى هذا الكلام في مقالات الإسلاميين ص(٥٣٩، ٥٤١).

وقال أيضاً: كل فعل يقع على التعاون كان كسباً من المستعين .

قلت: يريد أن الخالق يستقل بالخلق والإيجاد، والكاسب إنما يقع منه الفعل على جهة المعاونة والمشاركة منه ومن غيره، لا يمكن أن يستقل بإيجاد شيء البتة .

وقال آخرون : قدرة المكتسب تتعلق بمقدور، على وجه ما، وقدرة الخالق تتعلق من جميع الوجوه .

قالوا: ليس كون الفعل كسباً من حقائقه التي تخصه، بل هو معنى طرأ عليه، كما يقول منازعونا من المعتزلة: إن هذه الحركة لطف، وهذا الفعل لطف، وصيغة (افعل) تصير أمراً بالإرادة (لا أنها)[1] حدثت بالإرادة، ١٣٧ب واعتقاد الشيء على ما هو به يصير / علماً بسكون النفس إليه، لا أنه يحدث كذلك به، والأشياء قد تقترن في الوجود، فتتغير أوصافها وأحكامها .

قالوا: فالحركة إذا صادفت المتحرك بها على وجه مخصوص، تسمى سباحة مثلاً، ولطماً، ومشياً، ورقصاً .

وقال الأشعري[2] وابن الباقلاني[3]: الواقع بالقدرة الحادثة هو كون الفعل

---

(١) في ع، س: لأنها .

(٢) هو علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري، وإليه ينسب مذهب الأشاعرة، كان من الأئمة المتكلمين، ولد في البصرة سنة ٢٦٠هـ وتلقى مذهب المعتزلة، وتقدم فيهم، ثم رجع وجاهر بخلافهم. وتوفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ . وله مؤلفات كثيرة؛ منها: مقالات الإسلاميين، والإبانة عن أصول الديانة. وغيرهما . طبقات الشافعية للسبكي (٢/ ٢٤٥) وتبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري. وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥) . والأعلام (٤/ ٢٦٣) .

(٣) سبقت ترجمته في ص (٤٥١) .

كسباً، دون كونه موجوداً ومحدثاً، فكونه كسباً وصف للوجود بمثابة كونه معلوماً[١] . ولخص بعض المتأخرين هذه العبارات بأن قال: الكسب عبارة عن الاقتران العادي بين القدرة المحدثة والفعل، فإن الله سبحانه أجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته لا بهما، فهذا الاقتران هو الكسب[٢] . ولهذا قال كثير من العقلاء: إن هذا من محالات الكلام، وإنه شقيق أحوال أبي هاشم[٣]، وطفرة النظام[٤]، والمعنى القائم بالنفس الذي يسميه القائلون به كلاماً[٥] . وشيء من ذلك غير معقول ولا متصور . والذي استقر عليه قول الأشعري: إن القدرة الحادثة لا تؤثر في مقدورها، ولم يقع (المقدور)[٦] ولا صفة من صفاته (بها)[٧]، بل المقدور بجميع صفاته واقع بالقدرة القديمة، ولا تأثير للقدرة الحادثة فيه[٨] . وتابعه على ذلك عامة أصحابــه ، والقاضي

(١) انظر مقالات الإسلاميين ص ٥٣٩ لأبي الحسن الأشعري، والتمهيد لأبي بكر الباقلاني ص(٣٤٧) .

(٢) انظر مقالات الإسلاميين ص(٥٣٩) . والتمهيد للباقلاني ص(٣٤٧) والملل والنحل (١/ ٩١) .

(٣) سبق التعريف به في ص (٤٥٣) .

(٤) سبق التعريف به في ص (٤٥٣) .

(٥) انظر الملل والنحل (١/ ٥٥، ٩٦) والمواقف ص(٢٩٣-٢٩٤) والمحصل ص(٢٥٧-٤٣٤) والإنصاف ص(٩٤، ٦٢، ٨٧) .

(٦) في د: بها المقدور .

(٧) ساقطة من ع، د، س .

(٨) انظر مقالات الإسلاميين ص (٥٣٩، ٥٤٢) والمطالب العالية (٩/ ٩-١٠) والمحصل ص(٤٥٥) ولمع الأدلة للجويني ص(١٢١) تحقيق فوقية حسين محمود، ط، الثانية ١٤٠٧هـ نشر عالـم الكتب ، بيروت ، والمواقـف ص (٣١١-٣١٢) والملل والنحـل (١/ ٩٦-٩٧) .

أبو بكر[١] يوافقه مرة، ومرة يقول: القدرة الحادثة لا تؤثر في إثبات الذات وإحداثها، ولكنها تقتضي صفة للمقدور زائدة على ذاته تكون حالاً له. ثم تارة يقول: تلك الصفة التي هي من أثر القدرة الحادثة مقدور لله تعالى. ولم يمتنع من إثبات هذا المقدور بين قادرين على هذا الوجه[٢] . وقد اضطربت آراء أتباع الأشعري في الكسب اضطراباً عظيماً، واختلفت عباراتهم فيه اختلافاً كثيراً . وقد ذكره كله أبو القاسم سليمان بن (ناصر)[٣] الأنصاري في (شرح الإرشاد) وذكر اختلاف طرائقهم واضطرابهم / فيه ثم قال: وقد قال الأستاذ[٤] في (المختصر)[٥]: يقول أهل الحق في الكسب لا يرجع إلى إثبات قدرة للعبد عليه كما يقال إنه معلوم له، إلا أن الإمام[٦] ادعى على الأستاذ أنه أثبت للقدرة الحادثة أثراً في الحدوث، فإنه لما نفى الأحوال وأثبت للقدرة الحادثة أثراً ، فلا يعقل الجمع بينهما إلا أن يكون الأثر في الحدوث . ثم ذكر

١٢٨أ

---

(١) هو أبو بكر الباقلاني سبقت ترجمته في ص (٤٥١) .

(٢) انظر الإنصاف للباقلاني ص(٤٠) والمطالب العالية (٩/ ٩) والمحصل ص(٤٥٥، ٤٦٩، ٤٧١) والمواقف ص (٣١٢، ١٥٠، ١٥١) والملل والنحل (١/ ٩٦-٩٨) .

(٣) في م، ماجد، وفي ت، ماجه، وما أثبت من ع، وانظر ترجمته في ص (٦٠٦) .

(٤) هو أبو إسحاق الإسفرائيني . سبقت ترجمته في ص (٤٥٨) .

(٥) لم أقف على هذا الكتاب .

(٦) هو: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، إمام الحرمين، شيخ الشافعية، ولد في (جوين) من نواحي نيسابور سنة (٤١٩هـ) ورحل إلى بغداد وغيرها ثم عاد إلى نيسابور، فبنى له الوزير نظام الملك (المدرسة النظامية) فدرس بها. وله مؤلفات منها: العقيدة النظامية، والإرشاد في أصول الدين، والشامل في أصول الدين، وغيرها . توفي في نيسابور سنة (٤٧٨هـ) . سير أعلام النبلاء(١٨/ ٤٦٨-٤٧٧)، وفيات الأعيان (٣/ ١٦٧-١٧٠)، الأعلام (٤/ ١٦٠) .

لنفسه مذهباً ذكره في الكتاب المترجم (بالنظامية)[١]، وانفرد به عن الأصحاب، وهو قريب من مذهب المعتزلة، والخلاف بينه وبينهم فيه (في)[٢] الاسم[٣][٤]. قال: وهذه العقدة التي تورط الأصحاب فيها في الكسب شبيهة بالعقدة التي وقعت بين الأئمة في القراءة والمقروء[٥].

قال: وما ذكره الإمام في (النظامية) له وجه، غير أنه مما انفرد بإطلاقه، ولكل ناظر نظره، والله يرحمنا وإياه.

قلت: الذي قاله الإمام في النظامية أقرب إلى الحق مما قاله الأشعري وابن الباقلاني ومن تابعهما. ونحن نذكر كلامه بلفظه. قال: (قد تقرر عند كل

---

(١) واسمه: العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، وقد طبع بالقاهرة سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م بمطبعة الأنوار. كما نشر سنة ١٣٩٨هـ بتحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، تولت نشره مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) في ت: من.

(٣) انظر شرح الإرشاد ق (١٦٣) مخطوط، مرجع سابق انظر ص(٦٠٧).

(٤) إذ يتفق كلاهما في أن الفاعل للفعل الجزئي هو الإنسان.

(٥) يشير بذلك إلى مسألة اللفظ بالقرآن والتلاوة والقراءة بالقرآن، وهي مسألة مشهورة، ومذهب أهل السنة فيها معروف، قال الإمام أحمد وغيره من العلماء: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع، وكذلك قالوا في التلاوة والقراءة، وذلك لأن اللفظ والتلاوة يراد بها المصدر الذي هو فعل العبد، وأفعال العباد مخلوقة، فمن جعل شيئاً من أفعالهم وأصواتهم غير مخلوقة فهو مبتدع، ويراد باللفظ نفس الملفوظ، كما يراد بالتلاوة والقراءة نفس الكلام وهو القرآن. ومن قال: كلام الله الذي أنزله على نبيه ﷺ وقرأه المسلمون مخلوق فهو جهمي. انظر فتاوى شيخ الإسلام (٢/ ١٧٠-١٧١، ٢١٠-٢١١، ٢٣٧ وما بعدها و٢٦٣ وما بعدها و٣٠٦ وما بعدها و٣٢٥ وما بعدها).

حاظ بعقله، مترق عن مراتب التقليد في قواعد التوحيد، أن الرب سبحانه مطالب عباده بأعمالهم في حياتهم وداعيهم إليها، ومثيبهم ومعاقبهم عليها في مآلهم . وتبين بالنصوص التي لا تتعرض للتأويلات أنه أقدرهم على الوفاء بما طالبهم به، ومكنهم من التوصل إلى امتثال (الأمر)[١] والانفكاك عن مواقع الزجر.

ولو ذهبت أتلو الآي المتضمنة لهذه المعاني لطال المقام، ولا حاجة إلى ذلك مع قطع اللبيب المنصف به، ومن نظر في كليات الشرائع وما فيها من الاستحثاث (على المكرمات)[٢]، والزواجر (عن)[٣] الفواحش والموبقات، وما نيط ببعضها من الحدود والعقوبات، ثم تلفت على الوعد والوعيد، وما يجب عقده من تصديق المسلمين في الإنباء عما يتوجه على المردة / العتاة من الحساب والعقاب وسوء المنقلب والمآب، وقول الله لهم: لم تعديتم وعصيتم وأبيتم؟ ! وقد أرخيت لكم الطول، وفسحت لكم المهل، وأرسلت الرسل، وأوضحت المحجة، لئلا يكون للناس (عليَّ)[٤] حجة. (وأحاط)[٥] بذلك كله ثم استراب في أن أفعال العباد واقعة على حسب إيثارهم واختيارهم واقتدارهم، فهو مصاب في عقله، أو مستقر على تقليده، مصمم على جهله، ففي المصير (إلى)[٦] أنه لا أثر لقدرة العبد في فعله، قطع طلبات الشرائع والتكذيب بما جاء به المرسلون.

١٢٨ب

---

(١) في م: الأوامر

(٢) ساقطة من ع، د، س .

(٣) في ت: على .

(٤) في ع: على الله . وهو المطابق لما في النسخة المطبوعة من العقيد النظامية ص ٤٤ .

(٥) في النسخة المطبوعة من العقيدة النظامية: فمن أحاط .

(٦) في ع ، د، س: إليه .

فإن زعم من لم يوفق لمنهج إرشاد أنه لا أثر لقدرة العبد في مقدوره أصلاً، وإذا طولب بمتعلق طلب الله بفعل العبد تحريماً وفرضاً، ذهب في الجواب طولاً وعرضاً، وقال: لله أن يفعل ما يشاء، ولا يتعرض للاعتراض عليه المعترضون ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء :٢٣] .

قيل له: ليس لما جئت به حاصل، كلمة حق أريد بها باطل. نعم، يفعل الله ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولكن يتقدس عن الخلف ونقيض الصدق، وقد فهمنا بضرورات (العقول)[1] من الشرع المنقول أنه ـ عزت قدرته ـ طالب عباده بما أخبر أنهم متمكنون من الوفاء به، فلم يكلفهم إلا على مبلغ الطاقة والوسع في موارد الشرع . ومن زعم أنه لا أثر للقدرة الحاثة في مقدورها كما لا أثر للعلم في معلومه، فوجه مطالبة العبد بأفعاله عنده كوجه مطالبته بأن يثبت في نفسه ألواناً وإدراكات، وهذا خروج من حد الاعتدال إلى التزام الباطل والمحال، وفيه إبطال الشرائع، ورد ما جاء به النبيون عليهم الصلاة والسلام. فإذا لزم المصير بأن القدرة الحادثة تؤثر في مقدورها، واستحال إطلاق القول بأن العبد خالق أعماله، فإن فيه الخروج عما درج عليه سلف الأمة، واقتحام ورطات الضلال، ولا سبيل إلى المصير إلى وقوع فعل العبد بقدرته / الحاثة، والقدرة القديمة، فإن (الفعل)[2] الواحد يستحيل حدوثه ١٢٩أ بقادرين، إذ الواحد لا ينقسم، فإن وقع بقدرة الله تعالى استقل بها (ويسقط)[3] أثر القدرة الحادثة، ويستحيل أن يقع بعضه بقدرة الله تعالى، فإن الفعل الواحد لا بعض له .

---

(١) في ع، د، س : المعقول .

(٢) في ت: فعل .

(٣) في ع، د، س: وأسقط .

وهذه مهواة لا يسلم من غوائلها إلا مرشد موفق، إذ المرء بين أن يدعي الاستبداد (بالخلق)[١]، وبين أن يخرج نفسه عن كونه مطالباً بالشرائع ـ وفيه إبطال دعوة المرسلين ـ وبين أن يثبت نفسه شريكاً لله تعالى في إيجاد الفعل الواحد .

وهذه الأقسام بجملتها باطلة، ولا ينجي من هذا الملتطم ذكر اسم محض، ولقب مجرد من غير تحصيل معنى. وذلك أن قائلاً لو قال: العبد (مكتسب)[٢] وأثر قدرته الاكتساب، والرب سبحانه وتعالى (مخترع)[٣] خالق لما العبد مكتسب له .

قيل له: فما الكسب وما معناه؟ وأديرت الأقسام المتقدمة على هذا القائل، فلا يجد عنها مهرباً .

ثم قال: فنقول: قدرة العبد مخلوقة لله تعالى باتفاق القائلين بالصانع، والفعل المقدور بالقدرة الحادثة واقع بها قطعاً، ولكنه يضاف إلى الله سبحانه تقديراً وخلقاً، فإنه وقع بفعل الله وهو القدرة، (وليست القدرة)[٤] فعلاً للعبد، وإنما هي صفته، وهي ملك لله وخلق له، فإذا كان موقع الفعل خلقاً لله تعالى، فالواقع به مضاف خلقاً إلى الله تعالى وتقديراً . وقد ملك الله تعالى العبد اختياراً يصرف به القدرة، فإذا وقع بالقدرة شيئاً آل الواقع إلى حكم الله من حيث إنه وقع بفعل الله تعالى، ولو اهتدت إلى هذا الفرقة الضالة لم يكن بيننا وبينهم خلاف، ولكنهم ادعوا استبداداً بالاختراع، وانفراداً بالخلق

(١) ساقطة من ع، د، س . وفي م، ت: بالحق . وما أثبت من النظامية .

(٢) في ت، ع، د، س: يكتسب .

(٣) ساقطة من د، س .

(٤) ما بين القوسين من م، ت، د، س .

والابتداع، فضلوا وأضلوا، ونبين تميزنا عنه بتفريع المذهبين، فإنا لما أضفنا فعل العبد إلى تقدير الإله سبحانه، قلنا: أحدث الله تعالى القدرة في العبد على أقدار أحاط / بها علمه، وهيأ أسباب الفعل، وسلب العبد العلم بالتفاصيل، ١٢٩ب وأراد من العبد أن يفعل فأحدث فيه دواعي مستحثة وخيرة وإرادة، وعلم أن الأفعال ستقع على قدر معلوم، فوقعت بالقدرة التي اخترعها (للعبد)[1] على ما علم وأراد، فاختيارهم واتصافهم بالاقتدار والقدرة خلق الله ابتداء، ومقدورها مضاف إليه مشيئة وعلماً وقضاءً وخلقاً (وفعلاً)[2] من حيث إنه نتيجة ما انفرد بخلقه، وهو القدرة، ولو لم يرد وقوع مقدوراً لما أقدره عليه ولما هيأ أسباب وقوعه . ومن هُدي لهذا استمر له الحق المبين، فالعبد فاعل مختار مطالب منهي، وفعله تقدير لله تعالى (مراد له)[3] خلق مقتضى.

ونحن نضرب في ذلك مثلاً شرعياً يستريح إليه الناظر في ذلك، فنقول: العبد لا يملك أن يتصرف في مال سيده، ولو استبد بالتصرف فيه لم ينفذ تصرفه، فإذا أذن له في بيع ماله فباعه نفذ، والبيع في التحقيق معزو إلى السيد من حيث إن سببه إذنه، ولولا إذنه لم ينفذ التصرف، ولكن العبد يؤمر بالتصرف وينهى، ويوبخ على المخالفة ويعاقب. فهذا ـ والله ـ الحق الذي لا غطاء دونه، ولا مراء فيه لمن وعاه حق وعيه. ولا يكابر فيه . وأما الفرقة الضالة، فإنهم اعتقدوا انفراد العبد بالخلق، ثم صاروا إلى أنه فقد انفرد بخلق فعله، والرب كاره له، فكان العبد على هذا الرأي الفاسد مزاحماً لربه في التدبير، موقعاً ما أراد إيقاعه، شاء الرب أو كره.

---

(١) في د، س: العبد .

(٢) ساقطة من ع، د، س .

(٣) في د، س: من أدلة .

فإن قيل: على ماذا تحملون آيات الطبع والختم (والإضلال)[١] في القرآن وهي متضمنة اضطرار الرب تعالى (الأشقياء)[٢] إلى ضلالتهم؟ .

قلنا : إذا أتاح الله حل هذا الإشكال، والجواب عن هذا السؤال، لم يبق على ذوي البصائر بعده غموض. فنقول أولاً: من أنبأ الله سبحانه عن الطبع على قلوبهم كانوا / مخاطبين بالإيمان، مطالبين بالإسلام، والتزام الأحكام، مطالبة تكليف ودعاء، مع وصفهم بالتمكين والاقتدار والإيثار كما سبق تقريره، ومن اعتقد أنهم كانوا ممنوعين مأمورين مصدودين قهراً ومدعوين، فالتكليف عنه إذاً بمثابة ما لو شد من الرجل يداه ورجلاه رباطاً، وألقي في البحر ثم قيل له لا تبتل. وهذا أمر لا يحمل شرائع الرسل عليه إلا عابث بنفسه، مجترئ على ربه، ولا فرق عند هذا القائل بين أمر التسخير والتكوين في قوله: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[٣] وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٤] وبين أمر التكليف، فإذا بطل ذلك، فالوجه في الكلام على هذا الآي ـ قد غوي في (معانيها)[٥] أكثر الفرق ـ أن نقول: إذا أراد الله بعبد خيراً أكمل عقله وأتم بصيرته، ثم صرف عنه العوائق والدوافع، وأزاح عنه الموانع، ووفق له قرناء الخير، وسهل له سبله، وقطع عنه الملهيات، وأسباب الغفلات (والذهول)[٦] وقيض له ما يقربه إلى القربات فيوافقها، ثم يعتادها ويمرن عليها، وإذا أراد الله بعبده شراً قدر له ما يبعده عن الخير

(١) في م: الضلال .

(٢) في ع، د، س: للأشقياء .

(٣) آية ٦٥ سورة البقرة، آية ١٦٦ سورة الأعراف .

(٤) سورة يس آية ٨٢ .

(٥) في د، س: حقائقها .

(٦) ساقطة من ع، د، س .

ويقصيه، وهيّأ له أسباب تماديه في الغيّ،وحبّب إليه التشوق إلى الشهوات، وعرّضه للآفات، وكلما غلبت (دواعي)[١] النفس خنست دواعي الخير، ثم يستمر على الشرور على مر الدهور، (هاوياً في مهاويها)[٢] وتعاون عليه الوساوس ونزغات الشيطان (ونزوات)[٣] النفس الأمارة بالسوء، فتنسج الغفلة على قلبه غشاوة بقضاء الله وقدره . فذلكم الطبع والختم والأكنة.

وأنا أضرب في ذلك مثلاً، فأقول: لو فرضنا شاباً حديث العهد بحلمه لم تهذّبه المذاهب، ولم تحنّكه التجارب، وهو على (نهايته في غُلمته)[٤] وشهوته، وقد استمكن من بلغة الحطام، وخص / بمسحة من الجمال، ولم يقم عليه ١٣٠ب قوام يزعه عن ورطات الردى، ويمنعه عن الارتباك في شبكات الهوى، ووافاه أخدان الفساد وهو في غلواء شبابه يحدث نفسه بالبقاء أمداً بعيداً، فما أقرب من هذا وصفه من (خلع)[٥] العذار، والبدار إلى شيم الأشرار، وهو مع ذلك كله مؤثر مختار، ليس مجبراً على المعاصي والزلات، ولا مصدوداً عن الطاعات، ومعه من العقل ما يستوجب به اللائمة إذا عصى، فمن هذا سبيله لا يستحيل في العقل تكليفه، فإنه ليس ممنوعاً، ولكن إن سبق له من الله سوء القضاء، فهو صائر إلى حكم الله الجزم، وقضائه الفصل، (محجوجاً)[٦] بحجة الله، إلا أن يتغمده الله برحمته وهو أرحم الراحمين .

وهذا الذي ذكرته بين في معاني الآيات لا يتمارى فيه موفق. قال الله

---

(١) في ع، د، س: عليه دواعي .

(٢) في ع، د، س: يأتي مهاويها .

(٣) في د: ونزعات . وفي س: ونزفات .

(٤) في م، د، س: نهاية في غلمته وفي ع: نهايته وغلمته .

(٥) في ت: خلق .

(٦) في د، س: محجوج .

تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ ﴾[١] أراد أنهم استمروا على المخالفات، وأصروا بانتهاك الحرمات، فقست قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾[٢] فقد جمعت بين تفويض الأمور كلها، نفعها وضرها، خيرها وشرها، إلى الإله جلت قدرته، وبين إثبات حقائق التكليف، وتقرير قواعد الشرع على الوجه المعقول . ألست في هذا أهدى سبيلاً، وأقوم قيلاً ممن يقدر الطبع منعاً، والختم صداً ودفعاً، فذهب ثم ينفي التكاليف بزعمه ؟! .

وقد افترق الخلق في هذا المقام فرقاً، فذهب ذاهبون إلى أن المخذولين ممنوعين مدفوعون، لا اقتدار لهم على إجابة دعاة الحق، وهم مع ذلك ملزمون.

وهذا خطب جسيم وأمر عظيم ، وهو طعن في الشرائع وإبطال للدعوات، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾[٣] وقال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾[٤] نعوذ بالله من سوء النظر إلى موقع الخطر.

١٣١أ وذهبت طوائف من / الضلال إلى أن العبد يعصي، والرب يأتي به كاره، فهذا خبط في الأحكام الإلهية، ومزاحمة في الربوبية، ولو لم يرد الرب من الفجار ما علمه منهم في (أزله)[٥] لما فطرهم مع علمه بهم، كيف وقد أكمل قواهم، وأمدهم بالعَدَد، والعُدَد، والعتاد، وسهل لهم طريق الحيد عن السداد.

---

(١) سورة البقرة آية ٧٤ .

(٢) سورة الكهف آية ٢٨ .

(٣) سورة الكهف آية ٥٥ .

(٤) سورة ص، آية ٧٥ .

(٥) في م: إزالة، وفي ع، د، س: أزليته .

فإن قيل: فعل ذلك بهم ليطيعوه.

قلنا: أنى يستقيم ذلك؟ وقد علم أنهم يعصونه ويهلكون أنفسهم، ويهلكون أولياءه وأنبياءه، ويشقون شقاوة لا يسعدون (بعدها)[١] أبداً، ولو علم سيد عن وحي، أو إخبار نبي أنه لو أمده بالمال لطغى وأبق، وقطع الطريق، فأمده بالمال زاعماً أنه يريد منه ابتناء القناطر والمساجد، وهو مع ذلك يقول: أعلم أنه لا يفعل ذلك قطعاً، فهذا السيد مفسد عبده، وليس مصلحاً له باتفاق من أرباب الألباب. فقد زاغت الفئتان، وضلت الفرقتان، واعترضت إحداهما على القواعد الشرعية، وزاحمت الأخرى أحكام الربوبية، واقتصد الموفقون، فقالوا: مراد الله من عباده ما علم أنهم إليه (يصيرون)[٢]، ولكنه لم يسلبهم قدرهم، ولم يمنعهم مرشدهم، فقرت الشريعة في نصابها، وجرت العقيدة في الأحكام الإلهية على صوابها .

فإن قيل: كيف يريد الحكيم السفه ؟

فقد أوضحنا أن الأفعال متساوية في حق من لا ينتفع ولا يتضرر، ولكن إذا أخبر أنه مكلف، مطالب عباده، مزيح عللهم، فقوله الحق، وكلامه الصدق. وأقرب أمر يعارضون به: أن الحكيم منا إذا رأى جواريه وعباده[٣] يمرج بعضهم في بعض، وهم على (مخازيهم)[٤] بمرأى منه ومسمع، فلا يحسن تركهم على ما هم عليه، والرب تعالى (مطلع)[٥] على سوء (أفعال العباد)[٦]

---

(١) في ع، د، س: بها .

(٢) في م: صائرون .

(٣) عباده: جمع (عبد) وهو المملوك: انظر المصباح المنير (ص٣٨٩) مادة (عبد).

(٤) في د، س: محارمهم .

(٥) في م، ع، د، س: يطلع .

(٦) في ع، د، س: أفعالهم .

ويستدرجهم من حيث لا يعلمون .

١٣١ب ثم قال: (وقد (أطلت)[١] أنفاسي (قليلاً)[٢] ولكن لو وجدت / في اقتباس هذا العلم من يسرد لي هذا الفصل لكان ـ وحق القائم على كل نفس بما كسبت ـ أحب إلي من ملك الدنيا بحذافيرها (طول)[٣] أمدها). انتهى كلامه بلفظه[٤] .

وهذا توسط حسن بين الفريقين. وقد أنكره عليه عامة أصحابه، منهم الأنصاري، شارح الإرشاد[٥] وغيره[٦] . وقالوا: هو (قريب)[٧] من مذهب المعتزلة، ولا يرجع الخلاف بينه وبينهم إلا إلى الاسم فقط، وإن هذا مما انفرد به .

ولكن بقي عليه فيه أمور، منها :

نفي كراهة الله لما قدره من المعاصي بناء على أصله أن كل مراد له فهو محبوب له، وأنه إذا كان قد قدر الكفر والفسوق والعصيان، فهو يريده ويحبه ولا يكرهه، وإن كانت قدرة العبد واختياره مؤثر في إيجاد الفعل عنده باقتدار الرب تعالى، وقد أصاب في هذا وأجاد، لكن القول بأن الله سبحانه يحب

---

(١) في ع، د، س: أطلقت .

(٢) ساقطة من ع، د، س.

(٣) في ع، د، س: أطول .

(٤) انظر كتاب العقيدة النظامية ص (٤٣-٥٦) للإمام الجويني ـ تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ط الأولى ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م .

(٥) سبق ذكر ذلك في ص (٧٦٣) .

(٦) انظر الملل والنحل (١/ ٩٨-٩٩) .

(٧) في ع، د، س: أقرب .

الكفر والفسوق العصيان ولا يكرهه إذا كان واقعاً قول في غاية البطلان، وهو مخالف لصريح العقل والنقل. والذي قاده إلى ذلك قوله: إن المحبة هي الإرادة والمشيئة، وإن كل ما شاءه فقد أراده وأحبه. ومن لم يفرق بين المشيئة والمحبة، لزمه أحد أمرين باطلين لا بد له من التزامه، إما القول بأن الله سبحانه يحب الكفر والفسوق والعصيان، أو القول بأنه ما شاء ذلك ولا قدره ولا قضاه. وقد قال بكل من التلازمين طائفة.

قالت طائفة[1]: لا يحبها ولا يرضاها فما شاءها ولا قضاها.

وقالت طائفة: هي واقعة بمشيئته وإرادته، فهو يحبها ويرضاها.

فاشترك الطائفتان في هذا الأصل وتباينا في لازمه، وقد أنكر الله سبحانه على من احتج على محبته بمشيئته في ثلاثة مواضع من كتابه في سورة الأنعام والنحل والزخرف، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨﴾[2] وكذلك حكى الله عنهم في النحل، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[3] وقال في الزخرف: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[4] فاحتجوا على محبته لشركهم ورضاهم به بكونه أقرهم عليه،

---

(١) وهم المعتزلة. انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص(٤٥٩، وما بعدها وص٤٣١).

(٢) سورة الأنعام آية ١٤٨.

(٣) سورة النحل آية ٣٥.

(٤) سورة الزخرف آية ٢٠.

وأنه لولا محبته له ورضاه به لما شاءه منهم، وعارضوا بذلك أمره ونهيه ودعوة الرسل .

وقالوا: كيف (يأمرنا بشيء)[١] قد شاء منا خلافه ؟ وكيف يكره منا (ما)[٢] قد شاء وقوعه، (فلو)[٣] كرهه لم يمكنا منه والحال بيننا وبينه؟ فكذبهم سبحانه في ذلك، وأخبر أن هذا تكذيب منهم لرسله، وأن رسله متفقون على أنه سبحانه يكره شركهم ويبغضه ويمقته، وأنه لولا بغضه وكراهته (له)[٤] لما أذاق المشركين (بأسه)[٥]، (فإنه لا)[٦] يعذب عبده على ما يحبه .

ثم طالبهم بالعلم على صحة مذهبهم بأن الله أذن فيه، وأنه يحبه (ويرضاه)[٧]، ومجرد إقراره لهم قدراً لا يدل على ذلك عند أحد من العقلاء، وإلا كان الظلم والفواحش (والسعي)[٨] في الأرض بالفساد، والبغي، محبوباً له مرضياً .

ثم أخبر سبحانه (أن)[٩] مستندهم في ذلك إنما هو الظن، وهو أكذب الحديث، وأنهم لذلك كانوا أهل الخرص والكذب، ثم أخبر سبحانه أن له

---

(١) في د، س: يأمر بالشيء .

(٢) في ع، د، س: شيئاً .

(٣) في ع، د، س: ولو .

(٤) ساقطة من ع، د، س .

(٥) في د، س: بالله عذابه .

(٦) في م: فلا .

(٧) في ع، د، س: ويرضى .

(٨) في ت: والبغي .

(٩) في د: أنه .

الحجة عليهم من جهتين:

إحداهما: ما ركبه فيهم من العقول التي يفرقون بها بين الحسن والقبيح، والحق والباطل، والأسماع والأبصار التي هي آلة إدراك الحق، والتي يفرق بها بينه وبين الباطل .

والثانية: إرسال رسله، وإنزال كتبه، وتمكينهم من الإيمان والإسلام، ولم يؤاخذهم بأحد الأمرين بل بمجموعهما، لكمال عدله، وقطعاً لعذرهم من جميع الوجوه. ولذلك سمى حجته عليه بالغة، أي قد / بلغت غاية البيان ١٣٢ب وأقصاه، بحيث لم يبق معها مقالٌ لقائل ولا عذر لمعتذر، ومن اعتذر إليه سبحانه بعذر صحيح قبله .

ثم ختم الآية بقوله: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] وأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته، وهذا من تمام حجته البالغة، فإنه إذا امتنع الشيء لعدم مشيئته لزم وجوده عند مشيئته[*]، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. كان هذا من أعظم أدلة التوحيد، ومن أبين أدلة بطلان ما أنتم عليه من الشرك، واتخاذ الأنداد من دونه، فما احتججتم به من المشيئة على ما أنتم عليه من الشرك (واتخاذ الأنداد من دونه)[2] هو من أظهر الأدلة على بطلانه وفساده، فلو أنهم ذكروا القدر والمشيئة توحيداً له، وافتقاراً والتجاءً إليه، وبراءة من الحول والقوة إلا به، ورغبة إليه أن (يقيلهم)[3] مما لو شاء أن يقع منهم لما وقع، لنفعهم ذلك، ولفتح لهم باب الهداية، ولكن ذكروه معارضين به أمره،

---

(١) سورة الأنعام آية ١٤٩ .

(*) بداية سقط في نسخة ع، والذي ينتهي في ص(٧٨٩) .

(٢) ما بين القوسين ساقط من م، د، س .

(٣) في د: يلقيهم .

ومبطلين به دعوة الرسل، فما ازدادوا به إلا ضلالاً. والمقصود أنه سبحانه قد فرق بين (محبته)[١] ومشيئته. وقد حكى أبو الحسن الأشعري في مقالاته اتفاق أهل السنة والحديث على ذلك[٢] والذي حكى عنه ابن فورك[٣] في كتابه تجريده لمقالاته أنه كان (لا)[٤] يفرق بين ذلك، قال: (وكان لا يفرق بين الود والحب، والإرادة والمشيئة والرضا. وكان لا يقول: إن شيئاً منها لا يخص بعض المرادات دون بعض، بل كان يقول إن كل واحد منها بمعنى صاحبه على وجه التقييد الذي يزول معه الإيهام، وهو أن المؤمن محبوب لله أن يكون مؤمناً من أهل الخير كما (علمه)[٥]، والكافر أيضاً مراد أن يكون كافراً كما علم من أهل الشر، ويحب أن يكون ذلك كذلك كما علم، وكذلك كان يقول في الرضا والاصطفاء والاختيار، ويقيد اللفظ بذلك حتى لا يتوهم فيه الخطأ، انتهى[٦].

١٣٣أ والذي عليه / أهل الحديث والسنة قاطبة والفقهاء كلهم، وجمهور المتكلمين والصوفية أنه سبحانه يكره بعض الأعيان والأفعال والصفات، وإن

---

(١) في د، س: حجته .

(٢) انظر مقالات الإسلاميين ص(٢٩١، ٢٩٤).

(٣) هو: أبو بكر بن محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني، سمع مسند أبي داود الطيالسي من عبد الله بن جعفر بن فارس. وسمع من ابن خرازذ الأهوازي، حدث عنه البيهقي وآخرون. قال الذهبي: كان أشعرياً، رأساً في فن الكلام، أخذ عن أبي الحسن الباهلي، صاحب الأشعري، مات سنة أربع وأربعمائة. سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢١٤) .

(٤) ساقطة من م، د، س .

(٥) في د، س: علم .

(٦) انظر كتاب تجريد مقالات أبي الحسن الأشعري المطبوع باسم: مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري لابن فورك ص (٥١) تحقيق دانيال جيماريه، نشر دار المشرق، بيروت .

كانت واقعة بمشيئته، فهو يبغضها ويمقتها كما يبغض ذات إبليس وذوات جنوده، ويبغض أعمالهم، ولا يحب ذلك وإن وجد بمشيئته. قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[1]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[3] وقال: ﴿لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[4] وقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[5] وقال: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[6].

فهذا إخبار عن عدم محبته (هذه)[7] الأمور ورضاه بها بعد وقوعها، فهذا صريح في إبطال قول من تأوّل هذه النصوص على أنه لا يحبها ممن لم تقع منه، وهذا من أعظم الباطل والكذب على الله، بل هو سبحانه يكرهها ويبغضها قبل وقوعها، وحال وقوعها، وبعد وقوعها، فإنها قبائح وخبائث، والله منزه عن محبة القبيح والخبيث، بل (هو)[8] أكره شيء إليه. قال تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[9].

وقد أخبر أنه يكره طاعات المنافقين، ولأجل ذلك (ثبطهم)[10] عنها،

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٥ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٠ .

(٣) سورة لقمان آية ١٨ .

(٤) سورة النساء آية ١٤٨ .

(٥) سورة البقرة آية ١٩٠، وسورة المائدة آية ٨٧ .

(٦) سورة الزمر آية ٧ .

(٧) ساقطة من د، س .

(٨) ساقطة من د .

(٩) سورة الإسراء آية ٣٨ .

(١٠) في د، س: يثبطهم .

فكيف يحب نفاقهم ويرضاه، ويكون أهله محبوبين له، مصطفين عنده، مرضيين.

ومن هذا الأصل الباطل نشأ قولهم باستواء الأفعال بالنسبة إلى الرب سبحانه، وأنها لا تنقسم في نفسها إلى حسن وقبيح، فلا فرق بالنسبة إليه سبحانه بين الشكر والكفر، ولذلك قالوا: لا يجب شكره على نعمه عقلاً.

(فعن)[1] هذا الأصل قالوا: إن مشيئته هي عين (محبته)[2]، وإن كل ما شاء فهو محبوب له، ومرضي له، ومصطفى ومختار، فلم يمكنهم بعد تأصل هذا الأصل أن يقولوا إنه يبغض (بعض)[3] الأعيان والأفعال التي خلقها / ١٣٣ب ويحب بعضها، بل كل ما فعله وخلقه فهو محبوب له، والمكروه المبغوض ما لم يشأه ولم يخلقه. وإنما أصلوا هذا الأصل محافظة منهم على القدر (فجنوا)[4] به على الشرع والقدر، والتزموا لأجله لوازم شوشوا بها القدر والحكمة، وكابروا لأجلها صريح العقل، وسووا بين أقبح القبائح وأحسن الحسنات في نفس الأمر، وقالوا: هما سواء لا فرق بينهما إلا بمجرد الأمر والنهي، فالكذب عندهم والظلم والبغي والعدوان مساو للصدق والعدل والإحسان في نفس الأمر. ليس في هذا ما يقتضي حسنه ولا في هذا ما يقتضي قبحه، وجعلوا هذا المذهب شعاراً لأهل السنة والقول بخلاف قول أهل البدع من المعتزلة وغيرهم.

ولعمر الله إنه لمن أبطل الأقوال وأشدها منافاة للعقل والشرع، ولفطرة الله التي فطر عليها خلقه. وقد بينا بطلانه من أكثر من خمسين وجهاً في كتاب

---

(١) في د، س: فمن.

(٢) في ت: مشيئته.

(٣) ساقطة من د، س.

(٤) في د، س: فحثوا.

المفتاح[١] .

والمقصود أنه لما انضم القول به إلى القول بأنه سبحانه لا يحب شيئاً ويبغض شيئاً، بل كل موجود فهو محبوب له، وكل معدوم فهو مكروه له، وانضم إلى هذين (الأمرين)[٢] إنكار الحكم والغايات المطلوبة في أفعاله سبحانه، وأنه لا يفعل شيئاً (لشيء)[٣] البتة، وانضم إلى ذلك في إنكار الأسباب، وأنه لا يفعل شيء، وإنكار القوى والطبائع والغرائز، وأن تكون أسباباً أو يكون لها أثر انسد عليهم باب الصواب في مسائل القدر، والتزموا لهذه الأصول الباطلة لوازم هي أظهر بطلاناً وفساداً، وهي من أدل شيء على فساد هذه الأصول وبطلانها، فإن الفساد اللازم من فساد ملزومه .

فإن قيل: الكراهة والمحبة ترجع إلى المنافرة والملاءمة للطبع،وذلك مُحَال في حق من لا يوصف بطبع ولا ملاءمة ولا منافرة .

قيل: قد دلت النصوص التي لا تدفع على وصفه تعالى بالمحبة والكراهة، (فنفيكم)[٤] حقائق ما دلت عليه بالتعبير عنها بملاءمة الطبع ومنافرته / ١٢٤أ باطل وهو كنفي كل مبطل حقائق أسمائه وصفاته بالتعبير عنها بعبارات اصطلاحية توصل بها إلى نفي ما وصف به نفسه، كتسمية الجهمية المعطلة صفاته تعالى أعراضاً، ثم توصلوا بهذه التسمية إلى نفيها، وسموا أفعال القائمة به حوادث ثم توصلوا بهذه التسمية على نفيها، وقالوا: لا تحله الحوادث، كما قالت المعطلة: لا تقوم به الأعراض، وسموا علوه على خلقه،

---

(١) انظر كتاب مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٥-١٦٥) وقد طبع مفتاح دار السعادة عدة طبعات منها في مصر طبعة زكريا علي يوسف بمطبعة الإمام، دون تاريخ .

(٢) في د، س: الآخرين .

(٣) في د، س: لمعنى .

(٤) في د، س: فتبيينكم .

واستواءه على عرشه، وكونه (قاهراً)[١] فوق عباده تحيزاً (وتجسيماً)[٢] ثم توصلوا بنفي ذلك إلى نفي علوه (على)[٣] خلقه واستوائه على عرشه، وسموا ما أخبر به عن نفسه من الوجه واليدين والإصبع جوارح وأعضاء، ثم نفوا ما أثبته لنفسه بتسميتهم له بغير تلك الأسماء، ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[٤]. فتوصلوا بالتجسيم والتشبيه والتركيب والحوادث والأعراض والتحيز إلى تعطيل صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله، وأخلوا تلك الأسماء من معانيها، وعطلوها من حقائقها. فيقال لمن نفى محبته وكراهته لاستلزامها ميل الطبع ونفرته: ما الفرق بينك وبين من نفى مريداً لاستلزام الإرادة حركة النفس إلى جلب ما ينفعها (ودفع ما يضرها، ونفي سمعه وبصره لاستلزام ذلك تأثر السميع البصير)[٥] بالمسموع والمبصر، وانطباع صورة علمه لاستلزام ذلك حركة القلب وانفعاله بما يرد عليه من المؤلم والسار، ونفي كلامه لاستلزام الكلام محلاً يقوم به، ويظهر منه شفة ولسان ولهوات. ولما لم (يمكن)[٦] أحداً أقر بوجود / ١٣٤ب رب العالمين طرد ذلك وقع في التناقض ولابد، فإنه أي شيء أثبته لزمه (ما التزمه)[٧] كمن(أثبت)[٨] ما نفاه من غير فرق البتة.

---

(١) ساقطة من ت .

(٢) في د، س: وتجسماً .

(٣) في م، د، س: عن .

(٤) اقتباس من سورة النجم آية ٢٣ .

(٥) ما بين القوسين ساقط من د .

(٦) في د: يكن .

(٧) في د، س: ما التزم .

(٨) في ت: لا يثبت .

(ولهذا لما تفطن بعض المعطلة لذلك طرد هذا الأصل، وقال: لا أثبت شيئاً البتة)[١] ولهذا قال الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة: لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين[٢].

والمقصود أنا لا نجحد محبته سبحانه (لما يحبه)[٣]، وكراهته لما يكرهه لتسمية النفاة لذلك ملاءمة ومنافرة. فينبغي التفطن لهذا الموضع، فإنه من أعظم أصول الضلال. فلا نسمي العرش حيزاً، ولا نسمي الاستواء تحيزاً، ولا نسمي الصفات أعرضاً، ولا الأفعال حوادث، ولا الوجه واليدين والأصابع جوارح وأعضاء، ولا إثبات صفات كماله التي وصف بها نفسه (ووصفه بها رسوله)[٤] تجسيماً وتشبيهاً، فنجني جنايتين عظيمتين: جناية على اللفظ، وجناية على المعنى، فنبدل الاسم، ونعطل معناه.

ونظير هذا تسمية خلقه سبحانه لأفعال عباده وقضائه السابق جبراً، ولذلك أنكر أئمة السنة، كالأوزاعي وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن

---

(١) ما بين القوسين ساقط من د، س.

(٢) قول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣١-٣٢) وفي بيان تلبيس الجهمية (ص٤٣١-٤٣٢) تصحيح محمد بن قاسم، ط الأولى ١٣٩١هـ، بمطبعة الحكومة بمكة المكرمة. وذكره أيضاً المؤلف في اجتماع الجيوش الإسلامية ص(٢١٢) ونسبا روايته إلى الخلال في كتاب السنة، وقد رجعت إلى كتاب السنة، ولم أجده في القسم المطبوع منه، ط الأولى ١٤١٠هـ، تحقيق د. عطية الزهراني، نشر دار الراية بالرياض، ولعله في القسم الذي لم يطبع بعد.

(٣) في ت: طاعته.

(٤) ما بين القوسين ساقط من د، س.

مهدي[١] والإمام أحمد وغيرهم هذا اللفظ .

قال الأوزاعي والزبيدي[٢]: ليس في الكتاب والسنة لفظ (جبر)، وإنما جاءت السنة بلفظ (الجبل)[٣]، كما في الصحيح أن النبي ﷺ قال لأشج عبدالقيس[٤]: «إن فيك خُلقين يحبهما الله: الحلم والأناة »، فقال: أخلقين

---

(١) هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري، مولاهم أبو سعيد البصري، ثقة ثبت حافظ، عارف بالرجال والحديث. قال ابن المديني: ما رأيت أعلم منه، من التاسعة، مات سنة ثمان وتسعين ومائة وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، روى له الستة. تقريب التهذيب (١/ ٤٩٩) وتهذيب التهذيب (٦/ ٢٧٩-٢٨١) ، وقوله رواه الخلال في كتاب السنة ص(٥٥٣) .

(٢) هو: محمد بن الوليد، سبقت ترجمته في ص (١٧٩) .

(٣) أخرجه الخلال في كتاب السنة ص(٥٥٥). وهذا قول الأوزاعي، وأما الزبيدي، فقال: أمر الله أعظم، وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل، ولكن يقضي ويقدر ويخلق ويجبل عبده على ما أحبه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر هذين القولين: وهذان الجوابان اللذان ذكرهما الإمامان في عصر تابعي التابعين من أحسن الأجوبة ... وذلك لأن الجبر المعروف في اللغة: هو إلزام الإنسان بخلاف رضاه، ... والله سبحانه قادر على أن يجعل العبد مختاراً راضياً لما يفعله، ومبغضاً وكارهاً لما يتركه، كما هو الواقع ... وأيضاً فهذا اللفظ (جبر) لم يكن له أصل في الكتاب والسنة، وإطلاقه يفضي إلى إطلاق لفظ مبتدع ظاهر في إرادة الباطل، وذلك لا يسوغ. وإن قيل: إنه يراد به معنى صحيح. انظر درء تعارض العقل والنقل(١/ ٦٧) . وقد نقلت كلامه بتصرف .

(٤) هو: المنذر بن عائذ بن الحارث العصري، بمهملتين مفتوحتين، أشج عبد القيس، صحابي نزل البصرة ومات بها. روى له البخاري في الأدب المفرد، وروى له النسائي. تقريب التهذيب (٢/ ٢٧٤) وتهذيب التهذيب (١٠/ ٣٠١) وأسد الغابة (١/ ١١٦) و(٤/ ٤٩١) .

تخلَّقتُ بهما أم جُبلتُ عليهما؟ فقال: « **بل جبلت عليهما** »، فقال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب[1] .

---

(١) هذا الحديث رواه الأشج، وأخرجه: الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٢٠٥-٢٠٦) . وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/ ٢٠٢). والبخاري في الأدب المفرد ص(٢٠٥). والنسائي في كتاب النعوت من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف(٨/ ٥١٣). وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ٢٤٢-٢٤٤). وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٦/ ١٧٨-١٧٩) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد(٩/ ٣٨٧-٣٨٨) وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن ابن بكرة لم يدرك الأشج .
ورواه مطر بن عبد الرحمن الأعنق، عن أم أبان بنت الوازع بن زارع، عن جدها زارع، وكان في وفد عبد القيس، قال: لما قدمنا المدينة جعلنا نتبادر من رواحلنا، فنقبل يد النبي ﷺ ورجله، قال: وانتظر الأشج حتى أتى عيبته فلبس ثوبيه، ثم أتى النبي ﷺ فقال له: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**». قال: يا رسول الله: أنا أتخلق بهما أم جبلني الله عليهما؟ قال: « **بل جبلك الله عليهما** » . قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله، وأخرجه أبو داود في سننه(١٤/ ١٣٥) ك الأدب ـ في قبلة الرجل. والطبراني في المعجم الكبير (٥/ ٣١٧) والبزار، كما في كشف الأستار (٣/ ٢٧٨-٢٧٩) . والبيهقي في سننه (٧/ ١٠٢) وفي دلائل النبوة (٥/ ٣٢٧-٣٢٨) . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد(٩/ ٣٨٩-٣٩٠) وقال: عند أبي داود طرف منه، ورواه البزار، وفيه أم أبان بنت الوازع روى لها أبو داود وسكت على حديثها فهو حسن، وبقية رجاله ثقات.
وروى قوله ﷺ : «**إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة** » أبوسعيد الخدري رضي الله عنه، وأخرجه: مسلم (١/ ٤٨، ٤٩) ك الإيمان ـ باب الأمر بالإيمان بالله تعالى . والبخاري في الأدب المفرد (٢٠٥) والبيهقي في سننه (١٠/ ١٠٤، ١٩٤)، وفي الدلائل (٥/ ٣٢٥-٣٢٦) .
وبمثله رواه ابن عباس رضي الله عنهما وأخرجه مسلم (١/ ٤٨) ك الإيمان ـ باب الأمر بالإيمان بالله تعالى.

=

فأخبر النبي ﷺ أن الله جبله على الحلم والأناة، وهما من الأفعال الاختيارية، وإن كان خلقين قائمين بالعبد، فإن من الأخلاق ما هو كسبي، ومنها ما لا يدخل تحت الكسب، والنوعان قد جبل الله العبد عليهما، وهو سبحانه يحب ما جبل عبده عليه من محاسن الأخلاق / ويكره ما جبله عليه من مساوئها، فكلاهما بجبله وهذا محبوب له، وهذا مكروه، كما أن جبريل صلوات الله عليه مخلوق له، وإبليس عليه لعائن الله مخلوق له، وجبريل محبوب له، مصطفى عنده، وإبليس أبغض خلقه إليه .

١٣٥أ

ومما يوضح ذلك أن لفظ جبر لفظٌ مجملٌ، فإنه يقال: أجبر الأب ابنته على النكاح، وجبر الحاكم الرجل على البيع، ومعنى هذا الجبر: أكرهه عليه، ليس معناه أنه جعله محباً لذلك راضياً به (مختاراً له. والله تعالى إذا خلق فعل العبد جعله محباً له، مختاراً لإيقاعه، راضياً به، كارهاً لعدمه)[1]، فإطلاق لفظ

= والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٠٦) والترمذي (٤/ ٣٢٢) ك البر والصلة ـ باب ما جاء في التأني والعجلة، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٦/ ٨١) . وابن ماجه (٢/ ١٤٠١) ك الزهد ـ باب في الحلم. والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٢٣٠) . والبيهقي في سننه (١٠/ ١٠٤) .

وفي الباب عن ابن عمر، ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٨٨) وقال: رواه الطبراني من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير نعيم بن يعقوب وهو ثقة، ورواه في الأوسط من طريق حسنة الإسناد.

وعن مزيدة بن جبر العبدي العصري. عند البخاري في الأدب المفرد (ص٢٠٦). وأبي يعلى في مسنده (١٢/ ٢٤٥-٢٤٧) . والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٢٧) . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رواه الطبراني وأبو يعلى، ورجالهما ثقات، وفي بعضهم خلاف .

(١) ما بين القوسين ساقط من ت .

الجبر على ذلك فاسد لفظاً ومعنى، فإن الله سبحانه أجل (وأعدل)[١] من أن يجبر عبده بذلك المعنى، وإنما يجبر العاجز عن أن يجعل غيره فاعلاً بإرادته ومحبته ورضاه، وأما من جعل (العبد)[٢] مريداً محباً مؤثراً لما يفعله، فكيف يقال: إنه جبره عليه، فهو سبحانه أجل وأعظم وأقدر من أن يجبر عبده ويكرهه على فعل ما يشاؤه منه، بل إذا شاء من عبده أن يفعل فعلاً جعله قادراً عليه، مريداً له، محباً مختاراً لإيقاعه، وهو أيضاً قادر على أن (يجعله)[٣] فاعلاً له باختياره مع كراهته له وبغضه ونفرته عنه.

وكل ما يقع من العباد بإرادتهم ومشيئتهم، فهو سبحانه الذي جعلهم فاعلين له؛ سواء أحبوه أو أبغضوه (وكرهوه، وهو سبحانه لم يجبرهم، في النوعين كما يجبر غيره من لا يقدر على جعله فاعلاً)[٤] بإرادته ومشيئته، نعم نحن لا ننكر استعمال لفظ الجبر فيما هو أعم من ذلك، بحيث يتناول من قهر غيره وقدر على جعله فاعلاً لما يشاء فعله، وتاركاً لما لا يشاء فعله، فإنه سبحانه المحدث لإرادته له وقدرته عليه (كما)[٥] قال محمد بن كعب (القرظي)[٦] في اسم (الجبار) سبحانه: هو الذي جبر العباد على ما أراد[٧] .

وفي الدعاء المعروف عن علي رضي الله عنه: (اللهم داحي المدحوات، وبارئ

---

(١) في م، د، س: وأعز .

(٢) في م، س: فعل العبد .

(٣) في د: جعله .

(٤) ما بين القوسين ساقط من ت .

(٥) ساقطة من د، س .

(٦) في د، س: القرطبي، وهو خطأ . انظر ترجمة محمد بن كعب القرظي في ص (٣٨٩).

(٧) سبق تخريجه في ص (٧٥٦) .

المسموكات، جبار القلوب على فطراتها شقيها وسعيدها)[١].

١٢٥ب فالجبر بهذا (الاعتبار)[٢] معناه: القهر / والقدرة، وأنه سبحانه قادر على أن يفعل بعبده ما شاء، إذا شاء منه شيئاً وقع ولا بد، وإن لم يشأه لم يكن، ليس كالعاجز الذي يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء.

والفرق بين هذا الجبر وجبر المخلوق لغيره من وجوه:

أحدها: أن المخلوق لا قدرة له (على)[٣] جعل الغير مريداً للفعل محباً له، والرب تعالى قادر على جعل عبده كذلك.

الثاني: أن المخلوق قد يجبر غيره إجباراً يكون به ظالماً (له)[٤] معتدياً عليه، والرب تعالى أعدل من ذلك، فإنه لا يظلم أحداً من خلقه، بل مشيئته نافذة فيهم بالعدل والإحسان، بل عدله فيهم من إحسانه إليهم، كما سنبينه إن شاء الله.

الثالث: أن المخلوق يكون في جبره لغيره سفيهاً أو عاتياً أو جاهلاً، والرب تعالى إذا (جبل)[٥] عبده على أمر من الأمور كان له في ذلك من الحكمة والعدل والإحسان والرحمة ما هو محمود عليه بجميع وجوه

---

(١) ذكره ابن عبد البر رحمه الله في التمهيد (١٨/ ٧٩) وأبو القاسم إسماعيل التيمي رحمه الله في كتاب الحجة في بيان المحجة (١/ ١٣١) وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى (٨/ ١٣٢، ٣٩٥، ٤٦٥).

(٢) في د، س: المعنى.

(٣) ساقطة من د.

(٤) ساقطة من م، د، س.

(٥) في د، س: جبر.

الحمد[١].

الرابع: أن المخلوق يجبر غيره لحاجته إلى ما يجبره عليه، ولانتفاعه بذلك، وهذا لأنه فقير بالذات، وأما الرب تعالى، فهو الغني (بذاته)[٢] الذي كل ما سواه محتاج إليه، وليس به حاجة إلى أحد.

الخامس: أن المخلوق يجبر غيره لنقصه، فيجبره ليحصل له الكمال بما أجبره عليه، والرب تعالى له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وكماله من لوازم ذاته لم يستفده من خلقه، بل هو الذي أعطاهم من الكمال ما يليق بهم، فالمخلوق يجبر غيره ليكتمل (نقصه به)[٣]، والرب تعالى منزه عن كل نقص، فكماله المقدس ينفي الجبر.

السادس: أن المخلوق يجبر غيره على فعل يعينه على غرضه لعجزه عن التوصل إليه (إلا)[٤] بمعاونته له، فصار الفعل من هذا، والإكراه والقهر من هذا، محصلاً لغرض المكره كما أن المعين لغيره باختياره شريك له في الفعل، والرب / تعالى غني عما سواه بكل وجه فيستحيل في حقه الجبر. ١٣٦أ

السابع: أن المجبور على (فعل)[٥] ما لا يريد فعله يجد من نفسه فرقاً ضرورياً بينه وبين ما يريد فعله باختياره ومحبته، فالتسوية بين الأمرين تسوية بين ما علم بالحس والاضطرار والفرق بينهما، وهو كالتسوية بين حركة المرتعش وحركة الكاتب، وهذا من أبطل الباطل.

---

(١) انظر الفروق الثلاثة في فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٨/ ٤٦٥).

(٢) ساقط من ت.

(٣) ما بين القوسين ساقط من م، د، س.

(٤) ساقط من ت.

(٥) ساقطة من م، د، س.

الثامن: أن الله سبحانه قد فطر العباد على أن المجبور المكره على الفعل معذور لا يستحق الذم والعقوبة، ويقولون: قد أكره على كذا وجبره عليه السلطان، وكما أنهم مفطورون على هذا فهم مفطورون أيضاً على ذم من فعل القبائح باختياره (وإرادته وعدم عذره، ولا يقولون: هو معذور ولا فاعل بغير اختياره)[1]، وشريعته سبحانه موافقة لفطرته في ذلك، فمن سوى بين الأمرين، فقد خرج عن موجب الشرع والعقل والفطرة .

التاسع: أن من أمر غيره بمصلحة المأمور وما هو محتاج إليه ولا سعادة له ولا فلاح إلا به، لا يقال جبره على ذلك، وإنما يقال: نصحه وأرشده ونفعه وهداه ونحو ذلك، وقد لا يختار المأمور المنهي ذلك، فيجبره الناصح له على ذلك من له ولاية الإجبار، وهذا جبر (بحق)[2] وهو جائز؛ بل واقع في شرع الرب، وقدره وحكمته ورحمته وإحسانه لا تمنع هذا الجبر .

العاشر: أن الرب ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فجعله العبد فاعلاً لقدرته ومشيئته واختياره أمر يختص به تبارك وتعالى، والمخلوق لا يقدر أن يجعل غيره فاعلاً إلا بإكراهه له على ذلك، فإن لم يكرهه لم يقدر على غير الدعاء والأمر بالفعل، وذلك لا يصير العبد فاعلاً، فالمخلوق هو الذي يجبر غيره على الفعل ويكرهه عليه، فنسبة ذلك إلى ١٣٦ب الرب / تشبيه له في أفعاله بالمخلوق الذي لا يجعل غيره فاعلاً إلا بجبره له وإكراهه، فكمال قدرته تعالى وكمال علمه وكمال مشيئته، وكمال عدله وإحسانه، وكمال غناه، وكمال ملكه، وكمال حجته على عبده تنفي الجبر.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من م، د، س .

(٢) في د، س: الحق .

فصل

فالطوائف كلها متفقة على الكسب، ومختلفون في حقيقته.

فقالت القدرية هو: إحداث العبد لفعله بقدرته ومشيئته استقلالاً، وليس للرب صنع فيه، ولا هو خالق فعله، ولا مكونه، ولا مريداً له [١] .

وقالت الجبرية: الكسب اقتران الفعل بالقدرة الحادثة من غير أن يكون لها فيه (أثر)[٢]* وكلا الطائفتين فرق بين الخلق والكسب، ثم اختلفوا فيما وقع به الفرق .

فقال الأشعري في عامة كتبه: الكسب أن يكون الفعل بقدرة محدثة، فمن (وقع منه)[٣] الفعل بقدرة قديمة، فهو فاعل خالق، ومن وقع منه بقدرة محدثة، فهو مكتسب[٤] .

وقال قائلون: من يفعل بغير آلة ولا جارحة فهو خالق، ومن يحتاج في فعله إلى الآلات والجوارح فهو مكتسب. وهذا قول الإسكافي[٥] وطوائف من المعتزلة .

---

(١) انظر شرح الأصول الخمسة ص (٣٢٣، ٣٨٠) .

(٢) في د ،س: أمر .

(*) نهاية سقط نسخة ع . والذي بدأ من ص (٧٧٥) .

(٣) في د، منع .

(٤) سبق توثيق القول انظر ص (٧٥٨) وما بعدها .

(٥) هو: محمد بن عبد الله، أبو جعفر الإسكافي، من متكلمي المعتزلة، وأحد أئمتهم، تنسب إليه الطائفة الإسكافية منهم. وهو بغدادي، أصله من سمرقند، مات سنة ٢٤٠هـ لسان الميزان (٥/ ٢٢١) والأعلام (٦/ ٢٢١) .

قال: واختلفوا هل يقال: إن الإنسان فاعل على الحقيقة، فقالت المعتزلة كلها إلا الناشئ[١]: إن الإنسان فاعل محدث ومخترع ومنشئ على الحقيقة دون المجاز[٢].

وقال الناشئ: الإنسان لا يفعل في الحقيقة، ولا يحدث في الحقيقة، وكان يقول: إن البارئ أحدث كسب الإنسان. قال: فلزمه محدث لا لمحدث في الحقيقة، ومفعول لا لفاعل في الحقيقة[٣].

قلت: وجه إلزامه ذلك أنه قد أعطى أن الإنسان غير فاعل لفعله، وفعله محدث مفعول، وليس هو فعلاً لله، ولا فعلاً للعبد، فلزمه مفعول من غير فاعل. ولعمر الله، إن هذا الإلزام لأبي الحسن والجبرية. فإن عندهم الإنسان ليس بفاعل حقيقة، والفاعل هو الله، وأفعال الإنسان قائمة به لم تقم / بالله، ١٣٧أ فإذا لم يكن الإنسان فاعلها مع قيامها به فكيف يكون الله سبحانه هو فاعلها، ولو كان هو فاعلها، لعادت أحكامه عليه، واشتقت له منها أسماء، وذلك ممتنع مستحيل على الله، فيلزمك أن تكون أفعالاً لا فاعل لها، فإن العبد ليس بفاعل عندك ولو كان الرب فاعلاً لها لاشتقت لها منها أسماء وعاد حكمها عليه.

فإن قيل: فما تقولون أنتم في هذا المقام؟

قلنا: لا نقول بواحد من القولين، بل نقول: هي أفعال للعباد حقيقة

---

(١) هو: عبد الله بن محمد، الناشئ الأنباري، أبو العباس: شاعر مجيد، يعد في طبقة ابن الرومي والبحتري، أصله من الأنبار. أقام ببغداد مدة طويلة، وخرج إلى مصر، فسكنها وتوفي بها سنة ٢٩٣هـ وهو من العلماء بالأدب والمنطق. تاريخ بغداد (١٠/ ٩٢) وفيات الأعيان (١/ ٢٦٣) الأعلام (٤/ ١١٨).

(٢) انظر مقالات الإسلاميين ص (٥٣٩).

(٣) انظر مقالات الإسلاميين ص (٥٣٩).

ومفعول للرب، فالفاعل عندنا غير المفعول، وهو إجماع من أهل السنة، حكاه الحسين بن مسعود البغوي[١] وغيره[٢] .

فالعبد فعلها حقيقة، والله خالقه وخالق ما فعل به من القدرة والإرادة وخالق فاعليته. وسر المسألة أن العبد فاعل منفعل باعتبارين، (بل)[٣] هو منفعل في (فاعليته)[٤] فربه تعالى هو الذي جعله فاعلاً بقدرته ومشيئته وأقدره على الفعل، وأحدث له المشيئة التي يفعل بها .

قال الأشعري: وكثير من أهل الإثبات يقولون إن الإنسان فاعل في الحقيقة بمعنى مكتسب، ويمنعون أنه محدث[٥] .

قلت: هؤلاء وقفوا (عند)[٦] ألفاظ الكتاب والسنة، فإنهما مملوآن من نسبة الأفعال إلى العبد باسمها العام، وأسمائها الخاصة، فالاسم العام كقوله تعالى: ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾[٧] ﴿ تَفْعَلُونَ ﴾[٨] ﴿ تَكْسِبُونَ ﴾[٩]، والأسماء الخاصة

---

(١) سبقت ترجمته في ص (٣٣٢) .

(٢) لم أعثر على حكاية البغوي لهذا الإجماع .

(٣) في ع، د، س: هل .

(٤) في ع، د، س: في فاعليه .

(٥) انظر مقالات الإسلاميين ص ٥٤٠ .

(٦) في م، ت، مع .

(٧) وردت في آيات كثيرة منها ٧٤، ٨٥، ١١٠، ١٤٠، ١٤٩، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٦٥، ٢٧١، ٢٨٣ من سورة البقرة . انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٦١٥-٦١٧ .

(٨) وردت في سورة النحل آية ٩١، والنمل آية ٨٨، والشورى آية ٢٥، والصف آية ٢، ٣، والانفطار آية ١٢ .

(٩) وردت في سورة الأنعام آية ٣، والأعراف آية٣٩، ويونس آية ٥٢، والزمر آية ٢٤ .

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[١] ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٢] ﴿يُؤْمِنُونَ﴾[٣] ﴿يَخَافُونَ﴾[٤] ﴿يَتُوبُونَ﴾[٥] ﴿يُجَٰهِدُونَ﴾[٦] .

وأما لفظ الإحداث فلم يجئ إلا في الذم، كقوله ﷺ: « لعن الله من أحدث حدثاً، أو آوى محدثاً »[٧] فهذا ليس بمعنى الفعل والكسب .

(١) وردت في سورة البقرة آية ٣، والمائدة آية ٥٥، والأنفال آية ٣، والتوبة آية ٧١، والنمل آية ٣، ولقمان آية ٤ .

(٢) وردت هذه اللفظة في سورة المائدة آية ٥٥، وسورة الأعراف آية ١٥٦، وسورة التوبة آية ٧١، وسورة النمل آية ٣، وسورة لقمان آية ٤ .

(٣) وردت هذه اللفظة في آيات كثيرة، انظر المعجم المفهــرس لألفاظ القرآن الكريم ص(١١١-١١٢) .

(٤) وردت هذه اللفظة في سورة المائدة آية ٢٣، ٥٤، وسورة الأنعام آية ٥١، وسورة الرعد آية ٢١، وسورة النحل آية ٥٠، وسورة الإسراء آية ٥٧، وسورة النور آية ٣٧، ٥٠، وسورة الذاريات آية ٣٧، وسورة المدثر آية ٥٣، وسورة الإنسان آية ٧.

(٥) وردت هذه اللفظة في سورة النساء آية ١٧، وسورة المائدة آية ٧٤، وسورة التوبة آية ١٢٦ .

(٦) وردت هذه اللفظة في سورة المائدة آية ٥٤ .

(٧) هذا طرف من حديث رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ما عندنا شيء إلا كتاب الله وهذه الصحيفة عن النبي ﷺ: « المدينة حرم ما بين عائر إلى كذا، من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ...» إلخ. وهذا الحديث أخرجه: البخاري (٢/ ٢٢١) ك فضائل المدينة ـ باب حرم المدينة. وفي (٤/ ٦٧) ك الجزية والموادعة مع أهل الذمة والكتاب والحرب ـ باب ذمة المسلمين وجوارهم واحدة يسعى بها أدناهم. وفي (٤/ ٦٩) إثم من عاهد ثم غدر، وفي (٨/ ١٠) ك الفرائض ـ باب إثم من تبرأ من مواليه. وفي (٨/ ١٤٤-١٤٥) ك الاعتصام بالسنة ـ باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع، ومسلم (٢/ ٩٩٤-٩٩٨) ك الحج ـ باب فضل المدينة، وفي =

وكذلك قول عبد الله بن مغفل[١] لابنه[٢]: (إياك والحدث في الإسلام)[٣].
ولا يمتنع إطلاقه على فعل الخير مع التقييد (كما)[٤] قال بعض السلف: (إذا أحدث الله لك نعمة، فأحدث لها شكراً، وإذا أحدثت ذنباً فأحدث/ له١٣٧ب توبة)[٥]. ومنه قول: (هل أحدثت توبة، وأحدث للذنب استغفاراً)[٦].
ولا يلزم من ذلك إطلاق اسم (المحدث)[٧] عليه، والإحداث على فعله.
قال الأشعري: (بلغني أن بعضهم أطلق في الإنسان أنه محدث (على)[٨]

= (٢/ ١١٤٧) ك العتق ـ باب تحريم تولي العتيق غير مواليه، وأبو داود (٦/ ١٧-٢٠) ك المناسك ـ باب في تحريم المدينة، والنسائي في سننه الكبرى ـ كتاب الحج، كما في تحفة الأشراف (٧/ ٣٥٠، ٣٥٨)، والترمذي (٤/ ٣٨١-٣٨٢) ك الولاء والهبة ـ باب ما جاء فيمن تولى غير مواليه أو ادعى إلى غير أبيه. والإمام أحمد (١/ ٨١، ١٢٦) . وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٩/ ٣٠-٣٣) وأبو يعلى في مسنده (١/ ٢٢٨، ٢٨٢) . وفي الباب عن أنس عند البخاري (٨/ ١٤٨-١٤٩) ك الاعتصام بالسنة ـ باب إثم من آوى محدثاً.

(١) هو: عبد الله بن مغفل: بمعجمة وفاء ثقيلة، ابن عبيد بن نهم: بفتح النون وسكون الهاء، أبو عبد الرحمن المزني، صحابي، بايع تحت الشجرة، ونزل البصرة، مات سنة سبع وخمسين، وقيل: بعد ذلك. روى له الستة تقريب التهذيب(١/ ٤٥٣) وتهذيب التهذيب (٦/ ٤٢) وأسد الغابة (٣/ ٢٩٤) والإصابة (٢/ ٤٧٢) .

(٢) لم أعثر له على ترجمة .

(٣) لم أعثر له على تخريج .

(٤) ساقطة من د، س .

(٥) لم أعثر له على تخريج .

(٦) لم عثر له على تخريج .

(٧) في د: الحدث .

(٨) في ع، د، س: في .

الحقيقة، بمعنى مكتسب)[١] .

قلت: هاهنا ألفاظ، وهي فاعل، وعامل، ومكتسب، وصانع، ومحدث، وجاعل، ومؤثر، ومنشئ، وموجد، وخالق، وبارئ، ومصور، وقادر، ومريد، وهذه الألفاظ ثلاثة أقسام :

قسم لم يطلق إلا على الرب سبحانه، كالبارئ والبديع والمبدع .

وقسم لا يطلق إلا على العبد كالكاسب والمكتسب .

وقسم وقع إطلاقه على الرب والعبد، كاسم صانع وفاعل وعامل ومنشئ ومريد وقادر، وأما الخالق والمصور، فإن استعملا مطلقين غير مقيدين لم يطلقا إلا على الرب سبحانه؛ كقوله ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[٢] . وإن استعملا مقيدين أطلقا على العبد (كما)[٣] يقال لمن قدر شيئاً في نفسه إنه خلقه قال:

ولأنت تفري ما خلقتَ وبعـــ ـــضُ القومِ يخلُق ثم لا يَفْري[٤]

أي: لك قدرة تمضي وتنفذ بها ما قدرته في نفسك، وغيرك يقدر أشياء، وهو عاجز عن إنفاذها وإمضائها .

وبهذا الاعتبار صح إطلاق (خالق) على العبد في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[٥] أي أحسن المصورين والمقدرين، (والعرب)[٦] تقول:

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين ص (٥٤٠) .

(٢) سورة الحشر آية ٢٤ .

(٣) ساقطة من د .

(٤) سبق تخريجه في ص (٤٦٦) .

(٥) سورة المؤمنون آية ١٤ .

(٦) في د: والعرف .

(قدرت الأديم وخلقته: إذا قسته لتقطع منه مزادة أو قربة أو نحوها[١]) .

قال مجاهد: ((يصنعون)[٢] ويصنع الله، والله خير الصانعين)[٣] .

وقال الليث: رجل خالق: أي صانع، وهن الخالقات، للنساء[٤] .

وقال مقاتل: يقول الله تعالى: هو أحسن خلقاً من الذين يخلقون التماثيل وغيرها التي لا يتحرك منها شيء[٥] .

وأما البارئ، فلا يصح إطلاقه إلا عليه سبحانه، فإنه الذي برأ الخليقة وأوجدها بعد عدمها، والعبد لا تتعلق قدرته بذلك، إذ غاية مقدوره التصرف في بعض صفات ما أوجده الرب تعالى / وبرأه، وتغييرها من حال ١٢٨أ إلى حال على وجه مخصوص لا تتعداه قدرته، وليس من هذا (بريت القلم) لأنه معتل لا مهموز، ولا (برأت من المرض) لأنه فعل لازم غير متعد .

وكذلك مبدع الشيء وبديعه لا يصح إطلاقه إلا على الرب تعالى، كقوله: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٦]. والإبداع: إيجاد المبدع على غير مثال سابق. والعبد يسمى مبتدعاً، لكونه أحدث قولاً لم تمض به سنة، ثم يقال لمن اتبعه عليه: مبتدع أيضاً .

---

(١) انظر الصحاح (٤/ ١٤٧٠) مادة (خلق) .

(٢) في م: يصنع .

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٨/ ١١) . وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٩٤) ولم ينسبه إلى أحد غير ابن جرير .

(٤) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط)٩ ق(٤٢) مخطوط، محفوظ أصله، وتوجد صورة منه بمركز الملك فيصل بالرياض تحت رقم ١٣٩١/ ف.

(٥) المرجع السابق (ق٤٢-٤٣) .

(٦) سورة البقرة آية ١١٧، وسورة الأنعام آية ١٠١ .

وأما لفظ الموجد، فلم يقع في أسمائه سبحانه، وإن كان هو الموجد على الحقيقة .

ووقع في أسمائه الواجد، وهو بمعنى الغني الذي له الود، وأما الموجد، فهو مفعل من أوجد، وله معنيان:

أحدهما: أن يجعل الشيء موجوداً، وهو تعدية وجده وأوجده. قال الجوهري: وجد الشيء من عدم، فهو (موجود)، مثل: حم فهو محموم، وأوجده الله. ولا يقال: وجده[١] .

والمعنى الثاني: أوجده: جعل له جدة وغنى، وهذا يتعدى إلى مفعولين. قال في الصحاح: أوجده الله مطلوبه. أي أظفره به، وأوجده، أي أغناه[٢] .

قلت: وهذا يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون من باب حذف أحد المفعولين، أي أوجده مالاً وغنى. وأن يكون من باب صيّره واجداً. مثل أغناه وأفقره: إذا صيره غنياً وفقيراً. فعلى التقدير الأول يكون تعدية وجد مالاً وغنى وأوجده الله إياه .

وعلى **الثاني:** يكون تعدية وجد وجداً: إذا استغنى . ومصدر هذا الوجد بالضم والفتح والكسر. قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾[٣] فغير ممتنع أن يطلق على من يفعل بالقدرة المحدثة أنه أوجد مقدوره، كما يطلق عليه أنه فعله وعلمه وصنعه وأحدثه، لا على سبيل الاستقلال. وكذلك لفظ المؤثر لم يرد إطلاقه في أسماء الرب، وقد وقع إطلاق الأثر والتأثير على فعل العبد، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا

---

(١) انظر الصحاح (٢/ ٥٤٧) مادة (وجد) .

(٢) انظر الصحاح (٢/ ٥٤٧) مادة (وجد) .

(٣) سورة الطلاق آية ٦ .

﴿قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمۡ﴾[1] قال ابن عباس: ما أثروا / من خير أو شر[2]. فسمى ١٣٨ب ذلك آثاراً لحصوله بتأثيرهم .

ومن العجيب أن المتكلمين يمتنعون من إطلاق التأثير والمؤثر على من أطلق عليه في القرآن والسنـة، كما قال النبي ﷺ: «يا بني[3] سلمة: دياركم تكتب آثاركم»[4] . أي الزموا دياركم. ويخصونه بمن لم يقع إطلاقه عليه في كتاب ولا سنة، وإن استعمل في حقه الإيثار والاستئثار كما قال (أخوة)[5] يوسف ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا ﴾[6] .

وفي الأثر: (إذا استأثر الله بشيء فاله عنه)[7] وقال الناظم[8] :

استأثر الله بالثناء وبالحمد وولى الملامة الرجـلا[9] .

ولما كان التأثير تفعيلاً من أثرت كذا تأثيراً، فأنا مؤثر لم يمتنع إطلاقه على العبد. قال في الصحاح التأثير: إبقاء الأثر في الشيء[10] .

---

(١) سورة يس آية ١٢ .

(٢) سبق تخريجه في ص (٣٧٨) .

(٣) في ع، د، س: لبنى .

(٤) سبق تخريجه في ص (٣٧٩) .

(٥) في ع، د، س: أخو .

(٦) كما حكاه الله عز وجل عنهم في سورة يوسف آية ٩١ .

(٧) لم أعثر له على تخريج .

(٨) هو: الأعشى ميمون بن قيس، سبقت ترجمته في ص (٧٥٣) .

(٩) انظر ديوان الأعشى ص(٢٣٣) شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، نشر مكتبة الآداب بالجماميز .

(١٠) انظر الصحاح (٢/ ٥٧٦) مادة (أثر) .

وأما لفظ الصانع، فلم يرد في أسماء الله تعالى ولا يمكن وروده، فإن الصانع من صنع شيئاً عدلاً كان أو ظلماً، سفهاً أو حكمة، جائزاً أو غير جائز، وما انقسم مسماه إلى مدح وذم لم يجيء اسمه المطلق في الأسماء الحسنى، كالفاعل، والعامل، والصانع، والمريد، والمتكلم، لانقسام معاني هذه الأسماء إلى محمود ومذموم، بخلاف العالم والقادر والحي والسميع والبصير. وقد سمى النبي ﷺ العبد صانعاً. قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا مروان بن معاوية، حدثنا أبو مالك، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة قال: قال النبي ﷺ: « إن الله يصنع كل صانع وصنعته »[(١)].

وقد أطلق سبحانه على فعله اسم الصنع، فقال: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[(٢)] وهو منصوب على المصدر، لأن قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾[(٣)] يدل على الصنعة[(٤)]. وقيل: هو نصب على المفعولية، أي انظروا صنع الله، فعلى الأول يكون صنع الله مصدراً بمعنى الفعل، وعلى الثاني يكون بمعنى المصنوع (المفعول)[(٥)]، فإنه الذي / يمكن وقوع النظر الرؤية عليه.

١٣٩أ

وأما الإنشاء، فإنما وقع إطلاقه عليه سبحانه فعلاً كقوله: ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾[(٦)] وقوله: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾[(٧)] وقوله: ﴿وَنُنشِئَكُمْ

---

(١) سبق تخريجه والترجمة لرجال إسناده في ص(٦٩٧).

(٢) سورة النمل آية ٨٨.

(٣) سورة النمل آية ٨٨.

(٤) كأنه قيل: صنع الله ذلك صنعاً. انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ١٣٠).

(٥) في د: والمفعول. بزيادة الواو.

(٦) سورة الرعد آية ١٢.

(٧) سورة المؤمنون آية ١٩.

فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١] وهو كثير، ولم يرد لفظ المنشئ .

وأما العبد، فيطلق عليه الإنشاء باعتبار آخر، وهو شروعه في الفعل ابتداؤه لـه، يقول: أنشأ يحدثنا، وأنشأ الشي، فهو منشئ لذلك، وهذا إنشاء مقيد، وإنشاء الرب إنشاء مطلق .

وهذه اللفظة تدور على معنى الابتداء، أنشأه الله أي: ابتدأ خلقه، وأنشأ يفعل كذا، وابتدأ، وفلان ينشئ الأحاديث، أي: يبتدئ وضعها، والناشئ: أول ما ينشأ من السحاب. قال الجوهري: وناشئة الليل أول ساعته[٢] .

(قلت: هذا قد قاله غير واحد من السلف: إن ناشئة الليل أوله)[٣] التي منها ينشأ الليل[٤]، والصحيح أنها لا تختص بالساعة الأولى، بل هي ساعاته ناشئة بعد ناشئة، كما انقضت ساعة نشأت بعدها أخرى .

قال أبو عبيدة: ناشئة الليل: ساعاته وآناؤه، ناشئة بعد ناشئة[٥] .

قال الزجاج: ناشئة الليل: كل ما نشأ منه، أي حدث منه، فهو ناشئة[٦] .

قال ابن قتيبة[٧]: هي آناء الليل وساعاته، مأخوذة من نشأت تنشأ نشئاً،

---

(١) سورة الواقعة آية ٦١ .

(٢) انظر الصحاح (١/ ٧٨) مادة (نشأ) .

(٣) ما بين القوسين ساقط من د .

(٤) كابن عمر، وأنس بن مالك، وعلي بن الحسين، وعطاء، وعكرمة . انظر تفسير القرطبي (١٩/ ٢٧) .

(٥) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٣) . ورواه أيضاً أبو إسحاق الحربي في كتابه غريب الحديث (٢/ ٨٨٢) والأزهري في تهذيب اللغة (١١/ ٤١٩) مادة (نشأ) .

(٦) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٢٤٠) .

(٧) سبقت ترجمته في (٥٠٤) .

أي: ابتدأت وأقبلت شيئاً بعد شيء، ونشأها الله فنشأت[١]. والمعنى أن ساعات الليل: الناشئة. وقول صاحب الصحاح منقول عن كثير من السلف. قال علي بن الحسين[٢]: ناشئة الليل ما بين المغرب إلى العشاء[٣].

وهذا قول أنس[٤] وثابت[٥] وسعيد بن جبير[٦] والضحاك[٧] (والحكم[٨])[٩]

---

(١) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص (٣٦٥).

(٢) هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، زين العابدين، ثقة ثبت، عابد فقيه، فاضل مشهور، قال ابن عيينة عن الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه، من الثالثة، مات سنة ثلاث وتسعين، وقيل: غير ذلك، وروى له الستة تقريب التهذيب (٢/ ٣٥) وتهذيب التهذيب (٧/ ٣٠٤-٣٠٧) وسير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨٦-٤٠١).

(٣) رواه محمد بن نصر في قيام الليل، كما في مختصره للمقريزي ص٢٦، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٣١٧). وتحرف فيه اسم علي بن الحسين إلى حسين بن علي، وزاد نسبته إلى البيهقي وابن المنذر.

(٤) قول أنس: رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ١٩٧) ك الصلوات ـ باب في الصلاة بين المغرب والعشاء. ومحمد بن نصر في قيام الليل، كما في مختصره للمقريزي ص٢٦. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٣١٧) وزاد نسبته إلى البيهقي.

(٥) هو: ثابت بن أسلم البناني: بضم الموحدة، أبو محمد البصري، ثقة عابد، من الرابعة، مات سنة بضع وعشرين ومائة، وله ست وثمانون. روى له الستة. تقريب التهذيب (٢/ ٢-٤). ولم أعثر على تخريج لقوله هذا، وفي المصنف لابن أبي شيبة (٢/ ١٩٧) رواية له عن أنس لهذا القول، وكذا في قيام الليل لابن نصر كما في مختصره ص٢٦.

(٦) سبقت ترجمته في ص (١٨٦)، وقوله: رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ١٩٧) باب في الصلاة بين المغرب والعشاء. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٣١٧) ولم ينسبه إلى غير ابن أبي شيبة.

(٧) سبقت ترجمته في ص(١٩٩).

(٨) هو الحكم بن عتبة، سبقت ترجمته في ص (٢٥٨).

(٩) في ت: والحاكم.

واختيار الكسائي[١]. قالوا: ناشئة الليل: أوله[٢]. وهؤلاء راعوا معنى الأولية في الناشئة.

وفيها قول ثالث: إن الليل كله ناشئة، وهذا قول عكرمة[٣] وأبي مجلز[٤] ومجاهد[٥] والسدي[٦] وابن الزبير[٧] وابن عباس في رواية.

قال ابن أبي مليكة[٨]: سألت ابن الزبير وابن عباس عن ناشئة الليل،

---

(١) سبقت ترجمته في ص (٦٠٤).

(٢) انظر تهذيب اللغة (١١/ ٤١٩) مادة (نشأ). ورواه أيضاً أبو إسحاق الحربي في كتابه غريب الحديث (٢/ ٨٨١).

(٣) سبقت ترجمته في ص(٣٠١). وروى قوله هذا: ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٩/ ١٢٨).

(٤) هو: لاحق بن حميد بن سعيد السدوسي البصري، أبو مجلز، بكسر الميم، وسكون الجيم وفتح اللام بعدها زاي، مشهور بكنيته، ثقة، من كبار الثالثة، مات سنة ست وقيل: تسع ومائة، وقيل: قبل ذلك. روى له الستة، تقريب التهذيب (٢/ ٣٤٠) وتهذيب التهذيب (١١/ ١٧١-١٧٢). وروى قوله هذا: ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٩/ ١٢٩). ومحمد بن نصر في قيام الليل كما في مختصره للمقريزي ص٢٦. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٣١٧) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(٥) سبقت ترجمته في ص (١٩٠). وروى قوله هذا ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٩/ ١٢٨-١٢٩). ومحمد بن نصر في قيام الليل، كما في مختصره للمقريزي (ص٢٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٣١٧) وزاد نسبته إلى الفريابي، وعبد بن حميد.

(٦) رواه محمد بن نصر في قيام الليل، كما في مختصره للمقريزي ص٢٦.

(٧) رواه أبو إسحاق الحربي في كتابه غريب الحديث (٢/ ٨٨١).

(٨) هو: عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة ـ بالتصغير ـ ابن عبد الله بن جدعان، ويقال: اسم أبي مليكة زهير التيمي المدني، أدرك ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، ثقة فقيه، من الثالثة، مات سنة سبع عشرة ومائة. روى له الستة: تقريب التهذيب (١/ ٤٣١) وتهذيب التهذيب (٥/ ٣٠٦-٣٠٧).

١٣٩ب فقالا: الليل / كله ناشئة[١] .

فهذه أقوال من جعل ناشئة الليل زماناً .

وأما من جعلها فعلاً ينشأ بالليل، فالناشئة عندهم اسم لما يفعل بالليل من القيام. وهذا قول ابن مسعود[٢]، ومعاوية بن قرة[٣] .

وجماعة. قالوا: ناشئة الليل: قيام الليل[٤] .

وقال آخرون، منهم عائشة: إنما يكون القيام ناشئة إذا تقدمه نوم، قالت عائشة: ناشئة الليل: القيام بعد النوم[٥]. (وهو)[٦] قول ابن الأعرابي[٧]، قال: إذا نمت من أول الليل نومة ثم قمت فتلك النشأة، ومنه ناشئة الليل[٨] .

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٩/ ١٢٨) والبيهقي في سننه (٢/ ٥٠٠) . وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٣١٦) وزاد نسبته إلى الفريابي وابن أبي حاتم .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٥) وقال: حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٣١٦) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم .

(٣) هو: معاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزني، أبو إياس البصري، ثقة عالم، من الثالثة، مات سنة ثلاث عشرة ومائة، وهو ابن ست وسبعين سنة. روى له الستة. تقريب التهذيب (٢/ ٢٦١) وتهذيب التهذيب (١٠/ ٢١٦-٢١٧) . وروى قوله هذا: محمد بن نصر في قيام الليل كما في مختصره للمقريزي ص (٢٦) .

(٤) ذكر هذه الأقوال الأزهري في تهذيب اللغة (١١/ ٤١٩) مادة (نشأ) . وأبو إسحاق الحربي في كتابه غريب الحديث (٢/ ٨٨١) .

(٥) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة (١١/ ٤١٩) مادة (نشأ). والقرطبي في تفسيره (١٩/ ٢٧-٢٨) والواحدي في تفسيره (البسيط) ق(١٤٤) مرجع سابق انظر ص(٢٥٤).

(٦) في ع، د س: وهذا .

(٧) سبقت ترجمته في ص (٥٤٨) .

(٨) ذكره الواحدي في تفسيره (البسيط) ق(١٤٤). مرجع سابق .

فعلى قول الأولين ناشئة الليل (إضافة)[١] بمعنى (من)، إضافة نوع إلى جنسه أي ناشئة منه .

وعلى قول هؤلاء إضافة بمعنى (في)، أي طاعة ناشئة فيه، والمقصود أن الإنشاء ابتداء، سواء تقدمه مثله كالنشأة الثانية، أو لم يتقدمه كالنشأة الأولى.

وأما الجعل، فقد أطلق على الله سبحانه بمعنيين:

أحدهما: الإيجاد والخلق .

والثاني: التصيير، فالأول يتعدى إلى مفعول؛ كقوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[٢] والثاني أكثر ما يتعدى إلى مفعولين؛ كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[٣] وأطلق على العبد بالمعنى الثاني خاصة كقوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾[٤] وغالب ما يستعمل في حق العبد في جعل التسمية والاعتقاد حيث لا يكون له صنع في المجعول، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾[٥] وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾[٦] .

وهذا (متعد)[٧] إلى واحد وهو جعل اعتقاد وتسمية .

---

(١) ساقطة من د، س .

(٢) سورة الأنعام آية ١ .

(٣) سورة الزخرف آية ٣

(٤) سورة الأنعام آية ١٣٦ .

(٥) سورة الزخرف آية ١٩ .

(٦) سورة يونس آية ٥٩ .

(٧) في ع، د، س: يتعدى .

وأما الفعل والعلم، فإطلاقه على العبد كثير، ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[(١)] وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(٢)] ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٣)] .

وأطلق على نفسه فعلاً واسماً، فالأول كقوله: ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾[(٤)] والثاني كقوله: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[(٥)]. وقوله: ﴿ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ في موضعين من كتابه :

أحدهما: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[(٦)] .

والثاني: / قوله: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[(٧)] . ١٤٠/أ

فتأمل قوله: ﴿كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ في هذين الموضعين المتضمنين للصنع العجيب الخارج عن العادة كيف تجده كالدليل على ما أخبر به، وأنه لا يستعصي على الفاعل حقيقة، أي شأننا الفعل كما لا يخفى الجهر والإسرار

---

(١) سورة المائدة آية ٧٩ .

(٢) سورة المائدة آية ٦٢ .

(٣) سورة المائدة آية ١٠٥، وسورة الأنعام آية ٦٠، وسورة الأعراف آية ٤٣، وسورة التوبة آية ٩٤، ١٠٥، وسورة يونس آية ٢٣، وسورة النحل آية ٢٨، ٣٢، وسورة العنكبوت آية ٨، وسورة لقمان آية ١٥، وسورة السجدة آية ١٤، وسورة الزمر آية ٧، وسورة الزخرف آية ٧٢، وسورة الطور آية ١٩، وسورة المرسلات آية ٤٣.

(٤) سورة إبراهيم آية ٢٧ .

(٥) سورة هود آية ١٠٧، وسورة البروج آية ١٦ .

(٦) سورة الأنبياء آية ٧٩ .

(٧) سورة الأنبياء آية ١٠٤ .

بالقول على من شأنه العلم والخبرة، ولا تصعب المغفرة على من شأنه أن يغفر الذنوب، ولا الرزق على من شأنه أن يرزق العباد.

وقد وقع الزَّجَّاج على هذا المعنى بعينه، فقال: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ (أي)[1] قادرين على فعل ما نشاء[2][3].

* * *

(١) ساقطة من ع، د، س.

(٢) في ت: زيادة: به.

(٣) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٤٠٧).






الباب الثامن عشر

في فعل وأفعل في القضاء والقدر والكسب وذكر الفعل والانفعـــــال




الباب الثامن عشر
في فعل وأفعل في القضاء والقدر والكسب وذكر الفعل والانفعال

ينبغي الاعتناء بكشف هذا الباب وتحقيق معناه، فبذلك ينحل عن العبد أنواع من ضلالات القدرية والجبرية، حيث لم يعطوا هذا الباب حقه من العرفان.

اعلم أن الرب تعالى فاعل غير منفعل، والعبد فاعل منفعل، وهو في فاعليته منفعل للفاعل الذي لا ينفعل بوجه .

فالجبرية شهدت كونه منفعلاً يجري عليه الحكم بمنزلة الآلة والمحل، وجعلوا حركته بمنزلة حركات الأشجار، ولم يجعلوه فاعلاً إلا على سبيل المجاز، فقام وقعد، وأكل وشرب، وصلى وصام، عندهم بمنزلة مرض، وألم ومات، ونحو ذلك مما هو فيه منفعل (محض)[1] .

والقدرية شهدت كونه فاعلاً محضاً غير منفعل في فعله .

وكل من الطائفتين نظر بعين عوراء، وأهل العلم والاعتدال أعطوا كلا المقامين حقه، ولم يبطلوا أحد الأمرين بالآخر، فاستقام لهم نظرهم ومناظرتهم، واستقر عندهم الشرع والقدر في نصابه، (وشهدوا)[2] وقوع الثواب والعقاب على من هو أولى به، فأثبتوا نطق العبد حقيقة، وإنطاق / ١٤٠ب الله له حقيقة، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ

(١) في د : محضاً .

(٢) في ع ، د، س :ومهدوا .

ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[١] فالإنطاق (فعل)[٢] الله الذي لا يجوز تعطيله، والنطق فعل العبد الذي لا يمكن إنكاره، كما قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[٣] فعلم أن كونهم ينطقون هو أمر حقيقي (حتى)[٤] شبه في تحقيق (كونه)[٥] ما أخبر به، وأن هذا حقيقة (لا مجاز. ومن جعل إضافة نطق العبد إليه مجازاً لم يكن ناطقاً عنده حقيقة)[٦] فلا يكون التشبيه بنطقه محققاً لما أخبر به فتأمله.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾[٧] فهو المضحك المبكي حقيقة، والعبد هو الضاحك الباكي حقيقة، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾[٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾[٩] فلولا المنطق الذي أنطق، والمضحك، المبكي الذي أضحك وأبكى لم يوجد ناطق ولا ضاحك ولا باك. فإذا أحب (عبده)[١٠] أنطقه بما يحب

---

(١) سورة فصلت آية ٢١ .

(٢) في ت: قول .

(٣) سورة الذريات آية ٢٣ .

(٤) في ع: حين .

(٥) في د، س: كون .

(٦) ما بين القوسين ساقط من م .

(٧) سورة النجم آية ٤٣ .

(٨) سورة التوبة آية ٨٢ .

(٩) سورة النجم آية ٥٩-٦٠ .

(١٠) في ع، د، س: عبداً .

(فأثابه)[١] عليه، وإذ أبغضه أنطقه بما يكره على لسان هذا، كما أنه أجرى على قلب هذا ما أضحكه، وعلى قلب هذا ما أبكاه .

وكذلك قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[٢] وقوله : ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٣] فالتسيير فعله حقيقة، والسير فعل العبد حقيقة، فالتسيير فعل محض، والسير فعل وانفعال. ومن هذا قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[٤] فهو سبحانه المزوج ، ورسوله المتزوج. وكذلك قولـه : ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[٥] فهو المزوج، وهم المتزوجون. وقد جمع سبحانه بين الأمرين في قولـه : ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٦] فالإزاغة فعله، والزيغ فعلهم .

فإن قيل : أنتم قررتم أنه لم يقع منهم / الفعل إلا بعد فعله، وأنه لولا ١٤١أ إنطاقه لهم، وإضحاكه وإبكاؤه، لما نطقوا ولا ضحكوا ولا بكوا، وقد دلت هذه الآية على أن فعله بعد فعلهم، وأنه أزاغ قلوبهم بعد أن زاغوا، وهذا يدل على أن إزاغة قلوبهم هو حكمه عليها بالزيغ لا جعلها زائغة، وكذلك

---

(١) في ع، د، س : وأثابه .

(٢) سورة يونس آية ٢٢ .

(٣) سورة الأنعام آية ١١ . وسورة النمل آية ٦٩، وسورة العنكبوت آية ٢٠ . وسورة الروم آية ٤٢ .

(٤) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٥) سورة الدخان آية ٥٤ .

(٦) سورة الصف آية ٥ .

قولـه : ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾[١] والمراد (به)[٢] جعل لنا آلة النطـق، (و)[٣] ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[٤] جعل لهم آلة الضحك والبكاء .

قيل : أما الإزاغة المترتبة على زيغهم، فهي إزاغة أخرى غير الإزاغة التي زاغوا بها أولاً عقوبة لهم على زيغهم والرب تعالى يعاقب على السيئة بمثلها كما يثيب على الحسنة بمثلها. فحدث لهم زيغ آخر غير الزيغ الأول، فهم زاغوا أولاً، فجازاهم الله بإزاغة فوق زيغهم (فأحدثت لهم تلك الإزاغة زيغاً فوق زيغهم)[٥] .

فإن قيل : فالزيغ الأول من فعلهم، وهو مخلوق لله فيهم على غير وجه الجزاء وإلا تسلسل الأمر .

قيل : بل الزيغ الأول وقع جزاءً لهم وعقوبة على تركهم الإيمان والتصديق لما جاءهم (الهدى)[٦]، وهذا الترك أمر عدمي لا يستدعي فاعلاً، فإن تأثير الفاعل إنما (هو)[٧] في الوجود لا في العدم .

فإن قيل : فهذا الترك العدمي له سبب أو لا سبب له .

قيل : سببه عدم سبب ضده، فبقي على العدم الأصلي، ويشبه هذا قوله

---

(١) سورة فصلت آية ٢١ .

(٢) ساقطة من د ، س .

(٣) ساقطة من د .

(٤) سورة النجم آية ٤٣ .

(٥) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

(٦) في ع ، د، س : من الهدى .

(٧) ساقطة من د .

سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾[١] عاقبهم على نسيانهم له بأن أنساهم أنفسهم، فنسوا مصالحها أن يفعلوها، وعيوبها أن يصلحوها، وحظوظها أن يتناولوها. ومن أعظم مصالحها وأنفع حظوظها ذكرها لربها وفاطرها، (ومن)[٢] لا نعيم لها ولا سرور ولا فلاح ولا صلاح إلا بذكره وحبه وطاعته، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فأنساهم ذلك لما نسوه، وأحدث لهم هذا النسيان نسياناً آخر، وهذا / ضد حال الذين ١٤١ب ذكروه ولم ينسوه، فذكرهم مصالح نفوسهم ففعلوها، وأوقفهم على عيوبها فأصلحوها، وعرفهم حظوظها العالية، فبادروا إليها، فجازى أولئك على نسيانهم بأن أنساهم الإيمان (به)[٣] ومحبته وذكره وشكره، فلما خلت قلوبهم لم (يجدوا)[٤] عن ضده محيصاً. وهذا يبين لك كمال عدله سبحانه في تقدير الكفر والذنوب عليها. وإذا كان قضاؤه عليها بالكفر والذنوب عدلاً منه (فيها)[٥] فقضاؤه عليها بالعقوبة أعدل وأعدل، فهو سبحانه ماض في عدله وحكمه، وعدل فيه قضاؤه. وله فيها قضاءان : قضاء السبب، وقضاء المسبب، وكلاهما عدل فيه، فإنه لما ترك ذكره وترك فعل ما يحبه عاقبه بنسيان نفسه، فأحدث له هذا النسيان ارتكاب ما يبغضه ويسخطه بقضائه، الذي هو عدل، فترتبت له على الفعل والترك عقوبات وآلام لم يكن له منها بد، بل

---

(١) سورة الحشر آية ١٩ .

(٢) في ع ، د ، س: وهي .

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

(٤) في م ، ت : يجد .

(٥) في ع ، د ، س : عليها .

هي مترتبة عليه ترتب المسببات على أسبابها. (فهي)[١] عدل محض من الرب تعالى، فعدل في العبد أولاً وآخراً، فهو محسن في عدله محبوب عليه محمود فيه، ويحمده من عدل فيه طوعاً وكرهاً، قال الحسن : لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً[٢] .

وسنزيد هذا الموضع بسطاً وتبياناً في باب دخول الشر في القضاء (الإلهي)[٣] إن شاء الله[٤]، إذ المقصود هاهنا بيان كون العبد فاعلاً منفعلاً، والفرق في هذا الباب بين فعل وأفعل وأن الله سبحانه أفعل، والعبد فعل، فهو الذي أقام العبد وأضله وأماته، والعبد هو الذي قام وضل ومات .

وأما قولكم: إن معنى أنطقه وأضحكه وأبكاه: جعل له آلة ينطق بها ويضحك ويبكي، فإعطاؤه الآلة وحدها لا يكفي في صدق (الفعل)[٥] بأنه أنطقه وأضحكه، فلو أن رجلاً صمت يوماً كاملاً / فحلف حالف أن الله ١٤٢أ أنطقه، لكان كاذباً حانثاً، ولو دعوت كافرين إلى الإسلام فنطق أحدهما بكلمة الشهادة، وسكت الآخر، لم يقل أحد قط : إن الله قد أنطق الساكت كما أنطق المتكلم، وكلاهما قد أعطي آلة النطق، ومتعلق الأمر والنهي والثواب والعقاب، والفعل لا الإفعال .

---

(١) في ع ، د ، س : فهو .

(٢) لم أعثر له على تخريج .

(٣) في م ، ت : الأكبر .

(٤) وهو الباب الحدي والعشرون من هذا الكتاب .

(٥) في د : القول .

فإن قيل: هل تطردون هذا في جميع أفعال العبد من كفره وزناه وسرقته، فتقولون: إن الله أفعله، وهو الذي فعل، أم تخصون ذلك ببعض الأفعال فيظهر تناقضكم؟

قيل: هاهنا أمران: أمر لغوي، وأمر معنوي، فأمَّا اللغوي، فإن ذلك لا يطرد في لغة العرب، ولا يقولون: أزنى الله الرجل وأسرقه وأشربه وأقتله إذا جعله يزني ويسرق ويشرب ويقتل، وإن كان في لغتها: أقامه وأقعده وأنطقه وأضحكه وأبكاه أضله، وقد يأتي هذا مضاعفاً كفهَّمه وعلَّمه وسيَّره، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾[1] فالتفهيم منه سبحانه والفهم من نبيه سليمان، وكذلك قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[2] فالتعليم منه سبحانه، وكذلك التيسير، والسير والتعلم من العبد، فهذا المعنى ثابت في جميع الأفعال، فهو سبحانه الذي جعل العبد فاعلاً كما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[3]، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[4] فهو سبحانه الذي جعل أئمة الهدى يهتدون بأمره، وجعل أئمة الضلال والبدع يدعون إلى النار، فامتناع إطلاق أكلمه فتكلم، لا يمنع من إطلاق أنطقه فنطق. وكذلك امتناع إطلاق أهداه بأمره وأدعاه إلى النار (لا يمنع)[5] إطلاق جعله يهدي بأمره ويدعو إلى النار.

---

(١) سورة الأنبياء آية ٧٩.

(٢) سورة الكهف آية ٦٥.

(٣) سورة الأنبياء آية ٧٣.

(٤) سورة القصص آية ٤١.

(٥) في د، س: لا يمنع من إطلاق ـ بزيادة (من).

فإن قيل : ومع ذلك كله تقولون إن الله سبحانه هو الذي جعل الزانيين يزنيان، وهو الذي جمع بينهما على الفعل، وساق أحدهما إلى صاحبه ؟

١٤٢ب قيل : أصل / بلاء أكثر الناس من جهة الألفاظ المجملة التي تشتمل على حق وباطل، فيطلقها من يريد حقها، فينكرها من يريد باطلها . فيرد عليه من يريد حقها. وهذا باب إذا تأمله الذكي الفطن رأى منه عجائب، وخلصه من ورطات تورط فيها أكثر الطوائف. فالجعل المضاف إلى الله سبحانه يراد به الجعل الذي يحبه ويرضاه، والجعل الذي قدره وقضاه، قال الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾[1] فهذا (نفي)[2] لجعله الشرعي الديني، أي ما شرع ذلك ولا أمر به ولا أحبه ورضيه، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[3] فهذا جعل كوني قدري، أي: قدرنا ذلك وقضيناه، وجعل العبد إماماً يدعو إلى النار أبلغ من جعله يزني ويسرق ويقتل. وجعله أيضاً كذلك لفظ مجمل[4] يراد به أنه جبره وأكرهه عليه، واضطره إليه، وهذا محال في حق الرب تعالى وكماله المقدس يأبى ذلك، وصفات كماله تمنع منه كما تقدم، ويراد به أنه مكنه من ذلك، وأقدره عليه من غير أن يضطره إليه ولا أكرهه ولا أجبره، فهذا حق.

فإن قيل : هذا كله عدول عن المقصود، فمن أحدث معصيته وأوجدها

---

(١) سورة المائدة آية ١٠٣ .

(٢) في ت : بمعنى .

(٣) سورة القصص آية ٤١ .

(٤) في د : لفظ مجمل (لا) يراد به ، والصواب ما أثبت .

وأبرزها من العدم إلى الوجود ؟

قيل : الفاعل لها هو الذي أوجدها وأحدثها وأبرزها من العدم إلى الوجود بإقدار الله له ذلك، وتمكينه منه، من غير إلجاء له ولا اضطرار منه (له)[١] إلى فعلها.

فإن قيل: فمن الذي خلقها إذاً ؟

قيل لكم : ومن الذي فعلها؟

فإن قلتم الرب تعالى هو الفاعل للفسوق والعصيان أكذبتم العقل والفطرة، وكتب الله المنزلة، وإجماع رسله، وإثبات حمده وصفات كماله، فإن فعله سبحانه كله خير، وتعالى أن يفعل شراً بوجه من الوجوه فالشر / ليس ١٤٢أ إليه والخير هو الذي إليه، ولا يفعل إلا خيراً، ولا يريد إلا خيراً (ولا يشاء إلا خيراً)[٢] ولو شاء لفعل غير ذلك، لكنه تعالى (منزه)[٣] عن فعل ما لا ينبغي وإرادته ومشيئته، كما هو منزه عن الوصف به والتسمية (باسمه)[٤] .

(وإن قلتم : العبد هو الذي فعلها بما خلق فيه من الإرادة والمشيئة)[٥] قيل: فالله تعالى خالق أفعال العباد كلها بهذا الاعتبار. ولو سلك الجبري مع القدري هذا المسلك لاستراح معه وأراحه، وكذلك القدري معه ولكن

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س .

(٢) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

(٣) في ع ، د، س : تنزه .

(٤) في ع ، د ، س : به .

(٥) ما بين القوسين ساقط من م .

انحرف الفريقان عن سواء السبيل (كما قال)[١] .

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب[٢]

فإن قيل : فهل يمكنه الامتناع منها وقد خلقت فيه نفسها أو أسبابها الموجبة لها، وخلق السبب الموجب، خلق لمسببه وموجبه ؟

قيل : هذا السؤال يورد على وجهين :

أحدهما : أن يراد به أنه يصير مضطراً إليها، ملجأ إلى فعلها بخلقها أو خلق أسببها (فيه)[٣]، بحيث لا يبقى له اختيار في نفسه ولا إرادة، وتبقى حركته قسرية لا إرادية .

والثاني : أنه هل لاختياره وإرادته وقدرته تأثير فيها ؟

أو التأثير لقدرة الرب ومشيئته فقط؟ ، وذلك هو السبب الواجب للفعل.

فإن أوردتموه على الوجه الأول، فجوابه أنه يمكنه أن يفعل وأن لا يفعل ولا يصير مضطراً ملجأ (بخلقها)[٤] فيه ولا بخلق أسبابها ودواعيها، فإنها إنما خلقت فيه على وجه يمكنه فعلها وتركها (فلو)[٥] لم يمكنه الترك لزم اجتماع النقيضين، وأن يكون مريداً غير مريد، فاعلاً غير فاعل، ملجأ غير ملجئ. وإن أوردتموه على الوجه الثاني، فجوابه أن لإرادته وإخباره وقدرته (أثراً)[٦]

---

(١)ساقط من م، ت .

(٢)ذكره المؤلف في كتابه الكلام على مسألة السماع ، ولم أعرف قائله .

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

(٤) ساقطة من م .

(٥) في ع ، د ، س : ولو .

(٦) في م ، ت : أثر ، ولعله سهو من الناسخ .

فيها، وهي السبب الذي خلقها الله به في العبد، فقولكم إنه لا يمكنه الترك مع الاعتراف بكونه متمكناً من الفعل جمع بين النقيضين، فإنه إذا تمكن من الفعل كان الفعل اختيارياً إن شاء / فعله وإن شاء لم يفعله، فكيف يصح أن ١٤٣ب يقال: لا يمكنه ترك الفعل الاختياري الممكن؟ هذا خلف من القول، وحقيقة الأمر أنه يمكنه الترك لو أراده، لكنه لا يريده، فصار لازماً بالإرادة الجازمة.

فإن قيل : فهذا يكفي في كونه مجبوراً عليه، قيل: (بل)[1] هذا من أدل شيء على بطلان الجبر، فإنه إنما لزم بإرادته المنافية للجبر، ولو كان وجوب الفعل بالإرادة يقتضي الجبر، لكان الرب تعالى وتقدس مجبوراً على أفعاله لوجوبها بإرادته ومشيئته، وذلك محال .

فإن قيل: الفرق أن إرادة الرب تعالى من نفسه لم يجعله غيره مريداً، والعبد إرادته من ربه، إذ هي مخلوقة له، فإنه هو الذي جعله مريداً.

قيل : هذا موضع اضطرب فيه الناس، فسلكت فيه القدرية وادياً، وسلكت الجبرية وادياً . فقالت القدرية : العبد هو الذي يحدث إرادته وليست مخلوقة لله ، والله مكنه من إحداث إرادته بأن خلقه كذلك .

وقالت الجبرية : بل الله تعالى هو الذي يحدث إرادات العبد شيئاً بعد شيء، وإحداث الإرادات فيه كإحداث لونه، وطوله، وقصره، وسواده، وبياضه، مما لا صنع له فيه البتة. فلو أراد أن لا يريد لما أمكنه ذلك، وكان كما لو أراد أن يكون طوله وقصره ولونه على غير ما هو عليه، فهو مضطر إلى الإرادة . وكل إرادة من إراداته، فهي متوقفة على مشيئة الرب تعالى لها

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س .

بخصوصها، فهي مرادة له سبحانه كما هي معلومة مقدورة، فلزمهم القول بالجبر من هذه الجهة، ومن جهة نفيهم أن يكون لإرادة العبد وقدرته أثر في الفعل .

فإن قيل : فأي وادٍ تسلكونه غير هذين الواديين، وأي طريق تمرون فيها سوى هذين الطريقين ؟

قيل : نعم، هاهنا طريق ثالثة لم يسلكها الفريقان، ولم تهتد إليها الطائفتان، ولو حكمت كل طائفة ما معها من الحق / والتزمت لوازمه وطردته، لساقها ١٤٤أ إلى هذه الطريق، ولأوقعها على المحجة المستقيمة. فنقول وبالله التوفيق، وهو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله : العبد بجملته مخلوق لله، جسمه وروحه، وصفاته، وأفعاله، وأحواله، فهو مخلوق من جميع الوجوه، وخلق على نشأة وصفة يتمكن بها من إحداث إرادته وأفعاله. وتلك النشأة بمشيئة الله وقدرته وتكوينه، فهو الذي خلقه وكونه كذلك، وهو لم يجعل نفسه كذلك، بل خالقه وبارئه جعله محدثاً لإرادته وأفعاله، وبذلك أمره ونهاه، وأقام عليه حجته وعرضه للثواب والعقاب، فأمره بما هو متمكن من إحداثه ونهاه عما هو متمكن من تركه، ورتب ثوابه وعقابه على هذه الأفعال والتروك التي مكنه منها، وأقدره عليها، وناطها به، وفطر خلقه على مدحه وذمه عليها، مؤمنهم وكافرهم، المقر بالشرائع منهم والجاحد لها، فكان مريداً شائياً (بمشيئة الله له، ولولا مشيئة الله أن يكون شائياً، لكان أعجز وأضعف من أن يجعل نفسه شائياً)[١] .

(١) ما بين القوسين ساقط من ت .

فالربُّ تعالى أعطاه مشيئة وقدرة وإرادة ، وعرفه ما ينفعه وما يضره، وأمره أن يجري مشيئته وإرادته وقدرته في الطريق التي يصل بها إلى غاية صلاحه، فإجراؤها في طريق هلاكه بمنزلة من أعطى عبده فرساً يركبها وأوقفه على طريق نجاة وهلكة، وقال: أجرها في هذا الطريق، فعدل بها إلى الطريق الأخرى، وأجراها فيها، فغلبته بقوة بأسها وشدة سيرها، وعز عليه ردها عن جهة جريها، وحيل بينه وبين (إدارتها)[1] إلى ورائها مع اختيارها وإرادتها. فلو قلت: كان ردها عن طريقها ممكناً له مقدوراً أصبت، وإن قلت: لم يبق في هذه الحال بيده من أمرها شيء، ولا هو متمكن (منه)[2] أصبت، بل قد حال بينه وبين ردها من يحول بين المرء وقلبه، ومن يقلب أفئدة المعاندين وأبصارهم، وإذا / أردت فهم هذا على الحقيقة، فتأمل حال ١٤٤ب من عرضت له صورة بارعة الجمال، فدعاه حسنها إلى محبتها، فنهاه عقله وذكره ما في ذلك من التلف والعطب، وأراه مصارع العشاق عن يمينه وعن شماله ومن بين يديه ومن خلفه، فعاد يعاود النظر مرة (بعد)[3] مرة، ويحث نفسه على التعلق وقوة الإرادة (ويحرص)[4] على أسباب المحبة، ويدني الوقود من النار ، حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها، ورمت بشررها، وقد أحاطت به ، طلب الخلاص، قال له القلب هيهات لات حين مناص، وأنشده :

---

(١) في ع ، ت : إرادتها .

(٢) ساقطة من ع ، د ، س .

(٣) ساقطة من د ، س .

(٤) في د : يحرضها .

تولــع بالعشــق حــتى عشــق فــلما اســتقل بــه لم يطــق
رأى لـجــة ظــنهـا موجــة فــلما تمكــن مــنها غــرق[١]

فكان الترك أولاً مقدوراً له لما لم يوجد السبب التام والإرادة الجازمة الموجبة للفعل، فلما تمكن الداعي واستحكمت الإرادة قال المحب لعاذله :

يــا عــاذلي والأمــر في يــده هــلا عذلـت وفي يـدي الأمـر[٢]

فكان أول الأمر إرادة واختياراً ومحبة، ووسطه اضطراراً، وآخره عقوبة وبلاءً. ومثل هذا برجل ركب فرساً لا يملكه راكبه، ولا يتمكن من رده، وأجراه في طريق ينتهي به إلى موضع هلاك، فكان الأمر إليه قبل ركوبها، فلما توسطت به الميدان خرج الأمر عن يده، فلما وصلت به إلى الغاية حصل على الهلاك. ويشبه هذا حال السكران الذي قد زال عقله إذا (جنى)[٣] في حال سكره لم يكن معذوراً لتعاطيه السبب اختياراً، فلم يكن معذوراً بما ترتب عليه اضطراراً. وهذا مأخذ من أوقع طلاقه من الأئمة[٤] ،

---

(١) سبق ذكر هذين البيتين في ص (٦١٣) .

(٢) لم أعرف اسم قائله .

(٣) في ع : كان عليه ، وفي د ، س : جنى عليه .

(٤) منهم الإمام مالك، والشافعي، وأبو حنيفة. انظر للمالكية بداية المجتهد (٢/ ٨٣) للقاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد ط (٣) نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٧٩هـ . وللشافعية شرح المنهج للأنصاري (٣/ ٢٢٣) المطبوع مع حاشية سليمان الجمل، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت . وللحنفية المختار وشرحه الاختيار لابن مودود الموصلي (٣/ ١٢٤) ط الأولى ، نشر مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة .

ولهذا قالوا: إذا زال عقله بسبب يعذر فيه لم يقع طلاقه، فجعلوا وقوع الطلاق عليه من تمام عقوبته[١] .

والذين لم يوقعوا الطلاق قولهم أفقه، كما أفتى به عثمان[٢] بن عفان[٣]، ولم يعلم له في الصحابة مخالف، ورجع (إليه)[٤] الإمام أحمد، واستقر / عليه قوله[٥]، ١٤٥أ فإن الطلاق ما كان عن وطر[٦]، والسكران لا وطر له في الطلاق. وقد حكم

---

(١) ولهم مآخذ أخرى ذكرها المؤلف في كتابه زاد المعاد (٤/ ٤٠-٤١) ورد عليها .

(٢) هو : عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي، أمير المؤمنين، ذو النورين، أحد السابقين الأولين، والخلفاء الأربعة، والعشرة المبشرين بالجنة، استشهد في ذي الحجة، بعد عيد الأضحى سنة خمس وثلاثين، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة، وعمره ثمانون، وقيل: أكثر ، وقيل: أقل. روى له الستة. تقريب التهذيب (٢/ ١٢) وتهذيب التهذيب (٧/ ١٣٩-١٤٢) وأسد الغابة (٣/ ٤٨٠-٤٩٢) والإصابة (٢/ ٤٦٢-٤٦٣) .

(٣) رواه البخاري في (٦/ ١٦٨) ك الطلاق ـ باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون معلقاً بصيغة الجزم . ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٩) ك الطلاق ـ باب من كان يرى طلاق السكران جائزاً. والبيهقي في سننه (٧/ ٣٥٩) ك الخلع والطلاق ـ باب من قال : لا يجوز طلاق السكران ولا عتقه. وقد نقل ابن قدامة في المغني (١٠/ ٣٤٧) تحقيق د. عبد الله التركي ود. عبد الفتاح الحلو ، ط الأولى ١٤١١هـ نشر دار هجر بالقاهرة، عن ابن المنذر، قوله: هذا ثابت عن عثمان، ولا نعلم أحداً من الصحابة خالفه .

(٤) في ع ، د ، س : عليه .

(٥) لم أعثر على هذا القول في المغني، ولا في مسائل الإمام أحمد لابن هانئ تحقيق زهير الشاويش، ط (١) ١٤٠٠هـ نشر المكتب الإسلامي، بيروت ولا في مسائل الإمام أحمد لأبي داود سليمان بن الأشعث (صاحب السنن) نشر دار المعرفة ، بيروت.

(٦) قوله: (فإن الطلاق ما كان عن وطر) مقتبس من قول ابن عباس رضي الله عنهما: =

النبي ﷺ بعدم وقوع الطلاق في حال الغَلَق[1]، والسُكْر من الغَلَق، كما أن

= الطلاق عن وطر . الذي رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٦٩) ك الطلق ـ باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون، معلقاً بصيغة الجزم. ولم يذكر الحافظ في الفتح عن وصله شيئاً. وذكره المؤلف في كتابه إعلام الموقعين (٣/ ٥٣) ونسبه إلى ابن عباس . وفسر الوطر بأنه ما كان عن غرض من المطلق في وقوعه. ثم قال: وهذا من كمال فقه ابن عباس رضي الله عنهما وأجابة الله عز وجل دعاء رسوله ﷺ له .

(١) كما في الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**لا طلاق، ولا عتاق في إغلاق**»، الحديث أخرجه : أبو داود في سننه (٦/ ٢٦١) ك الطلاق ـ باب في الطلاق على غضب . وابن ماجه (١/ ٦٥٩-٦٦٠) ك الطلاق باب طلاق المكره والناسي. والإمام أحمد (٦/ ٢٧٦) . وابن أبي شيبة (٥/ ٤٩) ك الطلاق باب من لم ير طلاق المكره شيئاً، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٩٨) ك الطلاق، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال: محمد بن عبيد لم يحتج به مسلم ، وقال أبوحاتم: ضعيف. وقال الحاكم أيضاً (٢/ ١٩٨) (وقد تابع) أبو صفوان الأموي محمد بن إسحاق على روايته عن ثور بن يزيد فأسقط من الإسناد محمد بن عبيد . ثم ذكر هذه الرواية . وتعقبه الذهبي، فقال: نعيم صاحب مناكير، يعني نعيم بن حماد الراوي عن أبي صفوان الأموي. ورواه الدارقطني في سننه (٤/ ٣٦) ك الطلاق والخلع والإيلاء وغيره. والبغوي في شرح السنة (٩/ ٢٢٢) وقال الألباني: في سنده محمد بن عبيد بن أبي صالح وهو ضعيف . والبيهقي في سننه (٧/ ٣٥٧) ك الخلع والطلاق ـ باب ما جاء في طلاق المكره و(١٠/ ٦١) ك الإيمان ـ باب جامع الأيمان من حنث ناسياً ليمينه أو مكرهاً عليه. وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٤٢١) و(٨/ ٥٢-٥٣) . وذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في التلخيص الحبير (٣/ ٢١٠) وقال : في إسناده محمد بن عبيد بن أبي صالح، وقد ضعفه أبو حاتم الرازي، ورواه البيهقي من طريق ليس فيها ، ولكن لم يذكر عائشة .

الإكراه والجنون من الغلق، بل قد نص الإمام أحمد وأبو عبيد[١] وأبو داود على (أن)[٢] الغضب إغلاق، وفسر به الإمام أحمد الحديث في رواية أبي طالب[٣]، وهذا يدل على أن مذهبه أن طلاق الغضبان لا يقع، وهذا هو الصحيح الذي يفتى به إذا كان الغضب شديداً قد أغلق عليه قصده، فإنه يصير بمنزلة السكران والمكره، بل قد يكونان أحسن حالاً منه، فإن العبد في حال شدة غضبه يصدر منه ما لا يصدر من السكران من الأقوال والأفعال[٤] .

وقد أخبر الله سبحانه أنه لا يجيب دعاءه على نفسه وولده في هذه الحال، ولو أجابه لقضي إليه أجله[٥]، وقد عذر سبحانه من اشتد به الفرح بوجود

---

(١) لم أعثر على قول أبي عبيد في كتابه غريب الحديث . وذكره ابن قدامة في المغني (١٠/ ٣٥١) .

(٢) ساقطة من م .

(٣) هو : أحمد بن حميد المشكاني، المتخصص بصحبة الإمام أحمد، روى عنه مسائل كثيرة لم تنتشر، لقرب موته من موت الإمام أحمد، كان أحمد يكرمه ويقدره، وكان رجلاً صالحاً ، توفي سنة ٢٤٢هـ . طبقات الحنابلة (١/ ٣٩-٤٠)، ومناقب الإمام أحمد ص١٢٥، تحقيق د .عبد الله التركي ط الأولى ١٣٩٩هـ ، نشر مكتبة الخانجي بمصر، والمنهج الأحمد (١/ ١٧٦) تأليف عبد الرحمن العليمي، تحقيق محمد يحيى عبدالحميد، ط الثانية ١٤٠٤هـ ، نشر عالم الكتب ، بيروت .

(٤) وقد فصل المؤلف رحمه الله القول في هذه المسألة في كتابه إغاثة اللهفان، في حكم طلاق الغضبان ص(٢٧ وما بعدها) تصحيح محمد عفيفي، ط الأولى ١٤٠٦هـ ، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، وفي إعلام الموقعين (٣/ ٥٢-٥٣) و(٤/ ٥٠) تعليق طه عبدالرؤوف سعد ، نشر دار الجيل بيروت .

(٥) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ سورة يونس آية (١١) قال مجاهد : هو قول الإنسان لولده وماله =

راحلته في الأرض المهلكة بعد ما يئس منها فقال من شدة فرحه: « اللهم أنت عبدي وأنا ربك »[1] ولم يجعله بذلك كافراً، لأنه أخطأ بهذا القول من شدة الفرح.

فكمال رحمته وإحسانه وجوده يقتضي أن لا يؤاخذ من اشتد غضبه بدعائه على نفسه وأهله وولده، ولا بطلاقه لزوجته، وأما إذا زال عنه عقله بالغضب، فلم يعقل ما يقول، فإن الأمة متفقة على أنه لا يقع طلاقه ولا عتقه ، ولا يكفر بما يجري على لسانه من كلمة الكفر .

* * *

= إذا غضب عليه : اللهم لا تبارك فيه والعنه. رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٩٢) .

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، بهذا المعنى ، وقد سبق تخريجه في ص(٧٢٧) .




الباب التاسع عشر

في ذكر مناظرة جرت بين جبري وسني جمعهما مجلس مذاكرة






الباب التاسع عشر
في ذكر مناظرة جرت بين جبري وسني جمعهما مجلس مذاكرة

قال الجبري: القول بالجبر لازم لصحة التوحيد، ولا يستقيم التوحيد إلا به، لأنا إن لم نقل بالجبر أثبتنا فاعلاً للحوادث مع الله، إن شاء فعل، وإن لم يشأ لم يفعل / وهذا شرك ظاهر لا يخلص منه إلا (بالقول)[1] بالجبر[2]. ١٤٥ب

قال السني: بل القول بالجبر مناف للتوحيد، ومع منافاته للتوحيد، فهو مناف للشرائع ودعوة الرسل والثواب والعقاب، فلو صح الجبر لبطلت الشرائع، وبطل الأمر والنهي، ويلزم من بطلان ذلك بطلان الثواب والعقاب.

قال الجبري: ليس[3] العجب دعواك منافاة الجبر للأمر والنهي والثواب والعقاب، فإن هذا لم يزل يقال، وإنما العجب دعواك منافاته للتوحيد، وهو من أقوى أدلة التوحيد، فكيف يكون (المقرر)[4] (للشيء)[5] المقوي له منافياً له؟

قال السني: منافاته للتوحيد من أظهر الأمور، ولعلها أظهر من منافاته (للأمر)[6] والنهي. وبيان ذلك أن أصل عقد التوحيد و(أساسه)[7] هو

---

(١) في م، ع، د، س: القول.

(٢) انظر المطالب العالية (٩/ ١٦-١٧، ٢٢).

(٣) في ع، د، س: ليس من. بزيادة (من)

(٤) في م،: القدر، وفي ع، د، س: المصور.

(٥) ساقطة من م.

(٦) في ع، د، س: الأمر.

(٧) في ع، د، س: وإثباته.

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والجبر ينافي الكلمتين، فإن الإله المستحق لصفات الكمال المنعوت بنعوت الجلال، وهو الذي تألهه القلوب، وتصمد إليه بالحب والخوف والرجاء، فالتوحيد الذي جاءت به الرسل هو إفراد الرب بالتأله الذي هو كمال الذل والخضوع والانقياد له، مع كمال الإنابة وبذل الجهد في طاعته ومرضاته، وإيثار محابه ومراده على محبة العبد ومراده، فهذا أصل دعوة الرسل، وإليه دعوا الأمم، وهو التوحيد الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، لا من الأولين، ولا من أحد من الآخرين، وهو الذي أمر به رسله، وأنزل به كتبه، ودعا إليه عباده، ووضع (لهم دار)[1] الثواب والعقاب لأجله، وشرع الشرائع لتكميله وتحصيله. (ولزم)[2] من قولك أيها الجبري إن العبد لا قدرة له على هذا البتة، ولا أثر له فيه، ولا هو فعله، وأمره بهذا أمر له بما لا يطيق، بل أمر له بإيجاد فعل الرب، وأن الرب تعالى أمره بذلك وأجبره على ضده، وحال بينه وبين ما أمره به، ومنعه / منه وصده عنه ولم يجعل له إليه سبيلاً بوجه من الوجوه، ١٤٦أ مع قولك إنه لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ، فلا تتألهه القلوب بالمحبة والود والشوق والطلب وإرادة وجهه. والتوحيد معنى ينتظم من إثبات الإلهية وإثبات العبودية، فرفعت معنى الإلهية بإنكار كونه محبوباً مودوداً، تتنافس القلوب في محبته وإرادة وجهه، والشوق إلى لقائه، ورفعت حقيقة العبودية (بإنكارك)[3] كون العبد فاعلاً وعابداً ومحباً، فإن هذا كله مجاز لا حقيقة له عندك، فضاع التوحيد بين الجبر وإنكار محبته وإرادة وجهه، لا سيما والوصف الذي وصفته به منفر للقلوب عنه، حائل بينها وبين محبته، فإنك وصفته بأنه يأمر عبده بما لا

(١) ما بين القوسين ساقط من د .
(٢) في م ، ع ، د ، س : وكان .
(٣) في ع ، د ، س : بإنكار .

قدرة له على فعله، وينهاه عما لا يقدر على تركه، بل يأمره بفعله هو سبحانه، وينهاه عن فعله هو، ثم يعاقبه أشد العقوبة على ما لم يفعله البتة، بل يعاقبه على أفعاله هو سبحانه.

وصرحت بأن عقوبته على ترك ما أمره وفعل ما نهاه بمنزلة عقوبته (له)[1] على ترك طيرانه إلى السماء، وترك تحويله الجبال عن أماكنها، ونقله مياه البحار عن مواضعها، بمنزلة عقوبته له على ما لا صنع له فيه من لونه وطوله وقصره، وصرحت بأنه يجوز عليه أن يعذب أشد العذاب لمن لم يعصه طرفة عين، وأن حكمته ورحمته لا تمنع ذلك، بل هو جائز علي، ولولا خبره عن نفسه بأنه لا يفعل ذلك لم تنزهه عنه .

وقلت : إن تكليفه عباده بما كلفهم به بمنزلة تكليف الأعمى للكتابة، والزمِن للطيران، فبغّضت الرب إلى من دعوته إلى هذا الاعتقاد، ونفرته عنه وزعمت أنك تقرر بذلك توحيده، وقد قلعت شجرة التوحيد من أصلها.

وأما منافاة الجبر للشرائع، فأمر ظاهر لا خفاء به، فإن مبنى / الشرائع ١٤٦ب على الأمر والنهي، وأمر الآمر لغيره بفعل نفسه لا بفعل المأمور، ونهيه عن فعله لا فعل المنهي عبث ظاهر، فإن متعلق الأمر والنهي فعل العبد وطاعته ومعصيته، فمن لا فعل له كيف يتصور أن (يوصف)[2] بطاعة أو معصية، وإذا ارتفعت حقيقة الطاعة والمعصية، وإذا ارتفعت حقيقة الثواب والعقاب، وكان ما يفعله الله بعباده يوم القيامة من النعيم والعذب أحكاماً جارية عليهم بمحض المشيئة والقدرة، لا أنها بأسباب طاعتهم ومعاصيهم، بل هاهنا

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س .

(٢) في ع ، د ، س : يوقعه .

أمر آخر، وهو أن الجبر مناف للخلق كما أنه منافٍ للأمر، فإن الله سبحانه له الخلق والأمر، وما قامت السماوات (والأرض)[١] إلا بعدله، فالخلق قام بعدله، وبعدله ظهر، كما أن الأمر بعدله، وبعدله وجد، فالعدل سبب وجود الخلق والأمر وغايته، (فيه العلة)[٢] الفاعلية والغائية، والجبر لا يجامع العدل (كما)[٣] لا يجامع الشرع والتوحيد.

قال الجبري: لقد نطقت أيها السني بعظيم، وفهت بكبير، وناقضت بين متوافقين، وخالفت بين متلازمين، فإن أدلة العقول والشرع المنقول قائمة على الجبر، وما دل عليه العقل والنقل كيف ينافي موجب العقل والشرع؟ فاسمع الآن الدليل الباهر، والبرهان القاهر على الجبر، ثم نتبعه بأمثال، فنقول: صدور الفعل عند حصول القدرة والداعي إما أن يكون واجباً أو لا يكون واجباً، فإن كان واجباً كان فعل العبد اضطرارياً، وذلك عين الجبر؛ لأن حصول القدرة والداعي ليس بالعبد، وإلا لزم التسلسل، وهو ظاهر، وإذا كان كذلك، فعند حصولهما يكون (الفعل)[٤] واجباً، وعند عدم حصولهما يكون الفعل ممكناً، فكان الجبر لازماً لا محالة.

وأما إن لم يكن حصول الفعل عند حصول القدرة والداعي واجباً، فإما أن / يتوقف رجحان الفعل على رجحان الترك على مرجح، أو لا يتوقف، فإن توقف كان حصول ذلك الفعل عند حصول المرجح واجباً، وإلا عاد الكلام ولزم التسلسل، وإذا كان واجباً اضطرارياً، وهو عين الجبر. وإن لم ١٤٧أ

---

(١) ساقطة من ع، د، س.

(٢) في م، ع، س: فهو عليه، وفي د، فهو علة.

(٣) في ع، د، س: ولا.

(٤) ساقطة من ع، د، س.

يتوقف على مرجح كان جائز الوقوع وجائز العدم، فوقوعه بغير مرجح يستلزم حصول الأثر بلا مؤثر وذلك محال.

فإن قلت : المرجح هو إرادة العبد.

قلت لك : إرادة العبد حادثة، والكلام في حدوثها كالكلام في (حدوث)[1] المراد بها، ويلزم التسلسل[2] .

قال السني : هذا أحدُ سهم في كنانته، وهو بحمد الله سهم لا ريش له ولا نصل، مع عوجه وعدم استقامته، وأنا أستفسرك عما في هذه الحجة من الألفاظ المجملة (المشتملة)[3] على حق وباطل، وأبيِّنُ (لك)[4] فسادها. فما تعني بقولك: إن كان الفعل عند القدرة والداعي واجباً كان فعل العبد اضطرارياً وهو عين الجبر ؟ أتعني به (أنه)[5] يكون مع القدرة والداعي بمنزلة حركة المرتعش، وحركة من نفضته الحمى، وحركة من رمي به من مكان عالٍ فهو يتحرك في نزوله اضطراراً منه ؟ أم تعني به أن الفعل عند اجتماع القدرة والداعي (يكون)[6] لازم الوقوع بالقدرة (والداعي)[7]؟ فإن أردت بكونه اضطرارياً المعنى الأول كذبتك العقول والفطر والحس والعيان، فإن الله فطر عباده على التفريق بين حركة من رمي به من شاهق، فهو يتحرك إلى أسفل،

---

(١) في د ، حديث .

(٢) انظر المحصل ص (٤٥٦) والمطالب العالية (٩/ ١٤-١٥-١٦) .

(٣) في د، س : المستعملة .

(٤) ساقطة من ع ، د ، س .

(٥) في ع ، د ، س : أن .

(٦) في ع : لا يكون .

(٧) ساقطة من ع ، د ، س .

وبين حركة من يرقى في الجبل إلى علوه، وبين حركة المرتعش وبين حركة المصفق، وبين حركة الزاني والسارق والمجاهد والمصلي، وحركة المكتوف الذي قد أوثق رباطاً وجر على الأرض، فمن سوى بين الحركتين فقد خلع ربقة العقل والفطرة والشرعة من عنقه، وإن أردت المعنى الثاني، وهو كون ١٤٧ب الفعل لازم الوجود عند (وجود)[1] القدرة والداعي / (فهذا المعنى حق ويكون حقيقة قولك إن كان لازم الوجود عند القدرة والداعي)[2] كان لازم الوجود، وهذا لا فائدة فيه .

وكونه لازماً وواجباً بهذا المعنى لا ينافي كونه مختاراً (للعبد)[3] مراداً له مقدوراً له، غير مكره عليه ولا مجبور، فهذا الوجوب واللزوم لا ينافي الاختيار. ثم نقول: لو صحت هذه الحجة، لزم أن يكون الرب سبحانه مضطراً على أفعاله، مجبوراً (عليها)[4] (بعين)[5] ما ذكرت من مقدماتها، (فإنه)[6] سبحانه (يفعل)[7] بقدرته ومشيئته، وما ذكرت من وجوب الفعل عند القدرة والداعي وامتناعه عند (عدمهما)[8] ثابت في حقه سبحانه. وقد

---

(١) ساقطة من د ، س .

(٢) ما بين القوسين ساقط من د ، س .

(٣) ساقطة من د ، س .

(٤) في م : عليه .

(٥) في ع ، د، س : بمعنى .

(٦) في ع ، د، س : أنه .

(٧) في د : لا يفعل .

(٨) في د : عدمها .

اعترف أصحابك بهذا الإلزام[١] وأجابوا عنه بما لا يجدي شيئاً .

قال ابن الخطيب[٢] عقيب ذكر هذه الشبهة: فإن قلت: هذا ينفي كونه فاعلاً مختاراً، قلت : الفرق أن إرادة العبد محدثة فافتقرت إلى إرادة يحدثها الله دفعاً للتسلسل، وإرادة البارئ قديمة، فلم تفتقر إلى إرادة أخرى[٣] .

ورد هذا الفرق صاحب[٤] التحصيل[٥] فقال: ولقائل أن يقول : هذا لا

---

(١) انظر المطالب العالية (٩/ ١٥، ٢٣-٢٤) والمواقف ص (٣١٢-٣١٣) .

(٢) هو: محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي، التيمي، البكري، أبو المعالي وأبوعبدالله المعروف بالفخر الرازي، ويقال له: ابن خطيب الري، المتكلم، المفسر، وأحد فقهاء الشافعية المشاهير، ولد بالري سنة أربع وأربعين وخمسمائة، ومات بهراة يوم عيد الفطر سنة ست وستمائة، وله بضع وستون سنة. وله مؤلفات كثيرة؛ منها: تفسير القرآن الكريم المسمى: مفاتيح الغيب، والمطالب العالية. والمباحث المشرقية، والمحصل في أصول الفقه، وغيرها. وقد اعترف في آخر حياته بفساد الطرق الكلامية، فقال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ وأقرأ في النفي ﴿ليس كمثله شيء﴾ ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. سير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠٠-٥٠١) والبداية والنهاية (١٣/ ٥٥-٥٦) .

(٣) انظر المطالب العالية (٩/ ٢٧) والمواقف ص(٣١٣) والمباحث المشرقية للرازي (٢/ ٥٤٦) تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، ط الأولى ١٤١٠هـ ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت .

(٤) هو : محمد بن أبي بكر بن أحمد الأرموي سراج الدين، أبو الثناء، عالم بالأصول والمنطق من الشافعية، ولد سنة (٥٩٤هـ) وتوفي بقونية سنة (٦٨٢هـ) . وله مؤلفات؛ منها: التحصيل من المحصول، واللباب مختصر الأربعين في أصول الدين . طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٥/ ١٥٥) .

(٥) هذا الكتاب مختصر لكتاب المحصل في أصول الفقه لفخر الدين محمد بن عمر =

يدفع التقسيم المذكور[١].

قلت: فإن التقسيم متردد بين لزوم الفعل عند الداعي وامتناعه عند عدمه، وهذا التقسيم ثابت في حق الغائب والشاهد. وكون إرادة الرب تعالى قديمة من لوازم ذاته لا فاعل لها لا يمنع هذا الترديد والتقسيم، فإنه عند تعلقها بالمراد يلزم وقوعه، وعند عدم تعلقها به يمتنع وقوعه، وهذا اللزوم والامتناع لا يخرجه سبحانه عن كونه فاعلاً، ثم نقول: هذا المعنى لا يسمى جبراً ولا اضطراراً، فإن حقيقة الجبر ما حصل بإكراه غير الفاعل له إلى الفعل، وحمله على إيقاعه بغير رضاه واختياره.

والرب تعالى هو الخالق للإرادة والمحبة والرضا في قلب العبد، فلا يسمى ذلك جبراً، لا لغة ولا عقلاً ولا شرعاً / ومن العجب احتجاجك بالقدرة (المحدثة)[٢] والداعي على أن الفعل الواقع بهما اضطراري من العبد والفعل (عندك)[٣] لم يقع بهما ولا هو فعل (العبد)[٤] بوجه، وإنما هو عين فعل الله، وذلك لا يتوقف على قدرة من العبد ولا داع منه، ولا هناك ترجيح له عند وجودهما، ولا عدم ترجيح عند عدمها، بل نسبة الفعل إلى القدرة والداعي كنسبته إلى (عدمهما)[٥]، فالفعل عندك (عين)[٦] فعل الله، فلا ترجيح هناك

١٤٨أ

= الرازي، وقد طبع بتحقيق د. عبد الحميد أبو زنيد ونشرته مؤسسة الرسالة، بيروت سنة ١٩٨٨م.

(١) انظر المواقف ص (٣١٣).

(٢) ساقطة من ع، د، س.

(٣) في م، ع، د، س: عندكم.

(٤) في ت، ع، س: للعبد.

(٥) في د: عدمها.

(٦) في م، د، س: غير.

من العبد ولا مرجح، ولا تأثير ولا أثر *(فالفعل للرب حقيقة عندك، فإذا كان واجباً بقدرته ومشيئته ـ وذلك عين الجبر ـ لزمك أن يكون الرب تعالى مجبوراً على أفعاله، وهذا مما لا محيد لك عنه ولا مفر لك منه)* .

قال السني : وقد أجابك إخوانك من القدرية عن هذه الحجة بأجوبة أخرى، فقال أبو هاشم[1] وأصحابه: لا يتوقف فعل القادر على الداعي بل يكفي في فعله مجرد قدرته[2] .

قالوا : فقولك عند حصول الداعي إما أن يجب الفعل أو لا يجب وعندنا لا يجب الفعل بالداعي ولا يتوقف عليه، ولا يمكنك أيها الجبري الرد على هؤلاء، فإن الداعي عندك لا تأثير له في الفعل البتة و (لا)[3] هو متوقف عليه ولا على القدرة، فإن القدرة الحادثة عندك لا تؤثر في مقدورها فكيف يؤثر الداعي في الفعل ؟ فهذه الحجة لا تتوجه على أصولك البتة، وغايتها إلزام خصومك بها على أصولهم .

قال أبو الحسين البصري[4] وأصحابه : يتوقف الفعل على الداعي. ثم

(*) ما بين النجمتين ساقط من ع، د ، س .

(١) هو : عبدالسلام بن أبي علي الجبائي، مضت ترجمته في ص (٤٥٣) .

(٢) انظر كتاب المطالب العالية (٩/ ١٢) والمواقف ص(٣١٤) وشرح الأصول الخمسة ص(٤٢٥، ٤٢٨) .

(٣) ساقطة من د .

(٤) هو : محمد بن علي بن الطيب، أبو الحسين البصري، شيخ المعتزلة في وقته، وصاحب التصانيف الكلامية، ولد بالبصرة، وسكن بغداد، وكان فصيحاً بليغاً، وله اطلاع كبير، وله مؤلفات، منها : المعتمد في أصول الفقه، وكتاب تصفح الأدلة، وغيرهما. مات ببغداد سنة ست وثلاثين وأربعمائة. سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٨٧). البداية والنهاية (١٢/ ٥٣-٥٤) .

قال أبو الحسين : إذا وجد الداعي وجب وقوع الفعل، ولا يخرج بهذا الوجوب عن كونه اختيارياً[١] .

قال محمود الخوارزمي[٢] صاحبه: لا ينتهي بهذا الداعي إلى حد الوجوب، بل يكون وجوده أولى[٣] . قالوا : فنجيبك عن هذه الشبهة على (الرأيين)[٤] جميعاً :

١٤٨ب أما على رأي أبي هاشم : / فنقول : صدور إحدى الحركتين عنه دون الأخرى لا يحتاج إلى مرجح، بل من شأن القادر أن يوقع الفعل من غير مرجح لجانب وجوده على عدمه، قالوا: ولا استبعاد في العقل (من)[٥] وجود مخلوق (يتمكن)[٦] من الفعل بدلاً عن الترك، وبالضد من غير مرجح، كما أن النائم والساهي (يتحركان)[٧] من غير داع وإرادة. فإن قلتم: بل هناك داع وإرادة لا يذكرها النائم والناسي، كان ذلك مكابرة .

قلت : وأصحاب هذا القول يقولون : إن القادر هو الذي يفعل مع جواز أن لا يفعل . وأصحاب القول الأول يقولون : بل يفعل مع وجوب أن يفعل. ومحمود الخوارزمي توسط بين هذين المذهبين، وقال: بل يفعل مع أولوية أن يفعل ، ولا ينتهي الترجيح إلى الوجوب، فالأقوال خمسة :

أحدها : أن الفعل موقوف على الداعي، فإذا انضمت القدرة إليه وجب

---

(١) انظر المطالب العالية (٩/ ١٢-١٣، ٢٥٥، ٢٥٨) والمواقف ص (٣١٣-٣١٤) .

(٢) مضت ترجمته في ص (٣٤٤) .

(٣) انظر المطالب العالية (٩/ ١٢) والمواقف ص (٢٨٢) .

(٤) في ع : البراهين .

(٥) في ع ، د ، س : في .

(٦) في ع ، د، س : متمكن .

(٧) في م : محركان .

الفعل بمجموع الأمرين. وهذا قول جمهور العقلاء. ولم يصنع ابن الخطيب شيئاً في نسبته له إلى الفلاسفة وأبي الحسين البصري من المعتزلة[١] .

الثاني : أن الفعل يجب بقدرة الله وقدرة العبد. وهذا قول من يقول: إن قدرة العبد مؤثرة في مقدوره مع قدرة الله على عين مقدور العبد. وهذا قول أبي إسحاق[٢] واختيار الجويني في النظامية[٣] .

الثالث : قول من يقول : يجب بقدرة الله فقط. وهذا قول الأشعري والقاضي أبي بكر[٤] . ثم اختلفا، فقال القاضي : كونه فعلاً واقعاً بقدرة الله، وكونه صلاة أو حجاً أو زناً أو سرقة واقع بقدرة العبد، فتأثير قدرة الله في ذات الفعل وتأثير قدرة العبد في صفة الفعل[٥] . قال الأشعري : أصل الفعل ووصفه واقعان بقدرة الله، ولا تأثير لقدرة العبد في هذا ولا هذا[٦] .

الرابع: قول من يقول: لا يجب الفعل من القادر البتة، بل القادر هو الذي يفعل مع جواز أن لا يفعل، فلا ينتهي فعل / القادر المختار إلى الوجوب ١٤٩أ أصلاً. وهذا قول أبي هاشم وأصحابه .

---

(١) انظر المحصل ص(٤٥٥) .

(٢) انظر المحصل ص(٤٥٥) . وأبو إسحاق هذا هو الأسفرائيني .

(٣) انظر العقيدة النظامية ص(٤٣) .

(٤) انظر كتاب المطالب العالية (٩/ ١٠) والمواقف ص(٣١١-٣١٢) والمحصل ص(٤٥٥) والملل والنحل (١/ ٩٧-٩٨) .

(٥) انظر المطالب العالية (٩/ ٩-١٠) والمواقف ص(٣١٢، ١٥٠) والمحصل ص(٤٥٥) والملل والنحل (١/ ٩٧-٩٨) .

(٦) انظر المطالب العالية (٩/ ١٠) والمواقف ص(٣١١، ١٥٠-١٥١) والمحصل ص(٤٥٥) ولمع الأدلة للجويني ص(١٢١) والملل والنحل (١/ ٩٧-٩٨) .

الخامس: أن يكون عند الداعي أولى بالوقوع، ولا ينتهي إلى حد الوجوب.

وهذا قول الخوارزمي . وقد سلم أبو الحسين أن الفعل يجب مع الداعي، وسلم أن الداعي مخلوق لله، وقال: إن العبد مستقل بإيجاد فعله، قال: والعلم بذلك ضروري[١] .

قال ابن الخطيب : هذا غلو منه في القدر، وقوله إنه يتوقف على الداعي، والداعي خلق لله، غلو في الجبر، فجمع بين القدر والجبر مع غلوه فيهما[٢].

ولم ينصفه، فليس ما ذهب إليه غلواً في قدر ولا جبر، فإن توقف الفعل على الداعي وجوبه عنده بقدرة العبد ليس جبراً فضلاً أن يكون غلواً فيه، وكون العبد محدثاً لفعله ضرورة بما خلقه الله فيه من القدرة والاختيار ليس قولاً بمذهب القدرية فضلاً عن كونه غلواً فيه .

فصل

قال الجبري : إذا كان الداعي ليس من (أفعالنا)[٣] وهو علم القادر أن في ذلك الفعل مصلحة له، وذلك أمر مركوز في طبيعته التي خلق عليها، وذلك مفعول لله فيه، والفعل واجب عنده، فلا معنى للجبر إلا هذا[٤] .

قال له السني : أخوك القدري يجيبك عن هذا بأن ذلك الداعي قد يكون (علماً، وقد يكون اعتقاداً، وقد يكون ظناً، وقد يكون)[٥] جهلاً وغلطاً، وهذه أمور يحدثها الإنسان في نفسه، فيفعل على حسب ما يتوهم أنه فيه

---

(١) انظر المطالب العالية (٩/ ٢٥٨) والمواقف ص (٣١٤) .

(٢)انظر المطالب العالية (٩/ ٢٥٨) والمواقف ص (٣١٤) .

(٣) في م : أفعالها .

(٤) انظر المطالب ٩/ ٤٢-٤٣ .

(٥) ما بين القوسين ساقط من ع ،د ،س .

مصلحته، صادفها أو لم يصادفها، فالداعي لا ينحصر في العلم خاصة .

قال الجبري : لا يساوي هذا الجواب شيئاً؛ فإن العطشان مثلاً يدعوه الداعي إلى شرب الماء لعلمه (بنفعه)[1] وشهوته وميله إلى شربه، وذلك العلم وتلك الشهوة والميل إلى الشراب من فعل الله (فيه)[2] فيجب على القدري أن يترك مذهبه صاغراً داخراً ويعترف بأن ذلك الفعل مضاف إلى من / ١٤٩ب خلق فيه الداعي المقتضي .

قال القدري : ذلك الداعي ـ وإن كان من فعل الله تعالى ـ إلا أنه جار مجرى فعل المكلف، لأنه قادر على أن يبطل أثره بأن يستحضر صارفاً عن الشرب([3] مثل أن يحجم عن (الشراب)[4] تجربة هل يقدر على مخالفة الداعي أم لا . فإحجامه لأجل التجربة)[5] أثر داع ثان هو الصارف يعارض الداعي، فالحي قادر على تحصيله، وقادر على إبقاء الداعي الأول بحاله، فإبقاؤه والداعي الأول بحاله، وإعراضه عن إحضار المعارض له أمر لولاه ما حصل الشرب، فمن هذا الوجه كان الشرب فعلاً له، لأنه قادر على تحصيل الأسباب (المختلفة)[6] التي تصدر عنها الآثار. ويصير هذا كمن شاهد إنساناً في نار متأججة وهو قادر على إطفائها عنه من غير مشقة ولا مانع، فإنه إن لم يطفئها استحق الذم، وإن كان الاحتراق من أثر النار. وقد أجاب ابن أبي

---

(١) في د : بنقمه .

(٢) ساقطة من ع ، د ، س .

(٣) ما بين القوسين ساقط من ت .

(٤) في ع ، د : الشرب .

(٥) ما بين القوسين ساقط من ت .

(٦) في م : المختلة .

الحديد[١] بجواب آخر، فقال: ويمكن أن يقال: إذا تجرد الداعي ـ كما ذكرتم في صورة العطشان ـ فإن التكليف بالفعل والترك يسقط؛ لأنه يصير أسوأ حالاً من الملجأ[٢] .

وهذا من أفسد الأجوبة على أصول جميع الفرق، فإن مقتضى التكليف قائم، فكيف يسقط مع حضور (العقل)[٣] والقدرة ؟ وهذا قسم رابع من الذين رفع عنهم التكليف أثبته هذا القدري زائداً على الثلاثة الذين رفع عنهم القلم، وهذا خرق منه لإجماع الأمة المعلوم بالضرورة، ولو سقط التكليف عند تجرد الداعي، لكان كل من تجرد داعيه إلى فعل ما أمر به قد سقط عنه التكليف. وهذا القول أقبح من القول بتكليف ما لا يطاق. ولهذا[٤] القائلون به أكثر من هذا القائل، وقولهم يُحكى ويناظر عليه .

---

(١) هو عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، أبو حامد، عز الدين، الكاتب الشاعر، الشيعي الغالي، المعتزلي، ولد بالمدائن سنة (٥٨٦هـ) ثم انتقل إلى بغداد، فكان أحد الكتاب والشعراء بديوان الخليفة المستعصم بالله ـ آخر خلفاء الدولة العباسية ـ وكان حظياً عند الوزير ابن العلقمي ـ الشيعي الخبيث الذي كان له جهد كبير في مساعدة التتار على تدمير بغداد والقضاء على الخلافة العباسية ـ مات ببغداد سنة ٦٥٦هـ ، وله مؤلفات؛ منها : شرح نهج البلاغة، والفلك الدائر على المثل السائر. وغيرهما. البداية والنهاية (١٣/ ١٩٩) وفيات الأعيان (٥/ ٣٩٢) فوات الوفيات (٢/ ٢٥٩) .

(٢) انظر المحصل ص(٢٥٣) والمطالب العالية (٩/ ٢٨) والمباحث المشرقية (١/ ٦٠٦) والمواقف ص(١٤٩) .

(٣) في ع ، د، س : الفعل .

(٤) في د، س زيادة : كان .

قال الجبري : إذا كان الداعي من الله، وهو سبب الفعل، والفعل واجب عنده، كان خالق الفعل هو خالق الداعي، (إن خلق السبب خلق المسبب)[١] .

قال السني : هذا حق ، فإن الداعي مخلوق لله في العبد، وهو سبب الفعل (فالفاعل مضاف)[٢] إلى الفاعل / لأنه صدر منه، ووقع بقدرته ومشيئته ١٥٠أ واختياره، وذلك لا يمنع إضافته بطريق العموم إلى من هو شرط في تأثير القادر في مقدوره، وكون الشرط ليس من العبد لا يخرجه عن كونه فاعلاً ، وغاية قدرة العبد وإرادته الجازمة أن يكون شرطاً أو جزء سبب .

والفعل موقوف على شروط وأسباب لا صنع للعبد فيها البتة، وأسهل الأفعال (فتح)[٣] العين لرؤية الشيء. فهب أن فتح العين فعل العبد، إلا أنه لا يستقل بالإدراك وسلامتها، وصرف الموانع عنها ، فما توقف عليه الرؤية من الأسباب والشروط [٤] التي لا تدخل تحت مقدور العبد أضعاف أضعاف ما يقدر عليه من تقليب حدقته نحو المرئي، فكيف يقول عاقل: إن جزء السبب أو الشرط موجب مستقل لوجود الفعل؟ وهذا الموضع ضل فيه الفريقان؛ حيث زعمت القدرية أنه موجب للفعل، وزعمت الجبرية أنه لا أثر فيه، فخالفت الطائفتان صريح المعقول والمنقول، وخرجت عن السمع والعقل .

والتحقيق أن قدرة العبد وإرادته ودواعيه جزء من أجزاء السبب التام الذي يجب به الفعل. فمن زعم أن العبد مستقل بالفعل، مع أن أكثر أسبابه

---

(١) في ع ، د ، س : أي خالق السبب .

(٢) في ع ، د ، س : والفعل يضاف .

(٣) في ع ، د ، س : دفع .

(٤) في ع ، زيادة : لكن . ولعلها زلة قلم من الناسخ .

ليست إليه، فقد خرج عن موجب العقل والشرع. فهب أن (داعي)[١] حركة الضرب منك مستقل بها، فهل سلامة الآلة منك؟ وهو وجود المحل المنفعل وقبوله منك ؟ وهل خلق الفضاء بينك وبين المضروب وخلوه (عن)[٢] المانع منك؟ وهل إمساك قدرته عن مضاربتك وغلبتك منك؟ (وهل خلق الآلة التي بها تضرب منك ؟ وهل خلق الألم فيه بعد الضرب منك)[٣] ؟ وهل ١٥٠ب القوة التي / في اليد والرباطات والاتصالات التي بين عظامها وشد أسرها منك؟ ومن زعم أنه لا أثر للعبد بوجه ما في الفعل، وأن وجود قدرته وإرادته وعدمها بالنسبة إلى الفعل على السواء، فقد كابر العقل والحس .

قال الجبري : إن انتهت سلسلة (المرجحات)[٤] (إلى مرجح من الله يجب عنده الفعل لزم الجبر، وإن انتهت)[٥] إلى مرجح من العبد، فذلك المرجح ممكن لا محالة، فإن ترجح بلا مرجح انسد عليكم باب إثبات الصانع؛ إذ جوزتم رجحان أحد طرفي الممكن (بلا مرجح)[٦] وإن توقف على مرجح آخر لزم التسلسل، فلا بد من انتهائه إلى مرجح من الله لا صنع للعبد فيه[٧].

قال السني : أما إخوانك القدرية فإنهم يقولون: القادر المختار يحدث إرادته وداعيه بلا مرجح من غيره. قالوا : والفطرة شاهدة بذلك ، فإنا لا

---

(١) في ع ، د ، س : دواعي .

(٢) في ع ، د ، س : من .

(٣) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

(٤) في ع ، د ، س : الترجيحات .

(٥) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

(٦) ساقطة من ع ، د ، س .

(٧) انظر المطالب العالية (٩/ ١٣ وما بعدها) و(٩/ ٢١ وما بعدها) والمواقف ص(٣١٢ -٣١٣) .

نفعل ما لم نرد، ولا نريد ما لا نعلم أن في الفعل منفعة (لنا)[1] أو دفع مضرة، ولا نجد لهذه الإرادة إرادة أحدثتها، ولا لعلمنا بأن ذلك نافع علماً آخر أحدثه. فالمرجح هو ما خلق العبد وفطر عليه من صفاته القائمة به. فالله سبحانه أنشأ العبد نشأة يتحرك فيها بالطبع، فحركته بالإرادة والمشيئة من لوازم (نشأته)[2] وكونه حيواناً، (فإرادته وميوله)[3] من لوازم كونه حياً، فأفعال العبد الخاصة به هي الدواعي والإرادات لا غير، وما يقع بها من الأفعال شبيه بالفعل المتولد من حيث كان المتولد (مسبباً)[4] وهذه الأفعال صادرة عن الدواعي التي (يحدثها)[5] العبد ابتداء من غير واسطة، فاشتراكهما في أن كل واحد منهما مستند إلى فعل خاص بالعبد، فهما متماثلان من هذه الجهة.

قال السني: وهذا جواب باطل بأبطل منه، ورد فاسد بأفسد منه، ومعاذ الله ـ والله أكبر وأجل وأعظم وأعز ـ أن يكون في عبده شيء غير / مخلوق ١٥١أ له، ولا هو داخل تحت مشيئته وقدرته. فما قدر الله حق قدره من زعم ذلك، ولا عرفه (حق)[6] معرفته ولا عظمه حق تعظيمه، بل العبد جسمه وروحه وصفاته وأفعاله ودواعيه، وكل ذرة فيه مخلوق لله خلقاً تصرف به في عبده.

وقد بينا أن قدرته وإرادته ودواعيه جزء من أجزاء سبب الفعل غير

---

(١) ساقطة من ت، وفي ع: لها.

(٢) في ت: شأنه، وفي ع، س: نشئه.

(٣) في د، س: فإرادته وميله.

(٤) في ع، د، س: سبباً

(٥) في ع، د، س: عرفها. وفي ت: عدبها.

(٦) في ع، د، س: حتى.

مستقل بإيجاده، ومع ذلك فهذا الجزء مخلوق لله فيه. فهو عبد مخلوق من كل وجه وبكل اعتبار، فقره إلى خالقه وبارئه من لوازم ذاته، وقلبه بيد خالقه وبين إصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء، فيجعله مريداً لما شاء وقوعه منه، كارهاً لما لم يشأ وقوعه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ونعم والله، سلسلة المرجحات تنتهي إلى أمر الله الكوني، ومشيئته النافذة، التي لا سبيل لمخلوق إلى الخروج عنها، ولكن الجبر لفظ مجمل يراد به حق وباطل كما تقدم .

فإن أردتم أن العبد مضطر في أفعاله، وحركته في الصعود في السلم، كحركته في وقوعه منه، فهذا مكابرة للعقول والفطر. وإن أردتم به أنه لا حول ولا قوة إلا بربه وفاطره، فنعم لا حول ولا قوة إلا بالله، وهي كلمة عامة لا تخصيص فيها بوجه ما، فالقوة (القدرة)[١] ، والحول (الفعل)[٢] ، فلا قدرة له ولا فعل إلا بالله، فلا ننكر هذا ولا نجحده لتسمية القدري له جبراً، فليس الشأن في الأسماء ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[٣] فلا نترك لهذا الأسماء مقتضى العقل والإيمان. والمحذور كل المحذور أن نقول: إن الله يعذب عبده على (ما لا صنع)[٤] له فيه، ولا قدرة له عليه، ولا تأثير له في فعله بوجه ما، بل يعذبه على فعله هو سبحانه[٥] وعلى حركته إذا سقط من علو إلى أسفل . نعم / لا يمتنع أن يعذبه إذا كان تعاطى أسبابه بإرادته ومحبته، كما يعاقب السكران على ما جناه في حال

١٥١ب

---

(١) في ع ، د ، س : والقدرة .

(٢) في د ، س : بالله .

(٣) سورة النجم آية ٢٣ .

(٤) في م : كل ما لا صنع .

(٥) في ت زيادة : به .

سكره لتفريطه وعدوانه بارتكاب السبب، وكما يعاقب العاشق الذي غلب على صبره وعقله، وخرج الأمر (عن)[1] يده لتفريطه السابق بتعاطي أسباب العشق، وكما يعاقب الذي آل به إعراضه وبغضه للحق إلى أن صار طبعاً وقفلاً وريناً على قلبه، فخرج الأمر عن يده وحيل بينه وبين الهدى، فيعاقبه على ما لم يبق له قدرة عليه ولا إرادة، بل هو ممنوع منه، وعقوبته عليه عدل محض لا ظلم فيه بوجه ما .

فإن قيل : فهل يصير في هذا الحال مكلفاً وقد حيل بينه وبين ما أمر به وصد عنه ومنع منه، أم يزول التكليف ؟

قيل : سنقف على الجواب الشافي إن شاء الله عن هذا السؤال في باب القول في تكليف ما لا يطاق قريباً [2]، فإنه سؤال جيد، إذ المقصود هاهنا الكلام في الجبر وما (في)[3] لفظه من الإجمال وما في معناه من الهدى والضلال .

فصل

قال الجبري: إذا صدر من العبد حركة معينة، فإما أن تكون مقدورة للرب وحده، أو العبد وحده، أو للرب (وللعبد)[4] أو لا للرب ولا للعبد، وهذا القسم الأخير باطل قطعاً.

والأقسام الثلاثة قد قال بكل واحد منها طائفة . فإن كانت مقدورة للرب وحده، فهو الذي يقوله، وذلك عين الجبر. وإن كانت مقدورة للعبد وحده، فذلك إخراج لبعض الأشياء عن قدرة الرب تعالى، فلا يكون على كل شيء

---

(١) في ت : من .

(٢) تعرّض المؤلف رحمه الله لذلك في الباب الذي بعد هذا الباب .

(٣) ساقطة من د .

(٤) في ع ، د ، س : والعبد .

(قديراً)[١]، ويكون العبد المخلوق الضعيف قادراً على ما لم يقدر عليه خالقه وفاطره. وهذا هو الذي فارقت به القدرية (للتوحيد)[٢] وضاهت به المجوس. وإن كانت مقدورة للرب (وللعبد)[٣] لزمت الشركة ووقوع مفعول بين فاعلين، ومقدور بين قادرين / وأثر بين مأثورين، وذلك محال؛ لأن المأثورين إذا اجتمعا استقلالاً[٤] على أثر واحد، فهو غني عن كل منهم بكل منهما، فيكون محتاجاً إليهما مستغنياً عنهما[٥].

١٥٢أ

قال السني: قد افترق الناس في هذا المقام فرقاً شتى.

ففرقة قالت: إنما تقع الحركة بقدرة الله وحده لا بقدرة العبد، وتأثير قدرة العبد في كونها طاعة أو معصية، فقدرة الرب وحده اقتضت وجودها، وقدرة العبد اقتضت صفتها. وهذا قول القاضي (أبي)[٦] بكر ومن اتبعه[٧]. ولعمر الله إنه لغير شاف ولا كاف، فإن صفة الحركة إن كان أثراً وجودياً، فقد أثرت قدرته في أمر موجود فلا يمتنع تأثيرها في نفس الحركة، وإن كان صفتها أمراً عدمياً كان متعلق قدرته عدماً لا وجوداً، وذلك ممتنع؛ إذ أثر القدر لا يكون عدماً صرفاً.

وفرقة أخرى قالت: بل الفعل وصفته واقع بمحض قدرة الله وحده، ولا

(١) في م، ت، ع: قدير.

(٢) في د: التوحيد.

(٣) في ع، د، س: والعبد.

(٤) في ع: استقلالاً له.

(٥) انظر المطالب العالية (٩/ ٧٧ وما بعدها) والمواقف ص(٣١٢).

(٦) في ت، ع: أبو.

(٧) سبق توثيق هذا القول في ص (٤٥٠، ٤٥١، ٧٥٩).

تأثير لقدرة العبد في هذا ولا (في)[١] هذا، وهذا قول الأشعري ومن اتبعه[٢].

وفرقة قالت: بل المؤثر قدرة العبد وحده دون قدرة الرب[٣]. ثم انقسمت هذه الفرقة إلى فرقتين:

فرقة قالت: إن قدرة العبد هي المؤثرة مع كون الرب تعالى قادراً على الحركة، وقالت: إن مقدورات العباد مقدورة لله عز وجل، وهذا قول أبي الحسين البصري وأتباعه الحسينية[٤].

وفرقة قالت: إن قدرة العبد هي المؤثرة، والله سبحانه غير قادر على مقدور العبد، وهذا قول المشائخية أتباع أبي علي[٥] وأبي هاشم[٦]. وليس عند ابن الخطيب[٧] وجمهور المتكلمين غير هذه الأقوال التي لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً وليس عند أربابها إلا مناقضة بعضهم بعضاً[٨].

وقد أجاب بعض أصحاب / أبي الحسين عن هذا السؤال بأن قال[٩]: إنه ١٥٢ب

---

(١) ساقطة من ع، د، س.

(٢) سبق توثيق هذا القول ص(٧٦٠، ٧٦٢، ٨٣٩).

(٣) سبق توثيق هذا القول ص(٤٥٨، ٨٣٣).

(٤) هم أتباع أبي الحسين البصري، انظر اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(٨٣٧).

(٥) أبو علي هو: محمد بن عبد الوهاب الجبائي سبقت ترجمته في ص (٢٠٧).

(٦) هو عبد السلام بن محمد الجبائي، سبقت ترجمته في ص (٤٥٣).

(٧) هو: محمد بن عمر الرازي، تقدمت ترجمته ص(٨٣٥).

(٨) انظر مقالات الإسلاميين ص(٥٤٩ وما بعدها، ١٩٩-٢٠٠). والمطالب العالية (٩/ ١٢). والمحصل ص (٤٢٠، ٤٥٥). والمواقف ص (٣١١). والملل والنحل (١/ ٥٤، ٦٦).

(٩) ما بين القوسين ساقطة من ع، د، س.

وإن كان يقول بمقدور بين قادرين، فله أن يقول في هذا المقام: إن كان الدليل الذي ذكرته دليلاً صحيحاً على استحالة اجتماعهما على فعل واحد، فإنما يدل على استحالته على فعلهما على سبيل الجمع، ولا يستحيل (أن يفعلاه)[١] على سبيل البدل، كما يستحيل حصول جوهرين في مكان واحد، ولا يستحيل حصولهما فيه على البدل.

وهذا جواب باطل قطعاً، فإن مضمونه أن أحدهما لا يقدر عليه إلا إذا (تركه)[٢] الآخر . فحال تلبس العبد بالفعل بقدرته وإرادته إن كان مقدوراً لله، فهو القول بمقدور بين قادرين، وإن لم يكن مقدوراً له سبحانه، لزم إخراج بعض الممكنات عن قدرته.

فإن قلت : هو قادر (عليه)[٣] بشرط أن لا يقدر عليه العبد (قيل لك)[٤]: فهذا تصريح منك بأنه في حال قدرة العبد عليه لا يقدر عليه الرب، فلا ينفعك القول بأنه قادر عليه على البدل. وأيضاً فإن قدر عليه (عندك)[٥] (بشرط أن)[٦] لا يقدر عليه العبد، فإذا قدر العبد عليه انتفت قدرة الرب لانتفاء شرطها، وهذا مما صاح به عليكم أهل التوحيد من أقطار الأرض، ورموكم به عن قوس واحدة، وإنما صانعتم به أهل السنة مصانعة، وإلا فحقيقة هذا القول أن العبد يقدر عليه الرب، وحكاية هذا الرأي الباطل كافية في فساده .

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س .
(٢) في د : تركت .
(٣) ساقطة من : م .
(٤) في د : قبل ذلك
(٥) ساقطة من ع ، د ، س .
(٦) في ت: بشروطه بأن ، وفي م : مشروطة .

فإن قلت : كما لا يمتنع معلوم واحد بين عالمين، ومراد واحدة بين مريدين (فلا يمتنع مقدور واحد بين قادرين)[١] .

قيل : هذا من أفسد القياس، لأن المعلوم لا يتأثر بالعالم، والمراد لا يتأثر بالمريد، فيصح الاشتراك في المعلوم والمراد، كما يصح الاشتراك في المرئي والمسموع، أما المقدور فيجوز اشتراك القادرين فيه بالقدرة المصححة / وهي ١٥٣أ صحة وقوعه من كل واحد منهما، (فصحة)[٢] التأثير من أحدهما لا تنافي صحته من الآخر. أما اشتراكهما فيه بالقدرة الموجبة المقارنة لمقدورها، فهو عين الحال، إلا أن يراد الاشتراك على البدل، فيكون (ترك)[٣] تأثير أحدهما فيه شرطاً في تأثير الآخر.

ولما تفطن أبو الحسين لهذا قال: لست أقول: إن إضافته إلى أحدهما هي إضافة إلى الآخر، كما أن الشيء الواحد يكون معلوماً لعالمين، ويمتنع أن يكون علم أحدهما به هو علم (الآخر)[٤] ، فهكذا أقول في المقدور بين قادرين، ليست قدرة أحدهما عليه هي قدرة الآخر، والمفعول بين فاعلين ليس فعل أحدهما فيه هو فعل الآخر، وإنما معنى قولي [٥] إنه فعل لهذا وتأثير له أنه لقدرته (وداعيه)[٦] وجد، وليس معنى كونه وجد لقدرة هذا (وداعيه) هو معنى كونه وجد لقدرة

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ع، د، س .

(٢) في ع ، د ، س : وصحة .

(٣) ساقطة من ع ، د ، س .

(٤) في د : الآخر .

(٥) في د، س : قولي هذا .

(٦) في د ، س : وداعيته .

الآخر (وداعيه) قال : وليس يمتنع في (العقل)[١] إضافة شيء واحد إلى شيئين لكنه يمتنع أن تكون إضافته إلى أحدهما هي عين إضافته إلى الآخر .

وهذا لا يجدي عنه شيئاً ؛ فإن التقسيم المذكور دائر فيه. ونحن نقول : قد دل الدليل على شمول قدرة الرب تبارك وتعالى لكل من الذوات والصفات والأفعال، وأنه لا يخرج شيء عن مقدوره البتة . ودل الدليل أيضاً على أن العبد فاعل لفعله بقدرته وإرادته، وأنه فعل له حقيقة يمدح به ويذم عقلاً (وعرفاً)[٢] وشرعاً، وفطرة فطر الله عليها العباد حتى الحيوان البهيم. ودل الدليل على استحالة مفعول واحد بالعين بين فاعلين مستقلين، وأثر واحد بين مؤثرين فيه على سبيل الاستقلال. ودل الدليل أيضاً على استحالة وقوع حادث لا محدث له، ورجحان راجح لا مرجح له، وهذه أمور (ركبها)[٣]/ ١٥٣ب الله سبحانه في العقول، وحجج العقل لا تتناقض ولا تتعارض، ولا يجوز أن يضرب بعضها ببعض، بل يقال بها كلها ويذهب إلى موجبها، فإنها يصدق بعضها بعضاً . وإنما يعارض (بينها)[٤] من ضعفت بصيرته وإن كثر كلامه وكثرت شكوكه، (فالعلم)[٥] أمر آخر وراء الشكوك والإشكالات، ولهذا تناقض الخصوم، وهذا رأس مال المتكلمين .

والقول الحق لم ينحصر في هذه الأقوال التي حكوها في المسألة. والصواب أن يقال: تقع الحركة بقدرة العبد وإرادته التي جعلها الله فيه، فالله سبحانه إذا

---

(١) في م ، ت: الفعل .

(٢) ساقطة من: م .

(٣) في ع ، د ، س: كتبها .

(٤) في ع ، د ، س: بينهما .

(٥) في ع ، د ، س: والعلم .

أراد فعل العبد خلق له القدرة والداعي إلى فعله، فيضاف الفعل إلى قدرة العبد إضافة (المسبب إلى سببه)[(١)]، ويضاف إلى قدرة الرب إضافة المخلوق إلى الخالق، فلا يمتنع وقوع مقدور بين قادرين، وقدرة أحدهما أثر لقدرة الآخر وهي جزء سبب، وقدرة القادر الآخر مستقلة بالتأثير . والتعبير عن هذا المعنى بمقدور بين قادرين تعبير فاسد وتلبيس، فإنه يوهم أنهما متكافئان في القدرة، كما (تقول)[(٢)] : هذا الثوب بين هذين الرجلين، وهذه الدار بين هذين الشريكين، وإنما المقدور واقع بالقدرة الحادثة وقوع المسبب بسببه، والسبب (و)[(٣)] المسبب والفاعل والآلة كله أثر القدرة القديمة .(فلا)[(٤)] نعطل قدرة الرب تعالى عن شمولها وكمالها وتناولها لكل ممكن، ولا نعطل قدرة (العبد)[(٥)] التي هي سبب عما جعلها الله سبباً له ومؤثرة فيه، وليس في الوجود شيء مستقل بالتأثير سوى (مشيئة)[(٦)] الرب تعالى وقدرته، وكل ما سواه مخلوق له، وهو أثر قدرته ومشيئته، ومن أنكر ذلك لزمه إثبات خالق سوى الله، أو القول بوجود مخلوق لا خالق له، فإن فعل العبد إن لم يكن مخلوقاً للعبد، إما استقلالاً وإما على / سبيل الشركة، وإما أن يقع بغير خالق، ولا مخلص عن هذه الأقسام لمنكر دخول الأفعال تحت قدرة الرب تعالى ومشيئته وخلقه . ١٥٤أ

وإذا عرف هذا، فنقول: الفعل وقع بقدرة الرب خلقاً وتكويناً كما وقعت

---

(١) في ت، ع ، د، س : السبب إلى سببه .

(٢) في م : يقال .

(٣) في ع ، د، س : أو .

(٤) في ع ، د، س : ولا .

(٥) في د ، س : الرب .

(٦) ساقطة من م .

سائر المخلوقات بقدرته وتكوينه، وبقدرة العبد سبباً ومباشرة، (فالله)[١] خلق الفعل، والعبد فعله وباشره، (فالقدرة)[٢] الحادثة وأثرها واقعان بقدرة الرب ومشيئته .

فصل

قال الجبري : لو كان العبد فاعلاً لأفعاله؛ لكان عالماً بتفاصيلها، لأنه يمكن أن يكون الفعل أزيد مما فعله أو أنقص، فوقوعه على ذلك الوجه مشروط بالعلم بتفصيله، ومعلوم أن النائم والغافل قد يفعل ولا يشعر (بكيفيته)[٣] ولا قدره، وأيضاً فالمتحرك يقطع المسافة ولا شعور له بتفاصيل الحركة ولا أجزاء المسافة، ومحرك إصبعه محرك لأجزائها ولا يشعر بعدد أجزائها ولا بعد أحيازها، والمتنفس يتنفس باختياره ولا يشعر في الغالب بنفسه، فضلاً عن أن يشعر بكميته وكيفيته ومبدئه ونهايته، (والغافل)[٤] قد يتكلم بالكلمة ويفعل الفعل باختياره، ثم بعد فراغه منه يعلم أنه لم يكن قاصداً له، فنحن نعلم علماً ضرورياً من أنفسنا عدم علمنا بموجود أكثر حركاتنا [٥] في حالة المشي والقيام والقعود، ولو أردنا فصل كل جزء من أجزاء حركاتنا في حالة إسراعنا بالمشي والحركة والإحاطة به لم يمكنا ذلك، بل ونعلم ذلك في حال أكمل العقلاء فما الظن بالحيوانات العجم في مشيها وطيرانها، وسباحتها، حتى الذر والبعوض[٦]، وهذا مشاهد في السكران ومن اشتد به الغضب، ولهذا قال تعالى:

(١) في ع ، د ، س : والله .
(٢) في ع ، د ، س : والقدرة .
(٣) في ع ، د ، س : بكيفية .
(٤) في ع ، د، س : والعاقل .
(٥) في ع ، د ، س زيادة : وسكناتنا .
(٦) انظر المطالب العالية (٩/ ٨٤-٨٩) .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[1]
فدل على أن السكران يصدر منه أقوال لا يعلم بها فكيف يكون هو المحدث لتلك الأقوال / وهو لا يشعر بها، والإرادة فرع الشعور، ولهذا أفتى ١٥٤ب الصحابة بأنه لا يقع طلاق السكران[2]، ونزَّلوا حركة لسانه منزلة تحريك غيره له بغير إرادة، ولهذا قال النبي ﷺ : «لا طلاق في (إغلاق)[3]»[4]؛ لأن الإغلاق يمنع العلم والإرادة، فكيف يكون التطليق فعله وهو غير عالم به، ولا مريد له. وأيضاً، فقد قال جمهور الفقهاء: إن الناسي غير مكلف؛ لأن فعله لا يدخل تحت الاختيار[5]، ففعله غير مضاف إليه مع أنه وقع باختياره. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه في قوله : « من أكل أو شرب ناسياً فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه»[6] فأضاف فعله إلى الله سبحانه لا إليه، فلم يكن له فل في الأكل والشرب، فلم يفطر به .

---

(١) سورة النساء آية ٤٣ .

(٢) سبق ذكر ذلك في ص (٨٢٤) .

(٣) في ع ، د، س : الإغلاق .

(٤) سبق تخريجه في ص (٨٢٤) .

(٥) انظر روضة الناظر لابن قدامة ص(٤٨) .

(٦) هذا الحديث من رواية أبي هريرة رضي الله عنه وأخرجه: البخاري (٢/ ٢٣٤) ك الصوم ـ باب الصائم إذا أكل أو شرب ناسياً. وفي (٧/ ٢٢٦) ك الأيمان والنذور ـ باب إذا حنث ناسياً في الأيمان وقول الله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾. ومسلم (٢/ ٨٠٩) ك الصيام ـ باب أكل الناسي وشربه وجماعه لا يفطر. وأبو داود (٧/ ٣٠) ك الصيام ـ باب من أكل ناسياً . والترمذي (٣/ ١٠٠) ك الصوم ـ باب ما جاء في الصائم ـ يأكل أو يشرب ناسياً. وقال : حديث حسن صحيح. والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، وبه يقول سفيان الثوري، والشافعي، وأحمد، وإسحاق . وقال مالك بن أنس: إذا أكل في رمضان ناسياً فعليه القضاء. والقول الأول أصح .

قال السني : هذا موضع تفصيل لا يليق به الإجمال، فنقول : ما يصدر (عن)[1] العبد من الأفعال ينقسم أقساماً متعددة بحسب قدرته وعلمه (وداعيه)[2] وإرادته، فتارة يكون ملجأ إلى الفعل لا إرادة له فيه بوجه ما، كمن أمسكت يده وضرب لها غيره، أو أمسكت إصبعه وقلع بها عين غيره، فهذا فعله بمنزلة حركات الأشجار بالريح، ولهذا لا يترتب عليه حكم البتة، ولا يمدح عليه ولا يذم، ولا يثاب ولا يعاقب، وهذا لا يسمى فاعلاً عقلاً ولا شرعاً ولا عرفاً، وتارة يكون مكرهاً على أن يفعل، فهذا فعله يضاف إليه، وليس كالملجأ الذي لا فعل له .

واختلف الناس: هل يقال: إنه فعل باختياره وإنه يختار (في)[3] فعله أو لا يطلق عليه ذلك ؟ (على قولين)[4]، والتحقيق أن النزاع لفظي، فإنه فعل بإرادة هو محمول عليها مكره عليها. فهو مختار، مكره على (أن يفعل)[5] (بإرادته)، مريد

= ورواه النسائي في ك الصوم من سننه الكبرى ، كما في تحفة الأشراف (١٠/ ٣٥٤) . وابن ماجة (١/ ٥٣٥) ك الصيام ـ باب ما جاء فيمن أفطر ناسياً. والإمام أحمد (٢/ ٤٨٩، ٤٩١، ٥٤١). وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ٢٣٨)، والدارقطني في سننه (٢/ ١٧٨-١٨٠) . وعبد الرزاق في مصنفه (٤/ ١٧٣) . وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٨/ ٢٨٦-٢٨٧). والبغوي في شرح السنة (٦/ ٢٩١). والبيهقي في سننه (٤/ ٢٢٩) ك الصيام ـ باب من أكل أو شرب ناسياً. وأبو يعلى في مسنده (١٠/ ٤٢٥) .

(١) في د ، س : من .

(٢) في د، س : وداعيته .

(٣) في ع ، د ، س : ما .

(٤) ما بين القوسين ساقط من ت .

(٥) في ع ، د ، س : ليفعل .

(لفعل)[١] ما أكره عليه. فإن أريد بالمختار (من)[٢] يختار من نفسه أن يفعل)[٣] من غير أن يحمله غيره على الإرادة فليس المكره بمختار، وإن أريد المختار)[٤] من يفعل بإرادته وإن كان كارهاً للفعل / فالمكره مختار، وأيضاً فهو مختار ١٥٥أ (لفعل)[٥] ما أكره (عليه)[٦] لتخلصه (به)[٧] مما هو أكره من الفعل، فلما رضي له مكروهان أحدهما أكره إليه من الآخر، اختار أيسرهما دفعاً لأشقاهما، ولهذا يقتل قصاصاً إذا قتل عند الجمهور[٨]، والملجأ لا يقتل باتفاق الناس.

ومما يوضح هذا أن المكره على التكلم لا يأتي منه التكلم إلا باختياره وإرادته، ولهذا أوقع طلاقه وعتاقه بعض العلماء[٩]، والجمهور قالوا: لا يقع[١٠]؛ لأن الله سبحانه جعل كلام المكره على كلمة الكفر (لغواً)[١١] لا

---

(١) في ع، د، س: ليفعل.

(٢) في ع، د، س: ما.

(٣) ما بين القوسين ساقط من (ن).

(٤) من قوله « يختار من نفسه » إلى هنا ساقط من ع، د، س.

(٥) في ع، د، س: ليفعل.

(٦) ساقطة من ع، د، س. وفي ت: عليه به.

(٧) ساقطة من ت.

(٨) وهذا مذهب المالكية والشافعية والحنابلة. انظر بداية المجتهد (٢/ ٣٩٦) وشرح المنهج (٢/ ١٢٧) والروض الندي لأحمد بن عبد الله البعلي ص(٤٤٥) نشر المكتبة السلفية بالقاهرة. وعند الحنفية لا يقتل وإن كان آثماً. انظر مختصر القدوري (٤/ ١١٢) المطبوع مع شرحه اللباب لعبد الغني الغنيمي، نشر المكتبة العلمية، بيروت سنة ١٤٠٠هـ.

(٩) وهذا مذهب الحنفية في العتق والطلاق. انظر مختصر القدوري (٤/ ١١٢).

(١٠) وهذا مذهب المالكية والشافعية والحنابلة. انظر بداية المجتهد (١/ ٨١) وشرح المنهج (٢/ ٢٣٥). والروض الندي ص (٣٨٩) والمغني (١٠/ ٣٥٠).

(١١) في ت، ع: لغو.

يترتب عليه أثره؛ لأنه وإن قصد التكلم باللفظ دفعاً عن نفسه، فلم يقصد معناه وموجبه، حتى قال بعض الفقهاء: لو قصد (الطلاق)[١] بقلبه مع الإكراه لم يقع طلاقه؛ لأن قوله هذر ولغو عند الشارع، فوجوده كعدمه في حكمه، فبقي مجرد القصد، وهو غير موجب للطلاق[٢] . وهذا ضعيف، فإن الشارع إنما ألغى قول المكره إذا تجرد عن القصد، وكان قلبه مطمئناً بضده، فأما إذا قارن اللفظ القصد ، واطمأن القلب بموجبه، فإنه لا يعذر .

فإن قيل: فما تقولون فيمن ظن أن الإكراه لا يمنع وقوع الطلاق، فقصده جاهلاً بأن الإكراه مانع (من)[٣] وقوعه؟.

قيل : هذا لا يقع طلاقه[٤] لأنه لما ظن أن الإكراه على الطلاق يوجب وقوعه إذا تكلم به كان حكم قصده حكم لفظه، فإنه إنما قصده دفعاً عن نفسه لما علم أنه لا يتخلص إلا به، ولم يظن أن الكلمة بدون القصد لغو، أو دهش عن ذلك ولا وطر له في الطلاق ، فهذا لا يقع بخلاف الأول، فإنه لما أكره على الطلاق نشأ له قصد طلاقها؛ إذ لا غرض له أن يقيم مع امرأة أكره على طلاقها، وإن كان لو لم يكره لم يبتدئ طلاقها، والمقصود أن المكره مريد لفعله غير ملجأ إليه / .

١٥٥ب

فصل

وأما أفعال النائم، فلا ريب في وقوع الفعل القليل منه والكلام المفيد. واختلف الناس هل تلك الأفعال مقدورة له أو مكتسبة أو ضرورية بعد

---

(١) ساقطة من م .

(٢) انظر المغني (١٠/ ٣٥٣-٣٥٤) .

(٣) ساقطة من م .

(٤) في ت زيادة :لأن اللفظ موجب لوقوعه .

اتفاقهم على أنها داخلة تحت التكليف .

فقالت المعتزلة وبعض الأشعرية: هي مقدورة له، والنوم لا يضاد القدرة وإن كان يضاد العلم وغيره من الإدراكات[١] .

وذهب أبو إسحاق وغيره إلى أن الفعل غير مقدور له، وأن النوم يضاد القدرة كما يضاد العلم[٢] .

وذهب القاضي أبو بكر وكثير من الأشعرية إلى أن فعل النائم لا يقطع بكونه مكتسباً ولا بكونه ضرورياً. وكل من الأمرين ممكن[٣] .

قال أصحاب القدرة : كان النائم قادراً في يقظته، وقدرته باقية، والنوم لا ينافيها، فوجب استصحاب حكمها. وقالوا : وأيضاً فالنائم إذا انتبه فهو على ما كان عليه في نومه، ولم يتجدد أمر رواء زوال النوم وهو قادر بعد الانتباه، وزوال النوم غير موجب للاقتدار، ولا وجوده نافياً للقدرة . وقالوا: وأيضاً قد يوجد من النائم ما لو وجد منه في حال اليقظة: لكان واقعاً على حسب الداعي والاختيار، والنوم وإن نافى القصد لا ينافي القدرة.

قال النافون للقدرة: قولكم: النوم لا ينافي القدرة دعوى كاذبة، فإن النائم منفعل محض متأثر (غير مؤثر)[٤]، ولهذا لا يمتنع ممن يؤثر فيه .

وقولكم : لم يتجدد له أمر غير زوال النوم، فالمتجدد زوال (النوم)[٥] المانع من القدرة، فعاد إلى ما كان عليه، كمن أوثق غيره رباطاً ومنعه من الحركة،

---

(١) انظر المواقف ص (١٥٥) .

(٢) المرجع السابق ص (١٥٥) .

(٣) المرجع السابق ص (١٥٥)

(٤) في ع : بياض ، وفي د ، س : صرف .

(٥) ساقطة من م ،ع ، د ، س .

فإذا حل رباطه تجدد زوال المانع .

قالوا : نجد تفرقة ضرورية بين حركة النائم (وبين)[١] حركة المرتعش والمفلوج، وما ذاك إلا (أن)[٢] حركته مقدورة له، وحركة المرتعش غير مقدورة له .

١٥٦أ والتحقيق أن حركة / النائم ضرورية له غير مكتسبة، وكما فرقنا في حق المستيقظ بين حركة ارتعاشه وحركة تصفيقه، كذلك نجد تفرقة ضرورية بين حركة النائم وحركة المستيقظ .

فصل

وأما زائل العقل بجنون أو سكر، فليست أفعاله اضطرارية (كأفعال)[٣] الملجأ ولا اختيارية بمنزلة أفعال (العاقل)[٤] بما يفعله، بل هي قسم آخر (بين)[٥] الاضطرارية (والاختيارية)[٦]، وهي جارية مجرى أفعال الحيوان وفعل الصبي الذي لا تمييز له، بل لكل واحد من هؤلاء داعية إلى الفعل يتصورها، وله إرادة يقصد بها، وقدرة ينفذ بها وإن كان داعيه (نوع)[٧] آخر غير داعي العاقل العالم بما يفعله، فلا بد أن يتصور ما في الفعل من الغرض، ثم يريده ويفعله (فهذه)[٨] أفعال طبيعية واقعة بالداعي والإرادة والقدرة،

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س .

(٢) في ع ، د، س : أن .

(٣) في م : كما فعال ، وفي ع كما فعل .

(٤) في ع ، د ، س : العامل .

(٥) في ع ، د، س : من .

(٦) ساقطة من ع ، د ، س .

(٧) في د : نوعاً .

(٨) في ع ، د، س : وهذه .

والدواعي والإرادات تختلف، ولهذا لا يكلف أحد هؤلاء بالفعل، فأفعاله لا تدخل تحت التكليف، وليست كأفعال الملجأ ولا المكره، وهي مضافة إليهم مباشرة، وإلى خالق ذواتهم وصفاتهم خلقاً، فهي مفعولة (له)[١] (وأفعال)[٢] لهم .

(فصل)[٣]

(وأما الغافل)[٤] والساهي الذي يفعل الفعل مع غفلته (وذهوله، فهو إنما يفعله بقدرته ، إذ لو كان عاجزاً لما تأتى منه الفعل وله إرادة)[٥] لكنه غافل عنها، فالإرادة شيء، والشعور بها شيء آخر، فالعبد قد يكون له إرادة وهو ذاهل عن شعوره بها لاشتغال محل التصور منه بأمر آخر منعه من الشعور بالإرادة فعملت عملها، وهي غير مشعور بها، وإن كان لابد من الشعور بأصلها فلا يلزم (في)[٦] صحة وقوع الفعل استمرار ذلك الشعور)[٧] عند كل جزء من أجزائه، وبالله التوفيق .

وبالجملة، فالفعل الاختياري يستلزم الشعور بالفعل في الجملة، وأما الشعور به على التفصيل (من كل وجه)[٨] فلا يستلزمه .

---

(١) ساقطة من ع ، د ، س .

(٢) في د: وأفعاله .

(٣) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

(٤) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

(٥) ما بين القوسين ساقط من ت .

(٦) في م : من .

(٧) ما بين القوسين ساقط من ع، د، س .

(٨) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

فصل

١٥٦ب قال الجبري : ضلال الكافر وجهله /عند القدري مخلوق له موجود بإيجاده اختيارياً، وهذا ممتنع، فإنه لو كان كذلك، لكان قاصداً له، إذ القصد من لوازم الفعل اختياراً، واللازم ممتنع، فإن عاقلاً لا يريد لنفسه الضلال والجهل، فلا يكون فاعلاً له اختياراً[١] .

قال السني : عجباً لك أيها الجبري، تنزه العبد أن يكون فاعلاً للكفر والجهل والظلم، ثم تجعل ذلك كله فعل الله سبحانه . ومن العجب قولك : إن العاقل لا يقصد لنفسه الكفر والجهل، وأنت ترى كثيراً من الناس يقصد لنفسه ذلك عناداً وبغياً وحسداً، مع علمه بأن الرشد والحق في خلافه، فيطيع (داعي)[٢] هواه وغيه وجهله، ويخالف داعي رشده وهداه، ويسلك طريق الضلال، ويتنكب عن طريق الهدى، وهو يراهما جميعاً، قال أصدق القائلين : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[٤] وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

(١) انظر المطالب العالية (٩/ ١٠٩) .

(٢) في ع ، د، س : دواعي .

(٣) سورة الأعراف آية ١٤٦ .

(٤) سورة فصلت آية ١٧ .

(٥) سورة النمل آية ١٣، ١٤ .

أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[٢] ، وقال : ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤] / وقال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ ١٥٧أ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ﴾[٥] وهذا في القرآن كثير يبين سبحانه فيه اختيارهم الضلال والكفر عمداً (على)[٦] علم. هذا وكم من قاصد أمراً يظن أنه رشد وهو ضلال وغي .

فصل

قال الجبري : لو جاز تأثير قدرة العبد في (الفعل)[٧] بالإيجاد، لجاز تأثيرها في (إيجاد)[٨] كل موجود؛ لأن الوجود قضية واحدة مشتركة بين الموجودات الممكنة، وإن اختلفت محاله وجهاته. ويلزم صحة تأثير القدرة في بعضه صحة تأثيرها في جميعه لاتحاد المتعلق، وإن ما ثبت لأحد المثلين ثبت للآخر. وأيضاً

---

(١) سورة العنكبوت آية ٣٨ .

(٢) سورة البقرة آية ١٠٢ .

(٣) سورة البقرة آية ٩٠ .

(٤) سورة آل عمران آية ٧٠-٧١ .

(٥) سورة آل عمران آية ٩٩ .

(٦) ساقطة من ع .

(٧) في ع ، د ، س : القول .

(٨) ساقطة من م .

فالمصحح للتأثير هو الإمكان، ويلزم من الاشتراك في المصحح للتأثير والاشتراك في الصحة، ومعلوم قطعاً أن قدرة العبد لا تتعلق بإيجاد الأجسام وأكثر الأعراض، إنما تتعلق ببعض الأعراض القائمة بمحل قدرته [1].

قال السني : لقد كشف الله عوار مذهب يكون (إثباته مستنداً)[2] إلى مثل هذه الخرافات التي حاصلها أنه يلزم من صحة قدرة العبد على قلع حصاة من الأرض صحة قدرته على قلع الجبل، ومن إمكان حمله لرطل، إمكان حمله لمائة ألف رطل، ومن إيجاده للفعل القائم به من الأكل والشرب والصلاة وغيرها صحة إيجاده لخلق السماوات والأرض وما بينهما .

وهل سمع في الهذيان بأسمج من هذا (وأغث)[3] منه. واشتراك الموجودات في مسمى الوجود الكلي العام لا يلزم منه أن ما جاز على موجود (ما)[4]، جاز على كل موجود . وهذا أسمج من الأول وأبين فساداً. ولا يلزم من ذلك تماثل البعوضة والفيل ، وتماثل الأجسام والأرض. ومن يجعل من الجبرية للقدرة الحادثة تعلقاً ما بفعل العبد يعترف بالفرق، ويقول : قدرته تتعلق ببعض الأعراض ولا تتعلق بالأجسام، ولا بكل الأعراض. فإن ١٥٧ب احتج / على إبطال التأثير، بهذه الشبهة الغثة، ألزم بعينها في عموم تعلق قدرته بكل موجود .

فصل

قال الجبري : دليل التوحيد ينفي كون العبد فاعلاً ، وأن يكون لقدرته

---

(١) انظر المطالب العالية (٩/ ٩١-٩٣) .

(٢) في م : استناده .

(٣) في م ، ت : وأغر .

(٤) في ت : بنا .

تأثير في فعله وتقريره بدليل التمانع [١] .

قال السني : دليل التوحيد إنما ينفي وجود رب ثان، ويدل على أن لا رب إلا هو سبحانه، ولا يدل على امتناع وجود مخلوق له قدرة وإرادة مخلوقة يحدث بها هو وقدرته وإرادته وفعله مخلوق لله ، فهو بعد طول مقدمات واعتراف فضائلكم بالعجز عن تقريره، وذكر ما في مقدماته من منع ومعارضة، إنما ينفي وجود قادرين متكافئين، قدرة كل واحد منهما من لوازم ذاته ليست مستفادة من الآخر، وهو دليل صحيح في نفسه، وإن عجزتم عن تقريره، ولكن ليس فيه ما ينفي أن تكون قدرة العبد وإرادته سبباً لوجود مقدرة، وتأثيرها فيه تأثير الأسباب في مسبباتها، فلا للتوحيد قررتم بدليل التمانع ولا للجبر. وقد كفانا أفضل متأخريكم[٢] بيان (ما في)[٣] هذا الدليل من (المنوع)[٤] والمعارضات[٥] .

قال الجبري : دعنا من هذا كله، أليس في القول بتأثير قدرة العبد في مقدوره، مع الاعتراف بأن الله سبحانه قادر على مقدور العبد إلزام وقوع الواحد بين القادرين والدليل ينفيه ؟

قال السني : ما تعني بقولك: يلزم وقوع مقدور بين قادرين ؟ أتعني به قادرين مستقلين متكافئين ؟ أم تعني به قادرين تكون قدرة أحدهما مستفادة

---

(١) انظر المطالب العالية (٩/ ١٦-١٧، ٨٣-٨٤) .

(٢) هو : محمد بن عمر الرازي سبقت ترجمته في ص (٨٣٥) .

(٣) في ع ، د ، س : تنافي .

(٤) في م : الممنوع .

(٥) انظر المطالب العالية للرازي (٢/ ١٣٥ وما بعدها) والمحصل للرازي ص(٤٥٢) والمواقف للإيجي . ص (٢٧٩، ٢٨٥) .

من الآخر ؟

فإن عنيت الأول منعت الملازمة، وإن عنيت الثاني منع انتفاء اللازم .
ومثبتو الكسب يجيبون عن هذا بأنه لا يمتنع وقوع مقدور بين قادرين لقدرة أحدهما تأثير في إيجاده، ولقدرة الآخر تأثير في صفته، كما يقوله القاضي أبو بكر ومن تبعه [(١)] / والأشعري يجيب عنه على أصله بأن الفعل وقع بين قادرين لا تأثير لقدرة أحدهم في المقدور[(٢)] . بل تعلق قدرته بمقدورها كتعلق العلم بمعلومه، وإنما الممتنع عنده وقوع مقدور بين قادرين مؤثرين، وهذا الاعتذار لا يخرج عن الجبر، وإن زخرفت له العبارات .

١٥٨أ

(وأجابت)[(٣)] عنه الحسينية[(٤)] بما حكيناه أنه لا يمتنع مقدور على سبيل البدل، ويمتنع على سبيل الجمع، وقد تقدم فساده[(٥)] .

وأجاب عنه المشايخية[(٦)] بأنه مقدور للعبد وليس مقدوراً للرب، وهذا أبطل الأجوبة وأفسدها، والقائلون به يقولون: إن الله ـ سبحانه عن إفكهم ـ يريد الشيء فلا يكون، ويكون الشيء بغير إرادته ومشيئته، فيريد ما لا

---

(١) انظر المطالب العالية للرازي (٩/ ١٠) والمواقف للإيجي ص (٣١٢، ١٥٠) والإنصاف للباقلاني ص (٤٠-٤١) والمحصل للرازي ص(٤٥٥) والملل والنحل (١/ ٩٧-٩٨) .

(٢) انظر المطالب والمحصل ص (٤٥٥) والمواقف ص(٣١١، ١٥٠-١٥١) ولمع الأدلة للجويني ص(١٢) والملل والنحل (١/ ٩٧-٩٨) .

(٣) في ت ، ع ، د ، س : وأجاب .

(٤) سبق التعريف بهم في ص (٨٤٩) .

(٥) انظر ص (٨٤٩ وما بعدها) .

(٦) سبق أن ذكرهم المؤلف في ص (٨٤٩) .

يكون، ويكون ما لا يريد، وكفى بهذا بطلاناً وفساداً .

قال الجبري : الفعل عند المرجح التام واجب، والمرجح ليس من العبد، وإلا لزم التسلسل، فهو من الرب تعالى، فإذا وجب الفعل عنده فهو الجبر بعينه[1] .

قال السني : قد تقدم هذا الدليل وبيان ما فيه، وحيث أعدتموه بهذه العبارة الوجيزة المختصرة، فنحن نذكر الأجوبة عنه كذلك :

قولكم : لا بد من مرجح[2] الفعل على الترك أو بالعكس مسلَّم .

قولكم : المرجح إن كان من العبد لزم التسلسل، وإن كان من الرب لزم الجبر، جوابه ما المانع أن يكون من فعل العبد، ولا يلزم التسلسل، بأن يكون من فعله على وجه لا يكون الترك ممكناً له حينئذ. ولا يلزم من سلب الاختيار عنه (في)[3] فعل المرجح سلبه عنه مطلقاً، ثم ما المانع المرجح من فعل الله، ولا يلزم الجبر، فإنكم إن عنيتم بالجبر أنه غير مختار للفعل، ولا مريد له لم يلزم الجبر بهذا الاعتبار ، لأن الرب تعالى جعل المرجح اختيار العبد ومشيئته، فانتفى الجبر، وإن عنيتم / (بالجبر أنه وجد لا بإيجاد العبد لم ١٥٨ب يلزم الجبر أيضاً بهذا الاعتبار، وإن عنيتم)[4] أنه يجب عند وجود المرجح، وإنه لابد منه، فنحن لا ننفي الجبر بهذا الاعتبار. وتسمية ذلك جبراً اصطلاح (محض)[5]، وهو اصطلاح فاسد، فإن فعل الرب سبحانه يجب عند

---

(١) انظر المطالب العالية (٩/ ١٣، ٢٢) .

(٢) في د ، س : مرجح يرجح .

(٣) في ت : من .

(٤) ما بين القوسين ساقطة من م .

(٥) في ع ، د ، س : يختص بكم .

وجود مرجحه التام، ولا يكون ذلك جبراً بالنسبة إليه سبحانه، ثم هذا لازم على من أثبت الكسب منكم، فنقول له في الكسب ما قاله في أصل الفعل سواء، ومن لم يثبت الكسب (لزمه)[1] ذلك في فعل الرب كما تقدم .

فإن قلتم : الفرق أن صدور الفعل عن القادر موقوف على الإرادة، وإرادة العبد محدثة، فافتقرت إلى محدث، فإن كان ذلك المحدث هو العبد لزم التسلسل، فوجب انتهاء جميع الإرادات إلى إرادة ضرورية يخلقها الله في القلب ابتداء، ويلزم منه الجبر بخلاف إرادة الرب تعالى، فإنها قديمة مستغنية عن إرادة أخرى، فلا تسلسل[2] .

قيل لكم : لا يجدي هذا عليكم في دفع الإلزام، فإن الإرادة القديمة إما أن يصح معها الفعل بدلاً عن الترك وبالعكس، أو لا ، فإن كان الأول، فلابد لأحد الطرفين من مرجح، والكلام في ذلك المرجح كالكلام في الأول، ويلزم التسلسل، وإن كان الثاني لزم الجبر.

قال الجبري : معتمدي في الجبر على حرف لا خلاص لكم منه إلا (بالتزام)[3] الجبر، وهو أن العبد لو كان فاعلاً فعله لكان محدثاً له، ولو كان محدثاً له لكان خالقاً له، (والشرع)[4] والعقل ينفيه، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[5] .

---

(١) في ع ، د، س : لزم .

(٢) انظر المطالب العالية (٩/ ٢٧) .

(٣) في م ، ع ، د ، س : بإلزام .

(٤) ساقطة من ت .

(٥) سورة فاطر آية ٣ .

قال السني : قد دل العقل والشرع والحس على أن العبد فاعل لفعله)[1] وأنه يستحق عليه الذم واللعن، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه رأى حماراً قد وُسِم[2] (في)[3] وجهه، فقال : « ألم أنه /عن هذا؟ لعن الله من فعل هذا »[4]. ١٥٩أ

وقال تعالى : ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾[5]، وقال : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[6]، وقال : ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾[7].

وهذا في القرآن أكثر من أن يذكر، والحس شاهد به، فلا تقبل شبهة تقام على خلافه، ويكون حكم تلك الشبهة حكم القدح في (الضروريات)[8] فلا

---

(١) في ع ، د ، س : له .

(٢) وسم : أي علم عليه بالكي . انظر النهاية لابن الأثير (٥/ ١٨٦)

(٣) في ع : على .

(٤) هذا الحديث من رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنه وأخرجه : مسلم (٣/ ١٦٧٣) ك اللباس والزينة ـ باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه. وأبو داود (٧/ ٢٣٢) ك الجهاد ـ باب النهي عن الوسم في الوجه والضرب في الوجه، والترمذي (٤/ ١٨٣) باب ما جاء في كراهية التحريش بين البهائم والضرب والوسم في الوجه . وقال: هذا حديث حسن صحيح . وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٢/ ٤٤٣) . وعبد الرزاق في مصنفه (٤/ ٤٥٨-٤٥٩) ك المناسك ـ باب الوسم. والإمام أحمد في المسند (٣/ ٢٩٦-٢٩٧، ٣١٨، ٣٧٨) وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٧٦) .

(٥) سورة الأنبياء آية ٧٤ .

(٦) سورة النمل آية ٩٠ .

(٧) سورة الزمر آية ٧٠ .

(٨) في ت : الضرورات .

يلتفت إليه، ولا يجب على العالم حل كل شبهة تعرض لكل أحد، فإن هذا لا آخر له .

فقولكم : لو كان فاعلاً لفعله لكان محدثاً له، إن أردتم (بكونه)[(١)] محدثاً صدور الفعل منه اتحد اللازم والملزم، وصار حقيقة قولكم لو كان فاعلاً لكان فاعلاً . وإن أردتم بكونه محدثاً كونه خالقاً، سألناكم: ما تعنون بكونه خالقاً؟ هل تعنون به كونه فاعلاً (أم)[(٢)] تعنون به أمراً آخر ؟ (فإن أردتم الأول، كان اللازم فيه عين الملزوم، وإن أردتم أمراً آخر)[(٣)] غير كونه فاعلاً فبينوه . فإن قلتم : نعني به كونه موجداً للفعل من العدم إلى الوجود، قيل: هذا معنى كونه فاعلاً ، فما الدليل على إحالة هذا المعنى، فسموه ما شئتم إحداثاً، أو إيجاداً أو خلقاً، فليس الشأن في التسميات، وليس الممتنع إلا أن يكون مستقلاً بالإيجاد، وهذا غير لازم لكونه فاعلاً فإنا قد بَيَّنا أن غاية قدرة العبد وإرادته وداعيه وحركته أن تكون جزء سبب، وما توقف عليه الفعل من الأسباب التي لا تدخل تحت قدرته (وكسبه)[(٤)] أكثر من الجزء الذي إليه بأضعاف مضاعفة، والفعل لا يتم إلا بها .

فإن قيل : فهذا الجبر بعينه، قيل : ذلك السبب الذي أعني به من القدرة والإرادة هو الذي أخرجه من الجبر وأدخله في الاختيار، وكون ذلك السبب من خالقه وفاطره (ومنشئه)[(٥)] هو الذي أخرجه من الشرك والتعطيل،

---

(١) ساقطة من م .

(٢) في ت : أو .

(٣) ما بين القوسين ساقطة من د .

(٤) ساقطة من ع ، د ، س .

(٥) في د : ولمنشئه .

وأدخله في باب التوحيد، (فالأول أدخله في باب العدل، والثاني أدخله في باب التوحيد)[١] ، ولم يكن ممن نقض التوحيد بالعدل ولا / ممن نقض العدل ١٥٩ب بالتوحيد، فهؤلاء جنوا على التوحيد، وهؤلاء جنوا على العدل . وهدى الله أهل السنة للتوحيد والعدل، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

* * *

(١) ما بين القوسين ساقطة من ت .




الباب العشـرون

في ذكر مناظرة بـين قـدري وسنـي




الباب العشرون
في ذكر مناظرة بين قدري وسني

قال القدري : قد أضاف الله سبحانه الأعمال إلى العباد بأنواع الإضافة العامة والخاصة، فأضافها إليهم بالاستطاعة تارة، كقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾[1] وبالمشيئة، كقوله : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[2] وبالإرادة تارة، كقوله : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾[3] وبالفعل (والعمل)[4] والكسب والصنع، كقوله: ﴿تَفْعَلُونَ﴾[5] ﴿تَعْمَلُونَ﴾[6] ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾[7]، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[8] وأما بالإضافة الخاصة؛ فكإضافة الصلاة والصيام والحج والطهارة والزنا والسرقة والقتل والكذب والكفر والفسوق وسائر أفعالهم إليهم، وهذه بالإضافة (تمنع)[9] إضافتها إليه، كما أن إضافة أفعاله (إليه)[10] سبحانه تمتنع إضافتها إليهم، فلا تجوز إضافة أفعالهم إليه سبحانه دونهم ولا إليه معهم، فهي إذاً مضافة إليهم دونه.

---

(١) سورة النساء آية ٢٥.

(٢) سورة التكوير آية ٢٨.

(٣) كما حكاه الله عنه في سورة الكهف آية ٧٩.

(٤) ساقطة من ع، د، س.

(٥) وردت هذه اللفظة في عدد كثير من الآيات سبق ذكرها .

(٦) وردت هذه اللفظة في عدد كثير من الآيات سبق ذكرها .

(٧) وردت هذه اللفظة في عدد كثير من الآيات سبق ذكرها .

(٨) سورة المائدة آية ٦٣.

(٩) في ع، د، س : تمتنع.

(١٠) ساقطة من ع، د، س.

قال السني: هذا الكلام مشتمل على حق وباطل، أما قولك إنه أضاف الأفعال إليهم، فحق لا ريب فيه، وهذا حجة لك على خصومك من الجبرية، وهم يجيبونك (عن ذلك)[١] بأن هذا الإسناد لا حقيقة له، وإنما هو نسبة مجازية صححها قيام الأفعال بهم، كما يقال: جرى الماء وبرد وسخن، ومات زيد. ونحن نساعدك على بطلان هذا الجواب ومنافاته للعقول والشرائع والفطر.

ولكن قولك: هذه الإضافة تمنع إضافتها إليه سبحانه كلام فيه إجمال وتلبيس، فإن أردت بمنع الإضافة إليه منع قيامها به ووصفه بها (وجريان)[٢] أحكامها عليه واشتقاق الأسماء (منها)[٣] فنعم هي غير / مضافة إليه بشيء ١٦٠أ من هذه الاعتبارات والوجوه، وإن أردت بعدم إضافتها إليه عدم إضافتها إلى علمه بها وقدرته عليها ومشيئته العامة وخلقه، فهذا باطل، فإنها (معلومة)[٤] له سبحانه، مقدورة له، مخلوقة (له)[٥] وإضافتها إليهم لا تمنع هذه الإضافة، كالأموال فإنها مخلوقة له سبحانه، وهي ملكه حقيقة قد أضافها إليهم، فالأعمال والأموال خلقه وملكه، وهو سبحانه يضيفها إلى (عبيده)[٦]، وهو الذي جعلهم (مالكيها وعامليها)[٧]، فصحت النسبتان، وحصول الأموال

(١) ساقطة من ع، د، س.
(٢) في د : وجريا.
(٣) في ع، د، س: منه.
(٤) في م : تعلق به.
(٥) ساقطة من ع، د، س.
(٦) في م، ت : عبده.
(٧) في م، ت : مالكها وعاملها.

بكسبهم وإرادتهم كحصول الأعمال، وهو الذي خلق الأموال وكاسبيها، والأعمال وعامليها، فأموالهم وأعمالهم ملكه وبيده، كما أن أسماعهم وأبصارهم وأنفسهم ملكه وبيده، فهو الذي جعلهم يسمعون ويبصرون ويعملون، فأعطاهم حاسة السمع والبصر، وقوة السمع والبصر، (وجعل)[١] الأبصار والأسماع، وأعطاهم آلة العمل، وقوة العمل، ونفس العمل، فنسبة قوة العمل إلى اليد والكلام إلى اللسان كنسبة قوة السمع إلى الأذن، والبصر إلى العين، ونسبة الرؤية والاستماع اختياراً إلى محلهما كنسبة الكلام والبطش إلى محلهما، (فإن)[٢] كانوا هم الذين خلقوا لأنفسهم الرؤية والسمع، فهل خلقوا (محلهما)[٣]، وقوى المحل والأسباب الكثيرة التي (تصح)[٤] معها الرؤية والسمع؟! أم الكل خلق من هو خالق (كل)[٥] شيء وهو الواحد القهار .

قال القدري : لو كان الله سبحانه هو الفاعل لأفعالهم، لاشتقت له منها الأسماء، وكان أولى بأسمائهم منهم، إذ لا يعقل الناس على اختلاف لغاتهم وعاداتهم ودياناتهم قائماً إلا من فعل القيام، وآكلاً إلا من فعل الأكل، وسارقاً إلا من فعل السرقة، وهكذا جميع الأفعال لازمها ومتعديها (فقلبتم)[٦] / أنتم الأمر، وقلبتم الحقائق، فقلتم من فعل هذه الأفعال حقيقة ١٦٠ب

---

(١) في ت، ع، د، س : وفعل .
(٢) في ع، د، س : وإن.
(٣) في د : محلها.
(٤) في د، س : تصلح.
(٥) ساقطة من م.
(٦) في م : فعكستم

لا يشتق له منها اسم، وإنما يشتق منها الأسماء لمن لم يفعلها ولم يحدثها، وهذا خلاف (العقول)[١] واللغات وما تتعارفه الأمم.

قال السني : هذا إنما يلزم إخوانك وخصومك الجبرية القائلين بأن العبد لم يفعل شيئاً البتة، وأما من قال: العبد فاعل لفعله حقيقة، والله خالقه وخالق آلات فعله الظاهرة والباطنة، فإنه إنما يشتق الأسماء لمن فعل تلك الأفعال، فهو القائم (والقاعد)[٢] والمصلي والسارق والزاني حقيقة، فإن الفعل إذا قام (بالفاعل)[٣] عاد حكمه إليه ولم يعد إلى غيره، واشتق له منه اسم ولم يشتق لمن لم يقم به. فهاهنا أربعة أمور:

أمران معنويان في النفي والإثبات، وأمران لفظيان فيهما. فلما قام الأكل والشرب والزنا والسرقة بالعبد، عادت أحكام هذه الأفعال إليه، واشتقت له منها الأسماء، وامتنع عود أحكامها إلى الرب، واشتقاق أسمائها له، ولكن من أين يمنع هذا أن تكون معلومة للرب تعالى، مقدورة له، (مكونة له)[٤]، واقعة من العباد بقدرة ربهم وتكوينه؟

قال (القدري)[٥] : لو كان خالقاً لها (لزمته)[٦] هذه الأمور.

قال السني : هذا باطل ودعوى كاذبة، فإنه سبحانه لا يشتق له اسم مما

---

(١) في د : المعقول.

(٢) في ت : والفاعل.

(٣) في م، ت : بالفعل.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) في ت : الجبري. وهو خطأ.

(٦) في م، ت : لزمت.

خلقه في غيره، ولا يعود حكمه عليه، وإنما يشتق الاسم لمن قام به ذلك، فإنه سبحانه خلق الألوان، (والطعوم)[1] والروائح والحركات في محالها، ولم يشتق له منها اسم، ولا عادت أحكامها إليه. ومعنى عود الحكم إلى محل: الإخبار عنه بأنه يقوم ويقعد ويأكل ويشرب.

قال السني : ومن هاهنا (عُلِمَ)[2] ضلال المعتزلة الذين يقولون: (إن)[3] القرآن مخلوق خلقه الله في محل، ثم اشتق له اسم المتكلم باعتبار خلقه له، وعاد حكمه إليه / فأخبر عنه أنه تكلم به. ومعلوم أن الله سبحانه خالق ١٦١أ صفات الأجسام وأعراضها، وقواها فكيف جاز أن يشتق له اسم مما خلقه من الكلام في غيره، ولم يشتق له اسم مما خلقه من الصفات والأعراض في غيره؟ فأنت أيها القدري نقضت أصولك بعضها ببعض، وأفسدت قولك في مسألة الكلام بقولك في مسألة القدر، وقولك (في القدر)[4] بقولك في الكلام. فجعلته متكلماً بكلام قام بغيره، وأبطلت أن يكون (فاعلاً بفعل)[5] قائم بغيره. فإن كنت أصبت في مسألة الكلام، فقد نقضت أصلك في القدر، وإن أصبت في هذا الأصل لزم خطأك في مسألة الكلام، فأنت مخطئ على التقديرين.

قال (القدري)[6] : فما تقول أنت في هذا المقام؟

---

(١) في ع : العلوم.

(٢) ساقطة من م.

(٣) إضافة من ع.

(٤) في ع : بالقدر.

(٥) في ع، د، س : فاعل الفعل.

(٦) في م، ت: الجبري. وهو خطأ.

قال السني : (أنا)[١] (لا أتناقض)[٢] في هذا ولا في هذا، بل أصفه سبحانه بما قام به، وأمتنع من وصفه بما لم يقم (به)[٣] .

قال (القدري)[٤] : فالآن حمي الوطيس، فأنت والمسلمون وسائر الخلق تسمونه تعالى خالقاً ورازقاً ومميتاً. والخلق والرزق والموت قائم بالمخلوق المرزوق الميت، إذ لو قام ذلك بالرب سبحانه، فالخلق إما قديم وإما حادث، فإن كان قديماً لزم قدم المخلوق لأنه نسبة بين الخالق والمخلوق، ويلزم من كونها قديمة قدم المصحح لها، وإن كان حادثاً لزم قيام الحوادث به، وافتقر ذلك الخلق إلى خلق آخر (ولزم)[٥] التسلسل، فثبت أن الخلق غير قائم به سبحانه، وقد اشتق له منه اسم.

قال السني : أي لازم من هذه اللوازم التزمه المرء كان خيراً من أن ينفي صفة الخالقية عن الرب تعالى، فإن حقيقة هذا القول أنه غير خالق، فإن إثبات خالق بلا خلق إثبات اسم لا معنى له، وهو كإثبات سميع لا سمع له، وبصير لا بصر له، ومتكلم وقادر لا كلام له ولا قدرة، فتعطيل الرب تعالى (عن)[٦] فعله القائم به / كتعطيله (عن)[٧] صفاته القائمة به. ١٦١ب

(١) ساقطة من م، ع، د، س.

(٢) في ع، د، س: لا تناقض.

(٣) ساقطة من ع، د، س.

(٤) في م، ت: الجبري، وهو خطأ.

(٥) في د، س : فلزم.

(٦) في د : على.

(٧) في د : على.

والتعطيل أنواع : تعطيل المصنوع عن الصانع، وهو تعطيل الدهرية والزنادقة، وتعطيل الصانع عن صفات كماله ونعوت جلاله، وهو تعطيل الجهمية نفاة الصفات، وتعطيله عن أفعاله، وهو أيضاً تعطيل الجهمية (وهم أساسه)[1] ودب فيمن عداهم من الطوائف، فقالوا : لا يقوم بذاته فعل؛ لأن الفعل حادث، وليس محلاً للحوادث كما قال إخوانهم : لا تقوم بذاته صفة؛ لأن الصفة عرض وليس محلاً للأعراض، فلو التزم الملتزم أي قول التزمه كان خيراً من تعطيل صفات الرب وأفعاله. فالمشبهة (على)[2] ضلالهم (وبدعهم)[3] خير من المعطلة. ومعطلة الصفات خير من معطلة الذات، وإن كان التعطيلان متلازمين لاستحالة وجود ذات قائمة بنفسها لا توصف بصفة، فوجود هذه محال في الذهن وفي الخارج. ومعطلة الأفعال خير من معطلة الصفات، فإن هؤلاء نفوا صفة الفعل وإخوانهم نفوا صفات الذات. وأهل السمع (والعقل)[4] (حزب)[5] الرسول والفرقة الناجية براء من تعطيل هؤلاء كلهم، فإنهم أثبتوا الذات والصفات والأفعال وحقائق الأسماء الحسنى؛ إذ جعلها المعطلة مجازاً لا حقيقة له. فشر هذه الفرق لخيرها الفداء.

والمقصود أنه أي قول (التزمه)[6] الملتزم كان خيراً من نفي الخلق وتعطيل

---

(١) في ت، ع: وهم انباته. وفي د : أصل إنبائه. وفي س : وهم أبنائه.

(٢) ساقطة من ت، ع، د، س.

(٣) في م، ع، د، س : وبدعتهم.

(٤) في م : والعقول.

(٥) في ع، د، س: وحزب.

(٦) في ع، د، س : لزمه.

هذه الصفة عن الله. وإذا عرض على العقل السليم (مفعول لا فاعل له)[١] ومفعول (لا فعل لفاعله)[٢] لم يجد بين الأمرين فرقاً في الإحالة، فمفعول بلا فعل لفاعله كمفعول بلا فاعل لا فرق بينهما البتة، فليعرض العاقل على نفسه القول بتسلسل الحوادث، والقول بقيام الأفعال بذات الرب سبحانه، والقول بوجود مخلوق حادث عن خلق قديم قائم بذات الرب سبحانه، والقول بوجود مفعول / بلا فعل، ولينظر أي هذه الأقوال أبعد عن العقل والسمع وأيها أقرب إليهما. ١٦٢أ

ونحن نذكر أجوبة الطوائف عن هذا السؤال، فقالت طائفة: نختار من هذا التقسيم والترديد كون الخلق والتكوين قديماً قائماً بذات الرب تعالى، ولا يلزمنا قدم المخلوق المكون كما نقول نحن وأنتم: إن الإرادة قديمة، ولا يلزم من قدمها قدم المراد. وكل ما أجبتم به[٣] في صورة الإلزام فهو جوابنا بعينه في مسألة المكون، وهذا جواب سديد، وهو جواب جمهور الحنفية والصوفية وأتباع الأئمة[٤].

فإن قلتم: إنما (لم)[٥] يلزم من قدم الإرادة قدم المراد، لأنها تتعلق بوجود المراد في وقته، فهو يريد كون الشيء في ذلك الوقت، وأما تكوينه وخلقه قبل وجوده فمحال.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ع.
(٢) في ع، د، س : لا فاعل لفعله.
(٣) في ت زيادة : فهو.
(٤) انظر المحصل ص (٤٣٥).
(٥) في ع ، د ، س : لا .

قيل لكم : لسنا نقول إنه كونه قبل وقت كونه، بل التكوين القديم اقتضى كونه في وقته، كما اقتضت الإرادة القديمة كونه في وقته.

فإن قلتم : كيف يعقل تكوين ولا (مُكَوَّن)[1] ؟

قيل : كما عقلتم إرادة ولا مراد.

فإن قلتم : المريد قد يريد الشيء قبل كونه، ولا يكونه قبل كونه.

قيل : كلامنا في الإرادة المستلزمة لوجوده (لا)[2] في الإرادة التي لا تستلزم المراد، وإرادة الرب تعالى ومشيئته تستلزم وجود مراده، وكذلك التكوين يوضحه أن التكوين هو اجتماع القدرة والإرادة وكلمة التكوين، وذلك كله قديم، (ولم)[3] يلزم منه قدم المكون.

قالوا : وإذا عرضنا هـذا على العقـول السليمة، وعرضنا عليها مفعولاً بلا فعل بادرت إلى قبول ذلك وإنكار هذا. فهذا جواب هؤلاء.

قالت الكرامية[4] : بل نختار من هذا الترديد كون التكوين حادثاً،

---

(١) في م : تكوين ، وفي ت : يكون .

(٢) ساقطة من ع.

(٣) في د، س : ولا.

(٤) هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام السجستاني، المتوفى سنة ٢٥٥هـ، وهم يوافقون السلف في إثبات الصفات، لكنهم يبالغون في ذلك إلى حد التشبيه والتجسيم، وكذلك يوافقون السلف في إثبات القدر والقول بالحكمة، ولكنهم يوافقون المعتزلة في وجوب معرفة الله تعالى بالعقل، وفي الحسن والقبح العقليين. انظر اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص٦٧. والملل والنحل (١٠٨/١) والتبصير في الدين لطاهر بن محمد الأسفرائيني، تحقيق محمد زاهد الكوثري، نشر مكتب نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٥٩هـ. ص(٦٥-٧٠). والفرق بين =

وقولكم: يلزم من ذلك قيام الحوادث بذات الرب سبحانه، فالتكوين هو فعله وهو قائم / به، وكأنكم قلتم يلزم من قيام فعله به قيامه به، وسميتم ١٦٢ب أفعاله حوادث، وتوسلتم بهذه التسمية إلى تعطيلها كما سمى إخوانكم صفاته أعراضاً، وتوسلوا بهذه التسمية إلى نفيها عنه، وكما سموا علوه على مخلوقاته واستواءه على عرشه تحيزاً (٢ وتوسلوا بهذه (التسمية)(١) إلى نفيه، وكما سموا وجهه الأعلى)(٢) ويديه جوارح، وتوسلوا بذلك إلى نفيها.

قالوا : ونحن لا ننكر أفعال خالق السماوات والأرض وما بينهما، وكلامه، وتكليمه، ونزوله إلى السماء، واستواءه على عرشه، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، ونداءه لأنبيائه ورسله وملائكته، وفعله ما شاء بتسميتكم لهذا كله حوادث. ومن أنكر ذلك فقد أنكر كونه رب العالمين، فإنه لا يتقرر في العقول والفطر كونه رباً للعالمين إلا بأن يثبت له الأفعال الاختيارية وذات لا تفعل ليست مستحقة للربوبية ولا للإلهية، (فالإجلال عن)(٣) هذا (الإجلال)(٤) واجب، والتنزيه عن هذا التنزيه متعين.

= الفرق ص(٢٠٢) والبداية والنهاية (١١/ ٢٠) وميزان الاعتدال (٤/ ٢١-٢٢) وذكر فيه الخلاف في ضبط (كرام): هل هو بتشديد الراء. أم تخفيفها. وقولهم بكون التكوين حادثاً وجواز قيام الحوادث بالله عز وجل. انظره في الملل والنحل (١/ ١٠٩-١١١) والمواقف ص(٢٧٥، ٤٢٩) والمحصل ص (٣٦٥) ولمع الأدلة ص(١٠٩) واعتقادات فرق المسلمين ص(٤٣) والغنية لأبي سعيد النيسابوري، المعروف بالمتولي الشافعي ص(٨٢) تحقيق عماد الدين حيدر، ط الأولى ١٤٠٦هـ نشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

(١) ساقطة من م، ع، د، س.

(٢-٢) ما بين القوسين ساقط من م.

(٣) في ع، د، س: فالإضلال من.

(٤) في ع، د، س : الإضلال.

فتنزيه الرب تعالى عن قيام الأفعال به تنزيه له عن (ربوبيته)[1] وملكه.

قالوا : ولنا على صحة هذه المسألة أكثر من ألف دليل من القرآن والسنة والعقول، وقد اعترف (أفضل متأخريكم)[2] بفساد شبهكم كلها على إنكار هذه (المسألة)[3]، وذكرها شبهة شبهة وأفسدها، (وألزم)[4] بها جميع الطوائف حتى الفلاسفة الذين هم أبعد الطوائف من إثبات الصفات والأفعال[5].

قالوا : ولا يمكن إثبات حدوث العالم، وكون الرب خالقاً، ومتكلماً وسامعاً، ومبصراً ومجيباً للدعوات، ومدبراً للمخلوقات، وقادراً ومريداً، إلا (بالقول)[6] بأنه فعال وأن أفعاله قائمة به، فإذا بطل أن يكون له فعل، وأن تقوم بذاته الأمور المتجددة بطل هذا كله.

فصل

وقد أجاب عن هذا عبد العزيز بن يحيى / الكناني[7] في حيدته فقال في ١٦٢أ

(١) في ت، ع، د، س : الربوبية.

(٢) في م : متأخروكم.

(٣) ساقطة من د، س.

(٤) في ع، د، س : والتزم

(٥) انظر المطالب العالية للرازي (٢/ ١٠٦ وما بعدها)

(٦) في ع، د، س : القول.

(٧) هو : عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم الكناني، المكي، صاحب كتاب الحيدة، صحب الشافعي، وناظر بشراً المريسي في مسائل القول بخلق القرآن، صدوق، فاضل، من العاشرة، مات بعد الثلاثين ومائتين، تقريب التهذيب (١٠/ ٥١٣) وتهذيب التهذيب (٦/ ٣٦٣).

سؤاله للمريسي[١] : بأي شيء حدثت الأشياء؟ فقال له: أحدثها الله بقدرته التي لم تزل. فقلت له : أحدثها بقدرته كما ذكرت، (أفليس)[٢] تقول إنه لم يزل قادراً؟ قال : بلى، قلت : فتقول إنه لم يزل يفعل؟ قال : لا أقول هذا. (قلت)[٣] : فلابد أن نلزمك أن تقول : إنه خلق بالفعل الذي كان بالقدرة؛ لأن القدرة صفة.

ثم قال عبد العزيز : لم أقل: لم يزل الخالق يخلق، ولم يزل الفاعل يفعل، وإنما الفعل صفة، والله يقدر عليه ولا يمنعه (منه)[٤] مانع[٥] .

فأثبت عبد العزيز فعلاً مقدوراً لله هو صفة (له)[٦]، ليس من المخلوقات، وأنه به خلق المخلوقات، وهذا صريح في أن مذهبه كمذهب السلف وأهل الحديث (أن)[٧] الخلق غير المخلوق، والفعل غير المفعول، كما حكاه البغوي إجماعاً لأهل السنة[٨] .

وقد صرح عبد العزيز أنه فعله سبحانه القائم به (مقدور له)[٩] وأنه خلق

---

(١) هو : بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي، سبقت ترجمته في ص(٢٧٨).

(٢) في ع، د، س : أو ليس. وفي كتاب الحيدة : فلست.

(٣) ساقطة من م.

(٤) ساقطة من م.

(٥) انظر كتاب الحيدة ص ٦٠ - ٦١، ط الأولى ١٣٩٩هـ، نشر المطبعة السلفية، القاهرة. وقد أورد المؤلف كلام الكناني مختصراً.

(٦) ساقطة من ع، د، س.

(٧) في ع، د، س : لأن .

(٨) سبق ذكره في ص (٧٩١) .

(٩) ساقطة من ع، د ، س .

به المخلوقات، كما صرح به البخاري في آخر صحيحه، وفي كتاب خلق الأفعال[١]، (فقال)[٢] في صحيحه : (باب ما جاء في تخليق السماوات والأرض وغيرها من الخلائق، و (هو)[٣] فعل الرب وأمره، فالرب سبحانه بصفاته وفعله وأمره (وكلامه)[٤] وهو الخالق المكون غير مخلوق، وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه، فهو مفعول ومخلوق ومكون[٥] .

فصرح إمام السنة أن صفة التخليق هي فعل الرب وأمره، وأنه خالق بفعله وكلامه، وجميع (برك)[٦] الرسول وحزبه مع محمد بن إسماعيل في هذا. والقرآن مملوء من الدلالة عليه، كما دل عليه العقل والفطرة، قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾[٧] ثم أجاب نفسه بقوله : ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٨] فأخبر أنه قادر على نفس

---

(١) باب أفعال العباد ص (٢٥) وما بعدها .

(٢) في ع، د، س : قال .

(٣) ساقطة من ع ، د .

(٤) قوله : (وكلامه) زيادة لم أجدها في النسخة التي رجعت إليها من صحيح البخاري، إلا أن ابن حجر ـ رحمه الله ـ قال ـ بعد أن ذكر قوله: فالرب سبحانه بصفاته وفعله وأمره ـ : كذا ثبت للجميع . وزاد أبو ذر في روايته: (وكلامه) . ا هـ وأبو ذر هو : عبد الله بن أحمد الهروي المتوفى سنة ٤٣٤هـ راوي صحيح البخاري عن المستملي، والحموي، والكشميهني. ورواية أبي ذر هي التي اعتمدها ابن حجر في شرحه لصحيح البخاري. انظر فتح الباري: (١٣/ ٤٣٩) و(١/ ٦-٧) وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/ ٥٥٥)

(٥) انظر صحيح البخاري (٨/ ١٨٧) ك التوحيد .

(٦) في د، س : جند . وانظر ص (٤٤٩-٤٥٠) فقد سبق بيان معنى (برك) .

(٧) سورة يس آية ٨١ .

(٨) سورة يس آية ٨١ .

١٦٣ب فعله وهو أن يخلق، فنفس (أن يخلق) فعل له وهو قادر عليه. ومن / يقول: لا فعل له، وأن الفعل هو عين المفعول، يقول: لا يقدر على فعل يقوم به البتة، بل لا يقدر إلا على المفعول المباين له الحادث بغير فعل (منه)[1] سبحانه. وهذا أبلغ في الإحالة من حدوثه بغير قدرة، بل هو في الإحالة كحدوثه بغير فاعل، فإن المفعول يدل على قدرة الفاعل باللزوم العقلي، ويدل على فعله الذي وجد به بالتضمن، فإذا سلبت دلالته التضمنية كان (سلب)[2] دلالته اللزومية أسهل، ودلالة المفعول على فاعله وفعله دلالة واحدة، وهي أظهر بكثير من دلالته على قدرته وإرادته. وذكر قدرة الرب تعالى على أفعاله وتكوينه في القرآن كثير، كقوله : ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾[3] (فإن)[4] ﴿أَن يَبْعَثَ﴾ هو نفس فعله، والعذاب هو مفعوله والمباين له، وكذلك قوله : ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[5] فإحياء الموتى نفس فعله، وحياتهم مفعوله المباين له، وكلاهما مقدور له. وقال تعالى : ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾[6] فتسوية البنان فعله، واستواؤها مفعوله. ومنكرو الأفعال يقولون : الرب سبحانه يقدر على المفعولات المباينة له، ولا يقدر على فعل يقوم بنفسه لا لازم ولا متعد. وأهل السنة يقولون : الرب تعالى يقدر على هذا، وعلى هذا وهو سبحانه له

---

(١) في ت : له وهو .

(٢) في د : سبب .

(٣) سورة الأنعام آية ٦٥ .

(٤) ساقطة من ع ، د، س .

(٥) سورة القيامة آية ٤٠ .

(٦) سورة القيامة آية ٤ .

الخلق والأمر. فالجهمية أنكرت خلقه وأمره، وقالوا : خلقه نفس مخلوقه، وأمره مخلوق من مخلوقاته، فلا خلق ولا أمر[1]. ومن أثبت له الكلام القائم بذاته ونفى أن يكون له فعل، فقد أثبت الأمر دون الخلق، ولم يقل أحد بقيام أفعاله به، ونفي صفة الكلام عنه فيثبت الأمر دون الخلق. وأهل السنة يثبتون له سبحانه ما أثبته لنفسه من الخلق والأمر، فالخلق فعله، والأمر قوله، وهو سبحانه يقول / ويفعل. ١٦٤أ

وأجابت طائفة أخرى من أهل السنة والحديث عن هذا بالتزام التسلسل، وقالوا: ليس في العقل ولا في الشرع ما ينفي دوام فاعلية الرب تعالى وتعاقب أفعاله شيئاً قبل شيء إلى غير غاية، كما تتعاقب شيئاً بعد شيء إلى غير غاية، فلم يزل (فعالاً)[2] . قالوا : والفعل صفة كمال، ومن يفعل أكمل ممن لا يفعل قالوا : ولا يقتضي صريح العقل إلا هذا، ومن زعم أن الفعل كان ممتنعاً عليه سبحانه في مدد (غير مقدرة)[3] لا نهاية لها، ولا يقدر أن يفعل ثم انقلب الفعل من الاستحالة الذاتية إلى الإمكان الذاتي من غير حدوث سبب ولا تغير في الفاعل، فقد نادى على عقله بين الأنام. قالوا : وإذا (جاز)[4] هذا في العقول جاز أن ينقلب العالم من العدم إلى الوجود من غير فاعل، وإن امتنع هذا في (بدائه)[5] العقول، فكذلك نجد إمكان الفعل وانقلابه من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي بلا سبب. وأما أن يكون هذا ممكناً وذاك ممتنعاً، فليس في العقول ما يقضي بذلك.

---

(١) انظر الملل والنحل (١/ ٨٦) والتدمرية ص (١٨٢) .

(٢) في ع، د، س : أفعالاً.

(٣) في ت : مقدورة، وفي م : مقدرة.

(٤) في ت، ع، د ، س : كان.

(٥) في د : بداهة .

قالوا: والتسلسل لفظ مجمل لم يرد بنفيه ولا إثباته كتاب ناطق ولا سنة متبعة، فيجب مراعاة لفظه. وهو ينقسم إلى واجب وممتنع وممكن، كالتسلسل في (المؤثرين)[1] محال ممتنع لذاته، وهو أن يكون (مؤثرين)[2] كل واحد منهم استفاد تأثيره ممن قبله (لا)[3] إلى غاية.

والتسلسل الواجب ما دل عليه العقل والشرع من دوام أفعال الرب تعالى في الأبد، وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيماً آخر لا نفادَ له. وكذلك التسلسل في أفعاله سبحانه من طرف الأزل، وأن كل فعل مسبوق بفعل آخر، فهذا واجب في كلامه، فإنه لم يزل متكلماً إذا شاء، ولم تحدث له صفة الكلام في وقت، وهكذا أفعاله التي هي من لوازم حياته، فإن كل حي ١٦٤ب فعال، والفرق بين الحي والميت بالفعل، ولهذا / قال غير واحد من السلف[4]: الحي الفعال. وقال عثمان بن سعيد[5] : كل حي فعال[6]. ولم يكن ربنا تبارك وتعالى قط في وقت من الأوقات المحققة أو المقدرة معطلاً عن كماله من الكلام والإرادة والفعل.

وأما التسلسل الممكن، فالتسلسل في مفعولاته من هذا الطرف، كما

---

(١) في ع ، د ، س : المؤثر .

(٢) هكذا وردت في جميع النسخ الخطية، وفي د، س : مؤثران. والصواب (مؤثرون) لأنها فاعل، والمعنى لا يستقيم إلا بها، وانظر شرح الطحاوية ص (١٣٠) فقد نقل كلام المؤلف هذا دون أن ينسبه – ووردت هذه اللفظة عنده (مؤثرون).

(٣) ساقطة من م .

(٤) منهم نعيم بن حماد، كما في كتاب خلق أفعال العباد للبخاري ص٧١.

(٥) هو عثمان بن سعيد الدارمي، سبقت ترجمته في ص (٢٧٨) .

(٦) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية عن الدارمي بمعناه في الفتاوى (٨/ ٢١).

يتسلسل في طرف الأبد، فإن لم يزل حياً قادراً مريداً متكلماً، وذلك من لوازم ذاته، فالفعل ممكن له (بوجوب)[1] هذه الصفات له، وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل. ولا يلزم من هذا أنه لم يزل الخلق معه، فإنه سبحانه متقدم على كل فرد من مخلوقاته (تقدماً)[2] لا أول له، فلكل مخلوق/ له أول، والخالق سبحانه لا أول له، فهو وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن.

قالوا : وكل قول سوى هذا، فصريح العقل يرده ويقضي ببطلانه، وكل من اعترف بأن الرب تعالى لم يزل قادراً على الفعل لزمه أحد (أمرين)[3] لابد له منهما: إما أن يقول بأن الفعل لم يزل ممكناً، وإما أن يقول: لم يزل واقعاً، وإلا تناقض تناقضاً بيناً حيث زعم (أنه)[4] تعالى لم يزل قادراً على الفعل، والفعل محال ممتنع لذاته، ولو أراده لم يمكن وجوده، بل فرض إرادته عنده محال وهو مقدور له، وهذا قول ينقض بعضه بعضاً.

وأجابت طائفة أخرى بالجواب المركب على جميع التقارير، فقالوا: تسلسل الآثار إما أن يكون ممكناً أو ممتنعاً، فإن كان ممكناً، فلا محذور في التزامه، وإن كان ممتنعاً لم يلزم من بطلانه بطلان الفعل الذي لا يكون المخلوق إلا به، فإنا نعلم أن المفعول المنفصل لا يكون إلا بفعل، والمخلوق لا يكون إلا بخلق، قبل العلم بجواز التسلسل وبطلانه، ولهذا كثير من الطوائف يقولون: الخلق غير المخلوق، والفعل غير المفعول، مع قولهم

---

(١) في ع : بوجود.

(٢) في ع، س : تقدم. وفي د : تقدم من.

(٣) في ع، د س : الأمرين.

(٤) في ع، د، س : أن الرب .

١٦٥أ ببطلان التسلسل، مثل كثير من أتباع الأئمة الأربعة، وكثير / من أهل الحديث والصوفية والمتكلمين، ثم من هؤلاء من يقول: الخلق الذي هو التكوين صفة (قديمة)[1] كالإرادة. ومنهم من يقول : بل هي حادثة بعد أن لم تكن كالكلام والإرادة، وهي قائمة (بذاته)[2] سبحانه، وهم الكرّامية[3] ومن وافقهم، أثبتوا حدوثها وقيامها بذاته وأبطلوا دوامها من القول بحوادث لا أول لها، وكلا الفريقين لا يقول إن ذلك التكوين والخلق مخلوق، بل يقول: إن المخلوق وجد به كما وجد بالقدرة. قالوا : فإذا كان القول بالتسلسل لازماً لكل من قال: إن الرب تعالى لم يزل قادراً على الخلق يمكنه أن يفعل بلا ممانع، فهو لازم لك كما ألزمته لخصومك، فلا ينفردون بجوار دونك. وأما ما ألزموك به من وجود مفعول بلا فعل، ومخلوق بلا (خلق)[4]، فهو لازم لك وحدك. قالوا : ونحن إنما قلنا: الفعل صفة قائمة به سبحانه، وهو قادر عليه لا يمنعه منه مانع، والفعل القائم به ليس هو المخلوق المنفصل عنه، فلا يلزم أن يكون معه مخلوق في الأزل إلا إذا ثبت أن الفعل اللازم يستلزم الفعل المتعدي، وأن المتعدي يستلزم دوام نوع المفعولات، ودوام نوعها يستلزم أن يكون معه سبحانه في الأزل شيء منها، وهذه الأمور لا سبيل لك ولا لغيرك إلى الاستدلال على ثبوتها كلها. وحينئذ فنقول: أي لازم لزم من إثبات فعله سبحانه كان القول به خيراً من نفي الفعل وتعطيله (عنه)[5] فإن

---

(١) ساقطة من ع، د، س.

(٢) في ع، د، س : به.

(٣) سبق التعريف بهم في ص (٨٨٣).

(٤) في م : خالق.

(٥) ساقطة من ع، د، س.

ثبت قيام فعله به من غير قيام الحوادث به كما (يقول)[1] كثير من الناس، بطل قولكم. وإن لزم من إثبات فعله قيام الأمور الاختيارية به والقول بأنها مفتتحة ولها أول، فهو خير من قولكم، كما تقوله الكرامية، وإن لزم تسلسلها وعدم أوليتها في الأفعال / اللازمة، فهو خير من قولكم، وإن لزم تسلسل ١٦٥ب الآثار وكونه أنه يلزم أن الخلق لم يزل مع الله قديماً بقدمه كان خيراً من قولكم، مع أن هذا لا يلزم ولم يقل به أحد من أهل الإسلام، بل ولا أهل الملل فكلهم متفقون على أن الله سبحانه وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق، موجود بعد عدمه وليس معه غيره من المخلوقات يكون وجوده مساوياً لوجوده، فما لزم بعد هذا من إثبات خلقه وأمره وصفات كماله ونعوت جلاله وكونه رب العالمين، وأن كماله المقدس من لوازم ذاته، فإنا به قائلون، وله ملتزمون، كما أنا ملتزمون لكل ما لزم من كونه حياً عليماً قديراً سميعاً بصيراً متكلماً آمراً ناهياً فوق عرشه بائناً من خلقه، يراه المؤمنون بأبصارهم عياناً في الجنة، وفي عرصات القيامة ويكلمهم ويكلمونه. فإن هذا حق، ولازم الحق مثله. وما لم يلزم من إثبات ذلك من الباطل الذي تتخيله خفافيش[2] العقول، فنحن له منكرون، وعن القول به عادلون، وبالله التوفيق.

قال القدري: كون العبد موجداً لأفعاله، وهو الفاعل لها من أجلى الضروريات والبدهيات؛ فإن كل عاقل يعلم من نفسه أنه فاعل لما يصدر (عنه)[3] من الأفعال الواقعة على وفق قصده وداعيته، بخلاف حركة المرتعش

---

(١) في ع، د، س: يقوله.

(٢) خفافيش جمع خفاش وهو الوطواط، سمي بذلك لصغر عينيه وضعف بصره ودماغه. القاموس المحيط ص (٧٦٥) مادة (خفش).

(٣) في ع، د، س: منه.

والمجرور على وجهه، وهذا لا يتمارى فيه العاقل، ولا يقبل التشكيك (فالقدح)[١] في ذلك والاستدلال على خلافه استدلال على بطلان ما علمت صحته بالضرورة، فلا يكون مقبولاً.

١٦٦أ / قال السني : قد (أجابك)[٢] خصومك من الجبرية عن هذا بأن العاقل يعلم من نفسه وقوع الفعل مقارناً لقدرته، ولا يعلم من نفسه أنه واقع بقدرته، والفرق بين الأمرين ظاهر، ولو كان وقوعه بقدرته هو المعلوم بالضرورة، لما خالف فيه جمع عظيم من العقلاء يستحيل عليهم الإطباق على جحد الضروريات[٣].

وهذا الجواب مما لا يشفي عليلاً، ولا يروي غليلاً، وهو عبارات لا حاصل تحتها، فإن كل عاقل يجد من نفسه وقوع الفعل بقدرته وإرادته وداعيته، (وإن)[٤] ذلك هو المؤثر في الفعل، ويجد تفرقة ضرورية بين مقارنة القدرة والداعية للفعل ومقارنة طوله ولونه وشمه وغير ذلك من صفاته للفعل، ونسبة ذلك كله عند الجبري إلى الفعل نسبة واحدة، والله سبحانه أجرى العادة بخلق الفعل عند القدرة والداعي لا بهما، وإنما اقترن الداعي والقدرة بالفعل اقتراناً مجرداً. ومعلوم أن هذا قدح في الضروريات، ولا ريب أن من نظر إلى تصرفات العقلاء ومعاملاتهم مع بعضهم بعضاً وجدهم يطلبون الفعل من غيرهم طلب عالم بالاضطرار أن المطلوب منه الفعل هو

(١) في ع، د، س : والقدح.

(٢) في ع : أجاب.

(٣) انظر المطالب العالية (٩/ ٢٥٧، ٢٥٨) .

(٤) في ع ، د ، س : فإن .

المحصل له، الواقع بقدرته وإرادته. ولذلك يتلطفون لوقوع الفعل منه بكل لطيفة، ويحتالون عليه بكل حيلة، فيعطونه تارة، ويزجرونه تارة (ويوبخونه)[١] تارة، ويتوصلون إلى إخراج الفعل منه بأنواع الرغبة والرهبة، ويقولون (قد فعل فلان)[٢] كذا، فما لك لا تفعل كما فعل. وهذا أمر مشاهد بالحس والضرورة، فالعقلاء ساكنو الأنفس إلى أن الفعل من العبد يقع، وبه يحصل، ولو حرك أحدهم أصبعه فشتمت المحرك لها لغضب وشتمك، وقال: كيف تشتمني ولم يقل (لم)[٣] تشتم ربي. وهذا أوضح من أن يضرب له الأمثال، أو يبسط فيه المقال. وما يعرض / في ذلك من الشبه جار مجرى السفسطة[٤]. ١٦٦ب وقد فطر الله العقلاء على ذمِّ فاعل الإساءة ومدح فاعل الإحسان، وهذا يدل على أنهم مفطورون على العلم بأنه فاعل؛ لأن الذم فرع عليه[٥] ويستحيل أن يكون الفرع معلوماً باضطرار والأصل ليس كذلك، والعقلاء قاطبة يعلمون أن الكاتب مثلاً يكتب إذا أراد ويمسك إذا أراد، وكذلك الباني والصانع، وأنه إذا عجزت قدرته أو عدمت إرادته بطل فعله، فإن عادت إليه القدرة والإرادة عاد الفعل.

وقولك: لو كان ذلك أمراً ضرورياً لاشترك العقلاء فيه، جوابك: أنه لا

---

(١) في ع، د، س : ويخوفونه.

(٢) م، ت (قد فعل).

(٣) ساقطة من م .

(٤) السفسطة هي : قياس مركب من الوهميات، والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته. انظر التعريفات للجرجاني ص (١٢٤).

(٥) المراد : لأن الذم والمدح فرع عليه، ولكنه اكتفى بأحد المتقابلين لدلالته على الآخر كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ سورة النحل آية (٨١) أي والبرد.

يجب الاشتراك في الضروريات، فكثير من العقلاء يخالفون كثيراً من الضروريات لدخول شبهة عليهم، ولا سيما إذا تواطؤوا عليها وتناقلوها كمخالفة الفلاسفة في (الإثبات)[1] (لكثير)[2] من الضروريات، وهم جمع كثير من العقلاء. وهؤلاء النصارى (مذهبهم مما)[3] يعلم فساده بضرورة العقل، وهم يناظرون عليه وينصرونه. وهؤلاء الرافضة يزعمون أن أبا بكر[4] وعمر رضي الله عنهما لم يؤمنا بالله ورسوله طرفة عين، ولم يزالا عدوين لرسول الله ﷺ مترصدين لقتله، وأن رسول الله ﷺ أقام علياً على رؤوس جميع الصحابة وهم ينظرون إليه جهرة (فقال)[5] : (هذا وصيّي وولي العهد (بعدي)[6] فكلكم له تسمعون)[7]

---

(١) في ع، د: الإلهيات.

(٢) في ع، د : بكثير. وفي س : بيسير.

(٣) في ع، د، س: يقولون ما.

(٤) هو : عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، التيمي، القرشي، أبو بكر الصديق، خليفة رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار، وأول من آمن من الرجال، ولي الخلافة بعد رسول الله ﷺ سنتين وبضعة أشهر، وحارب المرتدين، وتم في خلافته فتح الشام وجزء كبير من العراق، ومناقبه وفضائله كثيرة جداً، توفي يوم الاثنين من شهر جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة. تقريب التهذيب (١/ ٤٣٢) وتهذيب التهذيب (٥/ ٣١٥-٣١٧) وأسد الغابة (٣/ ٢٠٥-٢٣١).

(٥) في ع، د، س : وقال.

(٦) في ع، د، س : من بعدي.

(٧) انظر الكافي للكليني (٦/ ١٠٦-١٢٠) نشر المكتبة الإسلامية بطهران سنة ١٣٨٥هـ، ومجمع البيان في تفسير القرآن لأبي علي الطبرسي، المجلد الخامس، الجزء التاسع عشر ص (١٨٨) نشر دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.

(فأطبقوا)[١] على كتمان هذا النص وعصيانه.

وهؤلاء الجهمية ومن قال بقولهم يقولون ما يخالف صريح (المعقول)[٢] من وجود مفعول بلا فعل، ومخلوق بلا خلق[٣].

وهؤلاء الفلاسفة، وهم المدلون بعقولهم، يثبتون ذواتاً قائمة بأنفسها خارج الذهن ليست في العالم ولا خارجة عن العالم، ولا متصلة به، ولا منفصلة / ١٦٧أ عنه، ولا مباينة له، ولا محايثة، وهو (مما)[٤] يعلم بصريح العقل فساده.

وهؤلاء طائفة الاتحادية تزعم أن الله هو هذا الوجود (المشهود)[٥]، وأن التعدد والتكثير فيه وهم محض.

وهؤلاء منكرو الأسباب يزعمون أن لا حرارة في النار تحرق بها، ولا رطوبة في الماء يروي بها، وليس في الأجسام أصلاً (قوى)[٦]، ولا طبائع ولا في العالم شيء يكون سبباً لشيء آخر البتة.

وإن لم تكن هذه الأمور جحداً للضروريات، فليس في العالم مَنْ جَحَدَ الضروريات. وإن كانت جحداً للضروريات بطل قولكم: إن جمعاً من العقلاء لا يتفقون على ذلك. والأقوال التي (جحد بها)[٧] المتكلمون الضروريات أضعاف ما ذكرناه. فهم أجحد الناس لما يعلم بضرورة العقل،

---

(١) في ع، د، س: وأطبقوا.

(٢) في ع، د، س: العقل.

(٣) لأنهم ينفون جميع الصفات ومنها: الخلق، انظر الملل والنحل (١/ ٨٦).

(٤) في ع، د، س: ما.

(٥) ساقطة من ع، د، س.

(٦) في ع، د، س: لا قوي.

(٧) في ع، د، س: يجحد بها.

وكيف يصح في عقل سليم : سميع لا سمع له، بصير لا بصر له، حي لا حياة له[١]. أم كيف يصح عند (ذي)[٢] عقل : مرئي بالأبصار عياناً، لا فوق الرائي ولا تحته، ولا عن يمينه ولا عن شماله، ولا خلفه ولا أمامه[٣] . أم كيف يصح عند ذي عقل: إثبات كلام قديم أزلي، لو كان البحر يمده من بعده سبعة أبحر وجميع أشجار الأرض على اختلافها وكبرها وصغرها أقلام يكتب (بها)[٤] لنفدت البحار وفنيت الأقلام ولم يفن ذلك الكلام، ومع هذا فهو واحد لا جزء له ولا ينقسم، (وهو)[٥] والنهي فيه عين (الأمر، والنفي عين)[٦] الإثبات، والخبر عين الاستخبار، والتوراة فيه عين الإنجيل وعين القرآن، وذلك كله أمر واحد (و)[٧] إنما يختلف بمسمياته ونسبه، وقد أطبق على هذا جمع عظيم من العقلاء، وكفروا من خالفهم فيه، واستحلوا منهم ما حرمه الله[٨] .

---

(١) يشير المؤلف رحمه الله إلى قول المعتزلة في نفيهم الصفات وإثبات الأسماء. انظر شرح الأصول الخمسة ص (١٦١، وما بعدها)، والمحيط بالتكليف للقاضي عبدالجبار ص(١٣٦) تحقيق عمر عزمي. نشر الدار المصرية للتأليف.

(٢) في م : ذوي.

(٣) يشير المؤلف رحمه الله إلى قول الأشاعرة بأن الله سبحانه يرى لا في جهة . انظر المحصل (١/ ٤٤١-٤٥٢) والغنية ص (١٤٢) والملل والنحل (١/ ١٠٠).

(٤) في ت، ع، د، س : به.

(٥) ساقطة من م.

(٦) ما بين القوسين ساقط من ع.

(٧) ساقطة من ع، د، س.

(٨) يشير المؤلف بذلك إلى قول الأشاعرة بأن كلام الله سبحانه وتعالى معنى واحد قائم بنفسه...إلخ. وقد سبق أن ذكره وبين أن ذلك من المحالات كطفرة النظام. انظر ص(٧٦١).

وهؤلاء الجهمية يقولون : إن للعالم صانعاً قائماً بذاته ليس في العالم، ولا هو خارج العالم، ولا فوق العالم ولا تحته، ولا خلفه ولا أمامه، ولا عن يمينه ولا عن (يساره)[1] / ولا هو مباين له ولا محيث له، فوصفوا واجب الوجود بصفة ممتنع الوجود، وكفروا من خالفهم في ذلك، واستحلوا دمه، وقالوا ما يعلم فساده بصريح العقل[2]، ولو ذهبنا نذكر (كل)[3] ما جحد فيه أكثر الطوائف الضروريات لطال الكتاب جداً. ١٦٧ب

وهؤلاء النصارى (أمة)[4] قد طبقت شرق الأرض وغربها، وهم من أعظم الناس جحداً (للضروريات)[5] .

وهؤلاء الفلاسفة هم أهل المعقولات، وهم من أكثر الناس جحداً للضروريات.

فاتفاق طائفة من الطوائف على المقالة لا يدل على مخالفتها لصريح العقل[6] وبالله التوفيق .

---

(١) في م، ت، د، س : يسرته.

(٢) انظر المطالب العالية (٢/ ٩ وما بعدها) والتدمرية ص (١٦، ٣٦، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٤).

(٣) ساقطة من ع، د، س.

(٤) ساقطة من ع، د، س.

(٥) في م : للضروريات.

(٦) قوله : فاتفاق طائفة من الطوائف على المقالة لا يدل على مخالفتها لصريح العقل... إلخ. هكذا وردت هذه العبارة في جميع النسخ، وسياق الكلام يقتضي أن تكون العبارة هكذا : فاتفاق طائفة من الطوائف على المقالة لا يدل على (عدم) مخالفتها لصريح العقل.

فصل

قال القدري : قال الله عز وجل : ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[١] وعند الجبري أن الكل فعل لله، وليس من العبد شيء.

قال الجبري : في الكلام استفهام مقدر تقديره: (أفمن نفسك) فهو إنكار لا إثبات[٢] . وقرأها بعضهم (فمن نفسك) – بفتح الميم ورفع نفسك – أي من أنت حتى تفعلها[٣] .

قال : ولابد من تأويل الآية، وإلا ناقض قوله في الآية التي قبلها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٤] فأخبر أن الحسنات والسيئات جميعاً من عنده لا من (العبد)[٥][٦] .

قال السني: أخطأتما جميعاً في فهم الآية أقبح الخطأ. ومنشأ غلطكما (ظنكما)[٧]

---

(١) سورة النساء آية ٧٩.

(٢) وهذا الوجه ذكره ابن الأنباري، فقال: أفمن نفسك، فأضمرت ألف الاستفهام كما أضمرت في قوله تعالى: ﴿وتلك نعمة﴾ آية ٢٢ سورة الشعراء أي: أوتلك نعمة. انظر زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ١٣٩) وذكره القرطبي في تفسيره (٥/ ١٨٤).

(٣) ذكر هذه القراءة ابن خالويه في كتابه القراءات الشاذة ص(٢٧) وقال : حكاها الكسائي عن بعضهم. طبع هذا الكتاب بالمطبعة الرحمانية بمصر، بعناية برجستراسر سنة ١٩٣٤م.

(٤) سورة النساء آية ٧٨.

(٥) في ع، د، س : عند العبد.

(٦) انظر المطالب العالية للرازي (٩/ ١٩٣).

(٧) ساقطة من ع، د، س.

أن الحسنات والسيئات في الآية[١] المراد بها الطاعات والمعاصي، التي هي فعل العبد الاختياري، وهذا وهم محض في (هذه)[٢] الآية، وإنما المراد بها النعم والمصائب، ولفظ الحسنات والسيئات في كتاب الله يراد به هذا تارة، وهذا تارة. فقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[٣]. وقوله تعالى : ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾[٤] وقوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾[٥] وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾[٦] ، وقوله : ﴿فَإِذَا / جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ١٦٨أ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾[٧] ، وقوله : ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[٨] (المراد)[٩] في هذا كله النعم والمصائب.

وأما قوله : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ

---

(١) في د : ليس المراد، بزيادة (ليس).

(٢) ساقطة من ت، ع، د، س.

(٣) سورة آل عمران آية ١٢٠.

(٤) سورة التوبة آية ٥٠.

(٥) سورة الأعراف ، آية ١٦٨ .

(٦) سورة الشورى ، آية ٤٨ .

(٧) سورة الأعراف ، آية ١٣١ .

(٨) سورة النساء آية ٧٩.

(٩) في د : المراد به.

إِلَّا مِثْلَهَا﴾[١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٢]، وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[٣] (فالمراد)[٤] به في هذا كله الأعمال المأمور بها والمنهي عنها، وهو سبحانه إنما قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ ولم يقل: ما أصبت وما كسبت، فما يفعله العبد يقال فيه ما أصبت وكسبت وعملت كقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٥] ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[٦] ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾[٧] وقول المذنب التائب: (يا رسول الله أصبت ذنباً فأقم علي كتاب الله)[٨]. ولا يقال في هذا: أصابك ذنب

---

(١) سورة الأنعام، آية ١٦٠.

(٢) سورة هود، آية ١١٤.

(٣) سورة الفرقان آية ٧٠.

(٤) في م، ت: المراد.

(٥) سورة النساء آية ١٢٤، وسورة طه آية ١١٢. وقد وردت في ع، د، س: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن﴾ وهذه آية ١١٢ سورة طه.

(٦) سورة النساء آية ١٢٣.

(٧) سورة النساء آية ١١٢.

(٨) يشير إلى ما ورد في الحديث الذي رواه أنس بن مالك، وأبوأمامة رضي الله عنهما؛ ولفظه: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أصبتُ حدًّا). ورواية أنس أخرجها: البخاري في صحيحه (٨/ ٢٣) ك الحدود، باب: إذا أقرَّ بالحد ولم يبيِّن هل للإمام أن يستر عليه. ومسلم (٤/ ٢١١٧) ك. التوبة، باب: قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾. ورواية أبي أمامة أخرجها: مسلم (٤/ ٢١١٧-٢١١٨) ك التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾. وأبوداود (١٢/ ٤٦) ك الحدود، باب في الرجل يعترف بحد ولا يسميه. والإمام أحمد (٥/ ٢٥١، ٢٥٢، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٥).

وأصابتك سيئة. وما يفعل به بغير اختياره يقال فيه: أصابك (كقوله)[١] : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾[٢] وقوله: ﴿ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ ﴾[٣] وقوله : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا ﴾[٤] فجمع الله في الآية بين (ما أصابوه)[٥] بفعلهم وكسبهم، وما أصابهم مما ليس فعلاً لهم، وقوله : ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ﴾[٦] ، وقوله : ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾[٧] ، وقوله : ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ ﴾[٨] .

فقوله تعالى : ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ﴾[٩] هو من هذا القسم (لا من القسم)[١٠] الذي يصيبه العبد (باختياره)[١١] . وهذا إجماع من السلف في تفسير هذه الآية.

---

(١) ساقطة من م .

(٢) سورة الشورى آية، ٣٠.

(٣) سورة التوبة، آية ٥٠ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٦٥.

(٥) في ع، د، س : ما أصابوا .

(٦) سورة التوبة آية ٥٢.

(٧) سورة الرعد آية ٣١.

(٨) سورة المائدة آية ١٠٦.

(٩) سورة النساء آية ٧٩.

(١٠) ما بين القوسين ساقط من ع، د، س.

(١١) في ع ، د ، س : لا باختياره .

قال أبو العالية[١] : (وإن تصبهم)[٢] حسنة)، هذا في السراء، (وإن (تصبهم)[٣] سيئة) هذا في الضراء[٤] .

قال السدي[٥] : الحسنة : الخصب، تنتج مواشيهم وأنعامهم، ويحسن حالهم (وتلد)[٦] نساؤهم الغلمان. قالوا : هذا من عند الله، وإن تصبهم سيئة قال : الضر / في أموالهم، تشاءموا بمحمد ﷺ وقالوا : (هذا)[٧] من عنده. ١٦٨ب (يقولون)[٨] : بتركنا ديننا واتباعنا محمداً ﷺ أصابنا ما أصابنا، فأنزل الله تعالى رداً عليهم ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ الحسنة والسيئة.

وقال الوالبي[٩] عن ابن عباس : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ قال: ما فتح الله عليك يوم بدر. وقال أيضاً : هو الغنيمة والفتح، والسيئة ما أصابه يوم أحد: شج في وجهه وكسرت رباعيته[١٠]. وقال (أيضاً)[١١] : أما الحسنة

(١) سبقت ترجمته في ص (١٦٦).

(٢) في م، ع، د، س : تصبكم. وما أثبت من ت وكتب التخريج.

(٣) في ع : تصبكم. وما أثبت من ت، د ، س ، وكتب التخريج.

(٤) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥/ ١٧٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم .

(٥) سبقت ترجمته في ص (١٩٠) .

(٦) في ع، د، س : فتلد.

(٧) في ع، د، س : هذه، وهو المطابق لما في تفسير ابن أبي حاتم.

(٨) في ع، د، س : قالوا. وما أثبت من م، ت، وهو المطابق لما في تفسير ابن أبي حاتم.

(٩) سبقت ترجمته في ص (٣١٠).

(١٠) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥/ ١٧٥) والبيهقي في كتاب القدر ص (٣٢٠) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٩٧) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١١) ساقطة من ع، د، س.

فأنعم الله بها عليك، وأما السيئة فابتلاك بها. وقال أيضاً : ما أصابك من نكبة فبذنبك وأنا قدرت ذلك عليك. ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم[١] .

وفي تفسير أبي صالح[٢] عن ابن عباس: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ[٣] حَسَنَةٌ﴾ حسنة : الخصب، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ سيئة : الجدب والبلاء[٤].

وقال ابن قتيبة في هذه الآية : الحسنة : النعمة، والسيئة : البلية[٥].

فإن قيل : فقد حكى أبو الفرج بن الجوزي[٦] عن أبي العالية أنه فسر الحسنة والسيئة في هذه الآية بالطاعة والمعصية[٧]، وهو من أعلم التابعين، فالجواب أنه لم يذكر بذلك إسناداً، ولا نعلم صحته عن أبي العالية، وقد ذكر ابن أبي حاتم بإسناده عن أبي العالية ما تقدم حكايته أن ذلك في السراء والضراء، وهذا هو المعروف عن أبي العالية، ولم يذكر ابن أبي حاتم عنه غيره، وهو الذي حكاه ابن قتيبة عنه[٨] .

---

(١) انظر تفسير ابن أبي حاتم ق (١٥٥) مخطوط، محفوظ أصله بمكتبه أيا صوفيا باسطنبول في تركيا تحت رقم (١٧٥)، وتوجد صورة منه بمكتبة جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض تحت رقم (٢٦٧٦/ ف). ورواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥/ ١٧٥) والبيهقي في كتاب القدر ص(٣١٩) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٩٧) وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

(٢) هو : باذام ، مولى أم هانئ ، سبقت ترجمته في ص (١٩١).

(٣) في ع، د، س : تصبك.

(٤) ذكره ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير (٢/ ١٣٧).

(٥) انظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ١٣٠-١٣١ .

(٦) سبقت ترجمته ص (٣٣٣).

(٧) انظر تفسير ابن الجوزي، المسمى زاد المسير في علم التفسير (٢/ ١٣٨-١٣٩).

(٨) لم أعثر على حكاية ابن قتيبة لهذا القول.

وقد يقال: إن المعنيين جميعاً مرادان باعتبار أن ما يوفقه الله (له)[١] من الطاعات، فهو نعمة في حقه أصابته من الله، كما قال: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[٢] فهذا يدخل فيه نعم الدين والدنيا. وما يقع منه من المعصية، فهو مصيبة أصابته من الله وإن كان سببها منه. والذي يوضح ذلك أن الله سبحانه إذا جعل السيئة (التي)[٣] هي الجزاء على المعصية من نفس العبد بقوله: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ / مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[٤] فالعمل الذي أوجب الجزاء ١٦٩أ أولى أن يكون من نفسه، فلا منافاة بين أن تكون سيئة العمل من نفسه، وسيئة الجزاء من نفسه، ولا (ينفي)[٥] ذلك أن يكون الجميع من الله قضاء وقدراً، ولكن هو من الله عدل وحكمة ومصلحة وحسن، ومن العبد سيئة وقبيح، وقد روي عن ابن عباس أنه كان يقرأها: (وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا قدرتها عليك)[٦] وهذه القراءة زيادة بيان، وإلا فقد دل

(١) ساقطة من ع، د، س.
(٢) سورة النحل آية ٥٣.
(٣) ساقطة من ع، د، س.
(٤) سورة النساء آية ٧٩.
(٥) في ع، د، س: ولا ينافي.
(٦) ذكر هذه القراءة البيهقي في كتاب القدر ص(٣٢٠) وذكرها القرطبي في تفسيره (٥/ ١٨٤) من طريق عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس وأبي، وابن مسعود، وقال: وهذه قراءة على التفسير، وقد أثبتها بعض أهل الزيغ من القرآن، والحديث بذلك عن ابن مسعود وأبي منقطع؛ لأن مجاهداً لم ير عبدالله ولا أبياً. اهـ. وذكرها ابن الجوزي في تفسيره المسمى زاد المسير (٢/ ١٣٩). والنحاس في معاني القرآن (٢/ ١٣٦). والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٩٧) ونسب تخريجها إلى ابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف. وذكرها الشوكاني في فتح القدير (١/ ٤٩٠). وعبدالوهاب بن مجاهد: متروك. انظر تقريب التهذيب (١/ ٥٢٨).

قوله قبل ذلك: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ على القضاء السابق والقدر النافذ.

والمعاصي قد يكون بعضها عقوبة بعض، فيكون (لله)[١] على المعصية عقوبتان: عقوبة بمعصية تتولد منها، وتكون الأولى سبباً فيها، وعقوبة بمؤلم يكون جزاؤها، كما في الحديث المتفق على صحته عن ابن مسعود عن النبيﷺ : « عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »[٢] .

وقد ذكر الله سبحانه في غير موضع من كتابه أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الحسنة الأولى، وأن المعصية[٣] قد تكون عقوبة للمعصية الأولى، فالأول كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٥]، وقال تعالى : ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

---

(١) في ت : ذلك، وفي ع: من.

(٢) سبق تخرجه في ص (٢٥٥).

(٣) يعني : المعصية الثانية.

(٤) سورة النساء آية ٦٦-٦٨.

(٥) سورة العنكبوت آية ٦٩.

١٦٩ب ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾(١)، وأما قوله: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ / سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝﴾(٢) فيحتمل أن يكون من هذا، وتكون الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة، فإنه رتب هذا الجزاء على قتلهم. ويحتمل أن يكون منه، ويكون قوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ إخباراً منه سبحانه عما يفعله بهؤلاء الذين قتلوا في سبيله قبل أن قتلوا، وأتى به بصيغة المستقبل (إعلاماً)(٣) بأنه يجدد له كل وقت (من أنواع)(٤) الهداية وإصلاح البال شيئاً بعد شيء.

فإن قلت : فكيف يكون ذلك المستقبل خبراً عن الذين قتلوا؟

قلت : الخبر قوله : ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾(٥) أي أنه لا يبطلها عليهم ولا يَتِرُهم إياها . هذا بعد أن قتلوا. ثم أخبر سبحانه خبراً مستأنفاً عنهم أنه سيهديهم ويصلح بالهم لما علم أنهم سيقتلون في سبيله، وأنهم بذلوا أنفسهم له، فلهم جزاءان: جزاء في الدنيا بالهداية على الجهاد، وجزاء في الآخرة بدخول الجنة، فيرد السامع كل جملة إلى وقتها لظهور المعنى وعدم التباسه (وهو كثير في القرآن)(٦) ، والله أعلم.

وقد قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

---

(١) سورة المائدة آية ١٦.

(٢) سورة محمد آية ٤-٥.

(٣) في ع، د، س : إعلاماً منه.

(٤) في ع: نوع من أنواع، وفي د، س : نوعاً من أنواع.

(٥) سورة محمد آية ٤ .

(٦) في ع، د، س : وهو في القرآن كثير.

ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[1] (فجازاه على إخلاصه بصرف السوء والفحشاء عنه)[2]، وقال: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾[4]، وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ﴾[5]، وقال: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[6] فضمن التمام معنى الإنعام فعدَّاه بعلى، (أي)[7] إنعاماً منا على الذي أحسن (فهذا)[8] جزاء على الطاعات بالطاعات.

وأما الجزاء (على المعاصي بالمعاصي)[9] فكقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾[10]، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ ﴾[11]، وقوله: / ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[12]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ١٧٠أ

---

(١) سورة يوسف آية ٢٤.

(٢) ما بين القوسين ساقط من ع، د، س.

(٣) سورة يوسف آية ٢٢.

(٤) سورة الأحزاب آية ٧٠ – ٧١.

(٥) سورة النور آية ٥٤.

(٦) سورة الأنعام آية ١٥٤.

(٧) ساقطة من د.

(٨) في ع، د، س: وهذا.

(٩) في ع، د، س: بالمعاصي على المعاصي.

(١٠) سورة الصف آية ٥.

(١١) سورة الحشر آية ١٩.

(١٢) سورة الأنعام آية ١١٠.

إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ﴾[١] ، وقوله : ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[٣] وهو كثير في القرآن.

وعلى هذا، فيكون النوعان من السيئات، أعني المصائب والمعايب، من نفس الإنسان، وكلاهما بقدر الله، فشر النفس هو الذي أوجب هذا وهذا. وكان النبي ﷺ يقول في خطبته المعروفة : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا »[٤] فشر النفس نوعان: صفة، وعمل، والعمل ينشأ عن الصفة، والصفة تتأكد وتقوى بالعمل، فكل منها يمد الآخر. وسيئات الأعمال نوعان قد (فسر بهما)[٥] الحديث، أحدهما: مساوئها وقبائحها، فتكون الإضافة فيه من (إضافة)[٦] النوع (إلى)[٧] جنسه، وهي إضافة بمعنى من، أي السيئات من أعمالنا. والثاني : (أنها) ما يسوء العامل مما يعود عليه من عقوبة عمله، فيكون من إضافة المسبب إلى سببه، وتكون الإضافة على معنى اللام.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٥.

(٢) سورة البقرة آية ٨٨.

(٣) سورة التوبة آية ٢٥.

(٤) سبق تخريجه في ص (٥٩٢).

(٥) في د، س : قد فسرهما.

(٦) ساقطة من ت ع، د، س.

(٧) ساقطة من م.

وقد (يرجح)[1] الأول بأنه يكون قد استعاذ من الصفة والعمل الناشئ عنها، وذلك يتضمن الاستعاذة من الجزاء السيئ المترتب على ذلك، فتضمنت الاستعاذة ثلاثة أمور : الاستعاذة من العذاب، ومن سببه الذي هو العمل، ومن سبب العمل الذي هو الصفة.

وقد يرجح الثاني أن شر النفس يعم النوعين كما تقدم، فسيئات الأعمال ما يسوء من جزائها، ونبه بقوله : (سيئات أعمالنا) على أن الذي يسوء من الجزاء إنما هو بسبب الأعمال الإرادية، لا من الصفات التي ليست من أعمالنا، ولما كانت تلك الصفة شراً استعاذ منها / وأدخلها في شر النفس. ١٧٠ب

وقال الصديق رضي الله تعالى عنه للنبي ﷺ: (علمني دعاءً أدعو به في صلاتي، قال : « قل: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه[2]، وأن أقترف (على نفسي)[3] سوءاً أو أجره إلى مسلم. قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك »[4] .

ولما كان الشر له مصدر يبتدئ منه، وغاية ينتهي إليها، وكان مصدره إما من نفس الإنسان، وإما من الشيطان، وغايته أن يعود على صاحبه أو على أخيه المسلم، تضمن (هذا)[5] الدعاء هذه المراتب الأربعة[6] بأوجز لفظ

---

(١) في ت : رجح.

(٢) وشِرْكِه : أي ما يدعو إليه ويوسوس به من الإشراك بالله تعالى. ويروي بفتح الشين والراء : أي حبائله ومصايده. النهاية لابن الأثير (٢/ ٤٦٧).

(٣) ما بين القوسين ساقط من م.

(٤) سبق تخرجه في ص (٧٤٤).

(٥) ساقطة من ع، د، س.

(٦) المراتب الأربعة : هكذا ورد في جميع النسخ. والمناسب (المراتب الأربع) لأن المعدود مؤنث وهو مراتب.

(وأفصحه)[١] وأبينه.

فصل

قال السني: فليس لك أيها القدري أن تحتج بالآية التي نحن فيها لمذهبك لوجوه:

أحدها : أنك تقول: فعل العبد حسنه كان أو سيئه هو منه لا من الله، بل الله سبحانه (قد)[٢] أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات والسيئات، لكن هذا أحدث من عند نفسه إرادة فعل بها الحسنات، وهذا أحدث إرادة فعل بها السيئات، وليست واحدة من الإرادتين من إحداث الرب البتة ولا أوجبتها مشيئته، والآية قد فرقت بين الحسنة والسيئة، وأنتم لا تفرقون بينهما، فإن الله عندكم لم يشأ هذا ولا هذا (ولم يخلق هذا ولا هذا)[٣] .

قال القدري : إضافة السيئة إلى نفس العبد لكونه هو الذي أحدثها وأوجدها، (وإضافة)[٤] الحسنة إليه سبحانه لكونه هو الذي أمر بها وشرعها.

قال السني : الله سبحانه أضاف إلى العبد (ما أصابه من سيئة، وأضاف إلى نفسه ما أصاب العبد)[٥] من حسنة. ومعلوم أن الذي أصاب العبد هو الذي قام به، والأمر لم يقم بالعبد، وإنما قام به المأمور وهو الذي أصابه، فالذي أصابه لا تصح إضافته إلى الرب عندكم، والمضاف إلى الرب لم يقم بالعبد، فعلم أن الذي أصابه من هذا وهذا أمر قائم به / . فلو كان المراد به الأفعال ١٧١أ

(١) في ع، د، س : وأوضحه.

(٢) ساقطة من ع، د .

(٣) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

(٤) في م، ع، د، س : وأضاف.

(٥) ما بين القوسين ساقط من ت.

الاختيارية من الطاعات والمعاصي لاستوت الإضافة ولم يصح الفرق وإن افترقا في كون أحدهما مأموراً به والآخر منهياً عنه. على أن النهي أيضاً من الله كما أن الأمر منه، فلو كانت الإضافة لأجل الأمر لاستوى المأمور والمنهي في الإضافة؛ لأن هذا مطلوب إيجاده، وهذا مطلوب إعدامه.

وقال القدري: أنا أجوز تعلق الطاعة والمعصية بمشيئة الرب تعالى، وإحداثه على وجه الجزاء، لا على سبيل الابتداء، وذلك أن الله سبحانه يعاقب عبده بما شاء ويثيبه (بما شاء)[1]، فكما يعاقبه بخلق الجزاء الذي يسوؤه، وخلق الثواب الذي يسره، فكذلك يحسن أن يعاقبه بخلق المعصية وخلق الطاعة، فإن هذا يكون عدلاً منه. وأما أن يخلق فيه الكفر والمعصية ابتداءً بلا سبب فمعاذ الله من ذلك.

قال السني : هذا توسط حسن جداً لا يأباه العقل ولا الشرع، ولكن من أعدى الأول[2] وليس هو عندك مقدوراً لله ولا واقعاً بمشيئته، فقد أثبت في

---

(١) ساقطة من ع، د، س. وفي ت: بما يشاء.

(٢) قوله : من أعدى الأول. مقتبس من الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لا عدوى ولا صفر ولا هامة». فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال إبلي تكون في الرمل كأنها الظباء، فيأتي البعير الأجرب فيدخل بينها فيجربها، فقال : «فمن أعدى الأول؟». والحديث أخرجه البخاري في (٧/ ١٩) ك الطب - باب لا صفر. وفي (٧/ ٣١) باب لا هامة ولا عدوى. ومسلم في (٤/ ١٧٤٢) ك السلام باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر. وأبو داود في (١٠/ ٤٠٧) ك الطب - باب في الطيرة. وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٣/ ٤٨٤) والبغوي في شرح السنة (١٢/ ١٦٧). قال الخطابي في معالم السنن المطبوع مع مختصر سنن أبي داود للمنذري (٥/ ٣٧٦): يقول : إن أول بعير جرب=

ملكه ما لا يقدر عليه، وأدخلت فيه ما لم يشأه، ونقضت أصلك كله، فإنك أصلت أن فعل العبد (الاختياري قدرة العبد)[١] عليه، واختياره له ومشيئته تمنع قدرة الرب عليه ومشيئته له، وهذا الأصل لا فرق فيه بين الابتدائي والجزائي.

قال القدري : فالقرآن قد فرق بين النوعين وجعل الكفر والفسوق الثاني جزاءً على الأول، فعلم أن الأول من العبد قطعاً، وإلا لم يستقم جعل أحدهما عقوبة على الآخر. وقد صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾[٢] فأضاف نقض الميثاق إليهم وتقسية القلوب إليه. فالأول سبب منهم. والثاني جزاء منه سبحانه . (و)[٣] قال تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٤] . فأضاف عدم الإيمان أولاً إليهم إذ هو السبب، وتقليب القلوب وتركهم في طغيانهم (إليه إذ)[٥] هو الجزاء. ومثله قوله : ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[٦] والآيات التي (سقتموها)[٧] آنفاً إنما تدل على هذا.

= من الإبل لم يكن قبله بعير أجرب فيعديه، وإنما كان أول ما ظهر الجرب في أول بعير منها بقضاء الله وقدره، فكذلك ما ظهر منه في سائر الإبل بعد.

(١) ما بين القوسين ساقط من م.

(٢) سورة المائدة آية ١٣ .

(٣) الواو ساقطة من ع، د، س.

(٤) سورة الأنعام آية ١١٠ .

(٥) ساقطة من ع، د، س.

(٦) سورة الصف آية ٥.

(٧) في ع، س : سمعتموها.

قال السني : نعم هذا حق، (و)[1] لكن ليس فيه إخراج السبب عن كونه مقدوراً للرب تعالى واقعاً بمشيئته. ولو شاء لحال بين العبد وبينه ووفقه لضده، (فهذه)[2] البقية التي بقيت عليك من القدر، كما أن إنكار (إثبات)[3] الأسباب واقتضائها لمسبباتها وترتيبها عليها (هي)[4] البقية التي بقيت على الجبري في المسألة أيضاً. (فكلاكما)[5] مصيب من وجه، مخطئ من وجه، ولو تخلص كل منكما من البقية التي بقيت عليه لوجدتما روح الوفاق، واصطلحتما على الحق، وبالله التوفيق.

قال القدري: فما تقول أنت أيها السني في الفعل الأول إذا لم يكن جزاءً فما وجهه وأنت ممن يقول بالحكمة والتعليل، وتنزه الرب تعالى عن الظلم الذي هو ظلم، لا ما يقوله الجبري إنه الجمع بين النقيضين؟

قال السني : لا يلزمني في هذا المقام بيان ذلك، فإني لم أنتصب له، إنما أنتصب لإبطال احتجاجك بالآية لمذهبك الباطل، وقد وفيت به، ولله تعالى في ذلك حكم وغايات محمودة لا تبلغها عقول العقلاء ومباحث الأذكياء، فالله سبحانه إنما يضع فضله وتوفيقه وإمداده في المحل الذي يصلح له، وما لا يصلح له من المحال يدعه غُلْفاً فارغاً من الهدى والتوفيق، فيجري مع طبعه الذي خلق عليه ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم

---

(١) إضافة من ت.

(٢) في ع، د، س : فهي.

(٣) ساقطة من م.

(٤) في م : بين.

(٥) في ع، د، س : وكلاكما

مُعْرِضُونَ ﴾[1].

قال القدري: فإذا كان الله سبحانه قد أحدث فيهم تلك الإرادة والمشيئة المستلزمة لوجود / الفعل كان ذلك إيجاداً منه سبحانه لذلك فيهم، كما أوجد الهدى والإيمان في أهله.

١٧٢أ

قال السني: هذا معترك النزال (ومفرق)[2] طرق العالم، والله سبحانه أعطى العبد مشيئة وقدرة وإرادة تصلح لهذا ولهذا، ثم (أمد)[3] أهل الفضل بأمور وجودية زائدة على ذلك المشترك. أوجب (لهم)[4] الهداية والإيمان، وأمسك ذلك الإمداد عن من علم أنه لا يصلح له ولا يليق به، فانصرفت قوى إرادته ومشيئته إلى ضده اختياراً منه (وإرادة)[5] ومحبة، لا كرهاً واضطراراً.

قال القدري: فهل كان يمكنه إرادة ما لم يعن عليه ولم يوفق له بإمداد زائد على خلق الإرادة.

قال السني: إن أردت بالإمكان أنه يمكنه فعله لو أراده فنعم، هو ممكن بهذا الاعتبار مقدور له. وإن أردت به أنه ممكن وقوعه بدون مشيئة الرب وإذنه، فليس (بممكن)[6]، فإنه ما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده.

---

(١) اقتباس من آية ٢٣ سورة الأنفال.

(٢) في م، ع، د، س: وتفرق.

(٣) ساقطة من ع.

(٤) في ع، د، س: له.

(٥) ساقطة من ع، د، س.

(٦) في ع، د، س: يمكن.

قال القدري : فقد سلمت حينئذ أنه غير ممكن للعبد إذا لم يشأ الله منه أن يفعله فصار غير مقدور للعبد، فقد عوقب على ترك ما لا يقدر على فعله.

قال السني : عدم إرادة الله سبحانه للعبد ومشيئته أن يفعل لا يوجب كون الفعل غير مقدور له، فإنه سبحانه لا يريد من نفسه أن يعينه عليه مع كونه أقدره عليه، ولا يلزم من إقادره عليه وقوعه حتى توجد منه إعانة أخرى. فانتقاء تلك الإعانة لا يخرج الفعل عن كونه مقدوراً للعبد، فإنه قد يكون قادراً على الفعل، لكن يتركه كسلاً وتهاوناً وإيثاراً لفعل ضده، فلا يصرف الله عنه (تلك)[1] (الموانع)[2] ، ولا يوجب عدم (صرفها)[3] كونه عاجزاً عن الفعل، فإن الله سبحانه يعلم أنه قادر عليه بالقدرة التي أقدره بها، ويعلم أنه لا يريده مع كونه / قادراً عليه، فهو سبحانه مريد له ومنه الفعل، ولا يريد ١٧٢ب من نفسه إعانته وتوفيقه. وقطع هذه الإعانة والتوفيق لا يخرج الفعل عن كونه مقدوراً له وإن جعلته غير مراد. وسر المسألة الفرق بين تعلق الإرادة بفعل العبد وتعلقها بفعله هو سبحانه (بعبده)[4] . فمن لم يحط معرفة بهذا الفرق لم (يتكشف)[5] له حجاب المسألة.

قال الجبري : إما أن تقول : إن الله علم أن العبد لا يفعل أو لم (يعلم)[6]

---

(١) في د، س : ترك.

(٢) في ع، د، س : الواقع.

(٣) في د، س : صرفه.

(٤) في ع، د، س : بعده.

(٥) في ع، د، س : يكشف.

(٦) في م : يفعل.

ذلك والثاني محال. وإذا كان قد علم أنه لا يفعله صار الفعل ممتنعاً قطعاً إذ لو فعله لانقلب العلم القديم جهلاً.

قال السني : هذه حجة باطلة من وجوه :

أحدها : أن هذا بعينه يقال فيما علم الله أنه لا يفعله وهو مقدور له فإنه (لا يقع)[1] البتة مع كونه مقدوراً له، فما كان جوابك عن ذلك فهو جوابنا لك.

(وثانيها)[2] : أن الله سبحانه يعلم الأمور على ما هي عليه، فهو يعلم أنه لا يفعله لعدم إرادته له، لا لعدم قدرته عليه.

وثالثها : أن العلم كاشف لا موجب، وإنما الموجب مشيئة الرب تعالى، والعلم يكشف حقائق المعلومات.

عدنا إلى الكلام على الآية التي احتج بها القدري وبيان أنه لا حجة فيها من ثلاثة أوجه:

أحدها : أنه قال : ما أصابك، ولم يقل: ما أصبت.

الثاني : أن المراد بالحسنة والسيئة : النعمة والمصيبة.

الثالث : أنه قال : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[3] فالإنسان هو فاعل السيئات، ويستحق عليها العقاب، والله هو المنعم عليه بالحسنات عملاً وجزاءً، والعادل فيه بالسيئات قضاءً وجزاءً، ولو كان العمل الصالح من نفس العبد

---

(١) في ع، د، س : لا ينفع.

(٢) في د، وثانيهما.

(٣) سورة النساء آية ٧٨.

كما كان السيئ (من نفسه)[١] لكان الأمران كلاهما من نفسه، والله سبحانه قد فرق بين النوعين. وفي الحديث الصحيح الإلهي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد / خيراً فليحمد الله، ومن ١٧٢أ وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[٢] .

فصل

قال : الجبري أول الآية محكم، وهو قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٣] وآخرها متشابه، وهو قوله : ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[٤] .

(و)[٥] قال القدري : (بل)[٦] آخرها محكم وأولها متشابه.

قال السني : أخطأتما جميعاً. بل كلاهما محكم مبين، وإنما أُتيتما من قلة الفهم في القرآن وتدبره، فليس بين اللفظين تناقض؛ لا في المعنى ولا في العبارة، فإنه سبحانه وتعالى ذكر عن هؤلاء الناكبين عن الجهاد أنهم إن تصبهم حسنة يقولوا: هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا لرسوله ﷺ: هذه من عندك، أي بسبب ما أمرتنا به من دينك، وتركنا ما كنا عليه، أصابتنا

---

(١) ما بين القوسين ساقط من م.

(٢) هذا طرف من حديث قدسي طويل رواه أبو ذر رضي الله عنه، وأوله: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ...» وسبق تخرجه في ص (٤٢٢) .

(٣) سورة النساء آية ٧٨.

(٤) سورة النساء آية ٧٩.

(٥) الواو ساقطة من ع، د، س.

(٦) ساقطة من م، ع، د، س.

هذه السيئات؛ لأنك أمرتنا بما أوجبها، (فالسيئات)[١] هاهنا هي المصائب، والأعمال التي ظنوا أنها سبب المصائب هي التي أمروا بها. وقولهم في السيئة التي تصيبهم : هذه من عندك تتناول مصائب الجهاد التي حصلت لهم من الهزيمة والجراح وقتل من قتل منهم، وتتناول مصائب الرزق على وجه التطير والتشاؤم، أي أصابنا هذا بسبب دينك، كما قال تعالى عن قوم فرعون : ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[٢] . أي : إذا جاءهم ما يسرون به ويتنعمون به من النعم، قالوا: نحن أهل ذلك ومستحقوه، وإن أصابهم ما يسوؤهم قالوا: هذا بسبب ما جاء به موسى. وقال أهل القرية للمرسلين : ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ﴾[٣] . وقال قوم صالح له : ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾[٤] وكانوا يقولون لما ينالهم (بسبب)[٥] الحرب: هذا منك؛ لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة له، وللمصائب الحاصلة من غير جهة العدو، وهذا منك أيضاً، أي بسبب مفارقتنا لديننا ودين آبائنا والدخول في / طاعتك، وهذا حال كل من جعل طاعة الرسول ﷺ سبباً لشر أصابه من السماء أو من الأرض. وهؤلاء كثير (في)[٦] الناس، وهم الأقلون عند الله قدراً (الأرذلون)[٧] عنده. ومعلوم أنهم لم يقولوا: هذه من

١٧٣ب

(١) في د : السيئات دون الفاء.

(٢) سورة الأعراف آية ١٣١.

(٣) كما حكاه الله عز وجل عنهم في سورة يس آية ١٨.

(٤) كما حكاه الله عز وجل عنهم في سورة النمل آية ٤٧.

(٥) في ع، د، س : من سبب.

(٦) في د : من.

(٧) في ع : الأذلون.

عندك بمعنى (أنك)[1] أحدثتها.

ومن فهم هذا تبين له أن قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾[2] لا يناقض قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾[3] بل هذا تحقيق له، فإنه سبحانه بين أن النعم والمصائب كلها من عنده، فهو الخالق لها، المقدر لها، المبتلي خلقه بها، فهي عنده، ليس بعضها (خلقا له)[4] وبعضها خلقاً لغيره. فكيف يضاف بعضها إلى الرسول ﷺ (وبعضها إلى الله تعالى، ومعلوم أن الرسول ﷺ)[5] لم يحدثها. فلم يبق إلا ظنهم أنه سبب حصولها: إما في الجملة كحال أهل التطير، وإما في الواقعة المعينة كحال اللائمين له في الجهاد، فأبطل الله سبحانه ذلك الوهم الكاذب والظن الباطل، وبين أن ما جاء به لا يوجب (شراً)[6] البتة، بل الخير كله فيما جاء (به)[7] والشر بسبب أعمالهم وذنوبهم، كما قال الرسل عليهم السلام لأهل القرية: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ﴾[8] ولا يناقض هذا قول صالح عليه السلام لقومه: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾[9] وقوله تعالى عن قوم فرعون : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ

---

(١) ساقطة من ع، د، س.

(٢) سورة النساء آية ٧٩.

(٣) سورة النساء آية ٧٨.

(٤) في ع، د، س : من عنده.

(٥) ما بين القوسين ساقط من د.

(٦) في د، س : الشر.

(٧) ساقطة من د، س.

(٨) كما حكاه الله عز وجل عنهم في سورة يس آية ١٩.

(٩) كما حكاه الله عز وجل عنه في سورة النمل آية ٤٧.

يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[١] بل (هاتان)[٢] النسبتان نظير هاتين النسبتين في هذه الآية، وهي نسبة السيئة إلى نفس العبد، ونسبة الحسنة والسيئة إلى أنهما من عند الله عز وجل. فتأمل اتفاق القرآن وتصديق بعضه بعضاً. فحيث جعل الطائر معهم، والسيئة من نفس العبد، فهو على جهة السبب (و)[٣] الموجب، أي الشر والشؤم الذي أصابكم هو منكم ومعكم، فإن أسبابه قائمة بكم، كما تقول: شرك منك وشؤمك فيك[٤] وطائرك معك، وحيث جعل ذلك (كله من عنده فهو لأنه الخالق له، المجازي به / عدلاً وحكمة فالطائر يراد)[٥] به العمل وجزاؤه، فالمضاف إلى العبد العمل، والمضاف إلى الرب الجزاء، فطائركم معكم طائر العمل، وطائركم عند الله (طائر)[٦] الجزاء، فما جاءت به الرسل ليس سبباً لشيء من المصائب، ولا تكون طاعة الله ورسوله سبباً لمصيبة قط، بل طاعة الله ورسوله لا توجب إلا خيراً في الدنيا والآخرة، ولكن قد يصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم وتقصيرهم في طاعة الله ورسوله كما لحقهم يوم أحد[٧]، ويوم

١٧٤أ

---

(١) سورة الأعراف آية ١٣١.

(٢) في م : هذا، وفي ع: هذه .

(٣) الواو ساقطة من د.

(٤) في د، س : زيادة في هذا الموضع نصها : يراد به العمل.

(٥) ما بين القوسين ساقط من د.

(٦) ساقطة من د، س.

(٧) يشير المؤلف رحمه الله إلى ما حدث في غزوة أحد عندما خالف الرماة أمر الرسول ﷺ لهم بأن لا يبرحوا، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ =

حنين[1] وكذلك ما امتحنوا به من الضراء وأذى الكفار لهم ليس هو بسبب نفس إيمانهم ولا هو موجبه، وإنما امتحنوا به ليخلص (ما فيهم من الشر

= مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ سورة آل عمران آية ١٥٢. وقد روى هذه القصة البخاري في صحيحه (٤/٢٦-٢٧) ك الجهاد – باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، وقول الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾. وفي (٥/ ١١١) ك المغازي – باب (١٠). وفي (٥/ ٢٩ -٣٠) ك المغازي – باب غزوة أحد. وفي (٥/ ٣٥) ك المغازي – باب ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ـ إلى قولـه ـ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مختصراً. وفي (٥/ ١٧١) ك التفسير باب ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ مختصراً. وأخرجه أبو داود (٧/ ٣٢٣-٣٢٤) ك الجهاد – باب في الكمناء. والنسائي في سننه الكبرى – ك التفسير (١/ ٣٣٤-٣٣٦) تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ آية ١٥٣ من سورة آل عمران وفي ك السير، كما ذكر المزي في تحفه الأشراف (٢/ ٤٦) برقم (١٨٣٧)، والإمام أحمد (٤/ ٢٩٣-٢٩٤)، والطبري في تفسيره (٤/ ١٢٥) تفسير سورة آل عمران آية (١٥٢). وفي تاريخه (٢/ ٥٠٧-٥٠٨، ٥٢٦-٥٢٧). والطيالسي في مسنده ص (٩٩) برقم ٧٢٥. والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٢٩-٢٣٠).

(١) يشير المؤلف رحمه الله إلى ما حصل على المسلمين من الهزيمة، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾. سورة التوبة آية (٢٥) وقد روى قصة غزو حنين عدد من الصحابة، منهم أنس بن مالك، وأخرج روايته البخـاري في (٥/ ١٠٦) ك المغازي، باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان. ومسلم (٢/ ٧٣٥) ك الزكاة – باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه. والإمام أحمد (٣/ ٢٧٩-٢٨٠) وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١١/ ٨٧-٨٨).

فامتحنوا بذلك كما يمتحن الذهب بالنار ليخلص)[١] من غشه والنفوس فيها ما هو من مقتضى (طبيعتها)[٢] فالامتحان يمحص المؤمن من ذلك الذي هو من موجبات طبعه، كما قال تعالى ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[٣] وقال : ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ ﴾[٤] فطاعة الله ورسوله لا تجلب إلا خيراً، ومعصيته لا تجلب إلا شراً. ولهذا قال سبحانه: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾[٥] فإنهم لو فقهوا الحديث لعلموا أنه ليس في الحديث الذي أنزله الله على رسوله ما يوجب شراً البتة، ولعلموا أنه سبب كل خير، ولو فقهوا لعلموا أن العقول والفطر تشهد بأن مصالح المعاش والمعاد متعلقة بما جاء به الرسول، فلو فقهوا القرآن علموا أنه أمرهم بكل خير، ونهاهم عن كل شر، وهذا مما يبين أن ما أمر الله به يعلم حسنه بالعقل، وأنه كله مصلحة ورحمة ومنفعة وإحسان، بخلاف ما يقوله كثير من أهل الكلام الباطل : إنه سبحانه (قد)[٦] يأمر العباد بما لا مصلحة لهم فيه، بل يأمرهم بما فيه مضرة لهم. وقول هؤلاء تصديق وتقرير لقول المتطيرين بالرسل.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ت.

(٢) في ع، د، س : طبعها.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٤١ .

(٤) سورة آل عمران ، آية ١٥٤ .

(٥) سورة النساء ، آية ٧٨ .

(٦) ساقطة من ع ، د ، س .

فصل

ومما يوضح الأمر في ذلك أنه سبحانه لما قال : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[١] عقب ذلك بقوله : ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[٢] (وذلك)[٣] يتضمن أشياء:

منها تنبيه أمته على أن رسوله الذي شهد له بالرسالة إذا أصابه ما يكره فمن نفسه، فما الظن بغيره؟

ومنها : أن حجة الله قامت عليهم بإرساله، فإذا أصابهم سبحانه بما يسوؤهم لم يكن ظالماً لهم في ذلك؛ لأنه قد أرسل رسوله إليهم يعلمهم بما فيه مصالحهم (وما يجلبها لهم)[٤] وما فيه مضرتهم وما يجلبها لهم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

ومنها: أنه سبحانه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات الدالة على صدقه، وأنه رسوله حقاً، فلا يضره جحد هؤلاء الجاهلين الظالمين المتطيرين به لرسالته، (وقد)[٥] شهد له رب السماوات والأرض.

ومنها : أنهم أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتهم حجة على إبطال رسالته، فشهد (الله[٦] له بالرسالة، وأخبر أن شهادته كافية، فكان في ضمن ذلك إبطال قولهم: إن المصائب من عند الرسول ﷺ وإثبات أنها من عند

---

(١) سورة النساء ، آية ٧٩ .

(٢) سورة النساء آية ٧٩.

(٣) ساقطة من ت.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) في ع، س : ومن، وفي د : وهو من.

(٦) لفظ الجلالة لم يذكر في ع، د، س.

أنفسهم بطريق الأولى.

ومنها : إبطال قول الجهمية[١] المجبرة ومن وافقهم في قولهم : إن الله قد يعذب العباد بلا ذنب.

ومنها : إبطال قول القدرية الذين يقولون : إن أسباب الحسنات والسيئات ليست من الله، بل هي من العبد.

ومنها : ذم من لم يتدبر القرآن (ولم)[٢] يفقهه، وأن إعراضه عن تدبره يوجب له من الضلال والشقاء بحسب إعراضه.

ومنها : إثبات الأسباب، وإبطال قول من ينفيها ولا يرى لها ارتباطاً بمسبباتها.

ومنها: أن الخير كله من الله، والشر كله من النفس، فإن الشر هو الذنوب (وعقوباتها)[٣] ، والذنوب من النفس، (وعقوباتها)[٤] مترتبة عليها، والله (هو)[٥] الذي قدر ذلك (كله)[٦] وقضاه، وكل من عنده قضاءً وقدراً، وإن كانت نفس العبد (سببه بخلاف الخير والحسنات، فإن)[٧] سببها مجرد فضل الله (ومنه)[٨] وتوفيقه كما تقدم تقريره.

---

(١) سبق التعريف بهم في ص (٤٥٩).

(٢) في ع، ت : و.

(٣) في ع ، د، س : وعقوبتها.

(٤) في د، س : وعقوبتها.

(٥) ساقطة من م.

(٦) ساقطة من ع، د، س.

(٧) ما بين القوسين ساقط من د.

(٨) في م : ومنته.

ومنها : أنه سبحانه لما ردَّ قولهم : إن الحسنة من الله والسيئة من رسوله، وأبطله بقوله : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[١] (دفع)[٢] وَهْم من توهَّم أن نفسه لا تأثير لها في السيئة ولا هي منها أصلاً بقوله : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[٣] وخاطبه بهذا تنبيهاً لغيره كما تقدم.

ومنها : أنه قال في الرد عليهم : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[٤] ولم يقل: من الله لما جمع بين الحسنات والسيئات، والحسنة مضافة إلى الله من كل وجه، والسيئة إنما تضاف إليه قضاءً وقدراً وخلقاً، وأنه خالقها كما هو خالق الحسنة، فلهذا قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٥] وهو سبحانه إنما خلقها لحكمة، فلا تضاف إليه من جهة كونها سيئة، بل من جهة ما تضمنته من الحكمة والعدل والحمد، وتضاف إلى النفس (كونها)[٦] سيئة. ولما ذكر الحسنة مفردة عن السيئة، قال : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[٧] ولم يقل: من عند الله، فالخير منه، وإنه موجب أسمائه وصفاته، والشر (الذي)[٨] هو بالنسبة إلى العبد شر من عنده سبحانه، (فإنه)[٩] مخلوق له (خلقه)[١٠] عدلاً منه

---

(١) سورة النساء آية ٧٨.

(٢) في م، ع، د، س : رفع.

(٣) سورة النساء آية ٧٩.

(٤) سورة النساء آية ٧٨.

(٥)سورة النساء آية ٧٨.

(٦) في د، س : من جهة كونها.

(٧) سورة النساء آية ٧٩.

(٨) ساقطة من م .

(٩) ساقطة من م.

(١٠) في م : وانه .

وحكمة، ثم قال: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[١] ولم يقل: من عندك، لأن النفس طبيعتها ومقتضاها ذلك فهو من نفسها، والجميع من عند الله، فالسيئة من نفس الإنسان بلا ريب، والحسنة من الله بلا ريب، وكلاهما من عنده سبحانه قضاءً وقدراً وخلقاً، ففرق بين ما من الله وبين ما من عنده. والشر لا يضاف إلى الله إرادة ولا محبة ولا فعلاً ولا وصفاً ولا اسماً. فإنه لا يريد إلا الخير (ولا يحب إلا الخير)[٢] ولا يفعل شراً، ولا يوصف به، ولا يسمى باسمه.

١٧٥ب وسنذكر في باب دخول / الشر في القضاء الإلهي وجه نسبته إلى قضائه وقدره إن شاء الله[٣].

فصل

وقد اختلف في كاف الخطاب في قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[٤] هل هي لرسول الله ﷺ؟ أو هي لكل واحد من الآدميين؟[٥].

فقال ابن عباس في رواية الوالبي[٦] عنه: الحسنة ما فتح الله عليه يوم بدر

---

(١) ساقطة من ع، د، س.

(٢) ما بين القوسين ساقط من ت.

(٣) وهو الباب الحادي والعشرون..

(٤) سورة النساء آية ٧٩.

(٥) انظر تفسير القرطبي (٥/ ١٨٤) وتفسير الماوردي الموسوم بالنكت والعيون (١/ ٥٠٨) ط الأولى ١٤١٢هـ، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٤/ ٢٧٣).

(٦) سبقت ترجمته في ص (٣١٠).

من الغنيمة والفتح، والسيئة ما أصابه يوم أحد أن شج في وجهه وكسرت رباعيته عليه الصلاة والسلام.

وقالت طائفة: بل المراد جنس ابن آدم، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[1] (روى)[2] سعيد[3] عن قتادة : ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ قال : عقوبة يا ابن آدم بذنبك[4] .

ورجحت طائفة القول الأول، واحتجوا بقوله : ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾[5] قالوا : وأيضاً إنه لم يتقدم ذكر الإنسان ولا خطابه. وإنما تقدم ذكر (طائفة)[6] قالوا ما حكاه الله عنهم، فلو كانوا هم المرادين لقال: ما أصابهم أو ما أصابكم على طريق الالتفات.

قالوا: وهذا من باب (التنبيه)[7] لأنه إذا كان سيد ولد آدم (وهذا)[8]

---

(١) سورة الانفطار آية ٦.

(٢) في م : ثم ورى.

(٣) هو : سعيد بن أبي عروبة، مهران : اليشكري، مولاهم، أبو النضر البصري، ثقة حافظ، له تصانيف، لكنه كثير التدليس، واختلط، وكان من أثبت الناس في قتادة، من السادسة، مات سنة ست، وقيل: سبع وخمسين ومائة. روى له الستة. تقريب التهذيب (١/ ٣٠٢) وتهذيب التهذيب (٤/ ٦٣-٦٦).

(٤) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥/ ١٧٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٩٧) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(٥) سورة النساء آية ٧٩.

(٦) في ع، د، س : الطائفة.

(٧) في ع، د، س : السبب.

(٨) في د، س : وهكذا.

حكمه فكيف بغيره[١].

ورجحت طائفة القول الآخر، واحتجت بأن رسول الله ﷺ معصوم لا يصدر عنه ما يوجب أن تصيبه (سيئة)[٢]. قالوا: والخطاب وإن كان له في الصورة فالمراد به الأمة، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[٣]. قالوا: ولما كان أول الآية خطاباً له أجري الخطاب جميعه على وجه واحد، فأفرده في الثاني والمراد (الجمع)[٤] والمعنى: (وما أصابكم من سيئة فمن أنفسكم، فالأول له، والثاني لأمته، ولهذا لما أفرد إصابة السيئة قال)[٥]: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[٦] وقال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾[٧] وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[٨] فأخبر أن الهزيمة بذنوبهم وإعجابهم، وأن النصر (بما)[٩] أنزله على رسوله وأيده، إذ لم يكن منه من سبب الهزيمة ما كان

---

(١) انظر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٤/ ٢٧٣).

(٢) في د، س: به سيئة.

(٣) سورة الطلاق آية ١.

(٤) في ع، د، س: به الجميع.

(٥) ما بين القوسين ساقط من ت.

(٦) سورة الشورى آية ٣٠.

(٧) سورة آل عمران آية ١٦٥.

(٨) سورة التوبة آية ٢٥، ٢٦.

(٩) في ت: مما.

(منهم)[١] .

وجمعت طائفة ثالثة بين القولين، وقالوا : صورة الخطاب له ﷺ والمراد العموم[٢] كقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾[٣] ، ثم قال : ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[٤] ثم قال : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[٥] وكقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[٦]. وقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾[٧] قالوا : وهذا الخطاب نوعان : نوع يختص لفظه به، لكن يتناول غيره بطريق الأولى، كقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾[٨] ثم قال : ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾[٩] ونوع يكون الخطاب له (وللأمة، فأفرده)[١٠] بالخطاب لكونه هو المواجه بالوحي، وهو

---

(١) في ع، د، س : منه.

(٢) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٧٩). وتفسير الماوردي، الموسوم بالنكت والعيون (١/ ٥٠٨)، وتفسير ابن الجوزي، زاد المسير (٢/ ١٣٨).

(٣) سورة الأحزاب آية ١.

(٤) سورة الأحزاب آية ٢.

(٥) سورة الأحزاب آية ٣ .

(٦) سورة الزمر آية ٦٥، ٦٦.

(٧) سورة يونس آية ٩٤.

(٨) سورة التحريم آية ١.

(٩) سورة التحريم آية ٢.

(١٠) في م : ولأمته وأفرده.

الأصل فيه والمبلغ للأمة والسفير بينهم وبين الله. وهذا معنى قول كثير من المفسرين : الخطاب له والمراد غيره. ولم يريدوا بذلك أنه لم يخاطب بذلك أصلاً ولم يرد به البتة، بل المراد (به)[1] أنه لما كان (إمام الخلائق)[2] ومقدمهم ومتبوعهم أفرد بالخطاب وتبعته الأمة في حكمه، كما يقول السلطان لمقدم العساكر: اخرج غداً، وانزل بمكان كذا، واحمل على وقت كذا، قالوا : فقوله ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾[3] (هو)[4] خطاب له ، وجميع الأمة داخلون في ذلك بطريق الأولى ، بخلاف قوله : ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ﴾[5] فإن هذا له خاصة. قالوا : وهذه الشرطية لا تستلزم الوقوع بل (ربط)[6] الجزاء بالشرط / وأما وقوع الشرط والجزاء فلا يدل عليه، (فهو)[7] (مقدور)[8] في حقه، محقق في حق غيره، والله أعلم. ١٧٦ب

قال القدري : إذا كان الطاعات والمعاصي مقدرة، والنعم والمصائب مقدرة، فلم فرق سبحانه بين الحسنات ـ التي هم النعم ـ والسيئات ـ التي هي المصائب ـ فجعل هذه منه سبحانه، وهذه من نفس الإنسان، والجميع مقدر؟.

---

(١) ساقطة من ت، ع، س.

(٢) في م : إماماً للخلائق.

(٣) سورة النساء آية ٧٩.

(٤) إضافة من ت.

(٥) سورة النساء آية ٧٩.

(٦) في ع، د، س : تربط.

(٧) ساقطة من م.

(٨) في م : يقدر.

قال السني : بينهما فروق:

الفرق الأول : أن نعم الله وإحسانه إلى عباده يقع بلا (كسب)[1] منهم أصلاً، بل الرب سبحانه ينعم عليهم بالعافية والرزق والنصر، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأسباب الهداية، فيفعل ذلك (بمن)[2] لم يكن منه سبب يقتضيه، وينشئ للجنة (في الآخرة)[3] خلقاً يسكنهم إياها بغير سبب منهم، ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة بلا عمل، وأما العقاب فلا يعاقب أحداً إلا بعمله.

الفرق الثاني : أن عمل الحسنات من إحسان الله ومَنّه وتفضله عليه بالهداية والإيمان، كما قال أهل الجنة : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[4] فخلْقُ الربُّ تعالى لهم الحياة والسمع والبصر والعقول والأفئدة، وإرسال الرسل، وتبليغهم البلاغ الذي اهتدوا به، وإلهامهم الإيمان، وتحبيبه إليهم، وتزيينه في قلوبهم، وتكريه ضده عليهم، كل ذلك من نعمه، كما قال تعالى : ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾[5]

---

(١) في د : كتب، وهو خطأ. وفي فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٤/ ٢٦٠) (سبب) ولعله هو الصواب.

(٢) في ع، د، س : من ، وهو خطأ.

(٣) ساقطة من ع، د، س.

(٤) كما حكاه الله عنهم في سورة الأعراف آية ٤٣.

(٥) سورة الحجرات آية ٧، ٨.

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خير الدنيا والآخرة هو نعمة محضة بلا سبب سابق يوجب ذلك لهم، ومن غير حول (ولا قوة)[١] منهم إلا به، وهو (خالق نفوسهم، وخالق أعمالها الصالحة، وخالق جزائها)[٢] وهذا كله منه سبحانه بخلاف الشر، فإنه لا يكون إلا بذنوب العبد، وذنبه من نفسه / . ١٧٧أ

وإذا تدبر العبد هذا علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله، فشكر ربه على ذلك، فزاده من فضله عملاً صالحاً ونعماً يفيضها عليه، وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه وبذنوبه، استغفر (ربه)[٣] وتاب فزال عنه سبب الشر، فيكون دائماً شاكراً مستغفراً، فلا يزال الخير يتضاعف له، والشر يندفع عنه، كما كان النبي ﷺ يقول في خطبته : «الحمد لله» فيشكر الله، ثم يقول : «نستعينه ونستغفره» نستعينه على طاعته، ونستغفره من معصيته، ونحمده على فضله وإحسانه . ثم قال : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا » لَمَّا استغفره من الذنوب الماضية استعاذ من الذنوب التي لم تقع بعد، ثم قال : « ومن سيئات أعمالنا » فهذه استعاذة من عقوبتها كما تقدم، ثم قال : « من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له »، فهذه شهادة للرب تعالى بأنه المتصرف في خلقه بمشيئته وقدرته وحكمته وعلمه، وأنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، فإذا هدى عبداً لم يضله أحد، وإذا أضله لم يهده أحد. وفي ذلك إثبات ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وقضائه (وقدره)[٤] الذي هو عقد نظام التوحيد

---

(١) في ت، ع، د، س : وقوة .

(٢) ما بين القوسين ساقط من د.

(٣) في م : الله.

(٤) في ت : وقدرته.

وأساسه. وكل هذا مقدمة بين يدي قوله : « وأشهد أن لا إله إلا الله (وحده لا شريك له»[١] وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»[٢] فإن الشهادتين إنما (تتحقق)[٣] بحمد الله واستعانته واستغفاره واللجوء إليه والإيمان بأقداره.

والمقصود أنه سبحانه فرق بين الحسنات والسيئات بعد أن جمع بينهما في قوله : ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[٤] فجمع بينهما الجمع الذي لا يتم الإيمان إلا به)[٥] وهو أن هذا الخير والحسنة نعمة منه، فاشكروه عليه يزدكم من فضله ونعمه، وهذا الشر والسيئة / بذنوبكم فاستغفروه يرفعه عنكم، وأصله من شرور أنفسكم، فاستعيذوا به يخلصكم منها، ولا يتم ذلك إلا بالإيمان (بأنه)[٦] وحده (هو)[٧] الذي يهدي ويضل، وهو الإيمان بالقدر، فادخلوا عليه من بابه، فإن أزمة الأمور (بيدي)[٨]، فإذا فعلتم ذلك صدق (منكم)[٩] شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ١٧٧ب

فهذه الخطبة العظيمة عقد نظام الإسلام والإيمان. فلو اقتصر لهم على

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ع ، د ، س .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في ص (٥٩٢) .

(٣) في د، س : تتحققان. في ع، د، س : بالله.

(٤) سورة النساء آية ٧٨.

(٥) ما بين القوسين ساقط من د.

(٦) في ع ، د ، س : بالله .

(٧) في ع ، د، س : وهو . في ع ، د ، س : بالله .

(٨) في ع ، د ، س : بيده .

(٩) ساقطة من م، ت.

الجمع دون الفرق أعرض (العاصي)[١] والمذنب عن ذم نفسه، والتوبة من ذنوبه، والاستعاذة من شرها، وقام في قلبه شاهد الاحتجاج على ربه بالقدر، وتلك حجة داحضة تبع الأشقياء فيها إبليس، وهي لا تزيد صاحبها إلا شقاءً وعذاباً كما زادت إبليس بعداً وطرداً[٢] عن ربه، وكما زادت المشركين ضلالاً وشقاءً (حتى)[٣] قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[٤] وكما تزيد الذي يقول يوم القيامة: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾[٥] حسرة وعذاباً. ولو اقتصر لهم على الفرق دون الجمع لغابوا به (عن)[٦] التوحيد والإيمان بالقدر واللجوء إلى الله في الهداية والتوفيق، والاستعاذة به من شر النفس وسيئات العمل والافتقار التام إلى (إعانته)[٧] وفضله. (فكان)[٨] في الجمع والفرق بيان حق العبودية. وسيأتي تمام (الكلام)[٩] على هذا الموضع العظيم القدر إن شاء الله، (في باب)[١٠] اجتماع القدر والشرع وافتراقهما[١١].

الفرق الثالث: أن الحسنة يضاعفها الله سبحانه، وينميها ويكتبها للعبد

---

(١) في ت: للعاصي.
(٢) في ع، د، س: طرداً وبعداً.
(٣) في ع، د، س: حين.
(٤) كما حكاه الله تعالى عنهم في سورة الأنعام آية ١٤٨.
(٥) كما حكاه الله تعالى عنه في سورة الزمر آية ٥٧.
(٦) في ع، د،: من. وفي س: في.
(٧) في م إعانة الله. في ع، د، س: بإثبات.
(٨) في ع، د، س: وكان.
(٩) في ع، د، س: هذا الكلام. بزيادة. (هذا).
(١٠) في ع، د، س: بإثبات.
(١١) في الباب التاسع والعشرين.

بأدنى سعي (ويثيب)[١] على الهم بها، والسيئة لا يؤاخذ على الهم بها، ولا يضاعفها، ويبطلها بالتوبة والحسنة الماحية والمصائب المكفرة، فكانت الحسنة أولى بالإضافة إليه والسيئة أولى بالإضافة إلى النفس.

الفرق الرابع : أن الحسنة التي هي الطاعة والنعمة يحبها ويرضاها، فهو سبحانه وتعالى يحب أن يطاع، ويحب أن / ينعم ويحسن ويجود، وإن قدر ١٧٨أ المعصية وأراد المنع، فالطاعة أحب إليه، والبذل والعطاء آثر عنده، فكان إضافة نوعي الحسنة (إليه)[٢] وإضافة نوعي السيئة إلى النفس أولى. ولهذا تأدب العارفون من عباده بهذا الأدب، فأضافوا إليه النعم والخيرات، وأضافوا الشرور إلى محلها كما قال إمام الحنفاء ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾[٣] فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى ربه وقال الخضر : ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا... ﴾[٤] ثم قال : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾[٥] وقال مؤمنو الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾[٦] .

الفرق الخامس: أن الحسنة مضافة إليه، لأنه أحسن بها من كل وجه وبكل

---

(١) في د : ويثبت.

(٢) في ع، د ، س : له . كما حكاه الله عنه في سورة الكهف آية ٨٢.

(٣) كما حكاه الله تعالى عنه في سورة الشعراء من آية ٧٨ – ٨٠.

(٤) كما حكاه الله عنه في سورة الكهف آية ٧٩.

(٥) كما حكاه الله عنه في سورة الكهف آية ٨٢.

(٦) كما حكاه الله عنهم في سورة الجن آية ١٠.

اعتبار كما تقدم. فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه، وأما السيئة فهو سبحانه إنما قدرها وقضاها (بحكمة)[١] وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإن الرب سبحانه لا يفعل سوءً قط، كما لا يوصف به ولا يسمى باسمه، بل فعله كله حسن وخير وحكمة (ومصلحة)[٢] كما قال تعالى : ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾[٣] ، وقال أعرف الخلق به : «والشر ليس إليك»[٤] فهو لا يخلق شراً محضاً من كل وجه، بل كل ما خلقه ففي خلقه (مصلحة)[٥] وحكمة، وإن كان في بعضه شر جزئي إضافي، وأما الشر الكلي المطلق من كل وجه، فهو تعالى منزه عنه وليس إليه.

الفرق السادس : أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التي يعملها، فهي أمور وجودية متعلقة بمشيئة الرب (وقدرته)[٦] ورحمته وحكمته، وليست أموراً عدمية تضاف إلى غير الله، بل هي كلها أمور وجودية، وكل موجود حادث (فالله)[٧] محدثه / وخالقه، وذلك (لأن)[٨] الحسنات إما فعل مأمور، أو ترك محظور، والترك أمر وجودي، فترك الإنسان لما نهى عنه ومعرفته بأنه ذنب قبيح وبأنه سبب العذاب (وبغضه)[٩] له وكراهته له ومنع نفسه إذا

١٧٨ب

---

(١) في ع، د، س : لحكمته.

(٢) ساقطة من ع، د ، س .

(٣) سورة آل عمران آية ٢٦. وورد في جميع النسخ : بيده الخير .

(٤) طرف من حديث سبق تخريجه في ص(١٢٥) .

(٥) ساقطة من ت.

(٦) في ع، د، س : وقدره.

(٧) في ع، د، س : والله.

(٨) في ع، د، س : أن.

(٩) في ع، د، س : فبغضه.

هويته وطلبته منه أمور وجودية، كما أن معرفته (بأن الحسنات)[1] كالعدل والصدق حسنة، وفعله لها أمر وجودي، والإنسان إنما يثاب على ترك السيئات إذا تركها على وجه الكراهة لها والامتناع منها وكف النفس عنها. قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾[3] وقال : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[4] .

وفي الصحيحين عنه ﷺ : **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»**[5] . وقد جعل ﷺ البغض في الله من أوثق عرى الإيمان، وهو أصل

(١) في ع، د، س : بالحسنات.

(٢) سورة الحجرات آية ٧.

(٣) سورة النازعات آية ٤٠.

(٤) سورة العنكبوت آية ٤٥.

(٥) هذا الحديث من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه. وأخرجه : البخاري في (١/ ٩-١٠) ك الإيمان – باب حلاوة الإيمان. وفي (١/ ١١) باب من كره أن يعود في الكفر كما كره أن يلقى في النار من الإيمان. وفي (٧/ ٨٣) ك الأدب – باب الحب في الله. وفي (٨/ ٥٦) ك الإكراه – باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر. ومسلم في (١/ ٦٦) ك الإيمان – باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان. والترمذي (٥/ ١٦) ك الإيمان – باب (١٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي (٨/ ٩٤-٩٥) ك الإيمان وشرائعه – باب طعم الإيمان. وفي (٨/ ٩٦) باب حلاوة الإيمان. (٨/ ٩٧) باب حلاوة الإسلام. وابن ماجه (٢/ ١٣٣٨) ك الفتن – باب الصبر على البلاء. والإمام أحمد (٣/ ١٠٣، ١١٣، ١١٤، ١٧٢، ١٧٤، ٢٣٠، ٢٤٨، =

الترك، وجعل المنع لله من كمال الإيمان، وهو أصل الترك، فقال : «**من أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله**»[(١)]. وقال: «**من أحب لله، وأبغض**

= ٢٧٥، ٢٨٨). وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١/ ٤٧٤) ك الإيمان باب ما جاء في صفات المؤمنين. والبغوي في شرح السنة (١/ ٤٩) ك الإيمان - باب حلاوة الإيمان وحب الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ. وابن المبارك في الزهد ص ٢٨٥. وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٧) و (٢/ ٢٨٨). والبيهقي في القدر ص (٢٢٣). وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٢٠٠). وأبو يعلى في مسنده (٥/ ١٩٤، ٣٥٥-٣٥٦، ٤٤٠) و(٦/ ٢٣) والطيالسي في مسنده ص(٢٦٤).

(١) هذا الحديث من رواية حنش عن عكرمة عن ابن عباس، قال : قال رسول ﷺ لأبي ذر: أي عرى الإيمان أظنه قال أوثق ؟ قال: رسول الله أعلم. قال : «**الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله**». وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٢١٥). وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٣٠٧): إسناده واه، ولكن له شواهد تدل على أن له أصلاً، من حديث عبد الله بن مسعود، والبراء بن عازب: أما حديث ابن مسعود، فأخرجه الطيالسي في مسنده ص (٥٠). وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٧٧). والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٠) من طريق الصعق ابن حزن عن عقيل بن يحيى، عن أبي إسحاق الهمداني، عن سويد بن غفلة، عن ابن مسعود مرفوعاً. وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي، فقال : ليس بصحيح، فإن الصعق ـ وإن كان موثقاً ـ فإن شيخه منكر الحديث، قاله البخاري. وأما حديث البراء، فأخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٦). والطيالسي في مسنده ص(١٠١). وابن أبي شيبة في كتاب الإيمان ص (٣٦) تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر دار الأرقم بالكويت. والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٦٩-٧٠). وهذا الحديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٨٩-٩٠) وقال : رواه أحمد، وفيه ليث بن أبي سليم وضعفه الأكثر. وقال الألباني بعد أن ذكر طرق هذا الحديث : والحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحسن على الأقل، والله أعلم. انظر الأحاديث الصحيحة (٤/ ٣٠٧).

لله، وأعطى لله، ومنع لله، **فقد استكمل الإيمان »**[1] . وجعل إنكار المنكر بالقلب من مراتب الإيمان، وهو بغضه وكراهته المستلزم لتركه، فلم يكن الترك من الإيمان إلا بهذه الكراهة والبغض والامتناع والمنع لله، وكذلك براءة الخليل من قومه المشركين (ومعبودهم)[2] ليست تركاً محضاً؛ بل تركاً صادراً عن بغض ومعاداة وكراهة (وهي)[3] أمور وجودية، هي عبودية للقلب يترتب عليها خلو الجوارح من العمل، كما أن التصديق والإرادة والمحبة للطاعة (هي)[4] / عبودية للقلب يترتب عليها آثارها في الجوارح. ١٧٩أ

وهذا الحب والبغض تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله. وهو إثبات تأله

---

(١) هذا الحديث من رواية أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول ﷺ. وأخرجه: أبو داود في سننه (١٢/ ٤٣٨) ك السنة – باب الدليل على زيادة الإيمان. والبغوي في شرح السنة (١/ ٣٩) ك الإيمان – باب بيان أن الأعمال من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص والرد على المرجئة. وقال الألباني : وإسناده حسن. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٠) وقال : رواه الطبراني في الأوسط، وفيه صدقه بن عبد الله السمين، ضعفه البخاري وأحمد وغيرهما، وقال أبو حاتم: محله الصدق. وذكره أيضاً الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح (١/ ١٦-١٧). وللحديث طريق آخر من رواية سهل ابن معاذ الجهني عن أبيه، وزاد فيه : (وأنكح لله). أخرجه : الترمذي (٤/ ٥٧٨) ك صفة القيامة – باب (٦٠)، وقال : هذا حديث حسن. والإمام أحمد (٤/ ٤٣٨-٤٤٠). والحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٤) ك النكاح، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقال الألباني: والحديث بمجموع الطريقين صحيح. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٩٧-٩٨).

(٢) في م: ومعبوديهم.

(٣) في ع، د، س : هي.

(٤) في ع، د، س : من .

القلب لله ومحبته، ونفي تألهه لغيره وكراهته، فلا يكفي أن العبد يعبد الله ويحبه ويتوكل عليه وينيب إليه ويخافه ويرجوه حتى يترك عبادة غيره والتوكل (عليه)[١] والإنابة إليه وخوفه ورجاءه، ويبغض ذلك (فهذه)[٢] كلها أمور وجودية، وهي الحسنات التي يثيب الله عليها.

وأما مجرد عدم السيئات من غير أن يعرف أنها سيئة، ولا يكرهها بقلبه، ويكف نفسه عنها، بل يكون تركها لعدم خطورتها بقلبه، (فلا يثاب على هذا الترك)[٣] فهذا تكون السيئات في حقه بمنزلتها في حق الطفل والنائم، ولكن قد يثاب على اعتقاد تحريمها، وإن لم يكن له إليها داعية البتة.

فالترك ثلاثة أقسام.

- قسم يثاب عليه.
- وقسم يعاقب عليه.
- وقسم لا يثاب ولا يعاقب.

فالأول: ترك العالم بتحريمها الكاف نفسه عنها لله مع قدرته عليها.

والثاني : كترك من يتركها لغير الله، لا لله. فهذا يعاقب على تركه لغير الله، كما يعاقب على فعله لغير الله، فإن ذلك الترك والامتناع فعل من أفعال القلب، فإذا عبد به غير الله استحق العقوبة.

والثالث: كترك من لم يخطر على قلبه علماً ولا محبة ولا كراهة، بل بمنزلة ترك النائم والطفل.

---

(١) ساقطة من م .

(٢) في ع، د، س : وهذه .

(٣) ما بين القوسين ورد في (د) بعد قوله في حق الطفل والنائم .

فإن قيل : كيف يعاقب على ترك المعصية حياءً من الخلق، وإبقاءً على جاهه بينهم، وخوفاً منهم أن يتسلطوا عليه، والله سبحانه لا يذم على ذلك ولا يمنعه منه.

قيل : لا ريب (أنه)[1] لا يعاقب على ذلك، وإنما يعاقب على تقربه إلى الناس بالترك ومراءاتهم به (وأنه)[2] تركها خوفاً من الله ومراقبة (له)[3] وهو في الباطن بخلاف ذلك.

فالفرق بَيِّنٌ بين ترك يتقرب به إليهم ويرائيهم به، وترك يكون مصدره الحياء منهم، وخوف أذاهم له، وسقوطه من أعينهم، (فهذا لا يعاقب / ١٧٩ب عليه)[4] إذا كان له فيه غرض يحبه الله من حفظ مقام الدعوة إلى الله وقبولهم منه ونحو ذلك.

وقد تنازع الناس في الترك: هل هو أمر وجودي أم عدمي؟ والأكثرون على أنه وجودي.

وقال أبو هاشم وأتباعه : هو عدمي، وإن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل لا على ترك يقوم بقلبه[5].

وهؤلاء رتبوا الذم والعقاب على العدم المحض. والأكثرون يقولون : إنما يثاب من ترك المحظور على ترك وجودي يقوم بنفسه، ويعاقب تارك المأمور على ترك وجودي يقوم بنفسه، وهو امتناعه وكفه نفسه (عن) فعل ما أمر به.

---

(١) في د : فإنه .

(٢) في د : وبأنه .

(٣) في م، ع، د، س : الفعل.

(٤) ما بين القوسين ساقط من ع.

(٥) انظر شرح الأصول الخمسة ص (٤٢٥).

إذا تبين هذا ، فالحسنات التي يثاب عليها كلها وجودية، فهو سبحانه الذي حبب الإيمان والطاعة إلى العبد، وزينه في قلبه وكرَّه إليه أضدادها.

وأما السيئات، فمنشؤها من الجهل والظلم، فإن العبد لا يفعل القبيح إلا لعدم علمه بكونه قبيحاً، أو لهواه وشهوته مع علمه بقبحه. فالأول جهل، والثاني ظلم. ولا يترك حسنة إلا لجهله بكونها حسنة، أو لرغبته في ضدها لموافقته هواه وغرضه.

وفي الحقيقة، فالسيئات ترجع إلى الجهل، وإلا فلو كان علمه تاماً برجحان ضررها لم يفعلها، فإن هذا خاصة (العقل)[١] ، فإنه إذا علم أن إلقاءه (نفسه)[٢] من مكان عال يضره؛ لم يقدم عليه، وكذلك لبثه تحت حائط مائل، وإلقاؤه نفسه في ماء (يغرق)[٣] وأكله طعاماً مسموماً، لا يفعله لعلمه التام بمضرته الراجحة، بل هذه فطرة فطر الله عليها الحيوان بهيمة وناطقة، ومن لم يعلم أن ذلك يضره كالطفل والمجنون والسكران الذي انتهى سكره، فقد (يفعل ذلك)[٤]. وأما من أقدم على ما يضره ـ مع علمه بما فيه من الضرر ـ فلا بد أن يقوم بقلبه أن منفعته له راجحة (فلابد)[٥] من رجحان المنفعة عنده إما في الظن وإما في المظنون. / ولو جزم راكب البحر بأنه يغرق، ويذهب ماله، لم (يركبه)[٦] ١٨٠أ

(١) في م ، ع ، د ، س : الفعل .

(٢) في ع ، د ، س : بنفسه .

(٣) في د ، س : يغرق فيه .

(٤) في ع : يفعل ، وفي د ، س : يفعله .

(٥) في عن ، د ، س : ولابد .

(٦) في ع، د ، س : يركب .

أبداً. بل لابد من رجحان الانتفاع (في ظنه)[١] وإن أخطأ في ذلك. وكذلك الذنوب والمعاصي. فلو جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع لم يقدم على السرقة، بل يظن أنه يسلم ويظفر بالمال. وكذلك القاتل (والشارب)[٢] والزاني، فلو جزم طالب الذنب بأنه يحصل له الضرر الراجح لم يفعله، بل إما أن لا يكون جازماً بتحريمه أو لا يجزم بعقوبته، بل يرجو العفو والمغفرة وأن يتوب ويأتي بحسنات تمحو أثره. وقد يغفل عن هذا كله بقوة وإرادة الشهوة واستيلاء سلطانها على قلبه بحيث (غيبه)[٣] عن مطالعة مضرة الذنب، والغفلة من أضداد العلم.

والشهوة أصل الشر كله. قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[٤]. وينبغي أن يعلم أن الهوى وحده لا يستقل (بفعل)[٥] السيئات إلا مع الجهل، وإلا فصاحب الهوى لو جزم بأن ارتكاب هواه يضره ولابد، ضرراً راجحاً لانصرفت نفسه عن طاعته له بالطبع؛ فإن الله سبحانه جعل في النفس حباً لما ينفعها، وبغضاً لما يضرها، فلا تفعل مع حضور عقلها ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً. ولهذا يوصف تارك ذلك بالعقل والحجى (والنهي)[٦] واللب، فالبلاء مركب من تزيين الشيطان وجهل النفس، فإنه يزين لها السيئات، ويريها أنها في صور المنافع واللذات

(١) ساقطة من م .

(٢) في ت : والسارق .

(٣) في د ، س : تغيبه .

(٤) سورة الكهف آية ٢٨ .

(٥) في ع ، د ، س : بفساد .

(٦) ساقطة من ع ، د ، س .

والطيبات، ويغفلها عن مطالعتها لمضرتها، فتولد من بين هذا التزيين وهذا الإغفال والإنساء لها إرادة وشهوة، ثم يمدها بأنواع التزيين، فلا يزال يقوى حتى يصير عزماً جازماً يقترن به الفعل، كما زين للأبوين الأكل من الشجرة، وأغفلهما عن مطالعة مضرة المعصية، فالتزيين هو سبب إيثار الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1] / وقال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[2] وقال في تزيين الخير: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ﴾[3] . وقال في تزيين النوعين : ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4]. (فتزيين)[5] الخير والهدى بواسطة الملائكة والمؤمنين، وتزيين الشر والضلال بواسطة الشياطين من الجن والإنس، كما قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾[6]. وحقيقة الأمر أن التزيين إنما يغتر به الجاهل؛ لأنه يلبس له الباطل والضار المؤذي صورة الحق والنافع الملائم، فأصل البلاء كله من الجهل وعدم العلم. ولهذا قال الصحابة : (كل من عصى الله فهو جاهل)[7].

١٨٠ب

---

(١) سورة الأنعام آية ٤٣.

(٢) سورة فاطر آية ٨ .

(٣) سورة الحجرات آية ٧ .

(٤) سورة الأنعام آية ١٠٨.

(٥) في ع، د ، س : وتزيين .

(٦) سورة الأنعام آية ١٣٧ .

(٧) رواه ابن جرير الطبري (٤/ ٢٩٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٥٩) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(قال)[١] تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾[٢] . وقال تعالى : ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣] . قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد ﷺ عن قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾[٤] فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل، ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

وقال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل من عصي الله به فهو جهالة، عمداً كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل[٥] .

وقال مجاهد : (من عمل ذنباً)[٦] من شيخ أو شاب فهو بجهالة. وقال من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن (معصيته[٧])[٨] .

---

(١) في ع، د، س : وقال .

(٢) سورة النساء آية ١٧ .

(٣) سورة الأنعام آية ٥٤ .

(٤) سورة النساء آية ١٧ .

(٥) رواه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٥١) وابن جرير في تفسيره (٤/ ٢٩٨) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٥٩) ولم ينسبه إلى غيرهما.

(٦) ساقطة من ع ، د ، س .

(٧) في ع، د ، س : خطيئته .

(٨) رواه ابن جرير في تفسيره (٤/ ٢٩٨-٢٩٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٠٠) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٥٩) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقال هو وعطاء : الجهالة : العمد[١] .

وقال مجاهد: من عمل سوءاً خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع منه[٢] .

ذكر هذه الآثار ابن أبي حاتم. (ثم)[٣] قال : وروي عن قتادة وعمرو[٤] ابن مرة (والثوري)[٥] نحو ذلك خطأ أو عمداً[٦] .

١٨١أ وروى عن مجاهد والضحاك : / ليس من جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً، ولكن من جهالته حين دخل فيه[٧] .

وقال عكرمة : (الدنيا)[٨] كلها جهالة[٩] .

ومما يبين ذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[١٠] . وكل من (خشيه)[١١] فأطاعه بفعل أوامره وترك (مناهيه)[١٢] فهو عالم، كما قال تعالى:

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٤/ ٢٩٩) .

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٤/ ٢٩٨-٢٩٩) .

(٣) ساقطة من م ، ت .

(٤) سبقت ترجمته في ص(٧٣٢) .

(٥) في د : النووي . وهو خطأ .

(٦) انظر تفسير ابن أبي حاتم ق(١١٦) مخطوط، مرجع سابق .

(٧) انظر تفسير ابن أبي حاتم ق (١١٦) المرجع السابق .

(٨) في م، ع، د، س: الدماء. وما ثبت من ت، وهو المطابق لما في تفسير ابن أبي حاتم .

(٩) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه : (١/ ٧٥٠) ك الزهد. وابن جرير في تفسيره (٤/ ٢٩٩) وابن أبي حاتم في تفسيره ق (١١٦) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٢٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٤٥٩) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(١٠) سورة فاطر آية ٢٨ .

(١١) في م : خشي الله .

(١٢) في ع ، د ، س : نواهيه.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾[١] .

وقال رجل للشعبي[٢] : أيها العالم، فقال : لسنا بعلماء، إنما العالم من يخشى الله[٣] .

وقال ابن مسعود : كفى بخشية الله علماً، وبالاغترار بالله جهلاً[٤] .

وقوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾[٥] يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالماً إلا من يخشاه (فلا يخشاه)[٦] إلا عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية؛ دلت على انتفاء العلم، لكن وقع الغلط في مسمى العلم (الملازم)[٧] للخشية ؛ حيث يظن أنه يحصل بدونها، وهذا ممتنع، فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النار والأسد والعدو من هو عالم بها مواجه لها، وأنه لا

---

(١) سورة سورة الزمر ، آية ٩ .

(٢) هو : عامر بن شراحيل الشعبي : بفتح المعجمة، أبو عمرو، ثقة مشهور فقيه فاضل، من الثالثة، قال مكحول : ما رأيت أفقه منه، مات بعد المائة، وله نحو من ثمانين. روى له الستة. تقريب التهذيب (١/ ٣٨٧) وتهذيب التهذيب (٥/ ٣١١).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٤/ ٤٨) ك الزهد. وأبونعيم في الحلية (٤/ ٣١١) .

(٤) رواه ابن المبارك في كتاب الزهد (ص ١٥) وابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ٢٩١) ك الزهد. والإمام أحمد في كتاب الزهد (ص١٩٧). والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٢١١-٢١٢) .. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٢٠)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(٥) سورة فاطر آية ٢٨.

(٦) ساقطة من ت .

(٧) في ع ، د ، س : اللازم .

يخشى الموت من ألقى نفسه من شاهق، ونحو ذلك، فأمنه في هذه المواطن دليل عدم علمه، وأحسن أحواله أن يكون معه ظن (لا يصل)[١] إلى رتبة العلم اليقيني.

فإن قيل : (فهذا)[٢] ينتقض عليكم بمعصية إبليس؛ فإنها كانت عن علم لا عن جهل، وبقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[٣] وقال : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾[٤] وقال عن قوم فرعون: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[٥] وقال : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾[٦] وقال موسى لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٧] وقال : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[٨]، وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾[٩] يعني القرآن ومحمداً ﷺ، وقال:

---

(١) في ع : أن لا يصل بزيادة (أن) .

(٢) في م : هذا .

(٣) سورة فصلت آية ١٧ .

(٤) سورة الإسراء آية ٥٩ .

(٥) سورة النمل آية ١٤ .

(٦) سورة العنكبوت آية ٣٨ .

(٧) كما حكاه الله عز وجل عنه في سورة الإسراء آية ١٠٢ .

(٨) سورة التوبة آية ١١٥ .

(٩) سورة الأنعام ٢٠.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[١]. وقال: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[٢]. والجحود: إنكار الحق بعد معرفته. وهذا كثير في القرآن.

قيل: حجج الله لا تتناقض، بل كلها يصدق بعضها بعضاً، (فإذا)[٣] كان سبحانه قد أثبت الجهالة لمن عمل السوء وقد أقر به وبرسالته وبأنه حرم ذلك وتوعد عليه بالعقاب، ومع ذلك (حكم)[٤] عليه بالجهالة التي لأجلها عمل السوء. فكيف بمن أشرك به وكفر بآياته وعادى رسله، أليس ذلك أجهل الجاهلين. وقد سمَّى تعالى أعداءه جاهلين بعد إقامة الحجة عليهم فقال: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[٥] فأمره بالإعراض عنهم بعد (أن أقام)[٦] عليهم الحجة وعلموا أنه صادق. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ فالجاهلون هنا: الكفار الذين علموا أنه رسول الله. فهذا العلم لا ينافي الحكم على صاحبه بالجهل، بل يثبت له العلم (وينفي)[٧] عنه في موضع واحد، كما قال تعالى عن السحرة من اليهود: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ

(١) سورة آل عمران آية ٧١.
(٢) سورة الأنعام آية ٣٣.
(٣) في ع، د، س: وإذا.
(٤) في ع، د، س: يحكم.
(٥) سورة الأعراف آية ١٩٩.
(٦) في م: إقامة.
(٧) في د، س: وينافي.

بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[(١)] . فأثبت لهم العلم الذي تقوم به عليهم الحجة، ونفى عنهم العلم النافع الموجب لترك الضار، وهذا نكتة المسألة وسر الجواب، فما دخل النار إلا عالم، ولا دخلها إلا جاهل. وهذا العلم (لا)[(٢)] يجتمع مع الجهل في الرجل الواحد، يوضحه أن الهوى والغفلة والإعراض تصد عن كماله واستحضاره ومعرفة موجبه على التفصيل، وتقيم لصاحبه شبهاً وتأويلات تعارضه، (فلا)[(٣)] يزال المقتضي يضعف / ١٨٢أ (والمعارض)[(٤)] يعمل عمله حتى كأنه لم يكن، ويصير صاحبه بمنزلة الجاهل من كل وجه، فلو علم إبليس أن تركه (السجود)[(٥)] لآدم يبلغ به ما بلغ، وأنه يوجب له أعظم العقوبة، وتيقن ذلك لم يتركه، ولكن حال الله بينه وبين هذا العلم ليقضي أمره وينفذ قضاؤه وقدره. ولو ظن آدم وحواء أنهما إذا أكلا من الشجرة خرجا من الجنة وجرى عليهما ما جرى ما قرباها. ولو علم أعداء الرسل تفاصيل ما (جرى)[(٦)] عليهم وما يصيبهم يوم القيامة، وجزموا بذلك لما عادوهم، قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴾[(٧)]، وقال تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٢ .

(٢) ساقطة من م .

(٣) في م : ولا .

(٤) في ع ، د، س : والعارض .

(٥) في م ،ع، د ، س : للسجود .

(٦) في د ، س : يجري .

(٧) سورة القمر آية ٣٦ .

قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾[١]، وقال عن المنافقين وقد شاهدوا آيات الرسول وبراهين صدقه عياناً: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[٢]، وقال: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾[٣]، وقال ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[٤] وهو. (مرض)[٥] الشك، ولو كان هذا لعدم العلم الذي تقوم به الحجة عليهم لما كانوا في الدرك الأسفل من النار، بل هذا بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم الذي لم ينفعهم، فالعلم يضعف قطعاً بالغفلة والإعراض واتباع الهوى وإيثار الشهوات. وهذه الأمور توجب شبهات وتأويلات تضاده. فتأمل هذا الموضع حق التأمل فإنه من أسرار القدر والشرع والعدل (والحكمة)[٦] .

فالعلم يراد به العلم التام المستلزم لأثره، (و)[٧] يراد به المقتضي، وإن لم يتم بوجود (شروطه)[٨] وانتفاء موانعه. فالثاني يجامع الجهل دون الأول.

---

(١) سورة سبأ آية ٥٤ .

(٢) سورة التوبة آية ٤٥ .

(٣)سورة الحديد آية ١٤ .

(٤) قوله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض﴾ ورد في الآيات التالية : آية ١٠ من سورة البقرة. آية ٥٢ من سورة المائدة. آية ٤٩ من سورة الأنفال. آية ١٢٥ من سورة التوبة. آية ٥٣ من سورة الحج. آية ١٢-٦٠ من سورة الأحزاب. آية ٢٠-٢٩ من سورة محمد. آية ٣١ من سورة المدثر في د، س : وإن.

(٥) ساقطة من ع، د ، س .

(٦) ساقطة من ع، د، س .

(٧) ساقطة من د . في الحديث الذي رواه أبو هريرة وسبق تخريجه في ص (٣٣٠).

(٨) في ع: شرطه.

فتبين أن أصل السيئات : الجهل وعدم العلم. (وإذا)[١] كان كذلك، فعدم العلم ليس أمراً وجودياً بل هو لعدم السمع والبصر والقدرة والإرادة. والعدم ليس شيئاً حتى يستدعي فاعلاً مؤثراً فيه، بل يكفي فيه عدم مشيئة ضده وعدم ١٨٣أ السبب الموجب لضده. والعدم / المحض لا يضاف إلى الله؛ فإنه شر، والشر ليس إليه. فإذا انتفى هذا (العلم)[٢] الجازم عن العبد ونفسه بطبعها متحركة مريدة، وذلك من لوازم (نشأتها)[٣] تحركت بمقتضى الطبع والشهوة، وغلب ذلك فيها على داعي العلم والمعرفة، فوقعت في أسباب الشر ولابد.

فصل

والله سبحانه قد أنعم على عباده من جملة إحسانه ونعمه بأمرين هما أصل السعادة :

أحدهما: أن خلقهم في أصل النشأة على الفطرة السليمة، فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يخرجانه عنها، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ، وشبه ذلك بخروج البهيمة صحيحة، سالمة حتى يجدعها صاحبها. وثبت عنه أنه قال: يقول الله تعالى: **«إني خلقت عبادي حنفاء[٤] فأتتهم الشياطين فاجتالتهم[٥] عن دينهم، وحرمن عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم**

(١) في د، س : وإن .

(٢) ساقطة من ع، د ، س .

(٣) في م ، ع، د ، س : شأنها .

(٤) أي طاهري الأعضاء من المعاصي، وقيل : مؤمنين، والحنفاء جمع حنيف، وهو المائل إلى الإسلام، الثابت عليه. وأصل الحنف : الميل. النهاية لابن الأثير (١/ ٤٥١).

(٥) أي : استخفتهم ، فجالوا معهم في الضلال. النهاية لابن الأثير (١/ ٣١٧).

أن يشركوا بي ما لم ينزل به سلطاناً »[1] . فإذا تركت النفس وفطرتها لم تؤثر على محبة بارئها وفاطرها وعبادته وحده شيئاً، ولم تشرك به، ولم تجحد (كماله وربوبيته)[2]، وكان أحب شيء إليها وأطوع شيء لها، وآثر شيء عندها ، ولكن (يفسدها)[3] من يقترن بها شياطين الجن والإنس بتزيينه وإغوائه حتى ينغمس موجبها وحكمها.

الأمر الثاني : أنه سبحانه هدى الناس هداية عامة بما أودعه فيهم من المعرفة، ومكنهم من أسبابها، وبما أنزل إليهم من الكتب، وأرسل إليهم من الرسل، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه، ففي كل نفس ما يقتضي معرفتها بالحق ومحبتها له. وقد هدى الله كل عبد إلى أنواع من العلم يمكنه التوصل بها إلى سعادة الآخرة / وجعل في فطرته محبة لذلك، لكن قد يعرض العبد ١٨٢أ عن طلب علم ما ينفعه، فلا يريده ولا يعرفه. وكونه لا يريد ذلك ولا يعرفه أمر عدمي، فلا يضاف إلى الرب لا هذا ولا هذا، فإنه من هذه الحيثية شر، والذي يضاف إلى الرب علمه به وقضاؤه له بعدم مشيئته لضده، (وإبقاؤه)[4] على العدم الأصلي. وهو من هذه الجهة خير ؛ فإن العلم بالشر خير من

---

(١) هذا طرف من حديث طويل رواه عياض بن حمار المجاشعي أن رسول ﷺ قال ذات يوم في خطبته : « الا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال. وإني خلقت عبادي حنفاء ..» ، ومنه: «وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم...» الحديث. وقد سبق تخريجه في ص (١١٣).

(٢) في ع، د ، س : كمال ربوبيته.

(٣)في م، ع، س : يعدها. وفي د : يعدنا.

(٤) هكذا في جميع النسخ، ولعل الصواب (وإبقاؤه) لأنها معطوفة على (علمه به) وهي في موضع رفع. في م : ولا هو.

الجهل به. وعدم رفعه (بإثبات)[١] ضده إذا كان مقتضى الحكمة كان خيراً، وإن كان شراً بالنسبة إلى محله. وسيأتي تمام تقرير هذا في باب دخول الشر في القضاء الإلهي إن شاء الله سبحانه[٢].

فصل

وهاهنا حياة أخرى غير الحياة الطبيعية الحَيوانية، نسبتها إلى القلب كنسبة حياة البدن إليه. فإذا أمد عبده بتلك الحياة أثمرت له من محبته وإجلاله وتعظيمه والحياء منه ومراقبته وطاعته مثل ما تثمر حياة البدن له من التصرف والفعل وسعادة النفس ونجاتها وفلاحها بهذه الحياة. وهي حياة دائمة سرمدية لا تنقطع. ومتى فقدت هذه الحياة واعتاضت عنها بحياتها الطبيعية الحيوانية كانت ضالة معذبة شقية، ولم تسترح راحة الأموات، ولم تعش عيش الأحياء، كما قال تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾[٣] فإن الجزاء من جنس العمل، فإنه في الدنيا لما لم يحي الحياة النافعة الحقيقية التي خلق لها، بل كانت حياته من جنس حياة البهائم، ولم يكن ميتاً عديم الإحساس، كانت حياته في الآخرة كذلك، فإن مقصود الحياة حصول مكان ينتفع به ويلذ به، ١٨٣ب كمن هو حي في الدنيا وبه أمراض عظيمة تحول بينه وبين / التنعم بما يتنعم به الأصحاء، فهو يختار الموت ويتمناه، ولا يحصل له، فلا هو مع الأحياء (ولا)[٤] مع الأموات.

---

(١) في م: باتيان.

(٢) وهو في الباب الحادي والعشرين.

(٣) سورة الأعلى الآيات من ١٠-١٣

(٤) في م: ولا هو.

(و)[١] إذا عرف هذا (فالشر)[٢] من لوازم (عدم)[٣] هذه الحياة، وعدمها شر، وهو ليس بشيء حتى يكون مخلوقاً، والله خالق كل شيء، فإذا أمسك عن (عبد)[٤] هذه الحياة، كان إمساكها خيراً بالنسبة إليه سبحانه، وإن كان شراً بالإضافة إلى العبد لفوات ما يلذ ويتنعم به، فالسيئات من طبيعة النفس ولم يمد بهذه الحياة التي تحول بينها وبينها، فصار الشر كله من النفس، والخير كله من الله، والجميع بقضائه (وقدرته)[٥] وحكمته، وبالله التوفيق.

فصل

قال القدري : (نحن)[٦] نعترف بهذا جميعه، ونقر بأن الله خلق الإنسان، ولكن جعله على خلقةٍ يريد بها، (فهو)[٧] مريد بالقوة والقبول، أي خلقه قابلاً لأن يريد هذا وهذا. وأما كونه مريداً لهذا المعنى (وهذا المعنى)[٨] فليس ذلك بخلق (لله)[٩]، ولكنه هو الذي أحدثه بنفسه، ليس هو من إحداث الله (فيه)[١٠] .

---

(١) ساقطة من م، ع، د، س .

(٢) في د : بالشر .

(٣) ساقطة من ت ، ع ، د ، س .

(٤) في م : عبده .

(٥) في م ، ع ، د ، س : وقدره .

(٦) في ع ، د ، س : ونحن .

(٧) في م ، ع ، د ، س : وهو .

(٨) ما بين القوسين ساقط من د ، س .

(٩) في ع ، د ، س : الله .

(١٠) ساقطة من ع، د ، س .

قال الجبري: (هذه)[١] الإرادة حادثة، فلا بد لها من محدث، فالمحدث لها إما أن يكون نفس الإنسان أو مخلوق عنها أو ربها وفاطرها وخالقها. والقسمان الأولان محال فتعين الثالث.

أما المقدمة الأولى فظاهرة، إذ المحدث إما النفس، وإما أمر خارج عنها، والخارج عنها إما الخالق (وإما)[٢] المخلوق.

وأما المقدمة الثانية، فبيانها أن النفس لا يصح أن تكون هي المحدثة لإرادتها، فإنها إما أن تحدثها بإرادة أو بغير إرادة، وكلاهما ممتنع، فإنها لو توقف إحداثها (لها)[٣] على إرادة أخرى، فالكلام فيها كالكلام في الأولى، ويلزم التسلسل إلى غير نهاية، فلا توجد إرادة حتى يتقدمها إرادات لا تتناهى، وإن لم يتوقف إحداثها على إرادة منها، بطل أن تكون / هي المؤثرة ١٨٤أ في إحداثها (إذ)[٤] وقوع الحادث بلا إرادة (من الفاعل المختار محال. وإذا بطل أن تكون محدثة للإرادة بإرادة)[٥] وأن تحدثها بغير إرادة تعين أن يكون المحدث (لتلك)[٦] الإرادة أمراً خارجاً عنها. فحينئذ إما أن يكون مخلوقاً أو يكون هو الخالق سبحانه، والأول محال، لأن ذلك المحدث إن كان غير مريد لم يمكنه جعل الإنسان مريداً، وإن كان مريداً، فالكلام في إرادته كالكلام في

---

(١) ساقطة من م .

(٢) في ع ، د ، س : أو .

(٣) في ع ، د ، س : أو .

(٤) ساقطة من د ، س .

(٥) ما بين القوسين ساقط من ت .

(٦) في د : لملك .

إرادة الإنسان سواء. فتعين أن يكون المحدث لتلك (الإرادة)[1] هو الخالق لكل شيء، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

قال القدري: قد (اختلفت)[2] طرق أصحابنا في الجواب عن هذا الإلزام. فقال (أبو عثمان)[3] الجاحظ: العبد يحدث أفعاله بغير إرادة منه، بل (بمجرد)[4] قدرته وعلمه بما في الفعل من الملاءمة، فإذا علم موافقة الفعل له وهو قادر عليه أحدثه بقدرته وعلمه، وأنكر توقفه على إرادة محدثة، وأنكر حقيقة الإرادة في الشاهد، ولم ينكر الميل والشهوة، ولكن لا يتوقف إحداث (الفعل)[5](عليهما)[6]، فإن الإنسان قد يفعل ما لا يشتهيه ولا يميل إليه[7]. وخالفه جميع الأصحاب، وأثبتوا الإرادة الحادثة، ثم اختلفوا في سبب حدوثها، فقال طائفة منهم : كون النفس مريدة أمر ذاتي لها، وما بالذات لا يعلل ولا يطلب سبب وجوده، وطريقة التعليل تسلك ما لم يمنع منها مانع، واختصاص الذات بالصفة الذاتية لا يعلل، فهكذا اختصاص النفس بكونها مريدة هو أمر ذاتي لها، وبذلك كانت نفساً. فقول القائل: لم أرادت كذا؟ وما الذي أوجب لها إرادته؟ كقوله : لم كانت نفساً؟ وكقوله: لم كانت النار محرقة أو متحركة؟ ولِمَ كان الماء مائعاً سيالاً؟ ولِمَ كان الهواء خفيفاً؟

---

(١) في ع: الأمور .

(٢) في ت : اختلف.

(٣) إضافة من م، ت .

(٤) في ع، د ، س : مجرد .

(٥) ساقطة من ع، د ، س .

(٦) في ع، د ، س : عليها .

(٧) انظر الملل والنحل (١/ ٧٥) .

فكون النفس مريدة متحركة بالإرادة هو معنى كونها نفساً، فهو بمنزلة ١٨٤ب قول القائل: لم كانت/ نفساً وحركتها بمنزلة حركة الفلك، فهي خلقت هكذا.

وقالت طائفة أخرى: بل الله سبحانه أحدث فيها الإرادة، والإرادة صالحة للضدين، فخلق منها إرادة تصلح للخير والشر، فآثرت هي أحدهما على (الآخر)[١] بشهوتها وميلها، فأعطاها قدرة صالحة للضدين وإرادة صالحة لهما، فكانت القدرة والإرادة من إحداثه سبحانه، واختيارها أحد المقدورين المرادين من قبلها، فهي التي رجحته.

قالوا : والقادر المختار يرجح أحد مقدوريه على الآخر بغير مرجح، كالعطشان إذا قدم له قدحان متساويان من كل وجه، والهارب إذا عَنَّ له طريقان كذلك، فإنه يرجح أحدهما بلا مرجح، فالله سبحانه أحدث فيه إرادة الفعل ولكن الإرادة لا توجب المراد (فأحدثها)[٢] فيه امتحاناً له وابتلاءً، (وأقدره)[٣] على خلافها، وأمره بمخالفتها، ولا ريب أنه قادر على مخالفتها، فلا يلزم من كونها مخلوقة لله (حاصلة)[٤] بإحداثه وجوب الفعل عندها.

وقال أبو (الحسين)[٥] البصري[٦]: إن (فعل العبد)[٧] يتوقف على الداعي

---

(١) في ع : الأخرى .

(٢) في ع : فإحداثها

(٣) في ع : وإقداره .

(٤) في ت : خالصة .

(٥) في ت : الحسن وهو تصحيف .

(٦) سبقت ترجمته في ص (٨٣٧) .

(٧) في ع ، د ، س : الفعل .

والقدرة، وهما من الله خلقاً فيه، وعندهما يجب وجود الفعل باختيار العبد وداعيته، فيكون هو المحدث له بما فيه من (الداعي)[1] والقدرة. فهذه طرق أصحابنا في الجواب عما ذكرتم.

قال السني : لم تتخلصوا بذلك من الإلزام، ولم (تثبتوا)[2] به بطلان حجتهم المذكورة، فلا منعتم مقدماتها، وبينتم فسادها، ولا عارضتموها بما هو أقوى منها، كما أنهم لم يتخلصوا من إلزامكم، ولم (يثبتوا)[3] بطلان دليلكم، وكان غاية ما عندكم وعندهم المعارضة وبيان كل منكم تناقض الآخر، وهذا لا يفيد نصرة الحق وإبطال الباطل، بل يفيد خطأكم وخطأهم وعدولكم وإياهم عن منهج الصواب.

فنقول وبالله التوفيق: مع كل / منكما صواب من وجه، وخطأ من وجه؛ ١٨٥أ فأما صواب الجبري، فمن جهة (إسناد)[4] الحوادث كلها إلى مشيئة الله وخلقه وقضائه وقدره. والقدري خالف الضرورة في ذلك، فإن كون العبد مريداً فاعلاً بعد أن لم يكن أمر حادث. فإما أن يكون له محدث، وإما أن لا يكون، فإن لم يكن له محدث لزم حدوث (حوادث)[5] بلا محدث، وإن كان له محدث، فإما أن يكون هو العبد، أو الله سبحانه، أو غيرهما. فإن كان هو العبد، فالقول في إحداثه لتلك الفاعلية كالقول في إحداث سببها، ويلزم التسلسل، وهو باطل هاهنا بالاتفاق، لأن العبد كائن بعد أن لم يكن، فيمتنع أن

(١) في ع، د ، س : الدواعي .

(٢) في م ، ع ، د ، س : تبينوا .

(٣) في م ، ع ، د ، س : يبينوا .

(٤) في د، س : إسناده .

(٥) في ع، د ، س : الحوادث .

تقوم به حوادث لا أول لها. وإن كان غير الله، فالقول فيه كالقول في العبد، فتعين أن يكون الله هو (الخالق لإرادة)[١] العبد وقدرته وإحداثه وفعله.

وهذه مقدمات يقينية لا يمكن القدح فيها. فمن قال: إن إرادة العبد وإحداثه حصل بغير سبب اقتضى حدوث ذلك، (وإن العبد)[٢] أحدث ذلك، وحاله عند إحداثه كما كان قبله، بل خص (أحد)[٣] القوتين بالإحداث من غير سبب اقتضى تخصيصه، وإنه صار مريداً فاعلاً محدثاً بعد أن لم يكن كذلك من غير من جعله كذلك، فقد قال ما لا يعقل، بل (يخالف)[٤] صريح (العقل)[٥]، وقال بحدوث حوادث بلا محدث. وقولكم: إن الإرادة لا تعلل كلام باطل لا حقيقة له؛ فإن الإرادة أمر حادث، فلابد له من محدث.

ونظير هذا المحال قولكم في فعل الرب تعالى إنه بواسطة إرادة يحدثها لا في محل من غير سبب اقتضى حدوثها يكون مريداً بها للمخلوقات. فارتكبتم ثلاث محالات:

- حدوث حادث بلا إرادة من الفاعل.
- وحدوث حادث بلا سبب حادث.
- وقيام الصفة بنفسها، لا في محل.

---

(١) في ع ، د ، س : الخالق المكون لإرادة .

(٢) في ت : فإن العبد، وفي ع، د ، س : والعبد .

(٣) ساقطة من ع.

(٤) في د : خالف .

(٥) في د : الفعل .

وادعيتم مع ذلك أنكم أرباب (المعقول)[1] والنظر. فأي معقول أفسد من هذا، وأي نظر أعمى منه؟ .

وإن شئت قلت : كون العبد مريداً أمر ممكن، والممكن لا يترجح وجوده على عدمه إلا (بمرجح)[2] تام. والمرجح التام إما من العبد، وإما من مخلوق آخر، وإما من الله سبحانه. والقسمان الأولان باطلان، فتعين الثالث كما تقدم. فهذه الحجة لا يمكن دفعها، ولا يمكن دفع العلم الضروري باستناد أفعالنا الاختيارية إلى أرادتنا وقدرتنا. وإنا إذا أردنا الحركة يمنة لم تقع يسرة، وبالعكس. فهذه الحجة لا يمكن دفعها، والجمع بين الحجتين هو الحق، فإن الله سبحانه خالق إرادة العبد وقدرته وجاعلهما سبباً لإحداثه الفعل، (والعبد)[3] محدث لفعله بإرادته واختياره وقدرته حقيقة، (والله خالق ذلك له حقيقة)[4] وخالق السبب خالق للمسبب، ولو لم يشأ سبحانه وجود فعله لما خلق له السبب الموجد له.

قال الفريقان للسني : كيف يكون الرب محدثاً لها والعبد (محدثاً لها)[5] أيضاً؟

قال السني : إحداث الله سبحانه لها بمعنى أنه خلقها منفصلة عنه، قائمة بمحلها وهو العبد، فجعل العبد فاعلاً لها بما (أحدث)[6] فيه من القدرة

---

(١) في ت، ع، د ، س : العقول .

(٢) في ع، د ، س : لمرجح .

(٣) في ع، د، س : فالعبد .

(٤) ما بين القوسين ساقط من ع، د ، س .

(٥) ما بين القوسين ساقط من ع، د ، س .

(٦) في ع: أحدثت .

والمشيئة، وإحداث العبد لها بمعنى أنها قامت به، وحدثت بإرادته وقدرته، وكل من الإحداثين (مستلزم)[١] للآخر، ولكن جهة الإضافة مختلفة، فما أحدثه الرب تعالى من ذلك، فهو مباين له، قائم بالمخلوق، مفعول له لا فعل. وما أحدثه العبد فهو فعل له، قائم به، يعود إليه حكمه، ويشتق له منه اسمه، وقد أضاف الله سبحانه كثيراً من الحوادث إليه، وأضافها إلى بعض مخلوقاته؛ كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾[٣]، وقال: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[٤]، وقال: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾[٥]، وقال: / ١٨٦أ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾[٦]، وقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[٧]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[٨]، وقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[٩] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾[١٠]وقال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا

---

(١) في م: يستلزم.

(٢) سورة الزمر آية ٤٢.

(٣) سورة السجدة آية ١١.

(٤) سورة الأنعام آية ٦١.

(٥) سورة الأنفال آية ١٢.

(٦) سورة إبراهيم آية ٢٧.

(٧) سورة النساء آية ١١٣.

(٨) سورة النحل آية ١٠٢.

(٩) سورة النحل آية ١١٣، وسورة الشعراء آية ١٥٨.

(١٠) جزء من الآيات التالية: آية ٧٣، ٨٣، سورة الحجر. آية ٤١، سورة المؤمنون.

بِذَنۢبِهِۦ﴾[١] ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾[٢] وهذا كثير. فأضاف هذه الأفعال إلى نفسه، إذ هي واقعة بخلقه ومشيئته وقضائه، وأضافها إلى أسبابها، إذ هو الذي جعلها أسباباً لحصولها (فلا تنافي)[٣] بين الإضافتين، ولا تناقض بين السببين.

(وإذا)[٤] كان ذلك تبين أن إضافة الفعل الاختياري إلى الحيوان بطريق التسبب، وقيامه به ووقوعه بإرادته لا ينافي إضافته إلى الرب تعالى خلقاً ومشيئة وقدراً. ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾[٥] وقال لنوح : ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾[٦] فالرب تعالى هو الذي حملهم فيها (بإرادته)[٧] وأمره ومشيئته ونوح حملهم بفعله ومباشرته.

فصل

وأما قول الجاحظ : إن العبد يحدث أفعاله الاختيارية من غير إرادة منه، بل بمجرد القدرة والداعي فإن أراد نفي إرادة العبد وجحد هذه الصفة عنه، فمكابرة لا تنكر من طوائف (المتكلمين)[٨] (فهم)[٩] أكثر الناس مكابرة

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٠.

(٢) سورة القمر آية ٤٢ .

(٣) ساقطة من د، س .

(٤) في م : فإذا .

(٥) سورة الحاقة آية ١١ .

(٦) سورة هود آية ٤٠ .

(٧) في م ، ع ، د ، س : بإذنه .

(٨) ساقطة من ع، د ، س .

(٩) في د ، س : هم .

وجحداً للمعلوم بالضرورة، فلا أرخص من ذلك عندهم، وإن اراد أن الإرادة أمر عدمي، (وهي)[1] كونه (غير)[2] مغلوب لا ملجأ، فيقال : هذا العدم من لوازم الإرادة لا أنه نفسها. وكون الإرادة أمراً عدمياً مكابرة أخرى، وهي بمنزلة قول القائل : القدرة أمر عدمي؛ لأنها بمعنى عدم العجز. والكلام عدمي؛ لأنه عدم الخرس والسمع والبصر عدمي؛ لأنهما عدم الصمم والعمى.

وأما قوله : إن الفعل يقع بمجرد القدرة، وعلم الفاعل بما فيه من الملاءمة، فمكابرة ثالثة، فإن العبد يجد من نفسه قدرة على الفعل وعلماً بمصلحته، ولا يفعله لعدم إرادته له لما في فعله من فوات محبوب له / ١٨٦ب، أو حصول مكروه إليه، فلا توجب القدرة والعلم وقوع الفعل ما لم (تقارنهما)[3] الإرادة.

فصل

أما قوله الآخر : إن كون النفس مريدة أمر ذاتي لها فلا يعلل، إلى آخره، (كلام)[4] في غاية البطلان. فهب أنا لا نطلب علة كونها مريدة، فكونها كذلك هو مخلوق فيها أم غير مخلوق، وهي التي جعلت نفسها كذلك، أم فاطرها وخالقها هو الذي جعلها كذلك، وإذا كان سبحانه هو الذي أنشأها بجميع صفاتها وطبيعتها وهيئاتها، فكونها مريدة هو وصف لها، وخالقها خالق لأوصافها، فهو خالق لصفة المريدية فيها. فإذاً كانت تلك الصفة سبباً

---

(١) في ع، د ، س : وهو .

(٢) ساقطة من د .

(٣) في م، ت : تفارقهما .

(٤) في د: فهو كلام .

للفعل، وخالق السبب خالق للمسبب، (فالمسبب)[1] واقع بقدرته ومشيئته وتكوينه. وهذا مما لا ينكره إلا مكابر معاند.

فصل

وأما قول الطائفة الأخرى: إن الله سبحانه خلق فيه إرادة صالحة للضدين، فاختار (هو)[2] أحدهما على الآخر (فلا)[3] ريب أن الأمر كذلك، ولكن وقوع أحد الضدين باختياره وإيثاره له (وداعيته)[4] إليه (لا)[5] يخرجه عن كونه مخلوقاً للرب تعالى مقدوراً له، مقدراً على العبد واقعاً بقضاء الرب (وقدرته)[6]، وإنه لو شاء لصرف داعية العبد، وإرادته عنه إلى ضده، فهذه هي البقية التي بقيت على هذه الفرقة من إنكار القدر، فلو ضموها إلى قولهم لأصابوا كل الإصابة، ولكانوا أسعد بالحق من هذه (المسألة)[7] من سائر الطوائف. وتحقيق ذلك أن الله سبحانه بعدله وحكمته أعطى العبد قدرة وإرادة يتمكن بها من جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، فأعانه بأسباب ظاهرة وباطنة. ومن جملة تلك الأسباب : القدرة والإرادة. وعرفه طريق الخير والشر ونهج له الطريق، وأعانه بإرسال رسله وإنزال كتبه، وقرن به ملائكته، وأزال عنه كل علة يحتج / بها عليه، ثم فطرهم سبحانه على إرادة ما ينفعهم ١٨٧أ

(١) في ع، د، س . والمسبب .
(٢) ساقطة من ع، د ، س .
(٣) في ع، د، س : لا .
(٤) في ع، د، س : ودعية .
(٥) في ت: فلا .
(٦) في م، ع، د، س : قدره .
(٧) في ع : المسألتين .

وكراهة ما يؤذيهم ويضرهم ، كما فطر على ذلك الحيوان البهيم. ثم كان كثير مما ينفعهم لا علم لهم به على التفصيل. والذي يعلمونه من المنافع أمر مشترك بينهم وبين الحيوانات. وثم أمور عظيمة هي أنفع شيء لهم، لا صلاح لهم ولا فلاح ولا سعادة إلا بمعرفتها وطلبها وفعلها، ولا سبيل لهم إلى ذلك إلا بوحي منه وتعريف خاص، فأرسل، (إليهم)[1] رسله، وأنزل عليهم كتبه، فعرفهم ما هو الأنفع لهم وما فيه سعادتهم وفلاحهم، فصادفتهم الرسل مشتغلين بأضدادها قد ألفوها وساكَنوها، وجرت عليها عوائدهم (حتى)[2] ألفتها الطباع، فأخبرتهم الرسل أنها أضر شيء عليهم، وأنها من أعظم أسباب ألمهم وفوات (لذتهم)[3] وسرورهم، فنهضت الإرادة طالبة للسعادة والفلاح، إذ الدعوة إلى ذلك محركة للقلوب والأسماع والأبصار إلى الاستجابة، فقام داعي الطبع والإلف والعادة في وجه ذلك الداعي معارضاً له، يعد النفس (ويمنِّيها)[4] (ويرغبها)[5](ويرهبها)[6]ويزين لها ما ألفته واعتادته لكونه ملائماً (لها)[7]. وهو نقد عاجل، وراحة مؤثرة، ولذة مطلوبة، ولهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر، وداعي (الفلاح)[8] يدعو إلى أمر آجل في

---

(١) ساقطة من م .

(٢) في ع، د، س : حين .

(٣) في ع، د، س : أربهم .

(٤) في ع: ويحثها .

(٥) ساقطة من م .

(٦) ساقطة من ع، د، س .

(٧) في ع، د، س : له .

(٨) في م : الصلاح .

دار غير هذا الدار لا ينال إلا بمفارقة ملاذها وطيباتها ومسراتها، وتجرع مرارتها والتعرض لآفاتها (وإيثار الغير)[١] (بمحبوباتها)[٢] ومشتهياتها وتجرع مرارتها والتعرض لآفاتها (وإيثار الغير)[٣](بمحبوباتها)[٤] ومشتهياتها، (وجعل) يقول:

خذ ما تراه ودع (شيئاً)[٥] سمعت به[٦] .

فقامت الإرادة بين الداعين تصغي إلى هذا مرة، وإلى هذا مرة.

فهاهنا معركة الحرب ومحل المحنة، فقتيل وأسير، وفائز بالظفر والغنيمة. فإذا شاء الله عز وجل رحمة عبد جذب قوى إرادته وعزيمته إلى ما ينفعه ويحييه الحياة الطيبة، فأوحى إلى ملائكته أن ثبتوا عبدي واصرفوا / همته وإرادته إلى ١٨٧ب مرضاتي وطاعتي. كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾[٧] وقال النبي ﷺ : «**إن للملك بقلب ابن آدم لمة**[٨]، **وللشيطان**

(١) في م : وانتشار الفتن .

(٢) في ت، ع، د، س : لمحبوبتها .

(٣) ساقطة من م، ع، د، س .

(٤) في ع، د، س : ما .

(٥) في ع، د، س : ما .

(٦) قوله : خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به: صدر بيت من قصيدة قالها المتنبي يمدح بها سيف الدولة سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة. وعجزه : في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل. انظر شرح ديوان المتنبىء لعبد الرحمن البرقوقي (٣/ ٢٠٥) نشر دار الكتاب العربي ، بيروت . ط (بدون).

(٧) سورة الأنفال آية ١٢ .

(٨) اللمة : هي الهمة والخطرة، تقع في القلب، أراد إلمام الملك أو الشيطان به، والقرب منه. النهاية لابن الأثير (٤/ ٢٧٣) .

لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد[١]، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب (بالوعد[٢])، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾[٣][٤].

وإذا أراد خذلان عبد أمسك عنه تأييده وتثبيته، وخلى بينه وبين نفسه، ولم يكن بذلك (ظالماً)[٥] له؛ لأنه قد أعطاه قدرة وإرادة، وعرفه الخير والشر، وحذره طريق الهلاك وعرفه بها، وحضه على سلوك طريق النجاة وعرفه بها، ثم تركه وما اختار لنفسه وولاه ما تولى، فإذا وجد شراً، فلا يلومن إلا نفسه.

---

(١) هكذا في جميع النسخ الخطية ، وفي مراجع التخريج (بالحق).

(٢) في ع، د ، س ومراجع التخريج (بالحق).

(٣) سورة البقرة آية ٢٦٨ .

(٤) هذا الحديث من رواية أبي الأحوص عن عطاء عن مرة عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً. وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٠٤) ك التفسير – تفسير سورة البقرة، وقال: هذا حديث حسن غريب، وهو حديث أبي الأحوص، لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث أبي الأحوص. والنسائي في سننه الكبرى – ك التفسير (١/ ٢٧٩) تفسير سورة البقرة، وأبو يعلى في مسنده (٨/ ٤١٧) . وابن حبان في صحيحه، كما في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٣/ ٢٧٨). والطبري في تفسيره (٣/ ٨٨). وأبو بكر بن مردويه، وابن أبي حاتم في تفسيريهما، نقله عنهما بسندهما ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٢١). وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٢٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٥) وزاد نسبته إلى ابن المنذر. وقد روي موقوفاً على ابن مسعود، رواه الطبري في تفسيره (٣/ ٨٨-٨٩) . وعبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٠٩) والإمام أحمد في كتاب الزهد ص (١٩٦) .

(٥) في ع، د: مضلاً . وفي س : ضالاً .

قال القدري : فتلك الإرادة المعينة المستلزمة للفعل المعين إن كانت بإحداث العبد فهو قولنا، وإن كانت بإحداث الرب فهو قول الجبري، وإن كانت بغير محدث لزم المحال.

قال السني : لا تفتقر كل إرادة من العبد إلى مشيئة خاصة من الله توجب حدوثها، بل يكفي في ذلك المشيئة العامة لجعله مريداً، فإن الإرادة (هي)[1] حركة النفس، والله سبحانه شاء أن تكون متحركة، وأما أن تكون كل حركة تستدعي مشيئة مفردة فلا، وهذا كما أنه سبحانه شاء أن يكون الحي متنفساً ولا يفتقر كل نفس من أنفاسه إلى مشيئة خاصة (وكذلك شاء أن يكون هذا الماء بجملته جارياً، ولا تفتقر كل قطرة منه إلى مشيئة خاصة)[2] يجري بها الماء، وكذلك مشيئته (لحركة)[3] الأفلاك وهبوب الرياح ونزول الغيث، وكذلك خطرات القلوب ووساوس (الصدور)[4]، وكذلك مشيئته أن يكون العبد متكلماً لا يستلزم أن (يفرد)[5] كل حرف بمشيئة غير / مشيئة الحرف ١٨٨أ الآخر، وإذا تبين ذلك، فهو سبحانه شاء أن يكون عبده شائياً مريداً. وتلك الإرادة والمشيئة صالحة للضدين. فإذا شاء أن يهدي (عبده)[6] صرف داعيه ومشيئته وإرادته إلى (ما ينفعه في)[7] معاشه ومعاده. وإذا شاء أن يضله تركه

---

(١) في ت : من .

(٢) ما بين القوسين ساقط من م .

(٣) في ت، ع، د، س : لحركات .

(٤) في ، د، س : النفس .

(٥) في ع، د، س : يكون .

(٦) في ع، د، س : عبداً .

(٧) ما بين القوسين ساقط من ع، د، س .

ونفسه وتخلى عنه. والنفس متحركة (بطبعها)[1] لابد لها من مراد محبوب هو مألوهها ومعبودها، فإن لم يكن الله وحده هو معبودها ومرادها، وإلا كان غيره لها معبوداً ومراداً ولابد، فإن حركتها ومحبتها من لوازم ذاتها، (وإن)[2] لم تحب ربها وفاطرها وتعبده أحبت غيره وعبدته، وإن لم تتعلق إرادتها بما ينفعها في معادها تعلقت بما يضرها فيها ولابد، فلا تعطيل في طبيعتها وهكذا خلقت.

فإن قلت: فأين مشيئة الله لهداها وضلالها؟

قلت: إذا شاء إضلالها تركها ودواعيها وخلى بينها وبين ما تختاره، وإذا شاء هداها جذب دواعيها وإرادتها إليه وصرف عنها موانع القبول، فيمدها على القدر المشترك بينها (وبين سائر النفوس بإمداد وجودي، ويصرف عنها الموانع التي خلى بينها)[3] وبين غيرها فيها، وهذا بمشيئته وقدرته، (وهذا بمشيئته وقدرته)[4]، فلم يخرج شيء من الموجودات عن مشيئته وقدرته وتكوينه البتة. لكن يكون ما يشاء بأسباب وحكم. ولو أن الجبرية أثبتت الأسباب والحكم لانحلت عنها عقد هذه المسألة، ولو أن القدرية سحبت ذيل المشيئة والقدر والخلق على جميع الكائنات، مع إثبات (الأسباب)[5] والحكم والغايات المحمودة في أفعال الرب تعالى، لانحلت عنها عقدها. وبالله التوفيق.

* * *

(١) في د: لا بطبعها.

(٢) في ،ع، د، س: فإن.

(٣) ما بين القوسين ساقط من ت.

(٤) ما بين القوسين ساقط من د، س.

(٥) ساقطة من ع، د، س.



